جامعة قطر

# حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الخامس عشر

١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م

# حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الخامس عشر

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

# حولية تصدر عن
# كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية
# بجامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي

ومماتي لله رب العالمين

صدق الله العظيم

# بيانات حول النشر في حولية كلية الانسانيات

١ - ترحب الحولية بالأبحاث التي لها صلة بتخصص كلية الإنسانيات وتولي الاهتمام بالموضوعات التي لها صلة بالخليج والجزيرة العربية ، وقد يقع الاختيار على أبحاث في تخصصات أخرى لها صلة بتخصصات المجلة .

٢ - تنشر حولية كلية الإنسانيات البحوث العلمية الأصيلة التي تتوافر فيها شروط البحث ، في الإحاطة والاستقصاء وأسلوب البحث العلمي وخطواته ، والأمانة العلمية ، في الإشارة إلى الأفكار وذكر المراجع والمصادر ، ولا يلتفت إلى المقالات الوصفية والإنشائية ، ويتقيد مقدمو البحوث بالتسميات والحواشي والمراجع والرموز ، وذلك بالطريقة المتعارف عليها عربياً وعالمياً .

٣ - يشترط في البحث ألا يكون قد نشر في أي مكان آخر ولا يكون جزءاً من كتاب منشور . والبحث المقبول للنشر يرفق بوثيقة تعهد من صاحب البحث بعدم نشره في مكان آخر .

٤ - تتلقى الحولية البحوث للنشر من داخل جامعة قطر ومن خارجها من الجامعات والمؤسسات العلمية الشقيقة والصديقة باللغة العربية والإنجليزية .

٥ - يقدم البحث مكتوباً على الآلة الكاتبة بنسختين وألا يقل حجم البحث عن ١٥ صفحة وألا يزيد عن أربعين صفحة كوارتر (٢٧×٢١سم) أو ثلاثين صفحة فلوسكاب (٣٢×٢١سم) .

٦ - تقدم الرسوم والأشكال والخرائط مرسومة بالحبر (الصيني) على ورق مصقول أو ورق شفاف Tracing Paper ويراعى في مساحتها ألا تزيد على مساحة المجلة طولاً وعرضاً .

أما الصور الفوتوغرافية فتكون واضحة المعالم ومقدمة على ورق مصقول وبحجم البطاقة البريدية .

٧ - يعطى صاحب البحث المنشور مكافأة مالية تحددها جامعة قطر مع ٢٠ فصلة (مستخرج) من بحثه المنشور .

٨ - البحث المقبـول للنشـر يأخذ دوره للنشر سواء في أول عدد يصدر أو الأعداد التي تليه .

٩ - تعرض البحوث المقدمة على خبير متخصص سواء من داخل جامعة قطر أو من خارجهـا ويكون رأي الخبير ملزماً كما يبقى إسم الباحث وإسم الخبير مكتومين .

١٠ - الأبحاث والمواد التي ترسل إلى الحولية لا تعاد ولا تسترد سواء أنشرت أم لم تنشر .

١١ - ما ينشر في الحولية يعبر عن وجهة نظر صاحبه ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر الحولية .

١٢ - ترتب الأبحاث عند النشر وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة البحث أو الباحث .

١٣ ـ توجه الخطابات والمراسلات باسم رئيس التحرير الأستاذ الدكتور ـ عمار الطالبي رئيس قسم الفلسفة ـ جامعة قطر ص. ب : ٢٧١٣ ـ الدوحة ـ دولة قطر .

# كلمة التحرير

هذا العدد حافل بابحاث في اللغة العربية وآدابها ، وفي الدراسات الإنسانية والاجتماعية ، والإعلامية ، وبابحاث في اللغة الإنجليزية وآدابها .

نرجو ان تنال رضا الباحثين ومن نقدهم ايضاً وإذا كانت رسالة الأستاذ الجامعي تتلخص في امرين : احدهما البحث والتجديد ، والآخر التدريس وتكوين الباحثين إن في المنهج وإن في المادة ، فإن هذه الحولية تمثل الجانب الاول وهو الاصل والمصدر إذ لاتدريس دون بحث ، ولا جديد إذا غاب المنهج العلمي الاصيل .

ويسر اسرة التحرير ان تشكر السادة الباحثين على ما بذلوه من جهد ، وانفقوا من وقت ، راجين لهم مزيداً من المضي في هذا السبيل من الدرس والاجتهاد فيه .

**أسرة التحرير**

# فهرس الحوليــة

# أرض الشهـــداء

## بين فن الملحمة والغنائية الرومانسية

د. محمـد عبـد الرحيـم كافـود
عميـد كليـة الإنسانيـات والعلـوم الاجتماعيـة

وقبل أن نتناول ملحمة أرض الشهداء بالدراسة والتحليل لابد لنا من الوقوف على معالم فن الملاحم بصورة موجزة لكي تتضح لنا أبعاد هذا الفن في هذه الملحمة ومدى استيفائها لعناصرها الأساسية.

فالملحمة ـ كما عرفها النقاد والدارسون ـ هي قصة تتسم بالطول وتحكى شعراً يصور فيها الشاعر بطولات قومية فردية أو جماعية ، وتحتوي على حوادث خارقة للعادة ، وأساطير ، ويطغى فيها الخيال والمبالغات على واقعية الحدث . وغالباً ماتمثل الملحمة سجلا حافلا للأمة التي قيلت فيها ؛ تتغنى بأمجادها وبطولاتها ، وتعبر عن آلامها وأشجانها ، أو تجسد آمالها وطموحاتها ، من خلال تفجير معطيات ماضيها . . .

ويرى بعض النقاد أن فن الملاحم قد انتهى بعد التقدم الحضاري ورقي العقل البشري وهم يربطون هذا الفن بالخرافة والأساطير ، والمعتقدات الفطرية الساذجة وهذه العناصر لامكان لها في حياتنا المعاصرة (١) . . .

والسؤال الذي نطرحه هنا لماذا نربط فن الملاحم بالأساطير والخرافة فحسب ؟ أو لماذا نقف عند تلك دون أي تغيير أو تجديد ؟ ألا يمكن أن تتحول الملحمة من حكاية أسطورية تصور البطولات الخارقة وتتحدث عن آلهة وأنصاف الآلهة إلى ملاحم واقعية تصور الواقع من خلال خيال علمي ؟

إن تاريخ الفنون يؤكد لنا أن جميع الفنون قد أصابها الكثير من التغيير والتطور على مر العصور ولم يظل أي فن ملتزماً بكل عناصره أو خصائصه التي عرف بها في بداية نشأته . وأقرب

---

(١) الأدب المقارن ، د. محمد غنيمي هلال ١٤٨ .

وهذا ماذهب إليه الدكتور مندور في كتابه الأدب ومذاهبه ٢٥ حيث يرى أن فن الملاحم لم يعد له وجود .

مثال إلى فن الملاحم فن المسرح فالمسرحية صنو الملحمة ، وكان للمسرحية قوانينها وخصائصها التي استخلصها أرسطو في كتابه فن الشعر ؛ ولكن هل ظلت هذه الخصائص والأسس كما هي عليه ؟ فأين الوحدات الثلاث التي نادى بها أرسطو ؟ وإذا كان فن الأدب المسرحي قد تجاوزها بمدارسه المختلفة فهل نقول أن فن المسرح قد إنتهى ؟

وإذا عدنا إلى تاريخ فن الملاحم فإننا نجد أن هذا الفن قد تطور ، وتحول موضوع الملحمة من الموضوعات القومية الأسطورية والخرافية ، والأبطال الأسطوريين وانصاف الآلهة ، إلى موضوعات ذات طابع ديني أو أدبي مثل (الكوميديا الإلهية) لدانتي ؛ فعلى الرغم من أن موضوعها ديني تصور رحلة الشاعر إلى الآخرة إلا أنها ـ مع ذلك ـ رمز أو تعبير عن واقع المجتمع الذي كان يعيش فيه ومافيه من اضطراب وظلم واضطهاد [٢]. وهكذا بالنسبة للفردوس المفقود (لملتون) الذي اعتمد في ملحمته على الكتاب المقدس [٣].

إن تطور فن الملاحم لم يقف عند الموضوعات أو المضمون ؛ بل تحولت بعض الملاحم إلى نثر كما حدث بالنسبة لفن المسرحية [٤] . . فتنوعت موضوعات الملاحم وداخلها الكثير من التغيير والتطوير [٥] . والفنون بصفة عامة في تطور وتغير مستمر . . . وقد يحدث أن يتراجع أو ينكمش فن من الفنون في فترة زمنية ويطغى فن آخر بسبب ملاءمته لظروف العصر أو عدم الملاءمة ولكن لايعني ذلك انتهاء هذا الفن . . ونذكر مثالا آخر على ذلك .

فن الرواية وفن القصة القصيرة ؛ فمن المعروف أن فن الرواية كان له من الانتشار والرواج الشيء الكثير في القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن الحالي ؛ ولكن في أيامنا هذه نجد أن فن القصة القصيرة قد لاقى رواجا أكثر وتراجع فن الرواية ، وهذا بطبيعة الحال يرجع إلى ظروف الحياة المعاصرة وسرعة وقعها . . . ولكن يظل فن الرواية فنا حيا يتطور ويتغير ويتنوع بما يتلاءم وروح العصر ، وكما يقول الدكتور عبد المنعم تليمة «وبطبيعة الحال فإن تغير الواقع والتقدم الإنساني عامة قد أثر تأثيراً عميقاً في مجرى التطور الفني ، إذ أمد الفنون بخبرة واسعة بالمادة وخصائصها وطاقاتها ، وبخبرة تكتيكية مساعدة في التنفيذ والتشكيل والعرض ، وبتراكم معرفي كبير» . . . [٦]

---

(٢) الكوميديا الالهية ـ الفردوس ـ دانتي ٢٢ ، وانظر كتاب الأنواع الأدبية ـ د. شفيق البقاعي ٣٣٦ .

(٣) الأنواع الأدبية ـ د. شفيق البقاعي ٣٥٨ ، وانظر الأدب وفنونه ـ د. عز الدين اسماعيل ١٥١ .

(٤) الأدب المقارن ـ د. محمد غنيمي هلال ١٤٨ .

(٥) الأنواع الأدبية ـ د. شفيق البقاعي ٣٣٠ .

(٦) مقدمة في نظرية الأدب ـ د. عبد المنعم تليمة ١٢٦ .

وكما يقول أحد الباحثين أن سنة التطور تفرض علينا التجديد فرضاً «فهي إن لم تفرضه في شكل الفن وطريقة آدائه ؛ فقد تفرضه في مضمونه وغايته . . . أو تفرضه فيهما معا . . . » [٧] .

والذي نريد أن نؤكده هنا ـ وهو ليس بحاجة إلى تأكيد ـ أن موضوعات الملاحم التي اتخذت نماذج مثل الإلياذة والأوديسة كانت موضوعات واقعية وحقائق تاريخية ، ولكن دخلها الكثير من المبالغة والخيال ونسج حولها من الأساطير بحكم المعتقدات والطابع البدائي لتلك المرحلة . ولذا أرى أن واقعية الحدث . . . وتقلص الجانب الأسطوري في هذا الفن لايعني إلغاءه .

وهناك العديد من المحاولات في أدبنا العربي الحديث للخوض في فن الملاحم ؛ بل إن بعض هذه المحاولات قد حظي بعناية الدارسين والنقاد وتأتي محاولة الشاعر أحمد محرم في المقدمة في هذا المجال في ديوانه «ديوان مجد الإسلام» وقد أطلق عليها الإلياذة الإسلامية ويتناول في هذه المطولة القصصية سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبطولاته وغزواته [٨] .

ومثلها مطولة الشاعر أحمد شوقي تاريخ العرب وعظماء الاسلام وعمرية حافظ ابراهيم ، ومطولة الشاعر محمد عبد المطلب في علي بن أبي طالب وغيرها من المحاولات .

وإن كان بعض النقاد العرب يرفض أن تكون هذه المطولات ملاحم بالمعنى الدقيق لفن الملحمة [٩] .

والذي أميل إليه هو أن فن الملاحم يمكن أن نتسامح في بعض خصائصه خاصة فيما لا يتمشى مع طبيعة عصرنا ونعني به الأساطير والأمور الخوارق والمعتقدات البدائية . . وبهذا تصبح الملحمة تلك القصة الشعرية المطولة التي تمتزج فيها الحقائق والواقع والخيال الفني لتصوير مآثر الأمة ودورها وبطولاتها فالحاجة إلى هذا النوع من الشعر لازالت قائمة طالما كانت هناك أمم تخوض النضال وتسطر البطولات وتبني الحضارات فلابد أن تسطر قرائح مبدعيها هذه البطولات والإنجازات .

---

(٧) نظرية الفن المتجدد ـ عز الدين الأمين ١٨ .

(٨) تطور الأدب الحديث في مصر ـ د. أحمد هيكل ٢٨٦ .

(٩) الأدب وفنونه ـ د. عز الدين اسماعيل ١٥٢ .

ومن هذا المفهوم سوف أنطلق لدراسة مطولة الشاعر ابراهيم العُرَيِّض ملحمة (أرض الشهداء) وقد سبقني إلى هذه التسمية بعض الدارسين والنقاد ممن عرضوا لشعر الشاعر [١٠] . . .

و«ابراهيم العريض» كشاعر خليجي نستطيع القول أنه تجاوز حدود الزمان والمكان بفنه ؛ فمن حيث الزمان يعد في طليعة أو من أوائل الشعراء الرومانسيين أو الذين تأثروا بالاتجاه الرومانسي من شعراء المنطقة ، كما أنه يعد رائداً في شعره القصصي والمسرحي بالنسبة لشعراء المنطقة . أما من حيث المكان فهو أول شاعر استطاع أن يخترق حاجز المكان كشاعر خليجي ويصل أدبه إلى القارىء العربي في مصر ولبنان وغيرهما ؛ حيث نشرت له مجلة الرسالة ، والمقتطف ، والثقافة الوطنية ، والعروبة ، والمنهل وغيرها من المجلات العربية [١١] .

وقد كان لنشأة العريض خارج وطنه أثرها في شعره حيث ولد في الهند وقضى فترة من شبابه هناك وتعلم اللغة الأوردية والإنجليزية والفارسية ؛ فهذه الظروف أتاحت للعريض فرصة الاتصال بالآداب الأخرى وخاصة الآداب الشرقية والأدب الانجليزي على وجه الخصوص ، مما ترك أثره على الشاعر وفنه . وكانت النزعة القصصية سمة من سمات فن العريض ، لما اتسم به من رؤية فكرية ونظرة تحليلية تركت أثرها في شعره حتى الغنائي منه [١٢] . ومن ثم كان شعره مفعمًا بالنزعة القصصية حتى إذا اختفى أسلوب الحوار يظل البناء الداخلي للقصيدة وترتيبها فكرياً أو عاطفياً يوحي لك بهذه النزعة القصصية عنده وديوانه «العرائس» الذي يمثل انتاجه الشعري بين ١٩٣٤ ـ ١٩٤٠ م ونشره عام ١٩٤٦ م تمتزج فيه الروح الغنائية الرومانسية بالنزعة القصصية . وإذا كنا لانغفل أن النزعة القصصية سمة من سمات الرومانسية كما هو معروف إلا أن هذه النزعة عند العريض بدأت تنمو وتبلورت بصورة واضحة بعد ذلك في شعره الموضوعي (أرض الشهداء) والمسرحي كما في مسرحيته «وامعتصماه» [١٣] أو في مطولته القصصية «قبلتان» التي يصور فيها الشاعر مأساة العرب في الأندلس أو ما اطلق عليه بالفردوس المفقود . .

---

(١٠) أنظر في هذا الصدد إلى :

ـ دمقس وارجوان ـ مارون عبود ٢٠٨ .

ـ الشعر المعاصر في البحرين ـ د. علوي الهاشمي ٤٩٧ .

ـ دراسات في أدب البحرين ـ مجموعة من الباحثين ـ معهد البحوث والدراسات العربية ٢٨٣ .

(١١) كتابات ـ مجلة فصلية العدد (١٧) ١٩٨١ م .

(١٢) الحركة الشعرية في الخليج ـ د. نورية الرومي ٣٣١ .

وانظر : مجلة كتابات العدد (١٧) ١٩٨١ م ، ٩٢ .

(١٣) مجلة كتابات ، العدد السابق ، دراسة للدكتور ابراهيم غلوم حول المسرح عند العريض .

ونقف عند قضية أثارها بعض النقاد فيما يتصل بريادة العريض للقصة الشعرية ونفاها بعض الباحثين ورغم ماذكره الدكتور محمد جابر الأنصاريُ الذي أثار هذه القضية [١٤] ، إلا أني لم أجد أحداً من النقاد قد أشار إلى هذه الريادة ، وربما أشار مقدم ديوان العريض إلى أن العريض أول من كرس معظم شعره لهذا الفن ، وأنه أول شاعر يكتبها بأسلوب فني ، مع احتفاظه بمقومات الشعر [١٥] . ومع ذلك فإن كاتب المقدمة يؤكد أن هناك العديد من الشعراء قد سبقوا العريض في القص الشعري ، ولكن العريض وظف معظم شعره لهذا الغرض . ونحن لسنا بحاجة إلى التأكيد على أن الشعر العربي ومنذ العصر الجاهلي قد عرف أنماطاً من الشعر القصصي [١٦] ، ولكنه ـ كما أكد معظم النقاد ـ يتسم بالبساطة واسلوب الحكاية ويفتقر إلى الأسلوب الفني ، ونما هذا النمط من الشعر القصصي في العصر الأموي عند عمر بن أبي ربيعة في غزلياته المعروفة ، وبرز هذا الاتجاه بصورة واضحة عند الشعراء الصعاليك من أمثال عروة بن الورد والشنفري .

أما الشعر القصصي في الأدب الحديث فقد ظهر في شعر خليل مطران بصورة واضحة في اتجاهه الرومانسي أو بمعنى أدق في قصائده ذات الطابع الرومانسي مثل قصيدته (فنجان قهوة) ، (شهيد المروءة) ، (الجنين الشهيد) [١٧] .

وكانت للشاعر أحمد زكي أبو شادي إسهامات واضحة في مجال الشعر القصصي وهو قد سبق العريض في نشر هذه القصص حيث نشر بعض قصائده القصصية في عام ١٩٢٦ م وهما (عبده بك) و (مهـا) [١٨] . وقد أشار بعض النقاد إلى أن العريض قد تأثر بالشاعر أبي شادي في أسلوبه الشعري واتجاهه الرومانسي ، ويرى الناقد رجاء النقاش الذي أشار إلى هذا التأثر أن العريض ربما كان على اتصال بمجلة (أبوللو) التي أنشأها أبو شادي وما كان ينشر فيها من شعر أبي شادي ؛ حيث لاحظ الناقد أن هناك تشابهاً بين انتاج أبي شادي وبين انتاج العريض شعرا ونقدا ، من حيث الاهتمام بالقصة الشعرية ، والاهتمام بالتفاصيل والاستطراد في الشعر . . . [١٩] .

---

(١٤) مجلة كتابات ، العدد (١٧) ١٩٨١ م ؛ ٩٢ .

(١٥) ديوان العريض ، المقدمة (ح) .

(١٦) القصة في الشعر العربي ـ علي النجدي ناصف ، ١٨ ومابعدها .

(١٧) المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر ـ د. نسيب نشاوي ، ٢٤٦ .

(١٨) تطور الأدب الحديث في مصر ـ د. أحمد هيكل ، ٣٦٧ .

(١٩) مجلة كتابات ـ العدد (١٧) ١٩٨١ م ، ١٢٩ .

والحقيقة أن ماذهب إليه الناقد النقاش مجرد افتراض أما ماذكره من تشابه في الانتاج ، فإننا نرى أن الأسلوب القصصي ظاهرة واضحة عند العديد من الشعراء الرومانسيين وقد أشرنا إلى خليل مطران ، كما أن شعراء المهجر كان لهم نصيب في ذلك ، وقد أكد العريض تأثره ببعض شعراء المهجر وفي مقدمتهم ايليا أبو ماضي ، كما أشار العريض إلى تأثره بالشاعر العراقي الزهاوي وهو شاعر له نصيب وافر في مجال الشعر القصصي . كما أن العريض قد تأثر ببعض الشعراء الغربيين من أمثال شيللي ، وكيتس . أما ماذهب إليه الناقد من التشابه في أن كليهما قد ترجم رباعيات الخيام ، فإن هذا الأمر قد أوضحه الشاعر العريض من أن صلته بالخيام كانت من خلال ترجمة الرباعيات إلى اللغة الانجليزية [٢٠] .

وعلى أية حال فإن ظاهرة الشعر القصصي في صورة قصائد قصيرة أو متوسطة قد برزت بصورة واضحة عند العديد من الشعراء وبالذات الرومانسيين منهم في هذه الفترة ، والعريض ذو ثقافة واسعة كما هو معروف من خلال سيرته الذاتية ونشأته وتنقلاته واتقانه لعدة لغات ، واطلاعه على آداب تلك اللغات ، كل هذه العوامل والروافد كان لها تأثيرها الواضح في أدب العريض ولايمكن حصر هذا التأثر في شاعر بعينه .

ومع ذلك يمكننا القول أن الشاعر العريض قد كان له فضل الريادة في الأدب العربي في منطقة الخليج في مجال الشعر القصصي والملحمي منه بصورة خاصة ؛ بالاضافة إلى تجديده فيما يتصل بالموضوعات وتجاوزه لشعر المناسبات والموضوعات التقليدية كالمديح والغزل ، والشعر التعليمي والوعظي ، إلى الشعر المعبر عن ذات الشاعر ومعاناته ؛ بالإضافة إلى نظراته التجديدية في النقد من خلال كتابه (نظرات جديدة في الفن الشعري) .

---

(٢٠) مجلة كتابات ـ العدد (١٧) ١٩٨١ م ، ٦٦ .

## أرض الشهـــداء
## وتـيـيـس الواقـــــع

يبدأ الشاعر ملحمته بفاتحة يؤكد فيها أن هذه الأرض لن تعود إلى أهلها إلا بالفداء والاستشهاد ، وأنه مهما طال الليل فلابد من بزوغ فجر النصر وتحرير الأرض :

هذه التربة .. مذ غنى بها أهل الحداء
لم يطهرها من الرجس سوى تلك الدماء
كم زكا المسجد من أعرافهم ، بعد الفناء
كم بكى الغيث على أجسادهم ، وسط العراء
فكأن الليل شيء ماله معنى انتهاء
ثم ... جاء الفجر يسعى بتباشير الضياء [٢١]

وتمتد الفترة الزمنية للملحمة من ١٩٤٧ - ؟؟١٩ ولا يحدد الشاعر نهاية للملحمة لأنه يربطها بتحرير فلسطين حيث نهاية الحدث فيها تصور خيالي .

وتدور أحداث الملحمة على أرض فلسطين فتصور الصراع بين العرب واليهود الذين اغتصبوا الأرض ومارسوا شتى ألوان الضغط لإستبعاد أهلها ، ولكن أبناء فلسطين يهبون للدفاع عن وطنهم وتبدأ المعركة ، وينضم العرب إلى إخوتهم في فلسطين وتلعب المؤامرة والخيانة دورها فتفرض الهدنة ويعلن التقسيم .. ولكن الثورة تستمر لاقتلاع جذور الخيانة وطرد المغتصب وتحرير الأرض . وتبدأ أحداث الملحمة في ذلك اللقاء الذي يتم بين (ظافر) راعي الأغنام ، و(دعد) ابنة عمه التي جاءت تحمل له الغذاء وهو يسرح بأغنامه للرعي ، ويمتزج ذلك اللقاء الرومانسي بالبعد والمعاناة الوطنية ، التي تنبثق من خلالها روح الفداء والتضحية فيعلن (ظافر) انضمامه إلى صفوف المقاتلين لتحرير الأرض ، بعد أن أثارت (دعد) في نفسه مأساة الوطن ، وتشريد الأهل . وإلى جانب بطلي الملحمة (ظافر ، ودعد) تبرز مجموعة من الشخصيات تلعب دوراً بارزاً في أحداث الملحمة مثل (ماري) المسيحية التي تقف إلى جانب دعد في نضالها ضد المغتصب ، و (تامار) اليهودية التي تمثل الجانب الآخر في الصراع وهي نموذج للعدو في أساليبه اللا أخلاقية ، وأخيراً يقتل البطل (ظافر) شهيداً وهو يدافع عن القدس .

---

(٢١) ديوان العريض ٧ .

وتتكون الملحمة من فاتحة وخمسة أناشيد هي (جبل الزيتون ، نشيد الانشاد ، باب الواد ، هيكل سليمان ، قبة الصخرة) ويدور كل نشيد حول موضوع أو فكرة معينة ولكن تكون في النهاية وحدة متداخلة لمضمون الملحمة وفكرتها الأساسية وهو تصوير الصراع العربي الصهيوني على أرض فلسطين ، التي أطلق عليها الشاعر الفردوس المحفوظ . ومن خلال الفاتحة يحدد الشاعر موضوع ملحمته [٢٢] :

| | |
|---|---|
| يافلسطين وما كنت سوى | بيعة الأرض على كف السماء |
| اشهدي أن بياني قد روى | فيك مايرضي قلوب الشهداء |
| ................... | ......................... |

هذه أرضك يادعد وأرض الشهداء

ويستهل الشاعر الأول (جبل الزيتون) بوصف البرق والمطر والطبيعة . وتعلق الشاعر بالطبيعة ظاهرة متأصلة عنده ففي معظم قصائده يبدأ بمناجاة الطبيعة سواء كانت تلك القصائد ذاتية أو ذات طابع موضوعي قصصي كما في مطولته القصصية (قبلتان) حيث يسترسل الشاعر في الامتزاج بالطبيعة ومناجاتها ثم ينتقل بعدها إلى موضوعه ، ولاشك أن ذلك يعود إلى النزعة الرومانسية التي تسيطر على الشاعر ، ويأخذ بها كاتجاه فني في الجانب الإبداعي والنقدي . وإن كان الناقد (مارون عبود) يرى أن وصف الشاعر للبرق والمطر في مستهل ملحمته هو جري أو تقليد لامرىء القيس في وصفه في معلقته للبرق والمطر [٢٣] .

وإن كنا نرى أن الشاعر العريض استطاع أن يوظف الطبيعة هنا ، ويشركها برؤية فكرية وجدانية مع أبطال ملحمته بأسلوب قصصي ممتع ، فتوجيه البرق إلى ضاحية القدس له دلالة على تعلقه بالمكان ، وتركيز بؤرة الحدث حول محور أساسي هو رمز للأرض الفلسطينية كلها :

صرف البرق إلى ضاحية القدس عنانه
بعد أن قهقه في آفاقها يعلن شانه
ماردا غام عليه الليل ، فاستعدى حصانه
وتجلى . . . ملقيا فوق روابيها جرانه [٢٤]

---

(٢٢) ديوان العريض ـ ٧ .

(٢٣) دمقس وأرجوان ـ مارون عبود ٢٠٩ .

(٢٤) ديوان العريض ١١ .

ولماذا لايكون البرق هنا ليس على حقيقته وإنما هو رمز لذلك البطل الثائر الذي أطبق عليه ليل الظلم والاضطهاد فأعلن ثورته على جلاده والطامع في وطنه . وسوف نجد أن هناك ارتباطا وثيقا بين هذا البطل المارد أو البرق ، وبين القدس التي وجه الشاعر لها عنان جواده حيث يستشهد البطل (ظافر) في النهاية دفاعا عن القدس . .

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف الراعي (ظافر) وهو يسرح بأغنامه للرعي وسط تلك الطبيعة الخلابة ، ويستطرد الشاعر في وصف الراعي وعلاقته بالطبيعة ومن خلال هذا الوصف يمهد لموضوع الملحمة وطابعها الدرامي الحزين . فالطبيعة هنا يوظفها الشاعر لتكون مسرحا وأرضية تعبر عن طبيعة الأحداث التي سوف تتوالى في الملحمة . فإتخاذ الراعي (بطلا) للملحمة إيحاء بعمق الرابطة بين البطل والأرض وتأكيد على الانتماء الذي ينشأ من خلال مهنة الرعي ، وكما يقول أحد الدارسين أن شخصية الراعي تمثل قيمًا حضارية واجتماعية ونفسية لدى الإنسان العربي ، وتعبر عن التصاق حميم بالأرض (٢٥) . ومن هنا اتخذ الشاعر من الراعي شخصية رئيسية يتركز حولها ومنها الصراع على الأرض ، والدفاع عن الوطن .

ولكن يذهب الدكتور علوي الهاشمي إلى أن العريض لم يستطع توظيف شخصية الراعي توظيفاً فنياً وفكرياً موفقاً حيث بدت العلاقة النفسية بين الانسان والأرض علاقة ضعيفة ؛ حيث يرى أن الشاعر صور اللقاء بين الراعي وبين الجميزة التي رمز لها بالوطن أنه لقاء تم عن طريق الصدفة ؛ حيث خان الشاعر التعبير في استخدامه (إذا) وإيراده (جميزة) نكرة (٢٦) .

أقبل الراعي ضحى - بالناي - يستاق ضيئنه
ناعم البال . . . كأن الحب قد زكى شؤونه
فإذا جميزة خضراء في درب المدينة
فوق مطلول غدير غضن العشب جبينه (٢٧)

وما ذهب إليه الناقد حق حيث أن استخدام (إذا) التي تدل على الصدفة ، وتنكير (جميزة) يضعف الدلالة التي حاول الشاعر تضمينها وهو الرمز للوطن . .

---

(٢٥) الشعر المعاصر في البحرين - د. علوي الهاشمي ٤٩٨ .
(٢٦) المصدر السابق ٤٩٨ .
(٢٧) ديوان العريض ١٢ .

وهناك أكثر من قرينة توحي أن الشاعر يرمز للوطن بهذه الجميزة ، فوصفه لها بحماية معين النهر ، وحنانها على الظباء ورعايتها ، وتعاطفها مع أنين النبع وشجونه كلها قرائن تدل على ما ترمز له شجرة (الجميزة) وهو الوطن الذي يكتنف أبناءه بالعطف والرعاية والحنان ؛ ويؤكد الشاعر هذا المعنى في نهاية الملحمة عندما أحس أن الوطن قد ضاع :
قال :

يادعد لقد ضاق بنا فيها المقام لا مراعينا كما كانت ، ولا البيت الحرام
أين جميزتنا .. في ظلها كنت أنام ؟ سلم الجذع ، فقد قطعها القوم الطغام[٢٨] .

ولاشك أن عبارة ـ سلم الجذع ـ لها دلالتها العميقة في نفس الشاعر وما كان يرمي له من معنى فرغم تقطيع العدو لأغصان هذه الشجرة ومحاولته طمس معالمها إلا أن الجذع سوف يظل صلبا صامدا لكي يورق من جديد .

ومما يؤخذ على الشاعر في هذا المقطع ذلك التنافر في وصف الحالة النفسية للراعي (ظافر) حيث وصفه في البداية أنه ناعم البال قد زكى الحب شؤونه ، ثم في الأبيات التالية يصفه بالكآبة والحزن ، حيث يشبه الراعي حالته بحالة تلك الجميزة (الوطن) الحزينة :

شبكت راحتها تحمي من الشمس معينه
تتملى حسنها في زرقة الماء حزينه
أبدا .. ما أشبهت حيرتها إلا سكونه
هي مثلي .. أنزل الله على قبي السكينة[٢٩]

وإن استطاع أن يزاوج أحيانا بين مناظر الطبيعة والجو العام للملحمة حيث يغلب عليها جو الحزن ، إلا أن ميل الشاعر إلى الصورة الرومانسية للطبيعة وجمالها جعلته يقع في تلك الازدواجية بين الصورة النفسية التي يريد أن يرسمها لشخصيات الملحمة وبين ذلك الجو الرومانسي الحالم وسط جمال الطبيعة في مثل هذه الأبيات :

---

(٢٨) المصدر السابق ٦٥ .

(٢٩) ديوان العريض ١٢ .

لبث الراعي على مورده الصافي .. ضحاها
يرقب الضأن على ـ الضفة ـ ترعى والشياها
من رآه شارد الأنمل ، قد زم الشفاها
سادرا ، ينفخ في الناي هواه .. بلغاها
فإذا الظبي عليه يحسد المعزى شجاها
إنه يبدي هواه ، مثلما تبدي هواها
كلما بدع في أنغامه تاهت .. وتاها
فتود الريح لو طارت بعيدا بصداها
ومهاة ... مرغت في سندس الأعشاب فاها
ثم دارت تسأل الأخرى شرودا ، مادهاها
واستمر النبع في أذنيها يضحك هاها

وحسب اعتقادي أن هذه الازدواجية وعدم التجانس في الجو النفسي يرجع إلى محاولة العريض في الجمع بين موضوعية الحدث باعتباره رؤية سياسية لواقع وتاريخ .. وبين النزعة الرومانسية التي لاتستطيع الانعتاق من سحر وجمال الطبيعة ، ولكن العريض لم يستطع في حقيقة الأمر أن يتفاعل مع الطبيعة بوجدانه ومشاعره التي حاول أن يخلعها أو يبثها في شخصيات ملحمته ، أو حتى إيجاد نوع من التجانس بين مظاهر الطبيعة ، والجو العام للحدث الرئيسي في الملحمة .. ومن ثم اصبحت الطبيعة مستقلة بمظاهرها عن الجو العام للملحمة .

والذي نريد أن نقوله أن الشاعر الرومانسي عندما يتناول الطبيعة فإنه يصهرها بعاطفته ويمزجها بوجدانه وتتفاعل مع نفسه إن حزنا فحزن ، وإن فرحا ففرح وهكذا تصبح الطبيعة مشخصة ملونة بلون العاطفة وبلون الحدث الذي يعبر عنه .

وبعد هذا الوصف الرومانسي للطبيعة وما خلعه الشاعر على ذلك من جو الالفة بين الطبيعة ، والراعي وشياهه ، ينتقل الشاعر إلى لوحة أخرى فيصور ذلك اللقاء بين (ظافر) و(دعد) بطلة الملحمة ، حيث تأتي إليه حاملة له الغذاء ، ولكن اللقاء يتحول من جو رومانسي إلى معايشة للواقع فتستثير الفتاة بطلها ، وتذكره بمأساة الوطن . ومن هنا تبدأ أحداث الملحمة أو الخيوط الأولى لنسيج الحدث بتلك الأبيات التي ترددها (دعد) :

هاجت الذكرى أساها فهفت تتلع جيدا
ها هي «القبة» .. لاتبصرها إلا شرودا

فأدارت طرفيـهـا للنبـع ينسـاب بـرودا
ثم قالـت : أفـمـن «تـاه» كمـن يمضي شهـيـدا؟
آه ياظـافـر ! لو كان لأنـثـى أن تريـدا
جلجـل الـرعـد على صوتي في الأرض بعـيـدا
قائـلا : صهيـون ! قف حدك ، جاوزت الحـدودا
بقـعـة بورك في زيـتـونها غرسـا وعـودا (٣٠)

وتبدأ ردة الفعل لدى البطل (ظافر) بتلك النبرة الخطابية في روح حماسية ليؤكد لفتاته أن بني قومه أهل للمواجهة وتاريخهم شاهد على أفعالهم فكم أذاقوا أعداءهم الخزي والذل في كل مواجهة مع بني صهيون :

لاتـراعـي ليس كالـفـتـنـة مايجـلو الـغـواية
ما على الأرض سوانـا حمل الـتـوحـيـد رايـة
طهـر الـله بنـا «الـبـيـت» وهـم تلك الـنـفـايـة
كم دعـونـاه. . . فلبى فدعى أمـر (الـوصـايـة)
جعـلوا من بوقـهـا في الأرض سهـما للنكـايـة
ما لما يضـمـره الـقـوم من الخـبـث نهايـة

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

ليس دعـواهـم على «مـيراثـهـا» غير حكـايـة
نحـن من في غرة الـدهـر وصـمـنـاه بآيـة (٣١)

ويلجأ الشاعر إلى أسلوب (الحلم) كوسيلة لتفجير أبعاد الصراع لدى البطل (ظافر) حيث يروي على لسانه أنه بينما كان نائمًا شاهد في منامه ذئبا يعدو على أغنامه فيفترس سخلة ، ويشتت بقية الأغنام ، فيهب ظافر لمطاردته ويرميه برمحه ولكن الذئب يفر بعيدا . ولاشك أن الذئب هنا رمز للعدو الذي يمثل الغدر ، والسطو تحت جنح الظلام .

ويمزج الشاعر هنا في ـ تصوير الرؤيا ـ بين وصف الطبيعة وعدوان الذئب ويعود الشاعر ليكرر ذكر الحلم مرة أخرى عندما يرويه لفتاته (دعـد) :

---

(٣٠) ديوان العريض ١٥ .

(٣١) المصدر السابق ١٦ .

قال يا «دعـد» لقــد أفــزعني حلم رأيتـه إنــه ينــذر بالــشــؤم ، فإن شئــت رويتــه
كنت كالـطائر فيه طـاب في الأغصان بيته لبــنــة من ورق الــورد ، بمــنــقــاري بنيتـه

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

وسعــدنــا حلما ، حتى إذا قلت : رعيتـه علقــت بالــروض نار فتــهــاوى ماهــويتــه
أنــا منــه قلق ، دعـد ، فلا يمكن فوتـه ثم . . لاأنسى حديث الـذئب،غـال الذئب موته
إنه بيت بي غدرا ، فهلا إذا رميته (٣٢)

وفي نهاية النشيد الأول (جبل الزيتون) نجد أن الشاعر قد هيأ البطل معنويا للإنتقال لمرحلة النضال من خلال بنية خيالية تقوم على الرؤيا ، أضعفها ذلك الحوار الذي يدور بين البطل ظافر وبين فتاته (دعـد) (٣٣) :

استعـذ بالله يا ظافر ! من سوء المغبة كيــف يخشى الأشــبــاح من يعــبـد ربـه ؟
إنها أضغاث أحلام ، وبالميتــة أشبــه ما على طيرك بأس بارك الجـدول شربـه

ولكن في النهاية يقرر البطل الانضمام إلى صفوف المقاومة ، وتحاول الفتاة أن ترافقه ؛ ولكن يصر على بقائها لكي تقوم على رعاية شياهه والمحافظة عليها . ولاشك أن الشاعر ربط في النشيد الأول بين الأرض والإنسان العربي ، واتخذ من الراعي محورا لهذه الرابطة ، ومن خلال صوره الرومانسية للطبيعة أراد أن يؤكد ذلك التفاعل بين مظاهر الطبيعة ، وحياة أبطاله وتعلقهم بتلك الأماكن .

وينقلنا الشاعر في النشيد الثاني الذي أطلق عليه (نشيد الانشاد) وهو اسم يوحي بالبعد الديني والتاريخي لليهود ، فيصور من خلاله مظاهر الحياة اليهودية وهنا لا يربطها الشاعر بالأرض ومظاهر الطبيعة ، وإنما يحاول أن يصورها من خلال مظاهر حضارية زائفة ومدنية مصطنعة .

ولاشك أن هذا المنحى يخدم أبعاد الرؤية التي يهدف الشاعر إلى الوصول لها من خلال ملحمته ، وهو أن الطرف الثاني في الصراع لا علاقة له بالأرض ، وإنما يقوم على دعوى زائفة ؛ ولذلك يبدأ تصوير شخصياته من خلال (ملهى ليلي) تمثل الأنوار المصطنعة والألوان الباهرة ، والأزياء الخليعة ، والمظاهر الزائفة ، أرضية ذلك الواقع . فالملهى يغص بالشباب والفتيات في سهرة راقصة تستعرض كل حسناء ماعندها من فن الغواية ، وإثارة الشهوة ، ويتخذ الشاعر من فتاة صهيونية تدعى «ثامار» نموذجا أو رمزا للرذيلة والخيانة والدعارة فيطيل الوقوف عندها واصفا

(٣٢) المصدر السابق ٢١ .
(٣٣) المصدر السابق ٢٢ .

إياها وصفا دقيقا يبرز مفاتنها وفنونها في إجادة الغنج والدلال وهي تتلوى راقصة فوق خشبة المسرح :

وقفت «ثامار» من زهو الصبا في حلتين    تجتلي بين المرايا قدها من جهتين
في شفيف ، لايوارى حلية منها بصون    فتراه . . . مس ما حاذى بياض العضدين
والقفا مسار رفيقا ثم عرى المنكبين    طالبا ـ في صدرها ـ برعم نهديها بدين (٣٤)

ويسترسل الشاعر في وصف تلك الاستعراضات والتباري بين الغانيات في استعراض جمالهن وتنافسهن في هذا الميدان . وإن كنت في الحقيقة لا أقر الشاعر لمبالغته في تصويره تلك العلاقة المنحرفة بين (ثامار) وأخيها ، فكان أجدر بالشاعر أن يبتعد عن هذه الصورة القبيحة لأنها تخلق لدى المتلقي إحساس بالتحامل من الشاعر وإن كانت ممكنة الحدوث ، الا ان في مثل هذه المواقف يجدر بالشاعر أن لايبتذل الموقف وإنما يمكن أن يوحي بالتفسخ والانحلال دون اللجوء إلى التصريح وقد أجاد الشاعر كما ذكرنا في وصفه الدقيق لجو المجون واللهو الذي تمارسه هذه الطغمة . . ومن هذا الجو الماجن والشخصيات المتهتكة العابثة وعلى رأسها (ثامار) تخرج عصابة «الهغانا» الإرهابية التي ترتكب جرائم القتل والتنكيل لاكتساب المزيد من الأرض وتشريد العرب من وطنهم :

والبس مايشتهي الناس ، ولاتأسى لغيبة    هذه الليلة يستهدف قوم لمصيبة
وسيلقى كل ذي هول من الهول نصيبه    فـ«الهغانا» . . إنني منهم على رأس كتيبة
قررت أن أنسف الركن الذي يحمي العروبة (٣٥)

وفي النشيد الثالث «باب الواد» تبدأ المواجهة على أرض الواقع بعد أن أعد الشاعر طرفي الصراع في النشيدين السابقين . وفي مطلع هذا النشيد يبدأ الشاعر بوصف الطبيعة ـ أيضاً ـ وكانت ليلة مقمرة ، وأنجمها ساطعة ، وسماؤها صافية ، والسكون يخيم على المكان إلا أنين جدول ، وجرس صرصار الليل يخترقان ذلك السكون ، إنه سكون ينذر بحدث ما . . .

وها هما ظافر وحمدان يختبئان خلف السرحة وينتظران الفرصة لكي يقوما بواجبهما ، وما كاد ضوء الفجر ينبلج حتى بدت لهما أرتال من العصابات الصهيونية قادمة تريد (القدس) فيتصدى لها (ظافر) ويصليها بناره بينما يطلب من زميله (حمدان) أن يستنجد ببني قومه ويرمز

---

(٣٤) المصدر السابق ٢٨ .

(٣٥) نفسه ٣٧ .

لهم بأبناء (نـزار) ، فالبطل يريدها معركة قومية ، وهذا خلاف ماذهب إليه بعض الباحثين من أن الشاعر قد أجهض البطل الرمز (ظافـر) وحوله إلى شخصية عادية فردية (٣٦) .

ونحن لا نتفق مع هذا الرأي حيث أن البطولة الفردية هي في الحقيقة في مثل هذه الأعمال رمز للأمة بأسرها في نضالها وكفاحها . . . وفي معظم الملاحم العالمية نجد الشعراء يركزون على أشخاص معينين ويبر زون بطولتهم وخصائصهم بصورة فردية متخذين منهم رموزاً في التعبير عن آمـال وتـطلعـات بني قومهم ، أو نضالهم وكفاحهم والأمثلة على ذلك كثيرة . . كما أن طلب (ظافـر) من حمدان حث أبناء نزار للإلتحاق بصفوفهم للنضال يرمز إلى أن (الشاعر) قد صور المعركة أنها قضية أمـة وليست قضية فـرد .

وإليـك أنـت ـ وراء الـتـل ـ أبنـاء نزار    إنها الـذؤبـان جاعـت وهـي في الجـوع ضوار

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

ثم لم يلبث إن استشرى كمهـر مستـطار    لا الحفـا يثنيـه عن عدو ، ولاطـول العثـار (٣٧)

ويؤكـد قومية المعركة ، وجماعية ـ الملحمة ـ في النضال أن الشاعر قد أشرك الكثير من القبائل في تلك الملحمة التي سطرها المناضلون والمدافعون عن الوطن . وليس صحيحا في أن ذكر أسماء بعض القبائل هنا يدل على رؤية تقليدية لتلك الحروب القبلية التي كانت تدور في جزيرة العرب (٣٨) . . . فالأسماء هنا لها مدلولها الرمزي ولأن الشاعر وظف تلك الأسماء التراثية لدلالة رمزية وهو يريد بذلك شمولية المعركة وأن جميع الدول العربية تشارك فيها :

وأفـاقت نفسـه من غشـوة طال كراهـا    إن في أنـتـه «أيـن أنـا . .» بعـث رؤاهـا
وإذا (الفتيـة» معقـود على السفـح لواهـا    من (لـؤى) و(تمـيـم) و(كـلاب) وسـواهـا
وعـلى رأسهم (حمـدان) يرعـاه انتبـاهـا    لم يكـد يبصره يفـتـح عيـنيـه شذاهـا (٣٩)

ويؤكد الشاعر في أكثر من موضع في ملحمته على أن النضال هنا نضال أمة بأسرها وما أسماء الأشخاص ، أو الأفراد ـ كأبطال ـ إلا نماذج ورموز لنضال الشعوب أو الأمة :

صرخ المـوت بأهـل الـقـدس ، فالـكـل انـصيـات
أنـفـا . . . حتـى لقـد ملت مع الـصـبر الحـيـاة

(٣٦) الشعر المعاصر في البحرين ـ د. علوي الهاشمي ٥٠١ .

(٣٧) ديوان العريض ٤٧ .

(٣٨) الشعر المعاصر في البحرين ـ د. علوي الهاشمي ٥٠٣ .

(٣٩) ديوان العريض ٤٩ .

عنـدمـا الـقـى إلـيـهـم نبـأ الـروع الـرعـاة
فإذا الأمـة كالـعـين وهـاجـتـهـا قـذاة
شاركـت (يـثـرب) فيهـا الشـام ، والنيـل الفـرات
هل خلت من أهلهـا القـريـة ، أم غاب الحماة [٤٠] ؟

وهكذا تتضح رؤية الشاعر وتتسع لتصبح الملحمة معركة بين الصهيونية وبين الأمة العربية بأسرها ؛ فهو قد خرج بها حتى عن إطارها الإقليمي حيث لم يحصرها في أبناء الوطن السليب ، وإنما تحولت إلى معركة ـ ملحمة قومية ـ إنضم إليها أبناء العروبة من كل مكان يدافعون عن الأرض العربية في فلسطين . .

ومن خلال إحدى المعارك التي يخوضها (ظافـر) ورفاقه يكتشفون أن المقاتلين من الطرف الآخر فتيات من بني صهيون ، فكيف يتحول الجنس الرقيق إلى سفاك دماء ، وتزداد غرابتهم عندما يفاجأون أن قائدة الرتل هي (ثامـار) تلك الراقصة في الملاهي الليلية ! ولاشك أن هدف الشـاعـر هو تجسيـد الانحـلال الخلقي ، وضيـاع القيم ، وانحـراف السلوكيات في المجتمع الصهيوني من خلال اتخاذه لشخصية (ثامار) الراقصة رمزا للصهيونية وقائدة لتنظيماته العسكرية :

نسـوة أم شب من جمر الـقـضـا قلب أولاء
كيـف شذ الجـنس فيـهـن إلى سفـك الـدمـاء
قال حمدان : هنـا قائـدة الـرتـل . . . إزائـي
فلنـقـذفـهـا طعـم ما أنـزلـنـه بالأبـريـاء
ورآهـا ـ برزت في زيهـا الـكـامـل ـ راء
فبـدت في وجـهـه الـدهـشـة ، يالـلـتـعـسـاء
لهي (ثـامـار) وهـل أفـتـن منهـا في الـنـسـاء ؟
قال : ياقـوم ، ألا تدرون من ذات الـلـواء [٤١]

وتهز (ظافـر) النخوة العربية ، والمروءة الإسلامية فيقرر إطلاق سراحهن رغم مافعلته هذه العصابة من جرائم يندى لها الجبين ، وترفضها كل القيم والشرائع ، فقد ارتكبت أفظع جرائمها في دير ياسين وغيرها من القرى العربية التي كانت تهاجمها تلك العصابات ، ولكن الموقف عند القائد العربي يختلف فهو يرفض أن يلطخ سيفه بمثل هؤلاء البغايا :

---

(٤٠) نفسـه ٥٣ .

(٤١) ديوان العريض ٥٣

من سواه زج في الميدان - جندا - بنسائه
لم نثر نحن على البغي ليعدينا بدائه
أطلقوهن . . . فلا خوف علينا من إمائه (٤٢)

وينهي الشاعر النشيد الثالث (باب الواد) باستمرار المعارك بين العرب واليهود وتحولها من حروب عصابات إلى حروب مواجهة بين الجيوش ، حيث في النشيد الرابع (هيكل سليمان) يصور فيها الشاعر تلك المعارك التي دارت بين الجيوش العربية والجيش اليهودي ، وكيف أن المؤامرة لعبت دورا بارزا في ترجيح كفة الحرب لصالح العصابات الصهيونية فضاع الكثير من الأراضي العربية ، بسبب إعطاء الأوامر للجيوش العربية للإنسحاب من مواقعها التي كانت قد حررتها :

والتقى «الأردن» في ضاحية اللد بـ(مصر)
فإذا عين الثاني اثنين يلقاهم بنشر
اتركوا الوادي للجيش ، وعودوا للتحدي
بين أكام ، ففيها لـ(الهفانا) الف وكر
وسرى عنه أباة الضيم ، تنفيذاً لأمر
مفسحين الدرب للسيل (أما ساخ) ليجري
إذا (الرملة) و(اللد) معا ، مطلع فجر
في يد الباغي ، وقد عادا له من غير عذر
كيف هذا كان ؟ لا أدري ولا العصبة تدري (٤٣)

وخلال النشيد الرابع (هيكل سليمان) وبعد أن خسر العرب المعركة العسكرية يصور الشاعر ذلك الصراع السياسي وعمق الأزمة التي يمر بها الإنسان العربي فيركز على تجسيد تلك المعاناة ، وروح الإحباط التي أصيب بها الجندي العربي بعد أن انسحبت الجيوش العربية من ميدان المعركة ، واستولت العصابة الصهيونية على العديد من المدن والقرى العربية ، ثم أعلنت الهدنة ، وقضايا التقسيم .

---

(٤٢) نفسه ٥٣ .

(٤٣) ديوان العريض ٥٩ .

صرخــت في وجهــه دعـد : ألا بعــدا وسـحـقــا
أفيضطرونا الآن إلى الهدنة حقا ؟
بعــد إن جزنــا لها كل دروب الــنصر سبــقــا
دربهــا المـفضي إلى نابــلس ، والآخــر شرقــا [٤٤]

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

وأتمــت لجنــة الــتـحــقــيــق تعــيـين الحـدود
فرأوا خير قراهــم ضمــهــا ملك الــيــهـود
فإذا الــقــائــم في أعــمالــه نصــف قعـيد
وإذا الــغــائــب عن أوطــانــه مثــل الـفـقـيــد [٤٥]

وهنا يعود الشاعر إلى (ظافـر) رمز النضال للإنسان العربي ليحدد من خلال رؤيته وفلسفته صورة الموقف للإنسان العربي ، ويبرز السلبيات التي أدت إلى هذه النتيجة ـ وهي ضياع الوطن ـ ويأتي في مقدمة تلك الأسباب الاستهانة بقوة العدو ، وتغني العربي بماضيه دون العمل لحاضره ومستقبله .

غض عنهــا طرفــه ظافــر في غمــرة حزنــه
لم يكـن يؤمـن أن الـبيــد في الـعـقــم ، كـمـدنــه
أيكــون ابـن الـبـغــايــا ـ أحفــل الـنــاس بأمنه
ضل عنــه رشــده ، من طول ما لاذ بـسـجــنــه
إنــما قد صرع الــعــرب من الــعــجــل بقــرنــه
منــذ كانــوا . . . وهمــو ماضـون في توهـين شأنـه
لو أصــابــوا ذهــب الأرض ، لما اهــتــمــوا بوزنــه
فجــنــى الجــاني عليـهـم من خبــايــا خلف فنــه
وابــتــلاهــم مجدهــم بالخـلــف في ترجيــع لحنه
ولــقــد عاش أبــونــا ناعــم الــبــال بقــرنــه
فإذا الفـردوس شـيء غيـر ماقـدر لابنـه [٤٦]

---

(٤٤) نفسـه ٦١ .

(٤٥) نفسـه ٦٣ .

(٤٦) ديوان العريض ٦٢ .

ويصور الشاعر حالة اليأس والأسى التي سيطرت على نفسية بطله (ظافر) وقد استطاع الشاعر أن يرسم صورة مؤثرة لموقف ظافر بذلك الأسلوب الاستفهامي المعبر عن عمق الحزن على ضياع الوطن :

أين جميـزتنـا ... في ظلهـا كنت أنـام    سلم الجـذع ، فقد قطعها القوم الطغام ؟
أين شاء كنت أرعـاهـا ، وللشاء بغـام    لم تعـد منهـا ولا ثاغيـة ، فالكل هاموا ؟
أم غدت مسلوخة ، فاللحم غال والطعام    أين أصحـابي..حمـدان وفوزي وهشام ؟
بعضهم يسهر مثلي ثاكلا، والبعض ناموا    شتتت من شملنـا الأيـام،فالدنيا ظلام (٤٧)

وعلى الرغم من الصورة المؤثرة الحزينة التي رسمها الشاعر لبطله (ظافـر) من خلال ذلك الموقف التأملي الذي وقفه البطل بعد الهزيمة السياسية المرة التي تجرعها الانسان العربي نتيجة لانسحاب الجيوش العربية وتراجعها وتسليم معظم الأراضي العربية لليهود ، ثم ما ترتب عليه من اعلان الهدنة ـ إلا أنه تظل الروح الاستسلامية التي رسمها الشاعر لبطل ملحمته لا تتمشى فنيا مع الرؤية الفكرية والفنية التي يحملها هذا البطل كرمز للنضال والكفاح :

لاتـقـولـي : أيـن نمضي أين يمضي المستهـام ؟
وطـن ضـاع ... عليـه من ضحـايـاه السـلام (٤٨)

ولكن الشـاعـر يعود ليجعل من بطلة الملحمة (دعـد) حافزا ومشجعا للبطل ودافعا له لمواصلة النضال ، وربما كان هدف الشاعر من تلك الصورة التراجعية التي رسمها للبطل ، أن يجعل منها مدخلا لدور (دعـد) في سياق الحدث كمؤثر إيجابي في المعركة تلعب المرأة دورها في ذلك :

فأجابت دعد : كلا لم يضع منا، حبيب    هي ذى أعـرافـه ، مابـرحت تزكـو بطيب
وطن الزيتـون والتـين وأجران الزبيب    وطن النـاي ، وقلبـين ، والحـان الغروب
لا تقـل نتركـه نهبـا لكـل غريـب (٤٩)

وربما يذكرنا هذا التراجع والإنكاف عن مواصلة النضال عند البطل هنا بموقف (أخيـل) بطل ملحمة هوميروس ، حين انسحب من المعركة ، ولكن انسحابه هناك كان نتيجة لخلاف مع

---

(٤٧) نفسـه ٦٥ .
(٤٨) ديوان العريض ٦٥
(٤٩) نفسه ٦٦ .

القائد «أغا ممنون» ، بالاضافة لطول أمد المعركة الطروادية التي أدت إلى روح اليأس والإحباط التي أصيب بها جيش الإغريق (٥٠) . . .

ولكن مما يضعف البناء الفني هو ضعف العلاقة أو ضعف تمسك (دعـد) بشجرة (الجميزة) التي هي رمز الوطن ، حيث ترى أن ضياع جميزة كانوا يستظلون بظلها لايعني النهاية واليأس ، فهناك غيرها من أخواتها (شجيرات) الجميز التي يمكن أن تلجأ إليها . . . ولاشك أن الشاعر يريد زرع الأمل ، والتأكيد على التشبث بالأرض مما دفعه إلى طرح البديل ، وأن الأمل موجود ولم يضع كل شيء ، كما أنه يمكن القول أن الجميزة عند الشاعر جزء من كل فهو لايرمز لجميزة بعينها ، ومن هذا المنطلق يمكن أيضا أن نقول أن ماذهب إليه أحد النقاد في إشارته إلى ضعف العلاقة بين الأرض والإنسان ، يعود إلى مفهوم الرمز أو دلالته الجزئية والكلية لدى الشاعر (٥١) .

ويؤكد الشاعر هذه الدلالة على لسان (دعـد) :

وطنـي لو فيـه شـاة ما أخليهـا لذيـب (٥٢) .

وكان لحديث (دعـد) وحثها له ، وبث الأمل في نفسه أثر في قراره بالعودة إلى مواصلة الكفاح واجتثاث جذور الخيانة والغدر ، وتحرير الأرض . ففي نهاية النشيد الرابع يؤكد البطل على عودتـه لميـدان المعـركـة ؛ ولكنـه يقرر التخلص من أولئك الذين خانوا الوطن ، وباعوا الأرض ، ورضوا بالذل والهوان ، قبل مناجزته للعدو الإسرائيلي :

أنـا يادعـد له ، لاخانني فـيه زمانـي
لتـراح القـدس مـن غـدرته ، والحرمـان (٥٣)

ونلتقي في النشيد الخامس والأخير من الملحمة والذي أطلق عليه الشاعر (قبة الصخرة) وإذا بالثـورة قد شبت والتحمت الأمـة العـربيـة من مشرقهـا إلى مغـربهـا للدفاع عن أرضها ومقدساتها ، وينضم (ظافـر) إلى طلائع تلك الثورة لاسترداد وطنه والدفاع عن أمته :

شبـت الثـورة في أنـحـائـهـا ، من غير عـون
بعـد أن جاوزت (الأردن) في طرفـة عيـن

---

(٥٠) الأنواع الأدبية ـ مذاهب ومدارس ـ د. شفيق البقاعي ٢٧٣ .
وانظر الأدب المقارن ـ د. محمد غنيمي هلال ١٣٦ ـ الهامش .
(٥١) الشعر المعاصر في البحرين ـ د. علوي الهاشمي ٤٩٩ .
(٥٢) ديوان العريض ٦٦ .
(٥٣) نفسه ٦٧ .

من ربى الشام ، ولبنان ، ووادي الرافدين
وثرى مصر ، إلى القدس ، وأرض الحرمين [٥٤]

وبهذه الوحدة والتلاحم بين أبناء الأمة العربية تحقق النصر وسقطت (ثامار) (رمز الصهيونية) صريعة في أرض المعركة وتلتقي (دعد) المسلمة بـ (ماري) المسيحية فتجمعهما فرحة النصر وتحرير القدس رمز الوحدة والتآلف بين الأديان .

لحقت (ماري) بدير فلها فيه عزاء | بعد أن عاد بها للمسجد الأقصى الولاء
وجلا عن كل شبر من رباه الدخلاء | من رآها في مسوح غادرتها الكبرياء

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

بزهور لم يزل يقطر من فيها الهناء | فتسيران إلى حيث بها دعد تشاء
ضمت الأوطان مابينهما . . . والشهداء [٥٥]

وينهي الشاعر ملحمته بعودة القدس ، واستشهاد البطل (ظافر) وتقف (دعد) في نهاية الملحمة على قبر (ظافر) تنثر على قبره الورد وتسكب الدمع وتزجي له تباشير النصر وتحرير الوطن ، وعودة الأرض .

وقفت (دعد) على قبر ثوي فيه الحبيب | في يديها وردة ، قبل فاها العندليب
فهي حمراء ، لها من زهوها حسن وطيب | أخذت تنثرها ، والدمع بالطل يذوب

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

انها تذكر والذكرى لها لقط عجيب | صوته العذب ـ وقد مالت فثناها يجيب :
أنا يادعد له . . . ثم مضى لايستريب | ولقد ثار لها الشعب وتلتها حروب

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

فليطب نفسا ، فما في الوطن الغالي غريب [٥٦] !!

وهناك عدة ملامح فنية وفكرية يمكن الوقوف عندها أو إثارتها في ملحمة أرض الشهداء للعريض ، أولها إشكالية التوفيق بين موضوعية الملحمة في بعدها السياسي والواقعي ، وبين النزعة الرومانسية والذاتية التي سيطرت على الشاعر ، ولم يستطع الافلات منها حتى في شعره

(٥٤) ديوان العريض ٧٥ .
(٥٥) نفسه ٧٩ .
(٥٦) نفسه ٨٠ .

الموضوعي ذي الطابع الملحمي حيث ظلت النزعة الغنائية ملازمة له . ولكن مع ذلك نقول أن العريض قد أفاد من هذا الخيال الرومانسي في تلاحم البناء الفني لمطولته ، ولولا تلك الصور الخيالية التي رسمها ، والطبيعة التي وظفها لتحولت مطولته إلى نظم سياسي فاتر . . ولكن الذي يؤخذ عليه هو الاسترسال والمبالغة في الغنائية ، وطغيان الجو الرومانسي في بعض المقاطع حتى تتحول بعض المقطوعات إلى لوحات فنية تصور الطبيعة بمعزل عن مجريات الحدث . وهذا يؤدي أحيانا - إلى تنافر الصور وعدم تجانسها فانظر إلى هذه الصورة الطبيعية التي تصور جمال الطبيعة كيف يتخذ منها مدخلا لمعركة شرسة تراق فيها الدماء ، وفي مقدمتها يدعو المرأة إلى أن تتخذ من تلك الأزهار والياسمين عقودا تزين به صدرها ، والبدر يحتفى مع النجم بجماله : (٥٧)

حمل الجدول - في منعرج الوادي - انهماله
عندما قابل في صفحة البدر خياله
من ذرى رابية . . توجها النور بهاله
فمضى يكسر - كالفضة - في الماء جماله

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

عالم من أنجم شاركت البدر احتفاله
كلما صفق نجم رقص الثاني حياله
وتثنى العشب ، كي يسكب فوق العشب باله
ويبث البدر في الأغصان - كالشاعر - حاله

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

ويرى الوادي . . قد فتق بالريحان طينه . . .
ورده بات ، من الكثرة ، يغلي ياسمينه
ياعذارى ! خذن ماشئتن من عطر وزينه
وهناك الطود قد عرى إلى الليل جبينه

هذه الصورة الرومانسية الغنائية الخيالية يتخذ الشاعر منها تمهيدا لمعركة (عسكرية) حيث هذه الأجواء الرومانسية تحيط (بظافر) ورفيقه (حمدان) وقد خرج كل منهما من خلال تلك اللوحة الفنية ليحملا سلاحهما ويمطرا العدو بوابل من نيرانهما . . ولكن الشاعر يسترسل كثيرا في وصف الطبيعة وجمالها والليل بنجومه وحركتها في جو شاعري ، لا علاقة له بجو القلق

---

(٥٧) ديوان العريض ٤٤ .

والترقب والتوتر الذي يسبق ـ عـادة ـ جو المعركة . والحقيقة أن العريض كشاعر رومانسي لم يستـطع التخلي عن نزعته الذاتية لجمال الطبيعة . ولكن هذه النزعة للطبيعة كانت نزعة تقليد ومجاراة ، فلو أن الشاعر استطاع أن يعيش الطبيعة بعاطفته ، ويتقمصها بروحه ، كما فهمها الرومانسيون لتحولت الطبيعة عنده إلى حياة مشخصة متفاعلة مع الحدث ، متجانسة في صورها مع البعد الفكري الذي يطرحه الشاعر أي التقمص الوجداني ـ وحلول الطبيعة . والحقيقة أن بعض الشعراء تعاملوا مع الطبيعة بمظهرها الخارجي دون أن يلجوا الى عالمها من خلال عواطفهم ومشاعرهم ، واحساسهم ، من هنا جاءت صور الطبيعة عندهم مجسدة في إطارها الخارجي ، لاعلاقة لهذه الصور بالعاطفة أو المضمون أو الموقف الذي يعبر عنه الشاعر ، أو بمعنى آخر ان الطبيعة لم تتلون بلون الموقف الذي يريد الشاعر تصويره .

وربما الصورة الأخيرة التي رسمها العريض لموقف (دعـد) في نهاية الملحمة وقد وقفت على قبر بطلها (ظافـر) توضح ما أشرنا إليه من تنافر بين توظيف الطبيعة وعلاقته بالموقف الذي يعبر عنه الشاعر :

وقـفـت دعـد على قبر ثوى فيـه الحبيب ... في يديهـا وردة ، قبـل فاهـا الـعـنـدليب
فهي حمراء ، لها من زهـوها حسن وطيب ... أخـذت تنثـرهـا ، والدمع بالطل يذوب [58]

ولنا أن نتوقف عند جملة (قبل فاها العندليب) والضمير طبعا يعود على الوردة ويمكننا أن نستسيغ إلى حد ما قضية نثر الورد على قبر الحبيب ، ولكن ما علاقة القبل ومن العندليب بالذات في هذا الموقف الدرامي الحزين ؟!

## الملحمـة بيـن لغـة النظـم والتعبيـر الشعـري :

ولغة الصياغة عند العريض تتفاوت تفاوتا واضحا في هذه الملحمة كما هي تتفاوت في معـظم أشعـاره ، والسبب في ذلك يعود إلى أن العريض عندما ينتقل من الذاتية أو الغنـائيـة إلى المـوضـوعية فإنه يطغى الفكر على العاطفة ، والواقع على الخيال فتتحول الصياغة من تلك اللغة الشعرية التصويرية الايحائية إلى لغة نثرية تعنى بالفكرة ، وتتبع جزئياتها ، ومن ثم فإنه تتحول عنده الصياغة إلى تعبيرات مباشرة ، وتبرز النبرة الخطابية .

---

(58) ديـوان العريـض 80 .

والحقيقة أن الشعر القصصي ، والتعليمي ، والمسرحي ، تغلب عليه النزعة العقلية والرؤية التنظيمية التفسيرية ، ويجنح فيه الشاعر للوضوح . ومن هنا فإن موضوعية الملحمة وبعدها السياسي والواقعي قد جر الشاعر أراد أو لم يرد إلى ذلك التقرير الذهني ، وطغيان الفكر على العاطفة في مواطن عديدة من ملحمته . مع أن الشعر الملحمي كما ذكرنا سابقا مرتع خصب للخيال ، والرمز وتوظيف الأسطورة ، ولكن الشاعر لم يلجأ إليها ، وإن لمسها في بعض المواطن لمسا خفيفا كما في في إشارته ، للعجل كرمز لبني اسرائيل ، أو لسامري ، وغيرها من رموز الاغواء والخديعة في تاريخهم .

والسؤال هل يمكن للشاعر أن يوفق بين موضوعية الشعر القصصي وتسييس التاريخ والواقع ، وبين فن الشعر في لغته الخاصة ؟

والحقيقة أن العريض قد حاول في هذه الملحمة ولكنه راوح في هذه اللغة أو الصياغة بين تلك اللغة الشاعرية ، والصور المعبرة ، خاصة عندما تنطلق شاعريته بغنائية رومانسية في بعض مقطوعاته الوصفية فتمتاز برقة ألفاظها وسلاسة أسلوبها ، وبساطة صورها ؛ حيث يطلق الشاعر لخياله العنان فيصور تلك اللوحة التي توحي بلحظة انسجام وتعايش ، وتفاعل ، بين الطبيعة ، والراعي ، وشياهه :

لبث الراعي على مورده الصافي . . . ضحاها
يرقب الضأن على ـ الضفة ـ ترعى والشياها
من رآه شارد الأنمل ، قد زم الشفاها
سادرا ، ينفخ في الناي هواه . . . بلغاها
فإذا الظبى عليه يحسد المعزى شجاها
انه يبدي هواه ، مثلما تبدي هواها

وهي صورة جميلة ، بلغة سهلة ، وإن كانت التعبيرات مباشرة ـ أحياناً ـ عن الأحاسيس والأفكار ـ إلا أن سلاسة اللغة ، وموسيقاها ورقة ألفاظها قد أعطى مثل هذه المقطوعات الغنائية التي يتخذها الشاعر كمقدمات للأفكار الرئيسية في ملحمته بعدا جماليا . ولكن كما أشرنا من قبل أن هذه الصور تأتي أحيانا غير متجانسة مع السياق العام لموضوعه . ومن هنا يمكننا القول أن الصور عنده صور آحادية أي أن كل صورة منفصلة

عن الأخرى ، وليست امتدادا لها ، في حين أن الصور إذا نبعت من تجربة الشاعر فلابد أن تكـون هذه الصور جزء من الصورة الكلية للموقف أو الموضوع . فوظيفة الصورة لاتتوقف عند تجسيد الفكرة أو حتى تلوينها ، وإنما تتجاوز ذلك إلى تعميق الأثر وإثارة العاطفة ، فتثير هذه الصور من ألوان الإحساس ، وعمق المعاناة ماتثيره بإيحاءاتها [٥٩] ، فيتولد من خلال ذلك الأثر العام الذي يتركه العمل الفني دون احساس بتناقض الصور أو تنافر الألفاظ .

فبعد وصف الشاعر لجو البهجة والأنس ، والطمأنينة ، والأمن الذي يعيشه الراعي مع أغنامه ، كنا نتوقع بعد أن قطعه بتلك الصورة المغايرة (للمهاة) التي نفرت وشردت فأثارت الرعب في نفس الأخرى ، كنا نتوقع أن تكون هذه الصورة بداية أسقاط للموقف على البطل وبني قومه ، بعد أن فزعوا بدخول الصهاينة فقلبوا الحياة إلى جحيم ، في تلك الأرض الوادعة الطيبة ، ولكن يقطع الشاعر هذه الصورة في البيت الذي يليها إلى صورة أخرى مغايرة لتلك :

ومهـاة مرغت في سنـدس الأعشـاب فاهـا ثم دارت تسـأل الأخـرى شرودا : مادهـاهـا ؟
واستمر النبع في أذنيها يضحك : هاها [٦٠]

ومع ذلك فإن مطولة الشاعر لاتخلو من تلك الصور الرومانسية الموحية والمعبرة كتصويره لحياة يحلم بها في بداية النشيد الأول (باب الواد) [٦١] ولكن كما ذكرنا صور آحادية تقوم على رسم لقـطات جزئية لاتشكل لبنات لصورة كلية . . ومنها هذه الصورة التي يرسمها لبطلة ملحمته (دعـد) عندما التقت بفتاها :

ومع ذلك فإن مطولة الشاعر لاتخلو من تلك الصور الرومانسية الموحية والمعبرة كتصويره لحياة يحلم بها في بداية النشيد الأول (باب الواد) [٦١] ولكن كما ذكرنا صور آحادية تقوم على رسم لقـطات جزئية لاتشكل لبنات لصورة كلية . . ومنها هذه الصورة التي يرسمها لبطلة ملحمته (دعـد) عندما التقت بفتاها :

---

(٥٩) حركة التجديد الشعرى في المهجر ، د. عبد الحكيم بلبع ١٣٤ .

(٦٠) ديوان العريض ١٣ .

(٦١) سبق الاشارة إليها في الدراسة .

خلع الحسن على مارف منها كبرياءه — لاترى من شعرها إلا العناقيد إزاءه
ورآها فرأى في قلبه الشمس مضاءة — قال : ياحياك ! وافتر لعينيها فجاءه
فإذا طرف حيي يدها غطت حياءه — ليت شعري هل وعى الجميز، إذ مالت وراءه ؟

فهذه المسحة الغنائية والذاتية الشفافة في بعض مقطوعاته تحتوي على صور مضيئة ، وموحية فوصف الطرف بالحياء وتصغيره ، ثم تغطيتها له باليد ، أو اتخاذها من أشجار الجميز سترا لها كلها صور تعمق من دلالة الموقف الذي يرسمه الشاعر لفتاة وماتتحلى به من حياء وعفة وبراءة ، فالشاعر بحسه الدقيق هو الذي يدرك مواطن الايحاء للصور والمفردات .

والعريض قد أطلق العنان لخياله في صور رومانسية عديدة طرز بها ملحمته إلى جانب المفردات التي يكثر منها الرومانسيون في أشعارهم ، ولاشك أن هذه الصور والمفردات قد كسرت من حدة النظم وواقعية الموضوع الذي تناوله الشاعر ؛ ومن هذه الصور ـ تثني الدوحة في الربى ـ غضن العشب جبينه ـ الغدير المطلول ، والوادي له شجون ، والنبع له أنين [٦٢] ، ويبث البدر في الأغصان كالشاعر حاله [٦٣] . «تتوارى عند تل لاح في الأفق شهيدا [٦٤]» .

وإلى جانب هذه الصور المستمدة من قاموس الشعر الرومانسي الذي يعد العريض أحد شعرائه ، نجد أن شعره لايخلو من تلك الصور التقليدية أو الصور التراثية التي شكلت مساحة في نسيج هذه الملحمة ولسنا بحاجة إلى ذكر مطلع القصيدة التي صور فيها الشاعر البرق والغيث ووجه إلى ناحية القدس . ولكننا نجده في أكثر المواقف عصرية يتخذ من الصور التقليدية وسيلة للتعبير ، فها هو يصف تلك الفتاة الصهيونية (تامار) بلهوها ومجونها ، وجمال جسدها ودقة خصرها ، فإذا أدواته الظباء ، والأيل ، والحقل ، والرامة ، والرعى ، والبغام ، وكأنك تقرأ لشاعر جاهلي أو من شعراء بني عذرة وهو يصف فتاته :

أنا سور قام ثدياي كبرجين أمامه
قد براني مرض الحب ، فمن يشفي سقامه ؟
ياظباء الحقل من حرمون ، يرعين وشامه
من رأى منكن من أهواه ، يجري خلف رامه ؟

---

(٦٢) ديوان العريض ١٢ .
(٦٣) المصدر السابق ٤٣ .
(٦٤) المصدر السابق ١٥ .

ليـتـنـي في بيـت خمـر بيـدي أمـلأ جـامـه
فأمـليـه مـدامـي ويـمـلـيـني مـدامـه
صـرة المـر حبـيـبـي لي مـا أحـلـى ابـتـسـامـه
شفـتـاه سلكـة الـقـرمـز ، والـبـطن رخـامـه
كلـه مشـتـهـيـات جعـل المـسـك ختـامـه
هو ذا آت مع الأيـل ، فاسـمـعـن بغـامـه [٦٥]

وإذا انتقلنا من الصورة الشعرية إلى الأسلوب بصفة عامة فإننا نجد أن الشاعر قد استطاع أن يستخدم لغة اتسمت بالسهولة والبساطة مع محافظته على سلامة هذه اللغة وشاعريتها والنماذج التي ذكرنا توضح ذلك . ولكن مع ذلك لاتخلو الملحمة من تلك النبرة الخطابية ، والتعبيرات المباشرة خاصة عندما يلجأ الشاعر إلى التفاصيل فيتدخل بفكره ، وتفسيراته ، فتتحول الصياغة إلى جمل نثرية وكأنها مقحمة أو نابية عن وضعها في السياق كقوله :

طهـر الـله بنـا «البـيـت» ، وهـم تلك الـنـفـايـة
كم دعـونـاه فلبـى فدعـى أمـر الـوصـايـة [٦٦]

فجملة (وهم تلك النفاية) قلقة هنا .
وكقوله :
ثم قالت «لاتغالي في ، فالجمهور أبله !» [٦٧]
فهذه جملة نثرية لا علاقة لها بالشعر .
وكذلك تضمينه لجزء من (الحديث الشريف) في وصف الشاعر ثورة ظافر :

ومـضـى الـشـائـر في ثورتـه ، يسـعـى لثـاره
ما شعـار الحـق ، في ماضيـه ، إلا كشـعـاره ،
«لانـبـالي . . إنها الجـنـة حفـت بالمـكـاره»
فيـوافـيـهـم رذاذ من رصـاص في انهـاره

فإذا نظرنا إلى البيت الثاني لانجد أن هناك أية علاقة بين الشطر الأول والثاني بل هو عبارة عن جملة نثرية لارابط بينها .

---

(٦٥) ديوان العريض ٣٩ .
(٦٦) المصدر السابق ١٦ .
(٦٧) المصدر السابق ٣٤ .

ومع ذلك فإن هذه الملاحظات لاتنتقص من قيمة ملحمة (أرض الشهداء) كعمل فني رائد في الأدب العربي في منطقة الخليج ، خاصة في الفترة التي ظهرت فيها الملحمة . كما أن الملحمة اسهـام من أدب المنـطقـة في مسيرة ودور الأدب العربي في قضايا أمته ، وهي تمجيد للإنسان العربي ، ودافع له للعمل الجاد ومتابعة الجهاد في سبيل استرداد حقه ، فكان العريض وملحمة أرض الشهداء نقطة مضيئة في تاريخ أدب المنطقة المعاصر .

## المراجـــــــــع


١ ـ ديوان العريض ـ ابراهيم العريض ـ ط . الكويت ١٩٧٩ م .

٢ ـ الشعر المعاصر في البحرين ـ د . علوي الهاشمي ـ دار الحرية لطباعة ، بغداد ١٩٨١ .

٣ ـ دمقس وأرجوان ـ مارون عبود ـ دار الثقافة ببيـروت ١٩٧٩ .

٤ ـ الحركة الشعرية في الخليج العربي ـ د . نورية الرومي ـ الكويت ١٩٨٠ .

٥ ـ الأدب المقارن ـ د . محمد غنيمي هلال ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٣ .

٦ ـ الأدب ومذاهبه ـ د . محمد مندور ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٣ .

٧ ـ الكوميديا الالهية ـ الفردوس ـ دانتي اليجيري ـ دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ .

٨ ـ الأنواع الأدبية ـ د . شفيق البقاعي ـ مؤسسة عز الدين ، لبنان ١٩٨٥ .

٩ ـ الأدب وفنونه ـ د . عز الدين اسماعيل ـ دار الفكر العربي ط ٦ ، ١٩٧٦ .

١٠ ـ مقدمة في نظرية الادب ـ د . عبد المنعم تليمة ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٦ .

١١ ـ نظرية الفن المتجدد وتطبيقاتها على الشعر ـ عز الدين الأمين ـ دار المعارف بمصر ١٩٧١ .

١٢ ـ تطور الأدب الحديث في مصر ـ د . أحمد هيكل ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٩ .

١٣ ـ دراسات في ادب البحرين ـ مجموعة من الباحثين ـ معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٩ م .

١٤ ـ القصة في الشعر العربي إلى أوائل القرن الثاني الهجري ـ علي النجدي ناصف ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر (بدون) .

١٥ ـ المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر ـ د . نسيب نشاوي ـ دمشق ١٩٨٠ .

١٦ ـ حركة التجديد الشعري في المهجر ـ د . عبد الحكيم بلبع ـ الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٨٠ .

١٧ ـ كتابات ـ مجلة فصلية ـ العدد السابع عشر ١٩٨١ م تصدر في البحرين .

# الأدب العربي والشاهنامه

أ. د. محمد السعيد جمال الدين
أستاذ بقسم اللغة العربية

**تمهيد :**

حين يطالع المرء الشعر العربي المعاصر ، يلفته على الفور عناية شعرائنا بالملاحم اليونانية بخاصة ، والغربية بعامة ، وانصرافهم عن ( الشاهنامه )** برغم كونها منبعا ثرّا يرضي عندهم النزعة إلى اتخاذ ( الأسطورة ) مصدرا من أهم مصادر الإلهام الفني ، وبرغم سبقها إلى دخول الأدب العربي من خلال ترجمة البنداري لها في أوائل القرن السابع الهجري ، فضلا عن ما تنطوي عليه من تصوّر ذي طابع إسلامي متميز للحياة والقدر .

فما سبب إعراض شاعرنا المعاصر عن الشاهنامه ؟ وهل كان هذا موقف أدبائنا السابقين ؟

يقتضينا هذا التساؤل أن نحشد أنفسنا لإعداد دراسة في طبيعة العلاقة بين أدبنا العربي ـ في القديم والحديث ـ والشاهنامه .

ولأن موضوع البحث لم يُسبق إليه ـ فيما نعلم ـ فقد كان جمع مادته أصعب المراحل على الإطلاق ، إذ اقتضت منا مراجعة تكاد تكون شاملة لمظانّ التأثر في أدبنا العربي القديم والحديث ، في دواوين الشعراء وكتابات النقاد ، والمجلات الأدبية .

والدراسة تعتمد منهجا لا يقوم على استقصاء نقاط الالتقاء وحصرها فحسب ، بل يشتمل أيضا على طابعٍ تحليلي لتفسير الظواهر ومحاولةً لدمجها في مسار واحد .

---

** شُغل أبو القاسم الفردوسي ( توفي حوالي سنة ٤١٦ هـ ) بنظمها نحو ثلاثين عاما ، وأتمها سنة ٤٠٠ هـ ، وموضوع الشاهنامه ( يعني كتاب الملوك ) تاريخ إيران القديم منذ البداية حتى انهيار الامبراطورية الساسانية . وينقسم موضوعها الى ثلاثة عصور : الأسطوري ، والبطولي ، والتاريخي . وقد نالت الشاهنامه مكانة سامقة في الآداب العالمية كلها ، وترجمت الى لغات عديدة .

عرف أدباء العربية شاهنامة الفردوسي في القرن السادس الهجري ، فكانت بذلك أول ما عرفه العرب من أدب الملاحم ، على أنها أثارت إعجابهم ودهشتهم ، بما لها من خصائص لا تتوفر في أدبهم الذي كانوا يحسبونه أفضل الآداب كلها وأولاها بالتقدم ، ولا يخالون في الإمكان وجود شعر أعجمي يجاري قصائدهم بلاغة ودقة وإحكاما . فما بالهم يرون الفرس قد سبقوا في هذا المضمار إلى شيء لم يعهدوه هم ؟

يشير ضياء الدين بن الأثير ( ٥٥٨ ـ ٦٣٧ هـ ) إلى هذا المعنى في كتابه ( المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ) مبيّنا أن الشاعر العربي : « إذا أراد أن يشرح أمورا متعددة ذوات معان مختلفة في شعره واحتاج إلى الإطالة بأن ينظم مائتي بيت أو ثلاثمائة أو أكثر من ذلك ، فانه لا يُجيد في الجميع ولا في الكثير منه ، بل يجيد في جزء قليل ، والكثير من ذلك رديء غير مرضي » ، لكن ابن الأثير يشير إلى أن الأمر يجرى في الأدب الفارسي على غير هذا النحو ، ويقول :

« . . فإنّي وجدت العجم يفضُلون العرب في هذه النكتة المشار إليها ، فإن شاعرهم يذكر كتـابا مصنفا من أوله إلى آخره شعرا ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاهنامه ، وهو ستـون ألف بيت من الشعـر يشتمـل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم ، وقد أجمع القوم وفصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه » .

ثم يعود ابن الأثير للمقارنة في هذا المجال بين العربية والفارسية ، فيقول : « وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر »[١] .

وقد نجد تفاوتا واضحا بين هذه الروح الناقدة المنصفة التي تحلّى بها ابن الأثير ، وبين ما ذهب إليه في عصرنا الحديث الدكتور طه حسين ـ في مرحلة من مراحل تطوره الفكري[٢] ، حين بيّن « أن الأدب الفارسي إنما نشأ في شكل رد فعل للأدب العربي ، ومقاومة له ، وكان الفرس في أول الأمـر مقلّدين للعـرب ، أخذوا عن العرب مذاهبهم في الشعر وعلومهم . أو يكفي أن

(١) ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق د. أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، ٤ : ١١ ـ ١٢ .

(٢) في مجموعة مقالاته التي نُشرت ثم طبعت بعد ذلك في كتاب ( من حديث الشعر والنثر) لأول مرة في سنة ١٩٣٥ م ، انظر الكتاب المذكور طبع دار المعارف ١٩٥٠ م ، ص ١٨ ـ ١٩ .

تلاحظوا أن الشعر الفارسي يقال إلى الآن ، وإلى ما بعد الآن ، في أوزان الشعر العربي ، والشاهنامه ، وهي فخر الفرس ، وآية من آيات الأدب ، منظومة على البحر المتقارب ، وهو بحر عربي(٣) ، ويكفي أن تقرأوا أي شاعر من شعراء الفرس ، لتروا جميعا أنهم متأثرون إلى حد بعيد جدا بناحية من أنحاء الأدب العربي»(٤) .

والتفاوت واضح في حكم كل من ابن الأثير وطه حسين على الشاهنامه ( على اختلاف الزمن بين الرجلين ) ، فبينما أقرّ ابن الأثير بتفرد الشاهنامه وخلوّ الأدب العربي من نظير لها ، وعدّ ذلك نقيصة بيّنة ، وعيبا واضحا في هذا الأدب ، حاول الدكتور طه حسين أن يجعل الأدب الفارسي برمّته ، بل وفي كل نواحي عبقريته وتفرده تابعا للأدب العربي ، الذي هو بعد صاحب اليد العليا والنصيب الأوفى ؛ وهذا يعني ـ في رأي طه حسين ـ أنه يجدر بأدباء العرب اذا أرادوا أن يفيدوا أدبهم ، أن ينصرفوا الى آداب أخرى لا تدور في فلك الأدب العربي التماسا للطرافة والجدّة .

ونحن نعلم أن طه حسين كان يتمتع بقوة توجيهيّة ذات تأثير بالغ على مسار الثقافة في مصر والعالم العربي ، ولذلك كانت نظرته هذه تجاه الأدب الفارسي واحدة من العوامل التي حملت عددا لا بأس به من أدبائنا العرب المعاصرين على الابتعاد حتى عن استلهام الأدب العربي القديم نفسه ، وغيره من آداب الشعوب الإسلامية التي تأثرت به ، وترسّمت خطاه ، ودفعتهم إلى الارتماء في أحضان الآداب الغربية بعامة والأدب اليوناني بخاصة ، ونشدان مثلهم الأعلى منها في شتى الفنون الأدبية .

وهكذا زُجّ بالشاهنامه في إطار قضية الأصالة والمعاصرة ، وفي أتون الصراع بين القديم والجديد ، وهو من أهم القضايا التي تواجه الأدب العربي المعاصر .

***

---

(٣) توصل عالم لغوي عربي الى أن نسبة المقارب في دواوين الشعراء العرب نسبة قليلة جدا لا تزيد عن ٢٪ . (راجع : ابراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، مصر ١٩٦٥ م ، الأمر الذي يؤيد ما ذهب اليه المستشرقون والدارسون الإيرانيون من أن هذا البحر الذي التزمه الفردوسي في نظم الشاهنامه ، ليس بحرا عربيا بقدر ما هو فارسي في أصوله ) . (راجع : برويز ناتل خانلرى ، أوزان الشعر الفارسي ، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم ، مصر ١٩٧٨ م ، ص ٤٥ . ويوسف بكار ، دراسات نقدية ، قطر ١٩٨٨٪ ) . لكن تأثير معايير العروض الربعية الدقيقة في العربية واضح في هذا الوزن وغيره من الأوزان الفارسية المتأصلة لدى الفرس من تذوقهم لشعرهم القديم . (انظر : محمد غنيمي هلال ، مختارات من الشعر الفارسي ، مصر ١٩٦٥ ، ص ١٢ ) .

(٤) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، مصر ١٩٥٠ م ، ص ١٩ .

ومهما يكن من أمر ، فقد ظلت مسألة خلوّ الأدب العربي من الملاحم تشغل كبار الأدباء والنقاد في العصر الحديث ، فرأى بعضهم أن العرب إنما زهدوا في نظم الملاحم بسبب ميلهم إلى الإيجاز والاختصار ، والتزام شاعرهم بالقافية الواحدة(٥) .

وقد عقّب الأستاذ عباس محمود العقاد على هذه الآراء(٦) مبيّنا أن السبب في عدم وجود الملاحم عند العرب الأقدمين يرجع إلى أنّ عناصر الملحمة لم تتكامل عند العرب ، ولذلك لم ينظموا فيها . ومن أهم عناصر الملحمة - في رأيه - البطولة الخارقة لأناس هم أقرب إلى خلائق ما فوق الطبيعة يحاربون قوما آخرين غير قومهم ، ولا تنحصر حروبهم بين قبيلة وقبيلة من أمة واحدة ، كما كان الحال عند العرب الأقدمين . فلم تكن القافية هي الحائل دون ظهور الملحمة ، وإلا لوجدت القصة المطوّلة المنثورة التي لا تحتاج إلى وزن ولا قافية . ومن ثم لا يمكن أن نصم الأدب العربي بالنقص والقصور الفني لعدم وجود الملاحم فيه ، بل كان من الطبيعي - في رأي العقاد - ألا توجد الملاحم في هذا الأدب «لأن الموضوع نفسه لم يوجد عند العرب لينظموا فيه » .

* * *

ومهما يكن من أمر ، فقد استدركت العامية على الفصحى ، واشتملت على العديد من الملاحم الشعبية كسيرة أبي زيد الهلالي ، والزير سالم ، والظاهر بيبرس وغيرها ، وبينت دراسة نُشرت مؤخرا بالكويت ( سنة ١٩٨٥م ) ، أن إحدى الملاحم الشعبية العربية التي أُلفت في القرن الخامس الهجري ، وهي ( سيرة فيروز شاه ) ، ليست إلا ترجمة شعبية نثرية حرّة مبكرة لأهم أحداث شاهنامة الفردوسي ، وهي أسبق في الوجود من ترجمة البنداري(٧) ، التي أتمها سنة ٦٢١ هـ .

وربما كان للشاهنامه أثر في نشأة فن الملاحم الشعبيةوتطوره عند العرب ، ولكن هذه المقولة تحتاج الى دراسات مستفيضة متعمقة ، كما أن العناية بالأدب الشعبي ليست من أغراض هذا البحث .

* * *

---

(٥) انظر : عبد الوهاب عزام ، الشاهنامه ، مقدمة الترجمة العربية ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٩٣٢م (١٣٥٠ هـ) ، ص ٢٣ ، ٢٥ . والدكتور زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٦) في كتابه : أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، طبع دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣ م .

(٧) انظر : محمد رجب النجار ، سيرة فيروز شاه ، أو الرواية الشعبية العربية للشاهنامة الفارسية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ١٣ ، عدد ١ ، الكويت ١٩٨٥ م .

على أن محاولات عديدة قد بذلت في الأدب العربي على مرّ العصور للخروج من إسار القافية الواحدة ، فنشأت الموشحات والمزدوجات والرباعيات ، لكن بعض الشعراء المحدثين ابتدعوا ما سموه «بالشعر المرسل» ، لا يلتزم فيه الشاعر قافية واحدة ، وإنما يرسل شعره إرسالا ، ورأوا أن هذا النوع يصلح للشعر القصصي .

وقد نظم « جميل صدقي الزهاوي » ـ وهو من شعراء العربية والفارسية معا ـ أول قصيدة عربية في الشعر المرسل سنة ١٩٠٥ م(٨) ، ثم ما لبث الأستاذ محمد فريد أبو حديد أن نظم بنفس الطريقة بعض قصص الشاهنامه ، كسهراب ورستم ( ١٩١٨ م )، ومسرحية «خسرو وشيرين » ( ١٩٣٢ م ).

وبقدر ما كانت هذه المحاولات مظهرا من مظاهر اتصال أدبنا العربي الحديث بالآداب الأوروبية ، كانت بمثابة استجابة لتوجيه ابن الأثير في ( المثل السائر ) بالابتعاد في المطولات والقصص عن التزام القافية الواحدة .

* * *

لكننا إذا تركنا القضايا التي أثيرت في الأدب العربي حول الشاهنامه ، ورحنا نتلمّس أثرها الفني والجمالي في الأدب العربي ، وجب علينا منذ البداية أن نتعرف على الوسائل التي بها اطلع الأدباء العرب ـ ممن لم تكن لهم معرفة بالفارسية ـ على شاهنامه الفردوسي .

ولقد تعرف الأدب العربي على الشاهنامه في القرن السابع الهجري من خلال ترجمة نهض بها الفتح بن علي البُنداري الإصفهاني(٩) . وأهم خصائص هذه الترجمة أنها منثورة صاغها المترجم في عبارة عربية بليغة ، غير أنه اختصر من الشاهنامه نحو ثلث حجمها ، وحذف منها ـ من بين ما حذف ـ ما يمكن أن نسميه بالجانب الغنائي الذي برع فيه الفردوسي ، وأضفى على عمله بهاء ورواء ورونقا ، كمقدمات الفصول التي يتحدث فيها الشاعر عن نفسه أو يعظ ويبين العبر من تقلب الأحداث ، وأوصاف الحروب ، والمآدب ، والخيول ، كما اختصر المترجم الرسائل

---

(٨) انظر : س . موريه ، حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي الحديث ، ترجمة سعد مصلوح ، ص ٢٥ .

(٩) لا نكاد نعرف من حياته إلا أنه ولد في إصفهان ، وأنه ترجم الشاهنامه الى العربية ، بأمر الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، بين سنتي ٦٢٠ ـ ٦٢١ هـ . (انظر دائرة المعارف الإسلامية ، مادة البنداری ، وعزام : مقدمة الترجمة العربية ، ص ٩٦ ـ ٢٩٨).

والوصايا ، ونقل حوادث الشاهنامه « مجملة مجردة من أوصاف الشاعر المسهبة ، وما يتصل بها من تفصيل دقيق»[١٠] .

والظاهر أن صنيع البنداري بالشاهنامه قد قلل من أهميتها وأفرغها من جانب كبير من قيمتها الفنية والجمالية ، فبدت وكأنها لا تعدو أن تكون كتابا من الكتب التي اشتملت على تاريخ الفرس القدماء ، والتي تكثُر في المكتبة العربية كتاريخ الطبري والمسعودي والثعالبي وغيرهم .

فلقد قصّت الترجمة من أجنحة الشعر المرفرفة في الأصل الفارسي ، وغضّت من غنائِيتها المنغّمة ، وبدّدَت ما فيها من الومضات والإشراقات الوجدانية .

ونحن نعرف أن الشاهنامه في أصلها الفارسي لا تكتفي من الحوادث بسردها فحسب ، بل هي عمل أدبي فذّ تنعكس فيه العاطفة الإنسانية في شتى أحوالها وسائر تقلباتها ، وترتبط فيه العلل بمعلولاتها والآثار بمؤثّراتها المباشرة وغير المباشرة ، وتتشكّل فيه صور الأبطال في المنشط والمكره ، وفي الحرب والسلم ، وتتجلى فيه الوقائع وكأنها تُرى رأيَ العين .

لكن البنداري أغفل ذلك كلّه ، ونقل الحوادث مجردة من التفصيل والتصوير الشعري ، فطغى فيها جانب السرد التقريري على الجانب الذاتي طغيانا واضحا ، فأصبحت الترجمة هيكلا من الأحداث ، مجرّدا من عوامل الإعمار الفنية والجمالية التي بذل فيها الفردوسي مُهجته وقضي فيها من عمره ثلاثين عاما أو يزيد .

ويحقّ لنا هنا أن نتساءل : ما الذي حمل البنداري على هذا الاختصار ، مع قدرته الكاملة على الترجمة ( نثرا ) من الفارسية إلى العربية وتملّكه لناصية اللغتين معا ؟

لعل ذلك يرجع إلى ميله الواضح إلى اختصار الكتب الكبيرة ، فالمعروف أنه اختصر كتابين عربيين للعماد الإصفهاني هما : ( تاريخ السلاجقة ) و ( البرق الشامي )[١١] ؛ فهو بصنيعه في ترجمة الشاهنامه إنما يستجيب لهذا الميل عنده .

على أنه من اليسير علينا ـ برغم ندرة معلوماتنا عن البنداري ـ أن ندرك من خلال النّتف المتفرّقة التي ذكرها ـ عرضا ـ في الترجمة أن البنداري كان في عجلة من أمره ، يريد أن يفرغ من

---

(١٠) عبد الوهاب عزام ، الشاهنامه ، ترجمة الفتح بن علي البنداري ، المقدمة ، طبع مصر ، ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣٢ م ، ص ٩٨ .

(١١) الترجمة العربية ، ص ١ : ٣ ، وانظر أيضا دائرة المعارف الإسلامية : بنداري.

الـترجمـة في أسرع وقت ، فقد استبد به الشوق إلى وطنه إصفهان ، وهو مقيم على الترجمة في دمشق ، يتطلع إلى اليوم الذي ينهي فيه مهمته التي كلّفه بها الملك المعظّم ، ويقبض جائزته ويأوب إلى وطنه .

ولقد بدا إحساس البنداري بهذه الغربة ملحّاً وهو يترجم قصة ذهاب «كيوبن كودرز» الإصفهـاني إلى تركستان باحثا عن كيخسرو ، ويقول : « ومكث «كيو» كذلك يدور في بلاد توران . . حتى أتت عليه سبع سنين لم يضع فيها ساعة سلاحه ، ولا أراح يوما فرسه . . . يسير بين الجبال والشعاب بعيدا عن الأحباب والأصحاب ، حليفا للوجوم ، أسيرا للهموم . وكأنما تكلم على لسانه مترجمُ الكتاب الفتح بن علي ، حيث باح بشكوى الاغتراب حين شطّت داره ، وامتدت أسفاره حيث قال في كلمة له كتبها إلى والده أبي الحسن البنداري ـ رحمه الله ـ بإصبهان :

فيـا صاح استمـع أُبْثْـك شَكوى نزيـعٍ لايـرى يومـاً قرارا
بعيـدِ الـدارِ من أعـلام جَيٍّ تغـرّبَ يركـبُ الخُـططَ الـغـمارا

وكما عاود « جيو » بلدىّ هذا العبد « إصبهان » بعد أن طالت سفرته ، وتمادت غربته مقرون السعي بالنجاح ، فائزا فوز المعلّى من القداح ، فكذلك هو يرجو أن يثني عنانه ويعاود أوطانه ، صاعد الجد ، واري الزند بسعادة مولانا السلطان الملك المعظم . . »(١٢) .

وربما كانت هذه العجلة التي تنطق بها هذه العبارات واحدة من العوامل التي دفعته ـ منذ أن وضع خطته لترجمة الكتاب ـ إلى الاختصار والاقتصار ، فتجنب الترجمة الكاملة للشاهنامه ، وعمد إلى نقل حوادثها مجملة مجرّدة ، فاستطاع في ثمانية عشر شهراً فقط إنجاز مهمته التي بدأها في جمادى سنة ٦٢٠ هـ ، وانتهى منها في شوال سنة ٦٢١ هـ . ولو أن البنداري تمهل واصطبر لاستطاع أن يترجم الشاهنامه برّمتها ، ولأحسن بذلك إلى الأدب العربي أعظم الإحسان .

* * *

ومن ثم لم تترك ترجمة البنداري منذ إتمامها في أوائل القرن السابع حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري أثراً واضحاً مذكوراً لهذه الملحمة على أدبنا العربي ، ورغم أن من الثابت أن بعض الأدباء والشعراء العرب في العصور السابقة كانوا حريصين على اقتناء هذه الترجمة ، حيث كان من بين النسخ الخطية التي اعتمد عليها الدكتور عبد الوهاب عزّام في تحقيق ترجمة البنداري للشاهنامه نسخة تملّكها ـ كما يظهر من صفحة العنوان فيها ـ الشاعر المعروف أبو شهاب الدين

(١٢) أيضا : ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

محمد الخفاجي المصري المتوفي سنة ١٠٦٩ هـ[١٣] ، لكن لم يظهر ـ مع ذلك ـ للشاهنامه من أثر بارز في آثار الأدباء العرب .

ويمتد هذا الحكم ليشمل الأدب في العصر الحديث نفسه قبل طبع ترجمة البنداري سنة ١٩٣٢ م ( ١٣٥٠ هـ )، فلم يتيسر لي العثور على شاعر اعتمد الترجمة العربية للشاهنامه وتأثر بها تأثراً مباشرا أو غير مباشر ، وإنما كان قصارى الشاعر ـ إن هو استعان على مسألة يعالجها أو قضية يعرضها بشاهد من تاريخ الفرس ـ أن يلتمس هذا الشاهد في الأفكار الشائعة بين عامة المثقفين أو فيما يرد بالتواتر في كتب التاريخ العام ، مثال ذلك تلك القصيدة الطويلة التي نظمها خليل مطران ( ١٨٧٢ ـ ١٩٤٩م ) ، بعنوان (مقتل بزرجمهر) ، والتي يقدّم لها الشاعر بكلمة يقول فيها : «اشتهر كسرى بالعدل ، وكان بلا نزاع أعدل ما يكون الحاكم المطلق اليد في أحكام بلاده : فإن كان ما وصفناه في هذه القصيدة إحدى جنايات مثله في العادلين فما حال الملوك الظالمين » . ويقول في مطلعها :

سجدوا لكسرى إذ بدا إجلالا     كسجودهم للشمس إذ تتلألأ[١٤]

ويكفي في هذا المجال أن نذكر من فحول شعرائنا أمير الشعراء أحمد شوقي ، الذي يخال المرء حين يطالع شعره أن بينه وبين الفردوسي شبها وقربي ، وربما كان أقرب شعرائنا إلى الانفعال بالشاهنامه إن وقف عليها وطالعها ، إذ أن « شعره ذو طابع ملحمي حافل »[١٥] ، يتدفق تدفق السيل المنهمر ، لا يتوقف أو ينثني إلا لكي يدلي بحكمة مأثورة أو يفصح عن عبرة بالغة ، لكن شوقي لم تبدر منه بادرة تدل على أنه تأثر بالشاهنامه أو حتى طالعها ، وكان مجمل ما ذكره عن الفرس في ديوانه نتفا متفرقة[١٦] لا تدل على أنه توقف عند آثارهم مليا .

أما الأستاذ محمد فريد أبو حديد فقد ترجم إحدى القصص المشهورة في الشاهنامه شعرا ، وهي قصة سهراب ورستم ( سنة ١٩١٨ م) ، لكنه استعان في ذلك بترجمة الشاعر الإنجليزي ماتيو آرنولد .

---

(١٣) عبد الوهاب عزام ، مقدمة الترجمة العربية للشاهنامه ، ص ٨ .

(١٤) ديوان خليل مطران ، طبع بيروت ، ص ١٢٠ .

(١٥) إيليا حاوى : خليل مطران ، طليعة الشعراء المحدثين ، طبع بيروت ١٩٨١ م ، ص ١٩ .

(١٦) راجع ديوان شوقي ، تحقيق أحمد الحوفي ، مصر ١٩٧٩ ، ١ : ١٧٧ ، ٢٠٧ ، ٦٢٤ ، وقد توفي شوقي سنة ١٩٣٢ م

فبدا وكأن الترجمة العربية للشاهنامه ، لم تُحدث أثرا ، وإنما ذهبت بددا وضاعت سدى .

وإلى هذا الرأي نفسه انتهى سليم البستاني ، فترجم الإلياذة الى العربية ، فقد لاحظ في مقدمة ترجمته التي نشرها سنة ١٩٠٤ م ، أن ترجمة البنداري للشاهنامه : « قد ذهبت ضياعا ، وبقيت أثـرا بعـد عين نقـرأ عنها في كتب التاريخ ، وليس في الأدباء من روى لنا منها حديثا مذكوراً » ، غير أن البستاني قد عزا ذلك إلى سبب جوهري عنده ، وهو أن الشاهنامه إنما تُرجمت إلى العربية نثرا ، و « لا يخفى أن الشعر إذا تُرجم نثرا ذهب رونقه ، وبهت رواؤه ، والظاهر أن هذا الحكم انطبق على تعريب الشاهنامه فأهملها الناس»[١٧] . ولذلك جهد البستاني في ترجمته للإلياذة لكي يتفادى أخطاء البنداري ، فترجم الملحمة اليونانية برمّتها شعرا بديعا رائقا ، وقرّبها بكل ما أوتي من بيان وقدرة على الإبداع إلى الذوق العربي ، فراجت كل الرّواج ، وكادت أن تغني الأدب العـربي من افتقـاره إلى جنس الملحمـة ، ومـلأت ذلـك الفراغ الذي كان يُنتظر للشاهنامه أن تملأه فيما لو كانت قد ترجمت بتمامها ترجمة توائم ذوق العرب ، فتسد في أدب القوم ثغرة وتفي فيه بحاجة .

* * *

وفي سنة ١٩٣٢ م ، بدأ فصل جديد من فصول العلاقة بين الأدب العربي والشاهنامه ، حين نشر الدكتور عبد الوهاب عزام ـ المدرس بالجامعة المصرية آنذاك ـ ترجمة البنداري نشرة محققة ، وصدّرها بمقدّمة مستفيضة بلغت نحو مائة صفحة من القطع الكبير ، ينبغي أن تعد كتابا كاملا لاشتمالها على تحقيقات علمية دقيقة عن الشاهنامه ومصادرها وأقسامها ، وعن الفردوسي وسيرته ، وعن أشخاص هذه القصص وأبطالها ، وعما حوته من أخبار الأمم والشعوب ، كالروم والهند واليونان والعرب ، وأفرد المحقق في آخر المقدمة فصلا عن البنداري ، وبيّن قيمة الترجمة ومكانتها الأدبية والتاريخية .

ولا شك أن الدكتور عزام كان يدرك ما تنطوى عليه ترجمة البنداري من قصور وعوار ، ولذلك لم يشأ أن يقابل الترجمة كلها بأصلها الفارسي ، إذ «وجدتُ هذا متعذّرا أو مستحيلا ، فاكتفيت بمراجعة الأصل حين يضطرب سياق الترجمة ، أو يغمض الكلام . . الخ » ، وانتهى من هذه المقابلة الجزئية إلى إضافات أضافها على ترجمة البنداري تمثلت في أن «عزام» :

---

(١٧) سليم البستاني ، مقدمة ترجمته للإلياذة ، طبع بيروت ، ص ٧٤ .

ـ أكمل الترجمة في عدة مواضـع .
ـ أثبت فصولا ونُبَذا حذفها المترجم
ـ جعل بعض الفصول التي ترجمها هو شعرا ، أراد بها : « أن تكون نموذجا من شعر الشاهنامه »[18] .

وكان لصنيع عزام أكبر الأثر في ارتفاع صيت الشاهنامه وناظمها إلى الأوج ، إذ تلقت المجـلات الأدبيـة الكـبرى في مصر والعـالم العربي كالهلال والمقتطف والرسالة[19] عمل عزام بالحفاوة والترحيب ، ودعت أدباء العرب إلى ضرورة اقتناء هذا الأثر العالمي الرائع الذي يتعين على كل أديب أن يقـرأه ، ويفيد به ، وأفسحت تلك المجلات صفحاتها للعديد من المقالات والدراسات والتعليقات في الموضوع ، ولم يكن كُتّاب هذه التعليقات من العرب وحدهم ، بل كان بينهم مستشرقون أعربوا عن إعجابهم بجهد عزام في تحقيق الترجمة العربية والتعليق عليها ، ومن بين المستشرقين الذين نشرت تعليقاتهم حينذاك : نيكلسون وجيب، وريتر[20] .

وكان من الطبيعي أن تتسع دائرة الاهتمام فتتجاوز الشاهنامه إلى ميدان الأدب الفارسي الرحيب ، فانفسح المجال في المجلات الأدبية العربية للتعريف بروائع ذلك الأدب ، والحديث عن كبـار شعـراء الفـرس كحـافظ ، وسعـدي ، وجلال الدين الرومي ، والعطّار ، والخيّام وغيرهم ، ولبيان عمق الصلات بين الأدبين العربي والفارسي ، وما امتاز به الأدب الفارسي على الأدب العربي من سعة الخيال وكثرة التفصيل حتى في الموضوع المشترك بينهما[21] . وبدت هذه المقالات بمثابة قبسات نورانية تتلألأ في جو معبّأ بالمؤثرات الغربية الوافدة من الآداب الغربية .

* * *

ولم يمض أكثر من عامين على نشر الترجمة العربية حتى احتفلت إيران بالذكرى الألفية للفردوسي ( سنة ١٩٣٤ م) ، ودعت إليها أربعة من الأدباء والمؤرخين العرب هم : الدكتور عبد

---

(١٨) عبد الوهاب عزام ، الشاهنامه ( الترجمة العربية) ، طبع دار الكتب المصرية ، المقدمة، ص ١٥

(١٩) انظر : الهلال ، عدد يونيو ١٩٣٢ م ، المقتطف ، السنة ٨١ ، المجلد الثالث (أكتوبر ١٩٣٢)، ص ٣٥٢ - ٣٥٤ ، والمجلد الخامس من نفس السنة (ديسمبر ١٩٣٢)، ص ٦١١ . وانظر أيضاً الرسالة، العدد الأول من السنة الأولى (مايو ١٩٣٣) الصفحة الأولى .

(٢٠) انظر : الرسالة ، السنة الأولى ، العدد الثاني ، ( مايو ١٩٣٣ م ) ، ص ٤١ .

(٢١) راجع : في الهلال ، عدد يونيو ١٩٣٢ ، حديثاً أجراه الأديب طاهر الطناحي مع الدكتور عبد الوهاب عزام .

الوهاب عزام ، والمؤرخ الأديب الأستاذ عبد الحميد العبّادي من مصر ، والشاعر الكبير جميل صدقي الزّهاوي ، والأديب الأستاذ أحمد حامد الصرّاف : من العراق .

فجهدت المجلات الأدبية أن تقدم لقرائها من المقالات حول الفردوسي وشاهنامته ما يرتفع إلى مستوى هذا الحدث الثقافي الكبير ، وأسهمت الإذاعة المصرية الناهضة بنصيب[٢٢] ، واستمر الاهتمام فترة من الزمن حتى شاركت فيه بعض الهيئات الشعبية ، إذ أقامت جمعية محبّي الفنون الجميلة معرضاً للفن الفارسي الإسلامي بهذه المناسبة بالقاهرة[٢٣] ( ٢٤ يناير ١٩٤٥ ) .

والحق أن الاحتفال بالذكرى الألفية للفردوسي قد عاد ـ مثلما عاد نشر عزام للترجمة العربية ـ على الأدب العربي بثمار بالغة الوفرة والنضج تمثلت في الأشعار العربية التي ألقيت في تلك المناسبة وبعدها ، فلقد ألقى الزهاوي قصيدة طويلة بعنوان : ( أتينا محتفلين )[٢٤] ، كما نظم الدكتور عزام ـ بينما كان في (طوس) واقفا على قبر الفردوسي ـ قصيدة بلغت عدة أبياتها خمسة وثلاثين بيتا ، وسيأتي الكلام عن هاتين القصيدتين وغيرهما بعد قليل .

ولقد تدفق سيل من المقالات الأدبية الرائعة دارت كلّها حول الفردوسي والشاهنامه ، بذل فيها كاتبوها وسعهم ـ حين عرضوا للشاهنامه نفسها ـ لكي يستخرجوا من ترجمة البنداري العربية بعض الصور الفنية والمواقف الإنسانية المؤثرة التي تليق بجلال المناسبة ، وقد نجح بعض هؤلاء الكُتّاب (كالأستاذ عبد الحميد العبادي) في ذلك نجاحاً باهراً[٢٥] .

غير أن سيرة حياة الفردوسي كانت تبدو أكثر جاذبية وإثارة عند بعض الكتاب من موضوع الشاهنامه نفسه ، ولذلك انصرفت عنايتهم إلى الخوض في حياة الفردوسي والدفاع عنه ـ خاصة ـ بإزاء ما لحقه من ظلم وافتراء على يد المستشرق الإنجليزي إدوارد جرانفيل براون[٢٦] . والواضح أن هؤلاء الكتاب ما فعلوا ذلك إلا حين أعيتهم الحيلة في العثور في الشاهنامه ـ من خلال ترجمتها العربية ـ على ما يتناسب مع مقام هذا الشاعر الكبير من قيم جمالية إنسانية كانت

---

(٢٢) أذاعت محطة الاذاعة المصرية في ١٧ ديسمبر ١٩٣٤ حديثاً للأستاذ عبد الحميد العبادي عن (الفردوسي). راجع : مجلة الرسالة ، العدد ٨٣ ، ٤ فبراير ١٩٣٥ م .

(٢٣) مجلة الهلال ، فبراير ١٩٣٥ م .

(٢٤) انظر : ديوان جيل صدقي الزهاوي ، المجلد الأول ، طبع دار العودة ، بيروت ص ٦٩٣ .

(٢٥) راجع مقالية الرائعين في الرسالة ، العدد ٨٣ و٨٤ ، فبراير ١٩٣٥ م .

(٢٦) كان الأستاذ براون في الجزء الثاني من كتابه : « تاريخ الأدب في إيران» قد رأى أن الشاهنامة ليست في المستوى العظيم من الشعر ، وقد ترجم ذلك الجزء الى العربية المرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربي ، ونشره في سنة ١٩٥٤ م .

أو فنية . ولقد سلّم بعضهم - أمام عجزهم عن استنطاق الترجمة - بأنه لا بد للمرء أن يتعلم الفارسية « لأننا نعتقد أن الشطر الأعظم من قيمة الفردوسي ( والشاهنامه ) يضيع على الذين لا يتذوقون لغته حق التذوق»(٢٧) .

هذا ، وقد شارك الأدباء العرب في كتابة مثل هذه المقالات بعض الأدباء الإيرانيين ، فكتب الأستاذ مرتضى الحسيني الفاضلي الإيراني مقالا في «مجلة المقتطف»(٢٨) سنة ١٩٣٤ م ، بعنوان : «الفردوسي وشاهنامته» ، سلك فيه نفس مسلك الكتاب العرب ، لكنه بيّن في ردّه على المستشرق براون : «أن كل شعب أعلمُ بأدبه وخصائص الشعر فيه وأقدر على التمييز بين الغث والثمين ، فإن ألحانه الفنية تقتضي امتزاجا بالبيئة التي صدر عنها ذلك الفن ، ونشأت فيها تلك الصور الأدبية » ، فبدا وكأن الأستاذ الفاضلي يزيد من غربة الشاهنامه بين العرب ، إذ يقرّ بأن عدم تذوّقهم لها أمر له وجاهته ، فهم ليسوا من أهل اللغة أو البيئة الفارسية حتى تكتمل عندهم ملكة التذوّق لذلك الأدب ولأهم آثاره الفنية .

أما الدكتور عزام ، فقد كان - رحمه الله - صاحب النصيب الأوفى ، والقدح المعلّى في هذا الميدان ، فعقب عودته من إيران بعد مشاركته في الاحتفال بالعيد الألفي لمولد الفردوسي ، نشر في العدد الصادر في ٢٩ أكتوبر ١٩٣٤ م من مجلة الرسالة(٢٩) مقالا بعنوان : «الشاهنامه» ، ضمّنه ترجمة عربية للكلمة التي ألقاها بالفارسية في طوس ، ثم شرع بعد ذلك في نشر سلسلة من المقالات المتتابعة التي جعل عنوانها : إلى مؤتمر الفردوسي : بين القاهرة وطوس ، وصف فيها رحلته إلى إيران للمشاركة في الاحتفال بالعيد الألفي للفردوسي ، وظلت مجلة الرسالة زهاء ثلاثة أشهر تنشر تباعا هذه المقالات التي بلغت أربعة عشر مقالا(٣٠) .

وبرغم هذا الجهد الكبير الذي بذله الدكتور عزّام ، فقد كان يشعر بأن الترجمة العربية التي توفّر عليها سنوات طويلة ، فأخرجها محققة أفضل ما يكون التحقيق ، وأكمل بعض مواضعها ، وزوّدها بالهوامش والتعليقات المفيّدة الضافية ، وقدّم لها بمقدمة طويلة رائعة - تلك الترجمة تنطوي على نقص واضح بيّن ، ولا يمكن أن تكون كافية للقارىء العربي . فقد رأى عزّام أن

---

(٢٧) من مقال للأستاذ أحمد قاسم جودة ، بعنوان : الفردوسي ناظم الشاهنامه ، الهلال مايو ١٩٣٤ م .

(٢٨) العدد الثالث ، السنة الخامسة والثمانون ، ص ٢٧٧ - ٢٨٠ ، ٣٩٥ .

(٢٩) العدد : ٦٩ .

(٣٠) من العدد ٧٥ في ١٠/١٢/١٩٣٤ الى العدد ٨٨ في ١١/٣/١٩٣٥ م .

البنداري « لم ينقل إلى العربية جمال شعر الفردوسي ، ولكن نقل حوادث الشاهنامه مختصرة» ، وانتهى عزّام إلى أنه « لا بد أن يُكمل نقص هذه الترجمة بترجمة منظومة للكتاب كلّه أو لفصول منه »(٣١) .

والحق أن هاجس الترجمة المنظومة للشاهنامه ظل يراوده منذ أن شرع في تحقيق ترجمة البنداري ، ولذلك جعل ترجمته لبعض الفصول التي أكملها ترجمة منظومة أراد بها « أن تكون نموذجا من شعر الشاهنامه »(٣٢) والتي سبقت الإلياذة في الترجمة إلى العربية بنحو سبعة قرون ، ولكن الواضح أن الأسلوب الذي انتهجه البستاني في الترجمة كان له الأثر البالغ في ذيوع الإلياذة وانتشارها .

على أن الإحساس بحاجة الأدب العربي إلى ترجمة كاملة ومنظومة للشاهنامه لم يكن وقفا على الدكتور عزّام وحده ، بل راود هذا الإحساس كذلك أحد الأدباء الإيرانيين من أصحاب اللسانين ، وهو «ميرزا عباس خان الخليلي» ، صاحب جريدة ( إقدام ) الفارسية ، فلقد نشرت له مجلة المقتطف ( ديسمبر ١٩٣٤م ) ، قطعة من الشاهنامه ترجمها الى العربية وبعث بها من طهران ، وقدّمت المجلة للقطعة بأن الرجل قد «ترجم جانبا كبيرا من شعر الفردوسي إلى العربية نظما» ، غير أني لم أقف على أشعار مترجمة أخرى للميرزا خان الخليلي .

أما القطعة التي ترجمها من الشاهنامه نظما فقد جعل عنوانها : من كتاب «بيران» أحد قوّاد الترك إلى «كودرز» أحد أمراء الفرس ، وقد نظمها ميرزا خان الخليلي على هيئة الموشحات ذات الأقفال المختلفة القافية ، أو على نمط ما يسمى في فنون الشعر الفارسي بـ «التركيب بند» . وقسّم كل فقرة إلى خمسة أبيات . أربعة منها القافية فيها موحدة ، بينما هي في البيت الخامس ( القفل ) مغايرة ، ويبلغ عدد أبيات القطعة بذلك أربعين ، موزّعة على ثماني فقرات ، جاءت أولاها على النحو التالي :

أنـذَروا « بيرانَ » بالمـوتِ ومـا     من يَدِ المـوتِ مفـرٌ لو دَرَى
فانْـبرى يحتـالُ حَقنـا للدِّمـا     ودعـا كاتبَـه كيْ يسـطُرَا

---

(٣١) الدكتور عبد الوهاب عزام ، ( مقال ) ، مجلة الرسالة ، العدد ٦٩ سنة ١٩٣٤ م ، وربما كان هذا من بين الأسباب التي أدت الى فتور اهتمام الدكتور عزام بالشاهنامه فجأة منذ أوائل سنة ١٩٣٥ م فلم يكتب - فيما نعلم - إلا مقالا بعنوان «مكانة الشاهنامة بين الأمم» ، سنة ١٩٤٤ م ، وصرف النظر عن إعادة طبع الترجمة بعد نفادها .

(٣٢) مقدمة الترجمة العربية ، ص ١٥ .

(٣٣) راجع : مقاله عن الشاهنامه ، بالعدد ٦٩ من مجلة الرسالة .

قال : فابدأ حامدا ربَّ السما واستعِذْ بالله منْ شرّ الورَى
أنا أرجوكَ إلهي كرما وفؤادي مُعْلنٌ ما استترا

أن تُبيدَ الحرب من لَوْح الوجود
وتزيلَ الضّغنَ عن قلبِ الجنود

والمترجم يتراءى من وراء هذه « القطعة » بمختلف فقراتها مالكا لناصية الشعر العربي ، قد استطاع أن يقّدم لنا ـ من خلالها ـ نموذجا لكيفية ترويض الشاهنامه وتطويعها للشعر العربي ، أو قل استطاع أن يوطىء أكناف الشعر العربي لاستيعاب القيم الجمالية للشاهنامه . فقد أحسن بناء ترجمته وأحكم تركيبها في بساطة ووضوح لا يبدو فيه أثر الغرابة أو العجمة .

غير أن هذه المحاولة الرائعة لم تلفت انتباه أي من أدباء العرب ، بل ونقّادهم ، ومضت ـ برغم أهميتها ـ دون متابعة أو أثر .

* * *

فلنترك الآن هذه المحاولة الناضجة لترجمة قطعة من الشاهنامه ، وننطلق لننظر في مرآة الشعر العربي الحديث والمعاصر لنرى إلى أي مدى انعكست الشاهنامه بقيمها الإنسانية والفنية على هذا الشعر .

ولقد تتبعنا ـ في هذه الدراسة ـ المؤثرات المباشرة التي تعلن عن نفسها بصراحة ودون مواربة ، فأحصينا منها مسرحية شعرية وخمس قصائد ، أما المؤثّرات المحتملة المنبثّة بين ثنايا الرؤى فلم نعثر على شيء منها ، وإن كنا لا نزعم أن بوسعنا إدراك كل مؤثر محتمل ، لا سيّما وأن بعض شعرائنا المحدثين والمعاصرين قد أعلن أنه قد قرأ الشاهنامه ، كالشاعر الأستاذ أحمد رامي ، والشاعر السعودي المعروف حسن عبد الله القرشي(٣٤) ، لكننا ما وقفنا في أعمالهم على مردود يلفت النظر ، اللهم إلا إذا سلمنا مع شاعر كبير كالزهاوي بأن مشاعره الجمالية الأساسية نفسها وقيمه الفنية في الشعر والنثر على السواء ، إنما هي مكتسبة من الشاهنامة ، يقول مخاطبا الفردوسي :

---

(٣٤) انظر : أحمد رامي : مقدمة رباعيات الخيام ، طبع مصر ، ١٩٢٤ م ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ، ولا ريب أن رامي قرأ الشاهنامه بالفارسية . وديوان حسن عبد الله القرشي ، طبع بيروت ، ١٩٧٢ م ، المقدمة ، ص ٢٢ .

أنـت في سِفْـرك الـبـليـغ نبّـي وكـتـابُ الملوك من معجـزاتـك
كل ما عنـدنـا من الـنـظم والـنـ ـثـر قبسنـاه من سنى آيـاتـك[٣٥]

أو كما يقرر الشاعر المغربي الأستاذ عبد القادر المقدّم بأنه مذ كان صبيا ، والفردوسي مثله الأعلى في الشعر يلهمه معانيه وأخيلته ، يخاطب الفردوسي قائلا :

أبـا الـعـرائس أدعـوه وأرمـقـه فوق الملاحـم ، مرتـقـىً دام مُرْتَـقَـبـا
من يوم كنـتُ صبـيـا، وهـو لي مثـل كم ذا أنـاجيـه ، بدرا يُلهِـم الأدبـا[٣٦]

فاعتراف الشاعرين الكبيرين بأن تأثير الشاهنامه عليهما تأثير معنوي وجمالي شامل لا يقف عند حد التفصيل قضية تحتاج الى تأمل ؛ ولعل باحثا متأنّيا يستطيع أن يحدّد لنا بدقة مفردات هذه المؤثرات الإبداعية الشاملة للشاهنامه على شعرنا العربي الحديث والمعاصر .

* * *

أما المسرحية فهي للأديب الكبير « الأستاذ محمد فريد أبو حديد »[٣٧] ، الذي كان من أشدّ أنصار الشعر المرُسَل خاصة في نظم المطوّلات والقصص ، احتيالا على القافية التي تمثل حجر عثرة لابد من إزالتها من طريق الشاعر في هذا النّوع من الشَعر .

ولقـد كان للأستاذ محمد فريد ولوع خاص بالشاهنامه منذ ريعان شبابه ، فترجم قصة سهراب ورستم إلى العربية شعرا مرسلا [٣٨] في سنة ١٩١٨ ، عن ترجمة الشاعر الإنجليزي ماتيو آرنـولـد . ثم ما لبث أبـو حديد بعد أن قرأ الترجمة العربية للشاهنامه [٣٩] التي صدرت سنة ١٩٣٢ م أن نشر مسرحيته الرائعة «خسرو وشيرين» في السنة نفسها .

و « خسرو وشيرين » مسرحية في الشعر المرسل تقع أحداثها في أربعة فصول تتابع بتتابع أحداث الشاهنامه نفسها مع وجود بعض الفروق الطفيفة بينهما ، كالتحوير الذي أجراه المؤلف في شخصية «شيرين» حين جعلها راعية غنم فقيرة من عامة الشعب ، وليست بأميرة أرمنية ، كما

---

(٣٥) من قصيدته « أتينا محتفلين » ، ديوان الزهاوى ، طبع دار العودة ، بيروت ، المجلد الأول ، ص ٦٩٥ .
(٣٦) من قصيدة بعنوان : الفردوسي ، مجلة دعوة الحق ، المغرب ، السنة ١٧ ، العدد ١٠ ، (١٩٧٦م).
(٣٧) ولد سنة ١٨٨٣ م ، وتوفي سنة ١٩٦٧ م .
(٣٨) حاولت العثور على نسخة من هذا العمل النادر عن طريق الأستاذ أمجد بن محمد فريد أبو حديد ، ويعمل بإدارة جامعة قطر ، فلم نوفق (١٩٩٠ م ).
(٣٩) انظر : محمد عبد المنعم خاطر ، محمد فريد أبو حديد ، مصر ١٩٧٩ ، ص ٣٢ .

ورد في الشاهنامه . وتتميز لغة المسرحية بأنها لغة مشرقة ، جرسها الموسيقي واضح مميّز ، وتأتي بعض شطراتها مقفاة أحياناً دونما افتعال . فمثلا يقول خسرو حين يلتقي أول مرة بشيرين :

خســرو : زُهــور تلك أم عيناكِ إذ تَبدين في طُهر ؟
وصفحةُ وجهكِ اللألاء لاحَتْ أم سَنا البَدْرِ ؟
وأنفاسُكِ أم يَسري نسيمُ ساعةَ الفجر[٤٠]

وقد لا يراعي فيها شرط القافية ، كقول كسرى :

لستُ أدري ماذا أصاب فؤادي
أنا بينَ الأنامِ كسرى ، ولكنْ
قد أراني بغير عهدي بنفسي
يعتريني عندَ الحفيظة غيـظٌ
فإذا ماسطوتُ عدتُ لنفْسي
نادماً جازعَ الفــؤاد[٤١] .

وكان الأستاذ أبو حديد قد طبع مسرحيته غُفْلا من اسم صاحبها[٤٢] ودفع بها إلى كبار النقاد والأدباء ليعلنوا عن رأيهم فيها . فقد كان معجبا بها يرى أنها تعدّ قمة ما وصل إليه نتاجه الشعري من جودة وتـوفيق[٤٣] . والحق أنه حقق نجاحا ملحوظا في رسم الشخصيات ودفع الأحداث للوصول إلى درجة التأزّم الذي انتهى بالثورة على خسرو وقتله ثم انتحار شيرين ، كل ذلك دون أن يضطرب العمل أو يختل التناسق .

لكن هذه المسرحية لم تنل من الشهرة والرواج ما كان حقيقا بها أن تنال ، ولعل الأستاذ أبا حديـد نفسه ، قد ساهم بنصيب في خفوت ضوئها وخبوّ أوارها ؛ لأنه لم يقدمها إلى القارىء العربي باعتبارها عملا فنيا رائداً يجمع بين الأصالة والتأثير العميق بالشاهنامه ، وكان من المتوقع

---

(٤٠) المسرحية ، ص ١٤ .

(٤١) مسرحية خسرو وشيرين ، ص ٩٥ .

(٤٢) انظر : مقدمة المسرحية .

(٤٣) راجع : التحليل القيِّم الذي كتبه الدكتور محمد عبد المنعم خاطر في كتابه المذكور، ص ٩٦ وما بعدها . ولابد لنا هنا أن نلاحظ أن أبا حديد كان عضوا بلجنة التأليف والترجمة والنشر التي تكفلت بنشر الترجمة العربية للشاهنامه، وهي الترجمة التي كان الدكتور عزّام قد حققها وقدّمها إلى اللجنة المذكورة لطبعها ، وربما يكون أبو حديد قد طالع أصول العمل قبل طبعه .

لها إذ ذاك أن تحقق من الرواج والتقدير عند القارىء ما يدفع النقاد الى دراستها وتناولها ، وإنما ضيّق الأستاذ مجالها حين احتكم في شأنها إلى مجموعة من النقاد في بداية الأمر ودعاهم إلى التأمل فيها ونقدها إن وجدوا فيها للنقد مجالا ، فأعلن واحد من كبارهم ، وهو الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة ، أنه لا يُسيغ الفن الذي نُظمت فيه ( أي الشعر المرسل ) ، لأنه لا يقع من نفسه موقعا حسنا ، يقول الزيات في نقده للمسرحية : « . . فالأبيات تُطربني بأجزائها المتسقة ، وألفاظها المختارة ، ومعانيها السامية ، ولكن أواخرها النواشز تتناكر مع الطبع والسمع ، فتذهب بحلاوة سياقها ، وعذوبة موسيقاها »[٤٤] . وكان من الطبيعي أن يتأثر القراء بهذا الحكم من نقّاد الفن والمتضلّعين فيه ، فيزهدون في قراءة المسرحية ولا يحرصون عليها ، ومن ثم لم يُكتب لها الرواج والانتشار ، لا سيما وأن المؤلف لم يكلّف نفسه مؤنة الردّ بعد ذلك على هؤلاء النقاد ، فلم يثر بسكوته قضية كان من شأنها أن تلفت انتباه القـرّاء إلى مسرحيته وتدفعهم إلى الاهتمام بها .

* * *

أمـا القصائد الخمس ، فترجع اثنتان منها إلى مناسبة الاحتفال بالعيد الألفي للفردوسي (١٩٣٤)، وأولى القصيدتين للزهاوي ألقاها في احتفال طوس ، وتبلغ أربعة وثمانين بيتا ، ونشرتها مجلة الرسالة ، ثم نُشرت القصيدة بعد ذلك في ديوان الزهاوي بعنوان «أتينا محتفلين» ، قال في أولها :

أنت في شعرٍ كانَ فتحاً مبيناً　　　واحدٌ من أولئك الخالدينا
بعد ألفٍ من السنين أتينا　　　بكَ يا فردوسيُّ محتفلينا[٤٥]

والقصيدة الثانية نظمها الدكتور عبد الوهاب عزام ، بينما كان في طوس واقفا على قبر الفردوسي ، وتبلغ القصيدة خمسة وثلاثين بيتا ، جعلها على بحر المتقارب على غرار «الشاهنامه» في أصلها الفارسي ، ونشرتها مجلة الرسالة[٤٦] بعنوان : على قبر الفردوسي ، ومطلعها :

أبا القاسمِ اسمعْ ثناءَ الوفود　　　تُنظّم فيك عقودَ الدُّررْ

(٤٤) انظر مقال الزيات في مجلة الرسالة ، العدد ( ٣٧ ) ، السنة الثانية ، ١٩٣٣ م .
(٤٥) ديوان الزهاوي ، ١ : ٦٩٣ .
(٤٦) العدد ٧٠ ، في ٥/ ١١/ ١٩٣٤ م .

ومنها أبيات من الشاهنامه أبقى فيها على الشطرة الأولى بالفارسية ، وترجم الثانية الى العربية ، كقوله :

لقد صدّق الدهرُ ما قلتَ في — كتابِ الملوكِ بغيبِ النظرْ
بَناهاى آباذْ كَردَدَ خَرابْ — بحرِّ ذُكاءَ وصوبِ المطرْ
بِيْ افكَنْدَمْ از نَظْم كاخِي بُلَنْد — على الريحِ والقَطرِ ما إن يخِرّ

أما القصائد الثلاث الأخر ، فهي متأخرة نسبيا ، ترجع أولاها - في الترتيب الزمني - إلى سنة ١٩٦١ م ، وهي للشاعر اللبناني شبلي الملّاط ، وقد نشرتها مجلة « الدراسات الأدبية »(٤٧) ، بعنوان من شاعر الأرْز إلى شاعر طوس (الفِردوسية) ، تحية للفردوسي شاعر الفرس ، صاحب الشاهنامه ، ومطلعها :

ركنَ الخلودِ عَظائمُ ومعالِ — بقيتْ بقاءَ الدّهرِ للأجيالِ

والقصيدة التالية شدا بها الشاعر اللبناني الأخطل الصغير ، ونشرها في ديوانه(٤٨) بعنوان : «الفردوسي» ، ومطلعها :

يا نهرَ طوسَ أطلالَ واديها — رسالةُ الشِّعرِ عني مَن يؤدّيها

أما القصيدة الثالثة فقد نشرها شاعر المغرب العربي الأستاذ عبد القادر المقدّم ، في مجلة «دعوة الحق» المغربية ، بعنوان : «الفردوسي : الشاعر العظيم ، أو شهيد المجد»(٤٩) . ومطلعها :

أبا الملاحم أَهديتَ النُّهى عجباً — أتحفتَ بالفنّ منه الفرسَ والعربا

***

اذا تأملنا هذه القصائد الخمس نجدها تشتمل على معانٍ تكاد تكون واحدة ، لكن يعبر عنها كل شاعر بطريقته ، ويتميز بعضهم على بعض في التعبير عن معنى من المعاني ، على أن الموضوع المحوري الذي التقى شعراء هذه القصائد جميعاً حوله هو «الفردوسي» .

---

(٤٧) مجلة كان يصدرها قسم اللغة الفارسية بالجامعة اللبنانية ، انظر العدد الثالث من السنة الثالثة (خريف ١٩٦١م = ١٣٤٠ هـ . ش) ، ص ٣٠٢ - ٣٠٦ .

(٤٨) انظر شعر الأخطل الصغير ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط الثانية ، ١٩٧٢ .

(٤٩) راجع هامش ٣٦ ، فيما سبق .

فالفردوسي بحقّ ـ عندهم جميعا ـ أبو الشّعر ، لاقى كل ما يمكن أن يلقاه الشعراء جميعا من ضروب الأهوال وصنوف المحن ، في سبيل فنّه ، لكنه برغم مكابدته للآلام متفائل مستبشر يحلّق من أفق إلى أفق ، تتجدد عنده المقاصد السامية دوما ، كلمّا نال منها مقصداً تطلّع الى مقصد أعلى منه وأسمى ، يخاطب عبد القادر المقدّم الفردوسيّ قائلا :

كأنّما الفنُّ آلى أن تكون له عرائسُ ، دونَ أن تغدو لهنّ أبا
حلّقتَ من أفقٍ توقاً الى أفقٍ منقّبا تَتَوَخّى للعُلا قُرُبا
وأنتَ من ضَرَمِ الأشواقِ في كَبِدٍ ولا تكادُ تُرى للعين مكتئبا

وقد أمضى من حياته زهاء ثلاثين عاما ، وهو يتجملّ بالصبر ، يوجّه الدكتور عزّام حديثه إلى الفردوسي قائلا :

إمام البيان وربُّ القريض وأصبَرَ من للقريض صَبَرْ
ثلاثينَ عاما نسجتَ القريض حليفَ الهموم أليف السَّهَر
ثلاثين عاماً مضتْ للفناء لهنّ اشتريتَ خُلودَ الدَّهَر

وأما «الشاهنامه» ، فهي فخر للشرق والغرب معا ، وزينة للإيرانيين جميعاً ، ودليل على صدق ما أنكره البعض على أهل الشرق من نبوغ ، يقول الزهاوي :

يا كتابَ الملوكِ أنتَ كتابٌ فيه للنّاس حكمةٌ وصوابُ
خلق الفردوسي منكَ خضمًا فَاضَ يرغو كمايفيض العباب
بك للشرقِ ما اهتدى الشرقُ فخرُ بك للغرب ما ارتقى إعجابُ
بك للشرقِ ما اهتدى الشرقُ فخرُ بك للغرب ما ارتقى إعجابُ
بك في أمة قد ازدادت الأخـ ـلاق طيبا وازدانت الآداب
واذا أنكر النّبوغ على الشر ق فريق فأنت أنت الجواب

والشاهنامه فيها من التنويع ما يرفع الملل والسأم عن القاريء، برغم طول قصصها ، هذا إلى ما حوته تلك القصص من عبر وأمثال ، يقول شبلي الملاط :

طَوْراً ترى سِيَرَ الملوك وتارة يُلقي عليكَ وقائعَ الأبطالِ
ويقصّ أحيانا عليكَ خُرافة في منطق عذبِ المقبّل حال
وعقائدُ العجمي في أربابه وغرائبُ العادات والأفعال
بملاحم تبدو لديك طويلةً فإذا قرأت ، فهنّ غيرُ طوال

والشاهنامه بعد ذلك وقبله نتاج إسلامي تبين إلى أي مدى خدم الفرس القرآن ، الذي لما شرّفهم وهداهم إلى الحق ، أرادوا أن يسدوا له الجميل فبذلوا مهجتهم في سبيله ، ينشد الأخطل الصغير :

ما عابه أنّ سيفَ الله جَنْدَ له ... بل شَرّفَ الفرسَ لما جاء يهديها
مشى إليها كتابُ الله يخطِبُها ... فأمهرتْه الغوالي من نَواصيها
غزا الهدى الكفرَ، لا فرسٌ ولا عربُ ... يا وقعةً هزّت الدنيا تَهانيها

واستبدّت بالشعراء جميعا فكرة المقارنة بين الشاهنامه والإلياذة ، فعدّوا الملحمة اليونانية ليست بشيء بجانب الشاهنامه ، يقول الزهاوي :

ما لإلياذة التي حبرّتْها ... يدُ هومير مثلُ ذا الأسلوب
تلك ليل جَهْم وهذا صباحٌ ... مسفرٌ ما بوجهه من شُحوبِ

وقد تردد هذا المعنى عند سائر الشعراء الأربعة جميعاً[٥٠] ، فتناولوه وأكّدوا عليه ، بطرق مختلفة وأساليب متباينة ، وكأنهم ما وجدوا عملا أدبيا عالميا رفيعا ، يمكن أن يطاول الشاهنامة ويقبل المقارنة معها سوى الإلياذة ، أو لعلهم أرادوا جميعا أن يلفتوا الناس إلى روعة الشاهنامه بعدما راعهم الاهتمام الواسع النطاق بالملحمة اليونانية .

وبعد ، فقد دارت إشارات هؤلاء الشعراء حول الشاهنامه ، ولم تتطرق إلى موضوعاتها ، فلم يظفر موضوع من هذه الموضوعات ولو بإشارة من شاعر ، وبدا انفعال هؤلاء الشعراء بالفردوسي نفسه أبلغ وأعمق من انفعالهم بنتاجه الأدبي .

* * *

كان من الطبيعي أن يتم تبادل المواقع بين شعرائنا المحدثين الذين فُتنوا بالفردوسي : شخصيته وعبقريته وآلامه ، وما نال من صدود وجحود ونكران ، وبين الشعراء المعاصرين من أصحاب النزعة الجديدة في الشعر ، الذين كان مقتضى مذهبهم يدعوهم إلى الاحتفال بالشاهنامه ، واعتبارها واحدا من روافدهم .

---

(٥٠) لم يرد هذا المعنى في قصيدة عزام ، وانما عبّر عنه في مواضع أخرى . راجع : مقدمته لترجمة الشاهنامه ، ص ٢٤ ، ومقالته في العدد (٧٠) ، سنة ١٩٣٤ م ، من مجلة الرسالة .

ولا غرو ، فقد جعلوا « الأساطير » أهم روافد الشعر عندهم ، لكونها تشتمل على مادة خصبة للرموز الأسطورية ، يرسم بها شاعرهم ما لم تستطع اللغة العادية أن تقوم به[٥١] . والشاعر يحاول أن يفيد بهذه الرموز الأسطورية في تخطي الواقع والانتقال إلى عالم سحري موهوم غير واضح المعالم ، يغوص فيه بتجربته متجاوزا الزمان والمكان ، « مبحرا في الشمول والكلية ، ومعانقة الرموز التي بها تتجسد التجربة »[٥٢] .

ولا شك أن العصرين الأسطوري والبطولي في الشاهنامه يوفّران لهؤلاء الشعراء مصدرا ثرّاً وموردا عذبا قريبا ، يُرضي عندهم النزعة إلى الإغراب ومباعدة الواقع ، ويستطيع الشاعر أن يستدعي منه من الشخصيات والرموز والأحداث ما يمكن أن يثري به تجربته ونزعته إلى تجاوز الواقع واقتحام عالم موهوم من الرؤى والصّور ، لكن الحاصل أن أشعار هؤلاء الشعراء قد بدأت وتواصلت ولم يبد للشاهنامه فيها من أثر .

وعكف شعراء الموجة الجديدة على الملاحم اليونانية والرومانية ، فاستدعوا في أشعارهم شخصياتها من بشر وآلهة وثنية شوهاء ، بل استدعى بعضهم ما كان بتلك الملاحم من حيوانات خرافية حتى الكلاب ، ولم يتركوا شاردة ولا واردة فيها الا وتمثلوها ، ورمزوا إليها وغمزوا بها ، حتى تهافتت هذه الرموز عندهم وخَلُقت ديباجتها ومجّوها هم وعافوها . لكن لم تبدر منهم بادرة أو تندّ عنهم إشارة تدل على أنهم طالعوا الشاهنامة أو حتى عرفوا شيئاً عنها .

والعجيب أن هذا الوصف ينطبق على شعرائهم ممن كانت لهم صلة بايران وعاشوا فيها زمنا ، ومنهم رائدان من رواد هذا الاتجاه ، وهما بدر شاكر السياب ، وعبد الوهاب البياتي ، الذي أعلن عن تأثره ببعض شعراء الفرس الكبار كالرومي والعطار والخيام[٥٣] ، لكنه لم يذكر شيئا عن الفردوسي .

والأمر محيّر حقا حين يلجئنا أصحاب هذا الاتجاه إلى أن نفترض فروضا حول الأسباب التي حملتهم على الانصراف عن الشاهنامه جملة وتفصيلا ، فما كلّف أحد منهم نفسه وبرّر الرفض لاستلهام هذا الأثر الانساني الرائع ، في الوقت الذي يُقبل فيه على استلهام آثار مناظرة له في الموضوع . فهل يمكن أن يكون السبب عائدا إلى دعوتهم إلى رفض الماضي بكل ما يحويه من

---

(٥١) انظر : عبد الحميد جيدة ، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، بيروت ١٩٨٠ م ، ص١٠٨ .

(٥٢) ايليا حاوى ، خليل مطران ، ص ٢٠ .

(٥٣) راجع : مقالا للبياتي في ديوانه « صوت السنوات الضوئية » ، دار الشروق ، ١٩٨٥ م .

تراث ؟ . . بيد أنهم استدعوا رموز الماضي من مصادر اليونان والرومان ، فهل تعني كلمة التراث عندهم إذن التراث الإسلامي عربيا كان أو فارسيا ؟

أم كان انكبابهم على الملاحم الغربية دون سواها راجعا إلى شيوع تأثر الشعراء الغربيين المحدثين بهذه الملاحم ، وتأثر شعراء العرب المعاصرين بأولئك الشعراء في هذا المجال ؟

أم أن الأمر راجع إلى قصور الترجمة العربية للشاهنامه التي لم تستطع أن تُغري بمطالعتها أو تشجّـع على استلهام موضوعاتها ، لاسيما وأن الترجمة العربية ـ التي نشرت سنة ١٩٣٢ م ـ ما لبثت أن نفـدت بعـد بضع سنوات ، وأصبحت كالكبريت الأحمر ،لا سبيل إلى اقتنائها ، ولا يمكن مطالعتها إلا في المكتبات العامة القديمة .

لعل هذه الفروض مجتمعة يمكن أن تفسر لنا موقف أصحاب هذا الاتجاه ، وان لم يكن هو موقف كل المعاصرين ، فلقد رأينا عددا من شعراء الحقبة المعاصرة نفسها ـ كعبد القادر المقدّم وشبلي الملّاط ـ قد احتفلوا بالفردوسي والشاهنامه ، ومن ثم اقتصر هذا الموقف ـ في الغالب ـ على دعاة الموجة الجديدة ، وهم بعد ليسوا بحجّة على الأدب العربي المعاصر ، وإنما يمثلون اتجاها واحدا من اتجاهاته المتعددة فحسب ، وإن كانوا أشدّها جَلَبَة وأكثرها نفيرا .

* * *

ولقد صح عزم طائفة من دارسي الآداب الفارسية من العرب في الآونة الأخيرة على مواصلة قرع الأجراس للتنبيه بأن الشاهنامه موجودة ها هنا ، فأصدروا عددا من الكتب تناولت العمل من زوايا جديدة لم تكن مطروقة من قبل . ومن بين ما نشر من هذه الكتب : كتاب « دراسات في الشاهنامه »[٥٤] للدكتور طه ندا ، أستاذ اللغة الفارسية وآدابها بجامعة الإسكندرية ، وقد خص بعض قصص الشاهنامه بدراسة موضوعية ونقدية .

أما الدكتور أمين عبد المجيد بدوي فقد أخرج كتابين تناول فيهما الشاهنامه بعرض رائع مفصـل لا يخلو من التحليـل والنقـد ، هما : «القصة في الأدب الفارسي »[٥٥] ، و « جولة في شاهنامة الفردوسي »[٥٦] ، وقد بين في مقدمة كتابه الأخير أنه راعى فيه التيسير والتبسيط لخدمة

---

(٥٤) طبع بالإسكندرية ، سنة ١٩٥٤ م .

(٥٥) طبع الكتاب طبعتان ، أولاهما بالقاهرة سنة ١٩٦٤ م ، والثانية ببيروت سنة ١٩٨١ م .

(٥٦) صدر بمصر سنة ١٩٧١ م ، عن مكتبة النهضة المصرية

المثقفين العرب ، وعرض مختارات مترجمة ترجمة نثرية لخمس قصص وأربع حكايات من الشاهنامة مشفوعة بالتفسير والتحليل والمقارنة .

وكان المرحوم الدكتور محمد غنيمي هلال ـ الأستاذ بجامعة القاهرة ـ أكثر النقاد عناية بالجانب المقارن من الشاهنامه ، فألمح إلى أهميتها في الآداب العالمية في كتابه «الأدب المقارن»(٥٧) ، ثم عاد مرة أخرى وخص الشاهنامه بدراسة متعمقة في كتابه « مختارات من الشعر الفارسي » ـ الذي نشرته وزارة الثقافة المصرية سنة ١٩٦٥ م ـ حيث عرض قطعتين من الشاهنامه هما : ميلاد سياوش ، وزال ورو دابه(٥٨) ، مبينا إلى أي مدى تأثر بهما الكاتب البلجيكي «موريس ماترلنك» في مسرحيته : بلياس ومليزاند .

أما المقالات ، فكان أهمها مقال الأستاذ الدكتور عبد النعيم محمد حسنين ، الأستاذ بجامعة عين شمس ، الذي عرض لموضوع الإسكندر في الشاهنامه ببحث تحليلي مقارن ، نشر في سنة ١٩٦٩ م(٥٩) .

واليوم ، وبعد نفاد الترجمة العربية ، ونفاد معظم الكتب التي عرضت لبعض موضوعات الشاهنامه(٦٠) ، لا يجد القاريء العربي إلا كتابا صغيرا يشتمل على تلخيص نثري مبتسر لأحداث الملحمة الفارسية الكبرى ، ولا يزيد عدد صفحاته عن ٢٤٠ صفحة من القطع الصغير ، وجاء بصفحة العنوان : الشاهنامة ملحمة الفرس الكبرى ، لأبي القاسم الفردوسي ، ترجمة سمير مالطي(٦١) . وليس للكتاب مقدمة ، كما لا نعرف اللغة التي تُرجم عنها الكتاب ، ورغم أن الكتاب لا قيمة له من الناحية العلمية ، إلا أنه يبدو أنه سدّ حاجة ما عند القارىء العربي الذي يفتقد التعرف إلى الشاهنامه ، فطُبعت منه ثلاث طبعات خلال أربع سنوات فقط ( ١٩٧٧ ـ ١٩٨١ ) .

* * *

(٥٧) طبع الكتاب لأول مرة سنة ١٩٥٣ م ، ثم أعيد طبعه مرات عديدة ، راجع : ص ١٤٣ وما بعدها ، طبع بيروت ١٩٨٣ م .

(٥٨) انظر : ص ٢٣٧ وما بعدها .

(٥٩) انظر : حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس (١٩٦٩ م ) : بحث في قصة الإسكندر ذي القرنين، كما صورها الأدب الفارسي الإسلامي .

(٦٠) لا نكاد نجد من تلك الكتب إلا الطبعة الثانية من كتاتب : القصة في الأدب الفارسي للدكتور أمين عبد المجيد ، أما باقي الكتب فقد نفدت تماما .

(٦١) نشرته دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٧ م .

بيـد أن انحسار الطابع الانساني العام والقيم الجمالية البالغة الروعة عن الشاهنامه ـ في صورتها العربية ـ وغلبة السّرد التاريخي عليها قد أدى بالضرورة إلى تركيز الروح القومي والوطنيّ فيهـا ،وأظهـر أن غرضها ليس إلا العمل على أحياء العصبية القومية للفرس بتجلية أمجادهم القديمة ، والطعن على غيرهم من الأمم بمن فيهم العرب ، مما شجع على رواج مقولة بين بعض الدارسين المحدثين زعموا فيها أن الفردوسي كان شعوبيّا ، بل زعموا أن ترجمة البنداري نفسها عمل شعوبي صرف ، «وأن دعاة الشعوبية قد بادروا الى القيام بهذا العمل خدمة لقضيتهم العنصرية »[٦٢] .

أجل ، لقد لاحظ القدماء والمحدثون توافر الطابع القومي في الشاهنامه ، وأشار الدكتور عبد الوهاب عزّام إلى شيء من ذلك ، بينما لفتت قلة الألفاظ العربية في الشاهنامه بلغتها الأصيلة جماعة أخرى[٦٣] ، لكنهم ما ألقوا إلى ذلك بالا ، فطبيعة موضوع الشاهنامه ـ كملحمة قومية ـ تفرضُه ، ومن ثـمّ ، لم يروا فيه بأسا ، وما رفعوا له رأسا ، وإنما كان جُـلُّ الْتفاتِهم إلى ما تنطوي عليـه الشـاهنـامـه من قيم إنسانية وجمالية عامة ، وما تشتمل عليه من روح إسلامية وإيمانية عميقة[٦٤] ، ولم يسلكها أحد من قبل ـ فيما نعلم ـ في سلك الأدب الشعوبي .

غير أن هذه المقولة التي أطلّت برأسها مؤخرا ، يمكن أن تضرّ بقضية الشاهنامه في الأدب العربي إضرارا كبيرا ، لفرط الحساسية التي يشعر بها العرب تجاه كل ما يمتّ إلى روح الشعوبية بصلة .

***

وبعد ، فإن بوسعنا الآن أن نخلُص الى أن الشاهنامه ، ينبغي أن تعاد ترجمتها إلى العربية من جديد ترجمة كاملة . وحبّذا لو توفرّ شاعر كبير على هذه الترجمة التي لا شيء سواها يمكن أن يروي ظمأ الأدب العربي ، ويُرضي تطلّعه إلى أن يرى شاهنامة الفردوسي حقيقة واقعة فيه لا سرابا خادعا .

---

(٦٢) من مقال للدكتور أحمد كمال الدين حلمي : شاهنامة الفردوسي ، ملحمة الفرس الخالدة، مجلة عالم الفكر، الكويت ، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ص ٦٩ ـ ١٣٤ ، (١٩٨٥م). وانظر أيضا بنفس العدد من المجلة، مقال الـدكتـور محمـد رجب النجار : سيرة فيروز شاه ، حيث يعتمد الباحث في دراسته تفسيرا شعوبيا صرفا ، ونظرة أحادية للأسباب التي دعت الى رواج الملاحم في الأدب الشعبي العربي تأثرا بالشاهنامه .

(٦٣) راجع : زكريا بن محمد القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، طبع بيروت ، ص ٤١٧ ، عبد الوهاب عزام، مقدمة الترجمة العربية للشاهنامه، ص ٨٩ ـ ٩٠ ، ومحمد غنيمي هلال : مختارات من الشعر الفارسي ، ص ٢٣٧ وما بعدها .

(٦٤) انظر مثلا : مقال الأستاذ عبد الحميد العبادي عن الفردوسي ، العدد ٨٣ ، من مجلة الرسالة ١٩٣٥ م ، وقصيدة الأخطل الصغير، بعنوان : الفردوسي ، شعر الأخطل الصغير ، بيروت ١٩٧٢ م .

# طاقة اللغة وتشكل المعنى في قصيدة « الربيع » للبحتري « دراسة نصية »

أ. د. عبد القادر الربّاعي

أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها - جامعة قطر

## تمهيد نظري :

بعد أن كثرت المناهج النقدية التي تدعو إلى دراسة الأدب عامة ، والشعر منه خاصة دراسة نصيـة تستغـرق أبعاد المعنى الممكنة من خلال رؤية شمولية للتشكيل اللغوي المتعدد والمتنوع والمتشـابـك في العـلاقـات ، غدا الـتراث الشعـري العربي، الذي لم يحظ بوافر من مثل هذه الدراسات ، هو الأجدر بأن يطبق عليه خطابها النقدي، فلربما نرى في هذا الشعر الموروث أعماقاً للمعنى حالت دراساتنا التجزيئية له دون أن نرى أبعادها الغائرة ، وأن ندرك قيمها الجمالية . إن فحص مكـونـات النص الشعـري التراثي كاملاً ، وليس طروحات النقد حوله ، هو الكفيل بإرشادنا إلى مواطن الكنوز الثمينة المدّخرة في باطنه[١] .

والدراسة النصية - كما أراها - لا تقتضي عزل النص عن منشئه ، وجوه ، وواقعة ، ثم محاورته لذاته لمجرد استكشاف قضاياه اللغوية ، وتقنياته البلاغية ، ولكنها تعني تمثل التجربة الخلاقة للشاعر بكل أبعادها وامتداداتها الأفقية والعمودية ، على أساس أن هذه التجربة البعيدة الغـور في النص ، هي التي فجـرت طاقات اللغة واستخرجت أنواعاً من التشكيلات وصولاً للتكامل الجمالي الذي أمكنه حمل الأبعاد الفكرية والشعورية المختزنة . إننا في الدراسة النصية نعيـد فحص تلك التشكيلات ، وعلاقاتها ، وتفاعلاتها داخل النص كاملاً من أجل استجلاء خفايا المعنى المخبوء خلف الظواهر الخادعة أو المخاتلة في النص أو القصيدة . فقراءة النصوص تعني - كما قيـل - « دمج وعينا بمجرى النص »[٢] ، أو « التفاعل بين موضوع النص والوعي الفردي »[٣] ، من أجل استكشاف المعنى الأعمق .

انطلاقاً من فهمي هذا للدراسة النصية سأحاول قراءة قصيدة البحتري الميمية في مدح هيثم الغنوي ، أو قصيدة «الربيع» كما شاء بعضهم أن يسميها .

---

(١) قال ياروسلاف استيتكيفتش : « وهكذا إذا أردنا أن نحصل على الرؤية التاريخية لتكوين القصيدة العربية أو حتى لتشخيصها وتطورها الأفقي ، فعلينا ألا نسأل النقاد أسئلة لا جواب لديهم عليها . وإن كان ثمة حوار حول هذا المشكل فمحورنا الوحيد الذي يمكننا أن نناقش معه الشعر العربي ، على صعيد الشكل الكلي - أي القصيدة - إنما هو الشاعر نفسه دون وساطة ، ودون شفاعة . وبالتالي إذا أردنا أن نتوغل في مسائل تخص بناء قصيدة ما لشاعر ما من الشعراء الجاهليين فعلينا أن ننظر إلى تلك القصيدة . . » أنظر مجلة فصول مجلد ٧ العددان ١ ، ٢ .

(٢) وليم راي : المعنى الأدبي ص ١٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

## النـــص :

سأثبت فيـما يلي نص القصيـدة موزعاً على مقاطع تشكل أوضاعاً نفسية وفكرية هي : الهجـرة . والتكوين . والتوحد . كما سأحاول إبراز المواقف المختلفة في كل مقطع من خلال ترقيمها أبجديا مما سيساعد على إدراك بعض جوانب الدراسة .

### أولا : مقطع الهجرة

أ ـ ١ ـ أكـان الـصِّـبـا إلا خيـالاً مسلّما — أقـام كرجـع الـطّرف ثم تصرّمـا
٢ ـ أرى أقصر الأيـام أحمدَ في الصّبا — وأطـولهـا ما كان فيـه مذمّمـا
٣ ـ تُلُوِّمْتُ في غي التصـابي فلم أرد — بديـلاً به لو أن غَيّـاً تلوّمـا
ب ـ ٤ ـ ويـومَ تلاق في فراق شهـدتُـهُ — بعـينٍ إذا نهنهْتُـهـا دمـعـت دمـا
٥ـ لحقنـا الفـريقَ المستقـل ضحى وقد — تَيـمّـم من قصـد الحـمـى ماتيـمّـما
٦ ـ فقلت : انعموا منا صبـاحـا، وإنما — أردت بها قلت الـغـزالَ المنـعّـما
جـ ـ ٧ ـ ومـابـات مطويّـاً على أرْيحيّـة — بعقب النـوى إلا امـرؤ بات مغـرمـا
٨ ـ غَنِيتُ جنيبـاً للغـواني يقـدنني — إلى أن مضـى شرخُ الشبـاب وبعـدمـا
٩ ـ وقِدْماً عصيتُ العاذلات فلم أُطع — طوالـع هذا الـشـيـب إذ جئن لُوّمـا

### ثانيا : مقطع التكوين

أ ـ ١٠ـ أقـول لثجّـاج الغمام وقـد سرى — بمـحـتـفـل الـشـؤبـوب صاب فعـمـا
١١ـ أقـلّ وأكثـر لستَ تبلغ غايـة — تبـين بها حتـى تضـارِعَ «هـيثـما»
١٢ـ هو المـوتُ!ويلٌ منه، لاتلق حدّه — فمـوتـك أن تلقـاه في الـنَـقْـعِ مُعْلِما
١٣ـ فتى لبستْ منه الليـالى محاسناً — أضـاء لها الأفْـقُ الـذي كانَ مظلما
١٤ـ مُعاني حروب قوّمتْ عزم رأيه — ولـن يصـدق الخـطيّ حتـى يقـوّمـا
ب ـ ١٥ـ ـ غداً وغدت تدعو نزار ويعرب — له أن يعـيش الـدهـرَ فيـهـم ويسلما
١٦ـ تواضـع من مجدِهـم وتـكـرّمٍ — وكـل عظيـم لا يحب الـتـعـظُما
١٧ـ لكـل قبيـلٍ شعبة من نوالـه — ويختـصُّـهُ منهـم قبـيـل إذا انـتـمى
١٨ـ تقصّـاهُمُ بالجـود حتى لأقسموا — بأن نداه كان والْـبـحْـرَ توْأمـا
جـ ـ ١٩ـ أبـا القاسم استعززتَ درّ خلائق — ملأن فجـاج الأرض بوسـى وأنـعـما
٢٠ـ إذا معشر جاروْك في إثـر سؤدد — تأخـر من مسـعـاتهـم ما تقـدّمـا
٢١ـ سلام!وإن كان الـسـلام تحيـةً — فوجـهـك، دون الـردّ، يـكـفي المسلّما
د ـ ٢٢ـ ألـسـتَ ترى مدّ الـفـرات كأنـه — جبـال شروري جئن في الـبحـر عُوّما
٢٣ ـ ولم يك من عاداتـه غير أنه — رأى شيـمـة من جاره فتـعـلـمّـا
٢٤ـ ومـا نوّر الروضُ الشّامي بل فتًى — تبـسـم من شرقـيـه فتـبـسـما

## ثالثا : مقطع التوحد

أ ـ ٢٥ـ أتاكَ الربيعُ الطلق يختال ضاحكاً ... من الحسن حتى كاد أن يتكلّما
٢٦ـ وقد نبّه النوروز في غلس الدجى ... أوائل ورد كن بالأمس نوّما
٢٧ـ يفتقها برد الندى فكأنه ... يبثّ حديثا كان أمس مُكتّما
٢٨ـ ومن شجر رد الربيعُ لباسَه ... عليه ، كما نشْرت وشياً منمنما
٢٩ـ أحلّ فأبدى للعيون بشاشة ... وكان قذى للعين إذ كان مُحرما
٣٠ـ ورقّ نسيم الريح حتى حسبته ... يجيء بأنفاس الأحبة نعّما
ب ـ ٣١ـ فما يحبِس الراح التي أنت خِلُّها ... وما يمنعِ الأوتارَ أن تترنما
٣٢ـ ومازلتَ شما للندامي إذا انتشوا ... وراحوا بروراً يستحثون أنجما
٣٣ـ تكرّمتَ من قبل الكؤوس عليهم ... فما اسطْعْن أن يحدثن فيك تكرّما(٤)

### الدراسة :

عناوين المقاطع الثلاثة التي وزعت أبيات القصيدة استنتاجية ، وقد برزت من خلال استقراء مجرى النص ، فكانت بديلاً لعناوين مباشرة مثل : المقدمة الغزلية ، والمديح ، ووصف الربيع ، وذلك لأن التمسك بهذه العناوين المباشرة قد يبدو تكريسا للتباعد بين مسميات لموضوعات تشكل وحدة متكاملة ، قد أفرغت في نص واحد بتأثير حالة شعورية واحدة سيطرت على مؤلفه حتى أخرجه في قصيدة . فالتجربة في قصيدة شعرية لا تتجزأ بل تظل تجربة موحدة حتى مع تعدد موضوعاتها وتنوعها أو تعارض بعضها أيضاً .

١/أ

في الأبيات التسعة الأولى التي شكلت مقدمة للقصيدة تنوع في أساليب القول ، وتعقيد في المواقف الذاتية للشاعر تحفزنا لأن نتجاوز السفوح إلى الأغوار . وقد يكلفنا هذا نسيان ما قرأنا أو سمعنا من شروح سابقة للقصيدة ، فنحن إزاء قراءة جديدة تخترق الكلمات كي ترى ما تخبئه في حواشيها وبين جوانبها . فالمقطع كله قائم على أساس نفسي هو الصراع الداخلي بين الحلم والواقع ، أو الهجرة من جحيم الواقع إلى جنة الأحلام .

كلمة « الصّبا » في المقطع كانت للشاعر كلمة سحرية كررها في البيتين الأولين ، واستخدمها حدثاً تعلق به في الثالث « التصابي » ، كما أوحى بمعناها في الثامن « شرح

(٤) ديوان البحتري ، ج ٤ ص ٢٠٨٧ ـ ٢٠٩٢ .

الشباب » . ولكي نعي أبعاد هذه الكلمة في مجرى تفكير الشاعر الباطني ، علينا أن ننظر إليها في سياقاتها المختلفة ، ونمايز بين استعمالاتها هنا وهناك حتى نكون قادرين ـ بالتالي ـ على الاستبطان والاستنباط .

قد ينصرف الذهن أولاً إلى المعنى اللغوى لكلمة « الصّبا » وهو ربيع العمر ، وأبهج ما فيه حيث تجتمع صفتا القوة والجمال ، لكن « الصّبا» قد تعني ـ مجازاً ـ القوة والجمال أينما وجدا أو أينما أمكن أن يوجدا ؛ فصبا الأيام بداياتها أو ساعات النشاط والعمل فيها ، وصبا الليالي وقت اكتمال البدر منها حين يلذ السمر ويطيب السهر . وصبا الأمة فترات قوتها وازدهارها التي تجلب معها مظاهر البهجة والأمان ، إن تلك الفترات اللامعة من تاريخ الأمة تصبح حلمًا لذيذاً حين يعيش ناسها واقعاً مضاداً لها . والأحلام اللذيذة مناط الشعراء ، فإليها يقذفون شباك مواهبهم ، يبدعون منها أخيلة تعيشها عواطفهم ، وتستدرجها رؤاهم حتى ليشعرون أنهم يوجدونها واقعاً ، ويستوطنونها أرضاً . وإذا عدنا إلى البحترى وجدنا أن هناك احتمال أن تكون قوة الدولة العربية الإسلامية حلمًا راوده وشكل عنده هاجساً يسّر نظم قصيدة أو مجموعة من القصائد ، فلقد وجد البحترى في زمن كانت فيه الدولة تنزلق نحو منعطف سحيق يخالف ما كان لها من قوة ومجد . لعل حادثة قتل المتوكل التي قيل إن البحترى شهدها بأم عينيه وكاد أن يكون واحداً من ضحاياها[٥] ، نبهت إحساسه كي يرى ببصيرة الشاعر النافذة انهيار القيم الروحية العليا التي بنت مجد الأمة فأعلت كلمتها ، وإحلال المنافع الذاتية محلها ، خصوصاً أن شكاً قوياً ساوره باشتراك المنتصر ابن المتوكل في المؤامرة التي نفذت في أبيه[٦] . بل ربما أوصلته شفافية إحساسه ذاك إلى أن يرى انهيار القيم وسيطرة النزعة النفعية على قادة الأمة انهياراً للنظام والدولة . وإذا صح استنتاج محقق ديوان البحتري أنه قال هذه القصيدة عام مئتين وخمسة وخمسين للهجرة[٧] ، أي بعد قتل المتوكل بثماني سنوات ـ وأظنه استنتاجاً صحيحاً ـ فإنه يكون قد وقف على بعض من

---

(٥) أحمد أحمد بدوي ، البحتري ص ٨ ، ٢٧ .

(٦) قال ، من قصيدته الرائية التي رثى فيها المكتوكل ، يشير إلى ضلوع ولي العهد المنتصر في المؤامرة ، كما في الديوان ج ٢ ص ١٠٤٨ وما بعدها :

وهل أرتجى أن يطلب الدّم واتر ... يدَ الدهر ، والموتور بالدم واتره
أكان ولي العهد أضمر غدرة ... فمن عجب أن وُلِّيَ العهد غادره
فلا وُلِّيَ الباقي تراث الذي مضى ... ولا حُملت ذاك الدعاء منابرُه

(٧) ديوان البحتري ج ٤ ص ٢٠٨٧ .

سلوك القادة الترك في تلعبهم بالخلافة والخلفاء ومقدرات الأمة والعباد[٨] ، وأدرك أنهم ينحدرون بالدولة ، وبمبادئها الرفيعة التي تأسست عليها . ألا يجوز لنا بعد هذا كله أن نقول : إن صبا الدولة العربية الإسلامية ، في مجدها الشامخ الذي امتد قروناً أصبح ـ بعد أن دمره التناحر والتخاذل ـ في خيال البحترى مجرد حلم يتغنى به ، ويتمنى عودته ، ثم يجتهد في أن يرسم لهذه العودة طريقاً في وجدانه :

أكان الصبا إلا خيالاً مسلما أقام كرجع الطرف ثم تصرما

لم يعد هناك فرق بين « صبا » الإنسان ، و « صبا » الدولة مادام كل منهما في موضعه يعني القدرة والبهجة ، وإذا ما أصبح هذا « الصبا » محور الذكريات الجميلة في زمن يفتقده المتعلق به ، فإن الإحساس بقيمته يغدو كبيراً ومثيراً . من هنا تولد ذلك الاستفهام المثير للدهشة والاستجهان الذي بدأ البحتيرى قصيدته به ( أكان . . ؟ ) ، ومن هنا أيضا أصبح في خاطره طيفاً يمر دون أن يطيل الإقامة . إن المدة الطويلة التي استمرت فيها دولة العرب والمسلمين عزيزة اختصرت الآن إلى لحظة عابرة مرت في ذاكرة الشاعر فكانت نقطة ضياء لمعت في كم هائل من الظلام. كأنها جاءته وقت حاجته إليها ، لكن الواقع المضاد الذي يعيشه سرعان ما يحاصره ويدفعه إلى أن يفيق من أحلامه، وأن يرى ببصره حقيقة ما يحدث . لقد وقع الشاعر فريسة لهذا الصراع الذي كان يمزق داخله : واقع مؤلم يفرض نفسه عليه وهو له كاره ، وحلم جميل يتعلق به لكنه يتفلت منه ، ولا يستطيع ـ على حبه إياه ـ استبقاءه . لعل كلمة «تصرّما» في بيته السابق توحى بهذا الصراع الذي استوجبته حاجة الاستبقاء وضرورة الارتحال ، لذلك لم يكن ارتحال الحلم سهلاً على الحالم . ربما كان الأقرب أن يستخدم الشاعر كلمة ( التصرم ) التي على وزن المطاوعة ( انفعل ) ، لكنه فضل كلمة تصرّم التي على وزن «تفعّل»، وهو وزن يوحى بالتتابع والشدة التي قد يتطلب إتمام حدوث الفعل معها فترة من الوقت لاحتواء المشاعر المتأججة بين حبيبين أفسدت روعة وصالهما حتمية الفراق . إن كلمة « تصرّم » لم تعد في موضعها من البيت مجرد مفردة ذات دلالة لغوية محددة ، ولكنها أصبحت صورة يغذيها انفعال ، وحدثاً يحركه موقف[٩] . فتخلي الشاعر عن الخيال الجميل بعد أن أمتلكه لم يكن أمراً هيناً ، لذا تمسك به ما أسعفه الجهد والحظ ، وحين تفلت من قدرته تابعة بشوق وهو يتلاشى شيئاً فشيئاً .

---

(٨) يقول ابن الطقطقي في نفوذ الترك : « استولى الأتراك منذ مقتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه» أنظر كتابه «الفخري في الآداب السلطانية» ص ١٩٧ .

(٩) تغير العملية الشعرية الناجحة من طبائع الأشياء الداخلة فيها ، إذ تصبح الألفاظ والمعاني أحداثاً أو علاقات صورية . أنظر في ذلك كتابنا : الصورة الفنية في النقد الشعري ص ١٦٧ وما بعدها .

عندما غاب الخيال ، وصحا الشاعر من حلمه ، هدأت المشاعر وأخذ العقل مكانه منه ، فامتد في عالم من الإدراك تحول معه الشاعر الهائم إلى حكيم أو فيلسوف يربط حاله بحال الإنسان عامة ، متخطياً بذلك حواجز الزمان والمكان فجاءت رؤيته صائبة حول إحساسنا بالزمن في البيت الثاني . لقد ألغى معرفتنا العلمية المباشرة بالحدود الثابتة لأوقات الزمن ، ووجه أنظارنا إلى حساب جديد يتحول فيه الزمن إلى نقيض نفسه ، فاليوم الواحد قد يعد قصيراً حيناً وطويلاً حيناً آخر ، إنه الزمن التجريبي الذي تحدده ، طولاً أو قصراً حالاتنا النفسية فرحاً أو ترحاً ، حمداً أو ذماً(١٠) . فالساعات التي نعيشها بفرح لا نشعر بمرورها ، فهي سريعة لانفيق إلا على لحظاتها الأخيرة ، أما اللحظات التي يعصرنا فيها الألم ، فإننا نعد ثوانيها ظانين أن عبء الثانية أكبر من عبء يوم ، وأن عبء اليوم الواحد أكبر من عبء شهر أو سنة . هذه هي طبيعة النفس الإنسانية : عالمها لا يخضع للحسابات الدقيقة الموزونة بقدر ، لذلك لا يجوز أن نتعامل معها إلا بموازينها الخاصة ، وحساباتها الخاصة . لقد أدرك البحتري هذا كله لا من علم تعلمه ، وإنما من خبرة عاشها مع السعادة حيناً ، ومع الألم أحياناً . لعل كلمة «أرى» القلبية - كما يقول النحويون - جاءت في البيت كي توحى بهذه الخبرة العميقة التي علمته حدوداً من المعرفة الخاصة والعامة معاً حتى أصبح شاعراً لنفسه وللناس أجمعين . بيت البحتري هذا أوحى لنا بحكمة تصلح أن تقال في كل آن ، لكن صاحبه - مع ذلك - لم ينس أن يربط نفسه والموضوع الذي يشغله في هذه الحكمة من خلال الصياغة الدقيقة ، واختيار الكلمات المعبرة والمترابطة ، ففضلاً عن كلمة «أرى» السابقة لدينا ثلاث كلمات أخرى متشابكة العلاقة هي كلمة « أحمد » ، وكلمة « مذمم » ، وكلمة « الصبا » مرة أخرى .

أتت كلمة « أحمد » بديلة لكلمة أقرب منها إلى الذهن هي كلمة «أجمل» كما أتت كلمة «مذمم» بديلة لكلمة «أقبح»، وقد عدل الشاعر عن الأقرب إلى الأبعد لغاية مهمة هي إدخال العنصر البشري المتلقي للحدث ، المتأثر به جمالاً أو قبحاً ، فالحمد يأتي بعد تقبل الإنسان للأمر الجميل ، والذم يأتي بعد نفوره من الأمر القبيح . لقد سبق أبو تمام إلى مثل هذا حين قال :

نزلت مقدمة المصيف حميدة ويد الشتاء جديدة لا تكفر(١١)

فعدل عن كلمة جميلة إلى « حميدة » كي يجمع بين متعة الناس وجمال الصيف . فمتعة الناس

---

(١٠) يعرف هانز مرهوف الزمن في الأدب بقوله : « هو الزمن الإنساني . . هو خاص، شخصي ، ذاتي ، أو كما يقال : نفسي . وتعني هذه الألفاظ أننا نفكر بالزمن الذي نخبره بصورة حضورية مباشرة». وهو يفرق بينه وبين الزمن في علم الفيزياء الذي يراه عاماً وموضوعياً ، ويمكن تحديده بوساطة التركيب الموضوعي للعلاقة الزمنية في الطبيعة . أنظر كتابه : الزمن في الأدب ص ١٠ وما بعدها .

(١١) ديوان أبي تمام ، ج ٢ ص ١٩١ .

هي التي دفعتهم إلى الحمد .

أما كلمة « الصبا » في بيت البحترى فكانت تكراراً لمثيلتها في البيت الأول . والتكرار يوحى ـ عادة بأهمية المعنى المكرور ، وتأكيد رمزيته ، وهو يكسب الشعر ـ حين يستخدم بنجاح كما هو الحال هنا ـ نغمة إيقاعية خاصة لذاتها من جهة ، ورابطة تجمع بين نغمات صوتية أخرى من جهة أخرى . كأن عملها داخل البيت أو الأبيات شبيه بعمل القافية الموحّدة للنغمات المختلفة في القصيدة كلها . و«الصّبا » ـ فضلاً عن وظيفتها الموسيقية هذه ـ لها في موضعها وظيفة أخرى تخص المعنى ، فهي القاعدة التي تلتقى عليها الكلمتان السابقتان (أحمد / ومذمم) . فإذا كان الجمال حميداً في كل زمان فإنه في أيام الصبا أكثر حمداً ، وإذا كان القبح ذميمًا في كل آن فإن الأحساس به زمن الصبا أشد ذماً . ويجب ألا تفوتنا فائدة هذه المقابلة الضدية التي عقدها الشاعر في بيته ، وإنما علينا أن نربطها بما كان يعانيه في عصره من محنة انهيار القيم الأخلاقية والنظام المرتبط بها ، مما ولد إحساسه ببطء الزمن وثقله وذمه (مذموم) ، وكذلك تشوفه لتراثه المجيد الحميد (أحمد) ، الذي مر في خاطره خيالاً سريعاً رغم طول أيامه . ويبدو أن ذلك التراث الخالد ـ رغم كل شيء ـ ظل يشكل لديه بارقة أمل قد تعود واقعاً معاشاً في يوم ما .

كأن نقطة الأمل هذه أصبحت مفتاحاً لموقفه من الحياة ، ومن هنا نفسر ورود كلمة « التّصابي » في البيت الثالث . لا يخفى أن المعنى اللغوى المباشر لهذه الكلمة ينصرف إلى محاولة استرجاع القدرة على صنع بهجة الحياة بتخطى سلوك المرحلة المتقدمة من العمر إلى سلوك من هم في مقتبله . لقد استفاد البحترى من هذا المعنى اللغوى ، ولكنه حوله إلى مجال الأمة أو الدولة ، فأصبحت كلمة « التّصابي» في سياقها تعني عنده تخطي الإحساس بمرحلة الانهيار التي تعيشها الأمة في زمنه إلى الإحساس بمراحل سابقة كانت الأمة فيها عزيزة شامخة . وإذا كان «التصابي» في معناه اللغوي المباشر يعد عيباً ، فإنه في معناه المجازى يصبح موقفاً إيجابياً يفتخر به صاحبه . من هنا تغير منطق الأشياء ، وأصبح مهيأً لاستقبال كلمات تدل على عكس معانيها المعجمية تماما . ومن هذه الكلمات كلمة «غَيّ» المصاحبة «للتصابى» في النص ، إذ لم يعد معناها : الميل نحو فعل ذميم ، وإنما أكسبها السياق معنى مضاداً فأصبحت تعنى في موضعها : الميل جهة فعل حميد هو عهد الأمة المجيد . لقد تحقق في نص البحترى هذا ، ما أكده الخطاب النقدي السديد من أن الكلمات داخل النص يرتد بها السياق إلى معان قد تنحرف عن معانيها الحرفية في المعجم .

كان الشاعر فرحاً بتصابيه المجازى هذا ، وكان فخوراً بغيه فيه ، بل اتخذه موقفاً حياتياً ثابتاً لا يحيد عنه . وحين يقف الإنسان مثل هذا الموقف الثابت في مجتمع يسير في خط معاكس

فإنه يختار التحدى أسلوب حياة ، والتحدى طريق ملىء بالأشواك والنذر التي تحرك مشاعر الخائفين المشفقين على المتحدى ، لذا فهم يحاولون إثناءه رحمة به من عواصف عاتية قد تقتلعه . إن هذا ما يوحى به الفعل الذي استهل الشاعر به بيته الثالث «تُلُوِّمْتُ» ، فبناء الفعل للمجهول من جهة ، واستخدام صيغة التضعيف «تفعّل» من جهة أخرى ، يدلان على كثرة اللائمين وشدة اللوم معاً . ولا يكون ذلك إلا إذا كان الموقف موقفاً مبدئياً مصيرياً . والواضح أن مسؤولية الموقف المتخذ ـ كما شاء الشاعر أن يصورها ـ كانت جسيمة ومصيرية ، لأن إصراره ، في سياق البيت ، قد وضع في أطر تصاعدية مختلفة . فإذا كان الفعل «تلومت» قد جعل اللائمين مجهولين ، فإنه أتبع بصيغة أعمق في الدلالة حين استخدم الشاعر عبارة «لو أن غَيّاً تلوما» . وهذا «الغيّ» ـ انطلاقاً من تفسيرنا السابق لغيّ التّصابي» ـ ينبغي أن يكون أحد «المتصابين» الذين وافقوا الشاعر وشاركوه موقفه . لكن المواقف الواحدة تختلف في درجة صلابتها ، فقد يكون موقف أحد الشريكين متهاوناً ، بينما يكون موقف شريكه الآخر متعنتاً . وقد يفرض الظرف على المتهاون المعتدل محاورة المتعنت كي يميل به نحو الاعتدال ، إشفاقا عليه مما قد تجلبه الأيام من متاعب . وكلام الشريك ، الذي لا يشك في نواياه ، يكون عادة أكثر تأثيراً في النفس ، وأقدر على الإقناع ، لكن المواقف الثابته التي تصبح مبدءاً حياتياً لا تتحول بالمشاعر ، حتى لو كانت مشاعر الرأفة والرحمة بأصحابها . وهكذا كان موقف شاعرنا : تعلق بماضي أمته العريق ولم يرد أن يستبدل به غيره « ولم أرد بديلاً به» ، لأن البديل هو استمرار ارتباطه بفساد الواقع المؤلم الذي كان الناس في زمنه يعيشون أوصابه . كان مثل هذا الموقف العنيد بحاجة لأن يتحول إلى حركة وفعل ، وهذا ما توحي به الكلمتان المتضادتان : ( تلاق / فراق ) في البيت الرابع . وإذا ما ضممنا كلاً منهما إلى ما يلازمها من كلمات، فإننا نصبح أمام صورتين تشكل كل منهما عالماً مثيراً . من الذي التقاه الشاعر ، ومن الذي فارقه حتى غدت حاله في التلاقي والفراق تدعو إلى عذاب أليم يتحول معه البكاء من دمع إلى دم ؟!

١/ ب

الموقف المبدئي الذي وجدنا الشاعر يتخذه هو توحده مع حلمه أكثر من توحده مع واقعه ، بل إن ذلك التوحد بالحلم أثار في نفسه شعوراً بالغربة عن حاضره ، فالتوحّد تلاق/ والغربة فراق . لكن توحده ذلك كان مع عالم غير حاضر ومحبوب ، أما الفراق فكان انفصالاً عن عالمه القائم الذي يستوجب منه حباً . أليس في هذا ما يدعو للعجب ؟! بل أليس فيه ما يدعو للشجى والشجن ؟! . إن أساس المعاناة التي كانت تعتمل داخله هو حاجته للتوحد مع حاضره على

أساس أنه امتداد لماضيه التليد الحبيب ، لكن لما كان هذا الحاضر عاجزاً عن تحقيق ذلك المطلب الروحى أصبح الانفصال عنه ضرورة تحولت بعد ذلك إلى مبدأ فموقف . لقد اجتمع في نفس الشاعر إذن موقفان متنافران : لقاء من أحب ، وهو لقاء يتصعد فيه شعور الفرح إلى حد البكاء ، وفرق من يستوجب الحب وهو فراق أهون ما فيه البكاء . لعل مما زاد في حجم المأساة أن هذين الشعورين انتابا الشاعر في آن معاً ، فكأن حدوث أحدهما كان مدعاة لحدوث الآخر ؛ فموقف الألم المصاحب للفراق لم يترك لللشاعر فرصة كافية كي يستغرق لحظات الفرح التي جاء بها اللقاء ، فأضاف للألم ألماً جديداً متراكمًا . إنها لحظة بالغة الحزن كان الشاعر فيها القتيل والقاتل معا ، بل كان فيها شاهد القتل أيضاً كما توحى بذلك كلمة «شهدته» في البيت ، وأي ألم أشد على النفس من هذه الحالة التي يكون فيها الإنسان قاتلا وقتيلاً وشاهداً على القتل في لحظة واحدة ! وأي براعة شعرية أقدر من براعة هذا الشاعر الذي كون من كلمات معدودة صورة استطاعت بعلاقاتها المتشابكة ، أن تجسدهذه الحالة المثيرة ! . لقد حاول الشاعر حقاً أن يسخر كل طاقاته الشعرية للتعبير عن هذا الوضع الذي يكاد أن يكون مستحيلاً ، فاستخدم كل وسائل اللغة المتاحة كالتصوير ، والتضاد ، والإيقاع . ففضلاً عما يمكن أن يطلق عليه تجانس الحروف ، أو التناسب الموسيقى بين كلمتي «تلاق/ وفراق»، هناك ترديد الحروف في كلمة «نهنهتها» . إن هذه الكلمة تثير في الذهن صورة سميعية عندما توجه انتباهنا إلى حالة البكاء المصحوب بالنشيج المخنوق وبخاصة بكاء الرجال الذين تفرض عليهم عزتهم كبت بكائهم ، وتغويره داخل صدورهم ، كأني بالشاعر أراد أن تكون النهنهة هذه ـ بترديد حرف الهاء ثلاث مرات مقطوعة بحرف النون ـ ترجيعاً لأصوات البكاء المكبوت المتقطع .

يبدو أن الشاعر استطاع بعزيمته أن يتجاوز هذا الألم ، وأن يرسم بخياله صورة هجرته عن ذلك المجتمع الذي لم يتوافق معه ، وأن يلتحق بمجتمع آخر وجد فيه ما يحقق طموحه وحلمه ، كما توحى بذلك مقدمة بيته الخامس : «لحقنا الفريق المستقل » . إن هذا انعطاف جديد في موقف الشاعر ؛ فقد كنا رأيناه فيما مضى يسجل انفصاله روحاً عن مجتمعه ، وهجرته خيالاً خارج محيطه ، لكنه الآن بدأ يتحول إلى هذا الانفصال جسداً ، وغدا يحدثنا عن هجرة عملية إلى مجتمع آخر . فالمبدأ الذي أتخذه منهج عقيدة في السابق أصبح الآن يتلمس له طريقاً أرضية للفعل والعمل ، ولهذا هاجر إلى حيث «الفريق المستقل» . ولكى نحاول أن نعايش موقف الشاعر هذا علينا أن نقف عند حدود أوصافه لهذا الفريق الذي هاجر إليه ، وأن نستشرف آفاق الأماني التي عقدها عليه . لقد حرص أن يصف هذا الفريق أو مجتمعه الجديد بأوصاف حميدة . تتناقض ونقائص المجتمع الذي هاجر عنه أو التي فرضت عليه تلك الهجرة . قال : إنه «فريق»

وكأنه أراد أن يجعل وحدة الهدف ، أو غاية العمل المشترك سبباً مباشراً لتأليفه وتآلفه . وقال : إنه «مستقل» . والاستقلال ـ كما توحي أفكار البحتري في سياقاتها ـ يعني التحرر من عبودية ذلك المجتمع التائه . وكأنه أراد أن يوحي بأن تجربة «الفراق» التي مّر هو بها ، وعبر عن قسوتها على النفس هي تجربة عاناها كل فرد من أفراد الفريق فكانت الثمن الباهظ الذي دفعه مقابل استقلاله .

استقلال رأي الإنسان يريه ـ عادة ـ مواقع الخطأ والصواب ، وإرادته الحرة العاقلة المصاحبة لاستقلال رأيه توجهه صوب هذا الموقع أو ذاك . ولكي يبين الشاعر أن الجهة التي قادته إليها إرادته هي الصواب ، قال واصفاً نبل غاية هذا الفريق : «وقد تيمم من قصد الحمى ماتيمما » . إن كلمة «قصد» في العبارة هي تشكيل آخر لكلمة «صدق» ، وهذا يوحي بأن وجهة هذا الفريق هي الخير والصدق . وكلمة «الحمى» هنا رمز للمجتمع الكبير أو الأمة . كأن الشاعر أراد القول بأن هذا الفريق استقل برأيه ، وانفصل عن مجتمعه الأكبر لهدف قاصد صادق هو العمل على تكوين قوة تكون قادرة في يوم ما على العودة لإنقاذ ذلك المجتمع مما هو فيه من تيه وضلال . ولما كانت العبارة السابقة تحمل غاية هجرة الشاعر ومقصد الفريق المستقل فقد صاغها بعناية فائقة كي يرسم بها أوفى صورة يمكن أن يوضع فيها صفاء تلك الغاية ونبل ذلك المقصد . فلو أخذنا الفعل المكرر «تيمم» لوجدنا أنه يعني ـ إضافة إلى ما يحويه من ظلال دينية ـ التوجه للغاية بالقلب والجوارح . وقد ورد في صيغة الماضي ليدل على أن هذا التوجه القلبي هو ما عرف عن الفريق ماضياً ، وهو مازال المعروف عنه حاضراً . كما جاء هذا الفعل الماضي مسبوقاً بـ «قد » لإفادة التحقق والتأكيد . أما «ما» المقترنة بالفعل فجاءت مطلقة من التحديد كي تعني استغراق ذلك التيمم القاصد بكل أشكاله ومعاييره ، أما «الواو » في بداية العبارة فجاءت خالية كي تربط تأكد الشاعر من ذلك التيمم القاصد باتخاذ موقفه الصعب بالانفصال عن مجتمع أهله وقوفه ، والانحياز إلى الفريق المستقل .

نقاء المقصد إذن هو الذي أخرج الشاعر من مجتمع أهله ، لذا لم يكن خروجه يستوجب تستراً وتعتيمًا . من هنا جاءت كلمة «ضحى» في البيت لتدل على أن التحاقه بالفريق المستقل كان جهاراً نهاراً ، فهي معادل حسي للمخزون النفسي النقي الذي كان يعمر لبه المتحرر المنطلق . بقي في البيت دلالة الضمير «نا» الذي أحدث ما يشبه أسلوب الالتفات . فقد كان الشاعر في البيت السابق يتحدث بضمير المتكلم «شهدته» ، ثم تحول في هذا البيت إلى ضمير المتكلمين «لحقنا» . لا أريد أن أتحدث عن أن المألوف أحياناً أن يعطي الإنسان نفسه قيمة كبرى باستخدامه ـ وهو يتحدث عن نفسه ـ ضمير الجماعة بدلاً من ضمير الإفراد، فهذا هو الحل الأقرب

والأبسط ، لكنني أظن أن البحتري لم يستخدم ضمير المتكلمين هنا لهذه الغاية ، ولكنه قد يكون فعل ذلك لغاية أخرى هي أن هجرته لم تكن هجرة فرد ولكنها كانت أيضاً هجرة جماعة ، ذلك لأن الذين خاضوا تجربته في التغلب على الذات وهجروا المجتمع الأم إلى الفريق المستقل كانوا جماعات ، وما حديث البحتري عن تجربته الفردية إلا تصوير للرحلة النفسية الشاقة التي عاشها حتى تم له ذلك التحول . وهي أيضاً نموذج لكل تجربة مر بها الآخرون الذين شاركوه هذه الهجرة . ثم إن في كون هذه الهجرة هجرة جماعة لا فرد تشجيعاً للمترددين في اتخاذ مواقف شجاعة كغيرهم ممن رأوا الانقاذ فيها . . وهجرة الجماعة أكثر إقناعاً وتأثيراً من هجرة الفرد . هجرة البحتري الخيالية هذه تعيد إلى أذهاننا الهجرة الفعلية التي أتمها الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ هاجر ـ كما نعلم ـ بدينه وبالجماعة الذين اتبعوه من مكة بلده وموطن أهله وعشيرته إلى المدينة موطن الذين عاهدوا الله على نصرة الدين الجديد ونبيه . وليس غريباً أن يتذكر البحتري تلك الهجرة التي عاد بها الإسلام عزيزاً فدخل المسلمون مكة فاتحين منتصرين ، فهو يعيش ظرفاً تاريخيا شبيهاً ، بما فيه من فساد وجحود ، بذلك الظرف التاريخي الذي استوجبها . كما أن انعطاف حياة المسلمين إلى القوة والتمكين والعلو بعد الهجرة المحمدية خلّد صورتها في أذهان الشعراء المسلمين ، لذا لا تُستغرب استعادة البحتري تلك الصورة والاستعانة بعناصرها في رسم حدود هجرته وأبعادها في القصيدة .

سلامة الأمة أو إنقاذها من التردي كان الهدف الذي التقى عليه البحتري مع ذلك الفريق المستقل ، وقد رمز لهذه الأمة السالمة الآمنة في البيت السادس «بالغزال المنعم». قد تكون المرأة المنعمة هي الايحاء الأقرب لصورة هذا الغزال ، وذلك لأن تشبيه المرأة بالغزال صورة مألوفة في الشعر العربي ، ولكن لما كان تأمين الأمان للمرأة هو غاية الرجل العربي الذي رهن حياته به في مواقف كثيرة ، فإن التقاء المرأة والأمة على رمز شعري واحد أمر يمكن تصوره أو تحقيقه . وربما كان المألوف في الشعر العربي هو أن تشبه المرأة بالغزال في جمال قده ، أو عنقه ، أو عينيه أو ما شابه ذلك من أوصاف مادية ، لكن ليس الشائع تشبيهها به في التنعم ، كما ورد في بيت البحتري . إن صفة التنعم هذه قد تساعدنا على تحويل الرمز إلى الأمة بدلاً من المرأة ، وعلى ربط موقف الشاعر المبدئي الذي اتخذه بعد صراع داخلي مرير بهذا الرمز . لقد أوحى هو نفسه بذلك حين جعل تحيته للفريق المستقل عند أول لقاء كلمة «انعموا» وهي من جنس الهدف الذي جمعه بهم والمتمثل بكلمة «المنعّما» الواردة صفة «للغزال» رمز الأمة كما اتفقنا. وصيغة تحيته «انعموا منا صباحاً» لها في موضعها من الأبيات دلالة . إنها تذكرنا بموقف مشابه وقفه شاعر جاهلي قبله هو زهير بن أبي سلمى حين قال بعد أن تعرف إلى دار أحبته المهدمة :

فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم[١٢]

وزهير ـ كما قلت في تحليلي لقصيدته في مكان آخر[١٣] ، كان ينشد السلام للمكان الذي هدمه صراع الإخوة ( عبس وذبيان ) بعد أن انقسموا إلى عدوين يحاول كل منهما جاهداً إفناء الآخر . فالسلام كان غاية زهير كما هو هنا غاية البحتري . وتحية البحتري « انعموا منا صباحاً » تشعرنا أن قائلها كان ـ وهو يقولها ـ مملوءاً بفرح غامر ، وحق له أن يفرح ، فقد وجد ذاته أخيراً بعد أن توحد بهذا الفريق النابه ، وأنقذها من التيه الذي ترك مجتمعه يدور فيه فلا يجد منفذاً .

١/ حـ

وكان ـ إلى جانب فرحه ذاك ـ مملوءاً بنشاط متحفز إلى عمل جاد تحقيقاً للمبتغى الذي هاجر من أجله . وما كلمة «صباحاً» في عبارة التحية السابقة إلا إشعار بالأمل المشرق كالصباح ، المعقود على هذا النشاط وأمثاله . وحين يعمر الأمل قلب الإنسان يكون دافعه للعمل قوياً ، وقد كان الشاعر محفوزاً إلى العمل السريع وإلى حث الآخرين عليه ، ذلك لأن مجتمعه الذي تركه غارقاً في الظلمة كان بحاجة إلى إنقاذ سريع ، فالسوء فيه كما النار المسعورة التي تلتهم كل ما يصادفها ، وكل من يحاول أن يسد عليها الدرب . وإذا لم تجد هذه النار قوة سريعة تدفع شرها قبل أن ينتشر يصبح الإنقاذ بعد ذلك غير ممكن ، ولا ميسور . من هنا جاءت تحيته مقرونة بالمغزى من التحاقه بالفريق : «وإنما أردت بها قلت الغزال المنعما» . نعم ! هذا هو الهدف الذي يجمعه بهم ، فهم ليسوا ذوى قربى ، وهم ليسوا أصدقاء معشر ، وإنما هم إخوة مبدأ ، وفريق عمل وحدته بهم مسؤولية مشتركة ، وأخرجه وإياهم من ديارهم ، همّ واحد فلينجزوه إذن حتى يعودوا للأهل فاتحين ومكللين بالظفر والنور والسلام . لعل ماقاله في البيت السابع يوحي بدافع روحي قوي لمثل هذه العودة . لقد جاء هذا البيت على شكل حكمة تضع مقياساً إنسانيا عاماً للوفاء في الحب ، هو الاستعداد الذاتي لبذل أقصى درجات التضحية من أجل الالتقاء بالأحبة الذين أبعدهم عنك أو أبعدك عنهم النوى . لكن مجيء هذه الحكمة بعد الأبيات السابقة يجعل الشاعر ضمن دائرة الصدق لهذا المقياس ، فهو وحده من بين الناس جميعاً القادر على معرفة ذاته وما تحس به نحو من نأى عنهم ، وقد حكم ، انطلاقاً من تلك المعرفة ، على أنه «أمرؤ بات مغرما» بهم ، لأنه «بات مطوياً على أرْيحيّة» ، فقد اعتدنا على مواجهة هذه الكلمة في مجال الكرم ، بل جاء تفسيرها في المعجم مقروناً به حيث قيل : «أخذته الأريحيه : ارتاح للندى»[١٤] . ولعل

(١٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٤ .

(١٣) الصورة الفنية في النقد الشعري ، ص ٢٤٤ وما بعدها .

(١٤) الزبيدي : تاج العروس ، مادة ( روح ) .

ورودها في مجال الحب هنا حافظ على ظاهر معناها ، لكنه حوّل نوع الندى من مجاله المادي إلى مجاله الروحي ، فغدت في موضعها من البيت تعني ارتياح الشاعر لبذل أقصى طاقة في العمل ، بل لبذل النفس إن اقتضى تحقيق أمله ذلك . وبهذا انتحى الشاعر بالكلمة إلى أبعد مستوى في البذل والفداء . ولكي يوازن بين الكلمات المتوائمة في البيت أحتاج إلى كلمة في الحب تدل على أقصى درجة فيه فكانت كلمة «مغرم» التي تعني «أسير الحب»[١٥] ، فمثل هذا الحب الآسر يلزم صاحبه مثل ذلك الفداء حقاً ، أو هكذا أراد الشاعر أن يقول . وإذا ما عدنا إلى ما عبر عنه في البيت الرابع من صراع نفسي حاد ، وهو يفارق أهله وأحبته ، أدركنا صدق اندفاعه وتفانيه في العمل من أجل عودة ذات قيمة له ولهم .

إن الشاعر لم يكتف بتلك الدقة في اختيار تلكما الكلمتين المتوائمتين فقط ، ولكنه قرن إلى ذلك دقة في اختيار الكلمات الأخرى المصاحبة لهما ، فكلمة «مطوياً» تشير في موضعها إلى أن ذلك المغرم خلا من أي تفكير آخر سوى إنجاز العمل الذي هاجر لإنجازه ، فقد طوى نفسه عليه وحده . وكلمة «عقب» التي وضعت بديلاً لكلمة «بعْد» الأقرب منها إلى الذهن توحي بأن اندفاعه إلى العمل تلا النوى مباشرة ، تأكيداً على وفائه لمن أحب . ومثل هذا الإيحاء لا تفي به كلمة «بعد» لأنها قد تدل على تراخي زمن النوى أكثر من قربه ، وفي ذلك إخلال بشروطه للوفاء . ولعل كلمة «بات» المكررة في العبارتين توحي بالظرف الأنسب لاختبار المشاعر ، وهو وقت المبيت حيث ينفرد الانسان فلا يجد من يناجيه سوى نفسه ، وفي مناجاة الإنسان لنفسه تبدو كل الخفايا والأسرار ، فتغدو صفحة واضحة الخطوط يقرؤها صاحبها دونما خوف أو وجل . هذا هو الاختبار الحقيقي لمكنونات القلب ، وهو المقياس الداخلي الذي لا يكذب صاحبه ولا يخدعه ، وكنّا قد وجدنا البحتري يسبر به غور نفسه ، ويصدر حكما خلاصته أنه امرؤ «بات مغرماً» لأنه بات مطوياً على أريحية» . ولعل ورود حالتي الغرام والأريحية متزامنتين ومتوازيتين في النفس أوجب اقترانهما بفعل واحد هو «بات» ليتكرر مع كل واحدة منهما . لكن هذا التكرار أفاد إلى جانب القيمة الموضوعية ـ قيمة موسيقية ، إذ توحدت به كل حالة على نقرة إيقاعية واحدة . واهتمام الشاعر بالإيقاع الموسيقي المعبر غير خاف في هذا البيت . لعل تكرار الشدات من ناحية وأحرف الاطلاق من ناحية ثانية يوحي بضغط الشعور وشدته في جانب من الذات ، وبمحاولة التفلّت من هذا الضغط بإطلاق النفس في جانب آخر منها . وقد يمتد هذا الايحاء إلى منطقة أبعد في المعنى تجعل منه تصويراً للجهد الشاق الذي كلف الشاعر به نفسه وحث فريقه عليه (دلالة الشدات) من أجل تحقيق ذلك الحلم الذي ستنطلق معه آماله (دلالة أحرف الإطلاق) ؛ فالشدة في العمل مقدمة النجاح الموعود . ألا يمكن أن يكون مثل هذا المعنى الخفي وراء الدقة العجيبة لصياغة الشاعر فعلاً ؟!

كان الشعور الذي سيطر على الشاعر بعد الهجرة هو نشوة الانتصار على الذات ، وتغليب الإرادة على التخـاذل . والإنسان في مثل هذا الشعور يراجع مواقفه السابقة ليقارن بين حالة ضعفه وحالة اقتداره ، نادماً على الأولى ، مغتبطاً بالثانية . لقد وقف الشاعر مثل هذه الوقفة مع الذات في نهاية هذا المقطع ، فبعد أن اجتمع له قدر كبير من الاعتزاز بمضاء عزيمته بعد الهجرة راح يحاسب نفسه على غفلتها وتفريطها بحقه في موقفين سابقين : الأول حين تركت أمرها بيد غيرها يسيرها كيف شاء (البيت الثامن) . والثاني : حين عصت من جاءوا ناصحين لها محذرين إياها من سوء ما تفعل (البيت التاسع) . هذا إيجاز نثري لموقف المراجعة ، لكنه لا يبر ز العبقرية الفذة التي تمثلت بصياغة البيتين والعلاقة الفنية التي أحدثها ازدواج الكلمات والصور داخلهما . لندقق في العلاقة بين كلمتي : غنيت / والغواني في البيت الثامن ، فهما كلمتان تتجانسان في ترديد بعض أحرفهما ، لكنهما ، في الدلالة ، يوحيان بسلوكين متغايرين متباينين لشخصيتين مختلفتين : أولاهما شخصية الشاعر زمن التيه ، وقد بدت غافلة عما يجرى حولها ، معتمدة على غيرها في تصريف أمورها (غنيت) . وثانيتهما شخصية الغواني التي أحكمت بيدها زمام الأمور ، ومنحت نفسهـا حريـة التصرف ، مستغلة غفلة الأولى واستسـلامهـا لتقودها إلى حيث تهوى وترغب (يقدنني) . فإليها بات اختيار الزمان والمكان واتجاه المسار . وحين تترك القيادة في أيدي الغواني لا نتوقع أن يكون المسار صالحاً أو خالياً من المزالق والعثرات . ألا يوحي لنا هذا بما كان يجرى واقعاً في المجتمع العباسي : فئة غوتها القوة التي وضعت في أيديها فتحكمت في البلاد والعباد ، وقادتها معاً إلى الضياع . لقد التقت شخصية الغواني مع هذه الفئة على أساس القيادة الطائشة ، وهي الهـوى ، والبعد عن التعقل ، ومراعاة المصلحة الفردية الغريزية وإعلاؤها على مصالح الآخـرين . كما التقت شخصيـة الشاعر الغافلة مع المجتمع المغلوب على أمره بعد أن سلبت إرادته ، وفقئت عيناه وغدا أعمى عن رؤية ما يقترف من آثام بحقه ، مع أن الجناة كانوا فئة منه وأقرب ما يكونون إليه . لعل الشاعر أراد أن يوحي بهذا القرب القريب من خلال كلمة «جنيباً» ، فقد أوردها بوزن «فعيل» كي تعني المبالغة في القرب . والإنسان ـ عادة ـ يرى ما يدور حوله وبخاصة حين يكون هذا الذي يدور قريباً منه وبجانبه ، لكن الغفلة ، والاستسلام ، والثقة الحمقاء يمكن أن تحجب عنه الرؤية ، حتى رؤية أقرب الأشياء إليه . ولكي يزيد الشاعر من سوء الغفلة جعلها تمتد عبر زمن أطول من المحتمل ، كما في عبارته « إلى أن مضى شرخ الشباب وبعـدمـا » . فإذا قارنـا بين عبـارة «شرخ الشباب» وعبارة «وبعدما . . . » لمسنا إيحاء مهمًا . فالإنسان قد تقوده رغباته في مرحلة الشباب إلى أن يتجاهل صوت العقل ، ويغفل عن خطاياه وبخاصة إذا كان في إصغائه لصوت العقل قطع للذاته ومتعه ، لكنه لا يُعذر أبداً حين يظل سادراً

في غيه بعد هذه المرحلة . من هنا كان تأنيب الشاعر لنفسه مخجلاً ، ومن هنا أيضاً غدت غفلة المجتمع عما فيه من مظالم ومآسٍ كل هذه المدة الطويلة ـ كما توحي بها الصورة ـ مؤلمة ومهلكة ، ولهذا أصبح خروج الفريق المستقل مسوّغاً ، ومقنعاً ، بل لازماً .

إن لوم الذات يعني لستعادة مسلسل الأخطاء ، والاعتراف بها عسى أن يكون في ذلك محو لآثارها النفسية القاسية التي تلاحق الإنسان كل لحظة . لأجل هذا استمر الشاعر في كشف أسراره حين كان غافلاً مسلوبَ الإرادة . لقد احتاج إلى أن يعيد للأذهان الجدل الأزلي بين العاشقين والعاذلة ، وهو الجدل الذي قد يفسر تفسيرين متضادين : فالعاشق الغارق في ملذاته أو هواه يرى من العاذلة الجانب السلبي فيفسر سلوكها بالغيرة أو الحسد أو غيرهما من صفات مشؤومة . لكن غيره قد يرى منها الجانب الإيجابي ويعد عذلها صوت العقل الذي يوجه الانتباه إلى ما يجب أو إلى ما لا يجوز . والشاعر في استعراضه أخطاء ماضيه تعامل مع العاذلة في زمنين مختلفين فوقف منها الموقفين السابقين : السلبي زمن غفلته ، والإيجابي زمن صحوته ، لهذا رأيناه بعد الصحوة يعترف بخطئه ، ويلوم نفسه لأنه عصا من كان يعذله عاداً ذلك العذل نصحاً أميناً « وقدماً عصيت العاذلات » . إنه لم يعص العاذلات فقط ، ولكنه أيضاً لم يطع شيبه الذي تمثل له في يوم من الأيام إنساناً طلع عليه يلومه وينير له سبل الرشد والصواب . قد يبدو للقارىء المتعجل أن عدم طاعته للشيب تكرار لعصيان العاذلات على أساس أن عبارة «لم أطع» تشير عنده إلى معنى كلمة «عصيت» . لكن التدقيق في المعنى هنا وهناك قد يثير فرقاً جوهرياً يمنع التكرار . فالعاذلات تمثل صوت الآخرين الذين قد لا يتحقق الإنسان تماماً من نواياهم أو مقاصدهم . أما الشيب فيمثل صوت الذات الذي لا يمارى ، ولا يكون ، قطعاً ، موضع شك من صاحبه ، ولربما أعطى الشاعر العاذلات فعل العصيان ، بينما أعطى الشيب عدم الطاعة لغاية نفسية لها علاقة بهذا التفسير ، فالطاعة قد تنصرف إلى خضوع مستحب لأهل القرابة القريبة منك كالأبوين ومن هم في منزلة قريبة منها ، وعدم الطاعة يصبح هنا تمرداً معيباً ، ولما كان الشيب في البيت يمثل صوت الذات فإنه أدرج في المنزلة القريبة هذه . أما العصيان فقد ينصرف إلى الخروج على نصائح الآخرين ونواهيهم ، وهو أمر قد يكون خطأ ، لكنه قد لا يكون معيباً دائماً ، ولما كانت العاذلة تمثل صوت الآخرين فقد أدرجت في هذه المنزلة .

بقي أن الشاعر لم يتحدث هنا عن الشيب عامة ، ولكنه خص « طوالع هذا الشيب» ، فهل كان يهدف من ذلك إلى أمر ما ؟

إننا لو راجعنا أقواله في الأبيات السابقة لوجدنا أنه لم يكن من أوائل الخارجين على غفلة المجتمع ، وإنما لحق بمن خرجوا عليها (الفريق المستقل) ، بعد أن أمضى فترة كان فيها غافلاً مع الغافلين . ألا يمكن أن يكون الشاعر قد رمز بطوالع شيبه إلى طوالع هذا الفريق المستقل ؟ إذا كان هذا الاستنباط ممكناً ـ وأظنه كذلك ـ فإن شعوره الآن بعد صحوته نحو هذا الفريق هو شعور الإنسان نحو أهله وأحبته، كما أنه أصبح يعد عدم طاعته لمن جاءه منهم ناصحاً ، أمراً معيباً يقرّع نفسه عليه ، ولعل الايقاع الصادر من ترديد حرفي (الطاء / العين) في كلمتي (أطع / وطوالع) في البيت يوحي بأن الشاعر أصبح بعد توحده بالفريق ، وخبرته لمقاصدهم النبيلة ، يشعر بأن الطاعة كانت تليق بطوالعه حقاً ، فهم الفئة النابهة الحكيمة (الشيب يصلح رمزاً للحكمة) التي أحست بالخطر قبل استفحاله .

٢/أ

أما المقطع الثاني ـ وهو مقطع تكوين القوة وتمكينها في النفوس ـ فيرتبط ارتباطاً عضوياً بما كان يدور في المقطع الأول من معان ، ويؤلف معه شبكة من العلاقات متلاحمة الخطوط متماسكة الأطراف . إن الفريق المستقل الذي تألف وتآلف في المقطع الأول لم يهاجر كي يظل خارج حدود مجتمعه الذي هاجر عنه ، وإنما كانت هجرته مرهونة بالمدة التي يحتاجها لينظم نفسه ويقوي ذاته كي يعود فاتحاً عهداً جديداً يصلح فيه ما أفسده المفسدون في ذلك المجتمع . هكذا تخيل الشاعر غاية الهجرة ومهمة ذلك الفريق ، وهو ـ هنا ـ يتابع رسم خطتها الخيالية فيحدثنا عن الوسائل التي يراها ناجعة لتكوين القوة القادرة على إنجاز ذلك الفتح الموعود . إن أول ما يلفت الأنظار إليه شرط توافر القيادة القادرة على حمل هذه المسؤولية الكبيرة . لأن أفراد الفريق ، الذين كان قد صور معاناة هجرتهم من أجل غاية نبيلة أصبحوا الآن بحاجة إلى من ينظمهم ويسوسهم ويقود جهودهم كي يحقق وإياهم تلك الغاية . لقد كانوا بحاجة إلى رجل تجتمع فيه صفات القيادة والبطولة التي تؤهله لأن تلتقي عليه كلمة الفريق ، وتتوحد قوته بقوتهم . من أجل هذا أدار البحتري هذا المقطع على صفات القائد العربي «هيثم الغنوى» فرسم لشخصيته صفات مثالية أبرزته قائداً نموذجياً لا يبارى في قيادته . لا نعرف ـ تاريخيا ـ عن الهيثم سوى أنه كان قائداً عربياً من أهل الجزيرة اشترك في حرب بابك الخرمي[١٦] ، وأن الحياة امتدت به حتى زمن

---

(١٥) المصدر السابق ، مادة ( غرم ) .

(١٦) ذكره الطبري في حوادث سنة ٢٢٠ هـ وقال : «إنه من أهل الجزيرة ، اشترك في حرب بابك الخرمي حيث أنزله الأفشين في رستاق يقال له «أرشق» ، فرم حصنه وحفر حوله خندقاً » أنظر كتابه : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ٣٠٨ـ ٣١٠ .

البحتري ، فمدحه بهذه القصيدة ، وبقصيدة أخرى بعد عودته من الحج عام خمسة وخمسين ومئتين للهجرة ومطلعها[١٧] :

هذي المعاهد من «سعاد» فسلّم ... واسأل ، وإن وجمت فلم تتكلّم

وفيها أبيات توحي بمعان لا تبتعد كثيراً عن بعض المعاني التي وجدناها في المقطع الأول من هذه القصيدة ، يقول :

وبمسقط العلَميْن ناعمة الصّبا ... حيرى الشباب تبين إن لم تصرم
بيضاء تكتمها الفجاج وخلفها ... نَفَس يصعّده هوى لم يكتم
هل ركْبُ مكة حاملون تحية ... تهدى إليها من مُعَنّى مغرم

فناعمة الصّبا ، إن لم تكن رمزاً لذكرى الرسول عليه السلام ، فهي رمز لرسالته الخالدة التي تتمتع بشباب متجدد لا يبلى ، وهي - وإن نأت مكاناً أو زماناً - حريصة على ألا تقطع مودة من تحب ، لأنها نقية صافية (بيضاء) . وقد تمنع الحواجز والعقبات (الفجاج) صوتها (تكتمها) عن مسامع أولئك المحبين ، لكن أنفاسها تتصعد حاملة لهم هوى لا تستطيع تلك الحواجز كتمانه . ولما كان الشاعر واحدا من هؤلاء المحبين الذين قد وصلتهم أنفاس حبها ، فإنه يحمل الحجيج (ركب مكة) وصف حاله : فهو «مُعَنّى» ، وهو «مغرم» . وقد يكون لهاتين الكلمتين في موضعهما من النص دلالة عميقة توحي بالفجوة الواسعة البعيدة ما بين واقعه المعذب «مُعَنّى» وحلمه المحبب «مغرم» . وقد رأينا فيما حللنا من أبيات أن تلك الفجوة الواسعة هي التي ألفت خيوط تجربته فيها .

ما يهمنا من هذا كله أن ندرك أن هيثماً قائد ينتمي ، واقعاً وروحاً ، إلى ذلك التراث العظيم الذي وقفنا على شدة تشوق الشاعر إلى أمجاده الخالدة ، ولعل هذا هو الذي جعل منه - في خيال البحتري - قائداً نموذجاً يحقق طموح الفريق المستقل في القيادة المنشودة .

لعل أولى الملاحظات على اهتمام البحتري بهذا القائد هنا هي بناء روي القصيدة على حرف «الميم» الذي ينتهي به اسم «هيثم» ، لكن إعجاب الشاعر بصفاته تعدى كثيراً هذا الاهتمام الذي قد يبدو شكلياً . في ذهن الشاعر صفات للقائد النموذج القادر على إنجاز الهدف الصعب الذي ارتهن به مصير الأمة . وقد جعل كل صفة من هذه الصفات تأخذ وضع البطولة عند هيثم . لقد وضع الخير الذي ينفع الناس في يده دون غيره ، يوزعه بالعدل والمساواة ، وذلك من خلال صورة الغيث التي رسمها في البيتين العاشر والحادي عشر ، وقارن بين نفع أمطاره ، وفائدة أفعال هيثم

---

(١٧) ديوان البحتري ، ج ٤ ص ٢٠٨٠ .

للناس ، ملبسا هذه الأفعال ثوب الكمال الذي لا يجاريه فضل ذلك الغيث . ولكي يصل إلى أبعاد غايات هذا المعنى استغل طاقة اللغة ، وصاغ عباراته بدقة ، مستخدماً أسلوبي التصوير والحوار : تخيل الغمام رجلاً يحاول بلوغ أفضل السبل إلى نفع الناس ، فأنزل نفسه منه بمنزلة الناصح له ، فكانت نصيحته هي أن مقياس الكمال في ذلك النفع المرغوب هو عمل «هيثم» ، فحين تماثل «تضارع» أفعالك في الخير أفعاله تكون قد بلغت «غاية» تشتهر «تبين» بها عند الناس . والغمام الذي يحاوره الشاعر ليس أي غمام . إنه ذو مطر فريد أعطاه صفات كثيرة كي يبرز تفرده ، فهو غزير جداً «ثجاج الغمام» تحرك منذ الصباح الباكر «سرى» وهو ممتلىء خيراً كثيراً «بمحتفل الشؤبون» ، وقد جاء لوقته فأصاب هدفه «صاب» وكان عاماً على كل الأنحاء «فعمما» وعادلاً في توزيع حمولته يعطي كل ناحية قدراً قليلاً أو كثيراً حسبما تحتاج أو ترغب «أقل وأكثر» ، ومع ذلك يظل فعله ـ كما أراد له الشاعر ـ أقل من مستوى فعل هيثم نفعاً ، فهو بحاجة إلى خير أكثر وجهد أكبر حتى يصل إلى ذلك المستوى المتطاول . هيثم إذن هو منمي الخير ومكثره . وتكثير الخير فضيلة كانت الأمة بحاجة إليها في ذلك الوقت العقيم .

بث الخير في الأرض إذن كانت الصفة المثالية الأولى التي أضفاها الشاعر على هيثم ، لكن هذه الصفة يكتمل جمالها حين تظل بعيدة عن يد الشر التي تريدها للهلاك ، وهذا ما تنبه له البحتري حين جعل عداوة هيثم للشر تتساوى وحبه للخير . فإذا كانت وظيفته الأولى إحياء الخير في الناس ، فإن وظيفته الثانية كانت تدمير الشر قبل أن يستفحل أذاه فيهم ، لذلك شبه في الأبيات بالموت «هو الموت» . ولما كان الموت لا يقاوم ، فإن حق من شبه به ألا يقاوم أيضاً ، لهذا جاء تحذير الشاعر لمن يحاول اعتراض طريقه وهو يؤدي مهمته «ويل منه ، لا تلق حده » ، فمن يحاول ذلك إنما يحاول مستحيلاً ، ويكون كمن يستعجل منيته «فموتك أن تلقاه في النقع معلما» . وقطع دابر الشر بداية طريق الإصلاح في ذلك المجتمع المتهاوي . كان ذلك المجتمع الغافل بحاجة إلى رجل يستطيع أن يدخل إليه النور كي يتبين درب النجاة . ولما كانت إحدى صفات هيثم المجربة هي القدرة على تغيير الأمور للأجمل والأفضل فإنه غدا ذلك القائد المرتجى. لقد أوحى الشاعر بهذا في صورة «الأفق» الذي كان «مظلما» فأصبح بأفعاله «مضيئاً» ، وما كلمة «الأفق» هنا إلا رمز للمجتمع الذي كان غارقاً في بحر من قتامة الظلم ينتظر من يقتحم جوه بإشراقات من العدل تنير جوانبه . لقد أصاب الشاعر هدفه بصورة أخرى هي صورة «الليالي» التي ألبسها هذا «الفتى» «محاسناً» . وقد أورد الشاعر فعل الإلباس ماضياً للإيحاء بقدرة هيثم على تكرار الفعل نفسه بنجاح في مهمته الجديدة . فالذي أنجز مهمات ناجحة وغير القبح إلى جمال بعد تجريبه وسائل ناجعة ، يستطيع بها أن ينجح في إنجاز مهمات مماثلة . وحين احتاج أن يعبر

عن تعدد تجارب هيثم هذه بتفصيل أكثر قال في بيت آخر : إنه «معانى حروب» . فالمعاناة تعني استمرار حمل المسؤولية بثبات واقتدار ، وهي ـ بالنسبة لهيثم ـ لم تكن معاناة واحدة وإنما معاناة متكررة مع كل حرب من الحروب الكثيرة التي خاضها ، لذلك أتى الشاعر بالحرب مجموعة لا مفردة . والموقف النفسي يستدعى مثل هذه التجربة القاسية الأمينة المتكررة ، لأن مسؤولية الحرب القادمة تتجاوز إنقاذ أفراد إلى إنقاذ أمة .

إن إحساس الشاعر بخطر هذه المسؤولية دفعه لأن يباعد بين القائد والخطأ الذي قد تقع فيه شجاعة غر مندفع ، وهو الاحساس الذي ألهمه معادلة عزم رأى هيثم بعدما قوّمته التجربة بالرمح (الخطي» المقوّم بعد اعوجاج . فهذه الصورة المتقنة فنياً تؤكد أهمية التجارب في تأهيل القائد ، فهي التي تؤمن النجاح في تحقيق الهدف «ولن يصدق الخطى حتى يقوما» . ولعل تكراره للفعل «قوّم» في البيت يؤكد هذه الحقيقة . من المهم هنا الالتفات إلى عبارة «قوّمت عزم رأيه» . فهو لم يقف عند تقويم االرأي بل أضاف إليه العزم أيضاً . فالقائد لا يغنيه الرأي االصائب فقط ، فأصحاب مثل هذا الرأي كثيرون ، لكنهم ليسوا جميعاً قادرين على تنفيذ آرائهم ، فالقادر على ذلك هو من امتلك عزيمة ماضية ، بالإضافة إلى رأي راشد «قويم» . إنهما معاً أساس الفلاح ، ولا يغنى أحدهما عن الآخر في مثل هذا الأمر الصعب الذي يتطلب إدارة الفرص بحكمة وقدرة . وهاتان خصلتان حرص الشاعر أن يوجدهما في هيثم على أكمل ميزة ، إنه جعلهما نابعين من معاناة هذا القائد لمسؤوليات سابقة ناجعة . ولعل في تقديمه العزيمة على الرأي في صورته الشعرية «قومت عزم رأيه» دليلاً على أهمية العزيمة للغاية العظمى التي يسعى هيثم ومن معه لإنجازها ، فعلى «قدر أهل العزم تأتي العزائم» . والنتيجة أن معاناة هذا القائد في تجاربه المتكررة مع الحروب أهلته لأن يكون رجل المهمات الصعبة ، لذلك كانت معاناة فاعلة ونافعة وتبشر بنجاح كبير.

إن تكثير الخير وقتل الشر ، ونزعة التغيير للأجمل والأفضل ، وتقويم عزم الرأي بالتجارب المنتجة ، صفات كلها ذاتية داخلية أهلت هيثًما لقيادة ذلك الفريق ، وإعادة «صبا» الأمة من جديد . وهذه الصفات الذاتية الخاصة تلتقي على قاعدة أخلاقية واحدة هي الروح السمحة والحازمة في آن واحد . فالروح بهاتين الصفتين تكون قادرة على حفظ توازن القائد أو استقامة الذات ، كما تكون قادرة على حفظ توازن الجماعة التي يقودها أو انتظام المجتمع . وإذا كان الشاعر قد أكد استقامة الذات لدى هيثم في الأبيات السابقة من مقطع التكوين فإنه سيركز في أبيات لاحقة من المقطع على صفاته التي أدت إلى انتظام المجتمع وحققت له تكويناً مثالياً .

إن توحيد القوى المختلفة وبخاصة المتصارعة منها على وحدة المبدأ جعله البحتري الإنجاز الأكبر الذي أتمه هذا القائد الملهم . ف «نزار ويعرب» ـ وهما جذر العرب المتنازعان ـ غالباً ـ تصالحا عليه واستبدلا بالفرقة وحدة وتماسكاً . وقد كان البحتري واعياً حين جعل توحيد هاتين القوتين الخطوة الأولى التي خطاها هذا القائد على طريق المهمة الجليلة التي أقدم على إتمامها . إنه بذلك ربط بين خطة هيثم لإعادة بناء الأمة ، والخطة المثلى التي انتهجها نبي الأمة محمد عليه السلام فحقق بها عملياً مجتمعاً موحداً بعد طول شتات وفرقه وتناحر . وقد رأينا البحتري من قبل يربط أسباب صلاح الحاضر بأسباب صلاح الماضي حين التفت وهو يصور هجرته والفريق المستقل إلى هجرة الرسول الكريم وأصحابه. فالماضي بقيمه ومجده وعزته كان ـ كما لاحظنا ـ حلم الشاعر الذي يطوف حوله خياله ، وترتد إليه مشاعره . ولما كان توحد العرب على مبدأ روحي هو السبيل إلى إحرازهم كل الانتصارات التي شكلت مجد الأمة ، فقد جعله الشاعر هدف هيثم الذي تصدى له . ويبدو أن مبدأ العصبية وضرورتها في الحكم ، كما بلوره ابن خلدون في زمن تال ، كان هاجساً يراود البحتري في قصيدته هذه . وسأقتطف بعضاً من أقوال العلامة ابن خلدون في العصبية لنرى كيف تتطابق أفكاره مع رؤية الشاعر . قال في مقدمته الشهيرة « . . . إن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يُجتمع عليه . . وقدمنا أن الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلابد أن يكون متغلباً عليهم بتلك العصبية وإلا لم تتم قدرته على ذلك»(١٨) . وقال أيضا : « . . . ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة ، فلابد من عصبية تكون أقوى من جميعها ، تغلبها وتستتبعها ، وتلتحم جميع العصبيات فيها ، وتصير كأنها عصبية واحدة كبيرة ، وإلا وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع»(١٩) .

يبدو أن البحتري كان يراوده بعض من هذه الأفكار في العصبية وهو يسترجع في ذاكرته أسباب ارتقاء الأمة ونجاحاتها لذلك اهتم قبل كل شيء بوحدة العرب «نزار ويعرب» على أساس أن العرب هم المؤهلون لهذه المهمة الآن ، كما كانوا المؤهلين لها بالأمس . ولعله في هذا يوحي بتنبه بعض من الناس في عصره ، ومنهم الخليفة المتوكل ، إلى خطر وضع القوة في يد غير

---

(١٨) تاريخ ابن خلدون ( المقدمة ) ج ١ ص ٢٤٤ .
(١٩) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

العرب ، وعزمهم على تجميع القوى العربية من جديد حتى يدرأوا انهياراً محتملاً على يد الترك[٢٠] .

والبحتري ـ وهو العربي صليبة ـ لا يمكنه ـ بعد أن رأى ما فعله الترك بالمتوكل ـ إلا أن ينتصر لقومه ، ويرى في إبعادهم عن قيادة الجيش ، خلو الساحة لقوم آخرين مشكوك في أهدافهم ونواياهم ووسائلهم .

ومثل هذا الشعور لا يتعارض مع نزعته الإنسانية التي تجلت في سينيته الشهيرة . قال بعد أن سجل إعجابه بإيوان كسرى وحضارة الفرس[٢١] :

ذاك عندي وليست الدار داري ... باقتراب منها ولا الجنس جنسي
وأراني من بعدُ أكلف بالأشـ ... ـراف طراً من كل سنخ وأس

فالشاعر ينتصر للروح العالية التي شيدت حضارات ظلت باقية تذكرها الأجيال على الأزمان وفي كل أرض ومكان ، وينفر بل يعادي كل وضع مادي نفعي قد يقود ، بوضاعة غايته ، إلى تدمير حضارات عظيمة قائمة . كان هذا وراء انتصاره للعرب بعد أن حملوا شعلة الإسلام وشيدوا حضارته ، ولآل ساسان الذين بنوا في الماضي حضارة عريقة مجيدة . وحين التفت إلى الترك في عصره ووجد أنهم يوجهون القوة التي تجمعت في أيديهم لمنافع مادية ذاتية لا تقيم حضارة ، ولا تبني ملكاً ، عاداهم في داخله ، ورسم في خياله منهاجاً للخروج عليهم كما أوحت بذلك أبيات هذه القصيدة التي نُشغل باستجلاء أبعادها . فالترك ـ كما قال الجاحظ : «أصحاب عمد ، وسكان فياف ، وأرباب مواش ، وهم أعراب العجم . . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة ، ولاغرس ، ولابنيان ، ولاشق أنهار ، ولاجباية غلات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة ، والصيد ، وركوب الخيل وطلب الغنائم وتدويخ البلدان»[٢٢] .

إن من هم على هذا النحو لا يشيدون حضارة ، ولا يعلون في الأرض قيمة . لعل وصف الجاحظ للترك بأنهم «أعراب العجم» ينبهنا إلى مغزى مقارنة البحتري إيوان كسرى بأطلال سعدى في قوله :

---

(٢٠) يعلق الدكتور شوقي ضيف على محاولات المتوكل التخلص من الترك ، كعزمه نقل دواوين الخلافة إلى دمشق ، وضمه اثنى عشر ألفاً من العرب إلى وزيره الفتح بن خاقان قائلا : «وكأنه يريد أن يعيد العرب إلى الجيش وقيادته» . العصر العباسي الثاني ص ظ ١ .

(٢١) أنظر القصيدة في ديوان البحتري ج ٢ ص ١١٥٢ .

(٢٢) رسائل الجاحظ ، ج ١ ص ٧٠ وما بعدها .

حلل لم تكن كأطلال سعدى  في قفار من البسابس ملس
ومساع لولا المحاباة مني  لم تطقها مسعاة «عنس» و«عبس»

كأن البحتري كان ضد روح التوحش أينما حلت ، فإذا كان جنسه لم يمنعه من أن ينكر هذه الروح لدى أعراب الجاهليين كعنس وعبس ، فإن إنكارها لدى غيرهم كالترك ـ أعراب العجم ـ أحق وأولى. فالقوة التي لا تؤسس على قاعدة أخلاقية سامية هي قوة هدم لا قوة بناء. هكذا نظر إلى قوة الترك الغاشمة التي تتحكم في مصير الأمة في زمنه لذا رآها خطراً داهماً ، وقد استدعى ذلك منه أن يستنهض قوة عربية إسلامية قادرة على إزالة ذلك الخطر وقهر أهله ، فكان هيثم طليعة تلك القوة التي تفاءل بها ، كما كان إجماع كل القوى العربية «نزار ويعرب» ، عليه ، وتوحدهم به خطوة كبيرة على الطريق السليم المؤدى إلى تكوين قوة ذات مبدأ وأخلاق تكون البديل للقوة الغاشمة . لقد أوحى بذلك في البيت الخامس عشر ، بل أوحى فيه بأكثر من ذلك . إن دعوات نزار ويعرب المتكررة «أن يعيش الدهر فيهم ويسلما» لتدل على ثقتهما المطلقة بعدله في قيادته ، وتخوفهما من أن يخلفه آخر لا يعدله في أخلاقه فتضيع الفرصة التي أتت على يديه ، ويعود الأمر فوضى وقهراً من جديد . ومثلما أمتلك هيثم عقول الناس بجهده وجهاده من أجل توحيد قواهم على الخير وللخير ، أمتلك قلوبهم بتواضعه ومساواة نفسه بهم على ما فيه من خصاصة . فهو ككل العظماء ، لا يحب الترفع أو التعظيم . والبحتري في عبارته : «وكل عظيم لا يحب التعظما» يناقش حقيقة العظمة الأصيلة ، والعظمة الزائفة ؛ فالأولى تتشبث بالجوهر المتمثل في السلوك السوى للإنسان ، وهو السلوك الذي يرى الناس متساوين في الكرامة ، وإن اختلفوا في المواطن والمراتب والطبقات . وصاحب هذه العظمة إن حكم ساوى بين المحكومين وبنى بهم ولهم مجداً مؤثلا . أما الثانية فتنتسب نفسها بالترفع ، والتطاول على الآخرين ، وامتهان كراماتهم لتأكيد تميزها الموهوم . وصاحب هذه العظمة المصطنعة إن حكم تجبر وقاد محكوميه إلى الفشل والانهيار . ولما كان هيثم ممثلاً للعظمة الأصيلة ـ كما أبرزته صور البحتري ـ تعلقت به آمال الناس في الإنقاذ من تلك القوة المتغطرسة التي تذلهم .

وهيثم ـ كما صوره البحتري أيضاً ـ كان عادلا بين رعيته ، وقد تمثل عدله في جمعه خصوصية النسب إلى عمومية النفع . وهذا يعني أن القيم المتوازنة في نفسه تدفعه إلى أن يكون نفعه للجميع بحيث يغدو «لكل قبيل شعبة من نواله» مع أنه ـ في الانتماء القبيلي ـ «يختصه منهم قبيل» واحد لا غير . ونفعه أيضا ليس في مكان دون آخر ، وإنما عم كل الأماكن حتى أوصله إلى أقاصيها «تقصاهم بالجود» . مما كان له وقع طيب في نفوس متلقيه «حتى لأقسموا بأن نداه كان والبحر توأما» . لعل هذا القسم ، وتوأمة نداه والبحر ـ كما أوردها الشاعر على ألسنتهم ، يوحيان باستغرابهم هذا الخير الذي يأتيهم منه لأنهم لم يتعودوا مثله من غيره .

إن القدرة على ضبط هذا التوازن في القيم أمر لا يستطيعه إلا العظماء الذين يستشعرون جسامة المسؤولية ، فيقدرون تأثير سلوكهم في الأفراد والجماعات ، لذلك كان انعدام وجود من يمتلك هذا التوازن سبباً في الخلل وتردي المجتمع ثم انزلاقه نحو هاوية سحيقة .

٢/ حـ

إن المعضلة التي كانت تواجه أمته في ذلك الوقت ـ كما جسدتها أبياته هنا ـ معضلة أخلاقية قبل كل شيء ، فقد كانت هذه الأمة تملك كل أسباب القوة المادية ، لكن الذي كان ينقصها في عصره قيم أخلاقية توجه قوتها المادية هذه وجهة الصواب والعدل . من هنا جاءت صفات هيثم في البيتين التاسع عشر والعشرين تؤكد امتلاكه لتلك القيم الأخلاقية المرتجاة . ففحوى النداء الذي استهلها به «يا أبا القاسم» يثير في ذهن كل مسلم كنية الرسول الكريم بكل ما تتضمنه من أخلاق وقيم . وسواء أكانت هذه الكنية لهيثم حقيقة أم استعارها الشاعر له فإن إصراره على مناداته بها هنا ليوحي بأنه كان ، وهو يرسم خطوات هيثم في القيادة. يتوسم خطوات المصطفى والقيم التي أعلاها وهو يسير نحو التغيير والفتح الجليل . وقد يؤيد هذا الصورتان اللتان تلتا النداء السابق : أما الأولى فالصورة الاستعارية «استغزرت درّ خلائق» التي تجاوز فيها الشاعر الحديث عن أخلاق هيثم إلى الحديث عن إكساب الناس هذه الأخلاق ، وذلك باستعماله وزن «استفعل» الذي صيغت عليه كلمة «استغزرت» ، وهو وزن يعني ـ كما نعلم ـ طلب فعْل الفعل من الآخرين . ولعل في استعارته كلمة «در» الحليب صفة للأخلاق تحديداً لنوعية هذه الأخلاق ، فهي من الخير جاءت وإلى الخير تسير وتمتد .

وأما الثانية : فالصورة الاستعارية « ملأن فجاج الأرض بؤسى وأنعما» إذ تعيد هذه الصورة إلى الذهن بعض أوصاف هيثم السابقة كإنماء الخير . . وإهلاك الشر ، لكن الإضافة الجديدة في هذه الصورة هي أن الأوصاف التي رسمت فيما مضى صورة لطبيعة هيثم الذاتية المجردة ، قد تحولت فيها إلى العمل وأصبحت ذات فاعلية مؤثرة في مسار الأمة . وهذا يعني أن عزائم هيثم جاءت على قدر عزمه ، أو أن فعله قُدّ من طبعه ، وبذلك تحول الفعل من خير الذات إلى خير الجماعة ، وهذا ما كانت الأمة بحاجة إليه حقاً . لقد تأسست أفعال هيثم على القواعد الأخلاقية المكينة ، لذلك غدا البؤس الذي سببته هذه الأفعال هو بؤس الشر أو قصاصه الذي كتبه الله عليه ونفذه هيثم ليكون في قصاصه هذا «حياة» للناس ، وراحة وأمان . إن هذا هو «السؤدد» الذي كونه هيثم بهمة ونبل ، وهو السؤدد الذي حرص الشاعر أن يجعل صاحبه فيه مبرزاً ، وتاركاً خلفه في مسافة بعيدة جداً ، كل من حاول أن ينافسه عليه ، كما أكد ذلك في البيت العشرين .

المعنى الحقيقي لهذا السؤدد ، في الواقع ، هو «السلام» الذي ورد في البيت الحادي والعشرين . وكلمة «سلام» التي ذكرها الشاعر نكرة هنا تعني أموراً كبيرة مغيبة في القصيدة . إن العبارات التي تلت هذه الكلمة في البيت تنفي أن يكون الشاعر قد عني بها مجرد إلقاء التحية ، لأن «السلام» إن كان «تحية» فإن إشراقة وجه هيثم ردّ «يكفي المسلما» . لكن السلام الذي قد يعنيه البحتري هنا هو تحقيق الغاية من تكوين القوة وتمكينها بعد الهجرة . إنه «الفتح الجليل» الذي تحقق على يدي هيثم قائد المهاجرين . إنه العودة المظفرة لذلك الفريق المستقل بعد أن اندحر الشر وحل الخير في ساحات الأمة .

٢/ د

كان فتح مكة توحيداً لقوى الأمة وتغييراً للنفوس والمواقف القديمة ، وانطلاقة جديدة للامتداد خارجاً ، ومثل ذلك كان السلام الذي حققه هيثم وفريقه ، فقد وحد القوى وغير النفوس والمواقف ، وغدا مثلاً يقتدى به في مواقع أخرى . لقد عمق الشاعر مفهوم التغيير هذا في صورتين تاليتين هما صورة «مد الفرات» وصورة «الروض الشآمي» . أما الفرات فقد غدا مده هائلاً حتى صارت أمواجه تشبه «جبال شروري جئن في البحر عُوما» . وتكملة لمغزى الصورة نفى الشاعر أن يكون الفرات قد اعتاد هذا المد الغزير من قبل ، مشيراً بذلك إلى أن مده هذا كان بعد توحيد هيثم للأمة . لقد شخص النهز وجعله إنسانا يتعلم من فعل هيثم فقام بعمل يوازي عمله : «ولكنه رأى شيمة من جاره فتعلما» . والشاعر ينطلق هنا من قاعدة نفسية صحيحة هي أننا نرى الأشياء ، ونحن نخبرها ـ شعورياً ـ ببصيرتنا أكثر مما نراها ببصرنا ، فالفرات هو الفرات ، لكن الناس قبل السلام الذي جلبه هيثم لم يكونوا يشعرون بمده ، وربما لم يكونوا ينتفعون به أيضاً ، إذ كانوا وقتذاك مشغولين بآلامهم عن رؤية آمالهم فيه ، لكنهم بعد أن أزيح عنهم كابوس الآلام أصبحوا لا يرون إلا ما يغذي آمالهم ويقويها . وهكذا فقد التفتوا إلى الفرات وتملوا مدّه الذي جلب معه إكسير الحياة .

ومثل ذلك كان فعل « الروض الشآمي» . فقد ربط الشاعر تفتح نوْره أو ابتسامته ، مجازاً ، بابتسامة هيثم التي هلّت من شرقيه في العراق . «بل فتى تبسم من شرقيه فتبسما» .

إن في هاتين الصورتين إيماء بأن إصلاح شأن الأمة في مكان ما يمتد سريعاً إلى إصلاح شأنها في مكان آخر . . . وهكذا حتى يعم الأمان والسلام كل بقعة فيها . كان هذا بعد فتح مكة ، وأصبح واقعاً حياً بعد إصلاح حال العراق كما تخيله الشاعر .

٣/ أ

لقد أخذ الشاعر بعودة المهاجرين إلى مجتمعهم وأهلهم ومحبيهم وتحقيق التوحد الذي كان أمنيته في بدايات القصيدة ، لذا أصبح في مقطع التوحد من القصيدة لا يرى إلا من خلال

إحساسه بجمال الحياة ، وحيوية الوجود ، وبهجة الأشياء . وهذا واضح في الصور التي رسمها للربيع وبعض مظاهره ؛ فهذه الصور لا تنقل لنا أشكالاً زاهية فقط ، وإنما تفيض أيضاً بأفكار صاحبها ورؤاه بعد أن تحقق في خياله حلمه السعيد كما حملته رحلة الصراع العنيف التي رسم مسارها في المقطعين السابقين .

يمكن أن نناقش جماليات هذه الأشكال وما تضمنته من معان ، من خلال اللوحات التالية التي رسمها الشاعر بدقة بعيدة المرمى .

أولا : صورة الربيع عامة في البيت الخامس والعشرين : وهي صورة تشخيصية ، وضع الشاعر فيها الربيع في صورة بصرية فتخيله إنسانا «يختال ضاحكاً من الحسن» ، ثم في صورة سمعية «حتى كاد أن يتكلما» وقبل ذلك في صورة حركية «أتاك الربيع الطلق يختال» . لعل هذا التعدد في الأوضاع الصورية التي اختيرت للربيع تومىء إلى فرحة عظمى بقدوم الربيع الذي أصبح عنده ملء السمع والبصر . ولكي نتقصى أبعاد هذا المعنى الكبير علينا أن نقرن «الربيع» إلى «الصّبا» في مقدمة القصيدة ، فإن في اجتماعهما لدى الشاعر تآلفاً واختلافاً معاً . أما التآلف فلأنهما كانا يشعران بتوحد الماضي «الصبا» بالحاضر «الربيع» أو الحلم بالواقع . وفي هذا فرحة لا تَعدلها فرحة أخرى ، لكن هذه الفرحة أصبحت كذلك في المرحلة الأخيرة من القصيدة، ولو عدنا لمراجعة مشاعر البحتري في بداياتها لوجدنا أن «الربيع» كان «كالصبا» تماما في كون كل منهما حلمًا غير محقق ، لذا كانا في خاطره وقتها طرفين متباعدين : طرفاً في الماضي الذي ذهب ، وطرفاً في المستقبل الذي لم يأت بعد ؛ لكنهما، مع ذلك ، توحدا في داخله على أساس أنهما أثارا فيه مشاعر الشوق والمكابدة والألم ، ودفعاه إلى جدية العمل ، وجني الثمر .

ها هنا يكمن الاختلاف بين الصبا والربيع حين كانا مفترقين . وبينها حين أصبحا متحدين ، وهو الاختلاف بين الحلم حين يمسى حلمًا لذيذاً ، وبينه حين يصبح واقعاً محققاً ومعاشا . من هنا جاءت كلمة «أتاك» التي افتتح بها مقطع التوحد هذا ، وكأنه يوحي بأن الذي كان يراودك أمس حلمًا ، قد غدا اليوم أمامك حقيقة ، فها هو يتحرك إليك بكل الصور الجميلة التي تخيلتها فيه .

الربيع في وجدان الشاعر وخياله إذن ، هو ربيع الحياة الذي بدأت تعيشه الأمة بعد توحدها ، وبعد أن حل السلام ربوعها ، وجرى الخير والجمال في عروقها، لذا بات هذا الربيع محور كل الحركات والسكنات في لغة الشاعر ومحاوراته التالية . وأول ما قد يُلتفت إليه في هذه اللغة الأفعال التي منحتها لهذا الربيع حتى غدت أوصافه بها ذات حياة وحركة تثير في متلقيها

فيضاً من المعاني الإنسانية البعيدة المرامي. فكلمة «الطلق» التي وصف بها تثير في الذهن مشاهد حاضرة وأخرى غائبة، بعضها متوافق وبعضها متنافر، لكن الانعتاق من القيود، والانطلاق في فضاء الحرية محور تلتقي عنده تلك المشاهد فتتآلف أو تتخالف. إن مجتمع الشاعر، قبل أن تدخله نسمات الحرية «الربيع الطلق» كان مجتمعاً مقيداً بقيود تركته حبيس واقع مرير يعيش أزمات فكرية وأخلاقية تسحق كرامته، لكنه بعد «الفتح المبين» المتخيل تحطمت قيوده وانطلق يستنهض ذاته وكبرياءه، فتغيرت حاله وأصبح يرى ما لم يكن قادراً على رؤيته. فالحرية التي أثارتها كلمة «الطلق» إذن كانت مفتاح النور الذي أضاء لهذا المجتمع الدروب إلى النشوة العارمة بالحياة الحميدة الجديدة، لذلك حق له أن يكتسي جمالاً كجمال الربيع وأن «يختال ضاحكاً من الحسن» فيه ومن حوله، فقبل الربيع استبدل بضحكه بكاء، وبحسنه بلاء.

أما عبارة «حتى كاد أن يتكلما» فتشير إلى أن المحيا قد يكون أبلغ في التعبير عما في النفس من الكلام نفسه، وقد سبق للشاعر أن صرح بذلك حين جعل بشاشة هيثم كافية للرد على التحية بأحسن منها، فاللغة، التي تخيل الشاعر أن الربيع كاد أن ينطق بها، تحمل معاني كثيرة قد لا تكون الكلمات وحدها كافية للتعبير عنها، لذلك استعان بهيئة الاختيال والضحك والجمال. ومن المعاني المحتملة تجاوز الشاعر لمظاهر إحساس الناس بالنشوة والسعادة إلى العرفان بفضل أولئك الذين غيروا صورة المجتمع إلى الأبهج، وانتشلوا الأمة من المنحدر السحيق الذي كانت تدُفع إليه دفعاً قوياً.

ثانيا: صورة «أوائل الورد» التي نبهها «النيروز» في «غلس الدجى». فقد شخصت هذه الورود، واكتسبت أفعالاً من الإنسان كالنوم والصحو. لكن تجدر الإشارة إلى صورة «النوروز» المصاحبة كي يتكامل معنى الصورتين في الدلالة والإيحاء. فالنوروز - كما جاء في تاج العروس - هو أكبر أعياد الفرس، ومعناه بالفارسية اليوم الجديد»[٢٣]. وهذا يعني أن الناس أصبحوا يخطون خطواتهم الأولى في عالمهم المتحرر مع هذا اليوم الجديد الذي أصبحت له حركة جديدة تستنهض كل نائم لينظر إلى الحياة وهي تتشكل ألقاً ونعيمًا، وهكذا أعطى الشاعر النوروز وظيفة المنبه، والمحرك للسكون الراكد، بغية امتلاء الكون - بعد الإفاقة الجماعية - حياة وأملاً وعملاً. من هنا كان الشاعر نبيهاً حين حصر الصورة في «أوائل» الورد لا في الورد كله. فكلمة أوائل هذه تتناسب مع بداية التنبيه في اليوم الأول الجديد الذي هلت بركاته على الأمة، كما أنها توحي بأن وظيفة «النوروز» ليست تنبيه كل مفردات الأشياء، وإنما يكفي أن يبدأ بمجموعة منها

(٢٣) تاج العروس، مادة (نرز).

حتى يتواصل الفعل منها إلى غيرها فتغدو الحركة جماعية بعد أن بدأت فردية . فالصورة مثالية في رمزيتها إلى استنفارهم الناس وأشواقهم بعد أن طال انتظارهم لبزوغ فجر جديد النسمات . لعل هذا هو ما كان في خيال الشاعر وهو يرسم أبعاد هذه الصورة ، ويحدد ألفاظها ، ولكي نقترب من عالمه أكثر علينا أن ننظر إلى ظرف ذلك التنبيه ، فقد جاء في «غلس» الدجى . والغلس يعني «ظلمة آخر الليل»[٢٤] ، أي غاية ظلامه ، كما علينا أيضا أن ننظر إلى ظرف نوم «أوائل الورد» ، فقد كان «بالأمس» . إن اجتماع كلمتي «غلس» و«أمس» يثير في موضعه من الأبيات صورة أخرى تتضاد معهما في الهيئة (الصباح/ مقابل/ الدجى) ، وفي الزمن (اليوم/ مقابل/ الأمس) ، وفي الفعل (الصحو/ مقابل/ النوم) لقد تخطىّ الناس بـ «الربيع الطلق» بؤس الأمس حتى أصبح ذلك البؤس تاريخاً مندثراً في حياتهم بعد أن انتقلوا إلى ما يحيي في وجدانهم «ربيع»» أمتهم أو «صباها» الجميل .

ثالثا : صورة « الندى » التي أثارت في الذهن حواس اللمس «برد الندى»، والسمع «يبث حديثاً» ، والبصر مصحوبة بالحركة «يفتقها». وكأن الشاعر أراد في تصويره مظاهر الربيع إثارة كل الحواس كي يكتمل الجمال بتراسلها. وهو ، في هذا ، ينسجم مع توجهه العام في القصيدة كلها ؛ لأن مقطع الربيع ـ كما قلنا ـ هو الذي توحد فيه الحلم مع الواقع والحقيقة ، لذا فهو ، في داخل الشاعر ، المنطقة المبهجة التي يسري شعاعها في كل ذرة من جسده .

إذا كانت صورة « الورد » قد أثارت في النفوس صحوة عامة ، فإن صورة «الندى» تتقدم بإثارة أكثر تخصيصاً . إنها توحي بحرية التعبير بعد أن كان ذلك محرماً . «يبث حديثاً كان أمس مكتّما». لعل التضاد الذي عقده الشاعر بين «يبث» و«مكتّما» يومىء إلى الانفعال النفسي المصاحب للسلوك الإنساني المجرب للحالتين معاً . فبث الحديث يعني الانتقال به وسط مجموعة كبيرة من الناس قد تتجاوز حد الإحصاء ، لأن صاحب الحديث لا يشبعه التعبير عما في نفسه لواحد أو اثنين ، وإنما هو بحاجة إلى أن يُسمع صوته الناس أجمعين . فالصوت الذي صيره الشاعر حديثاً يبث في كل ناحية الآن كان أمس صوتاً مخنوقاً في داخل أصحابه ، بل ظل يعيش معهم صراعاً عنيفاً ، فحين كان ينازعهم الخروج كانوا ، من خوف العاقبة ، يكتمونه ويغورونه في أجوافهم . إن كلمة «مكتّما» التي جاءت على وزن «مفعّل» بتضعيف حرف العين للمبالغة في فعل التكتم . لتشعرنا بهذه المنازعة الطويلة القاسية كما عاشها إنسان ذلك العهد مع صوته المكبوت ، وهي أيضا

---

(٢٤) المصدر السابق ، مادة ( غلس ) .

التي سوغت إيراد كلمة «يبث» بالمعنى الذي أوّلناه . كما أن إيقاع كل من الكلمتين (مكتما/ يبث) يوحي بدلا لتيهما ، إذ لا يخفى أن أحرف كلمة «يبث» توحي بخفة الحركة وانتشارها ، بينما أحرف كلمة «مكتما» توحي بمحدودية الحركة، وحصرها في التردد ما بين حرف الميم المكرر في بداية الكلمة ونهايتها ، كأن في الأولى حركة منطلقة نحو الخارج أما الثانية فحركتها نحو الداخل تقييداً وإكراهاً . لعل هذا ينسجم تماماً مع كلمة «يفتّقها» التي أتت في بداية الصورة ؛ ففعل التفتيق هنا هو فض للقيود التي تغلف الورود ، وتبديل لفاعلية الحركة بين زهرات الورد والأكمام حولها ، إذ كانت الحركة قبل عملية التفتيق هذه معطاة للأكمام كي تتجه بها نحو خنق الزهرات أو منعها من الخروج ، أما الآن فإن هذه الحركة قد أعطيت للزهرات التي استعانت بقوة الندى على تحطيم قيودها (أكمامها) واندفاعها بشوق نحو هواء أنظف وعالم أرحب . بقي أن دقة البحتري وجهته إلى أن يركز في الصورة على «برد الندى» ، فكأنه يشير بذلك إلى أن هذه البرودة توحي بالجو الطبيعي الذي أصبح يملأ الفضاء ، ويدفع كل مسجون أو معزول في جو حارق خانق إلى أن يطمح للعيش فيه ، هكذا كانت حال زهرات الندى وهي مغلقة بأكمامها ، وهكذا كانت نفسية الناس في المجتمع المنغلق على القهر والإذلال . فكل كان يشتاق إلى جو تنعشه برودة الندى مع كل فجر يوم جديد . إن في هذا استكمالاً لرسم جماليات الحركة المنطلقة نحو عالم أرحب وأبهج .

رابعاً : صورة « الشجر » الذي «رد الربيع لباسه عليه » . لقد اتبع الشاعر في هذه الصورة الأسلوب نفسه الذي انتهجه في الصور السابقة ، إذ أبرز الشجر في حالتين متضادتين : الشجر عارياً / والشجر مكسواً ، لكنه أضاف إلى هاتين الحالتين ما يشعر بأن العرى والاكتساء ليستا حالتين طبيعيتين لحقتا بالشجر نتيجة ظروف خاصة ، أو عوامل بيئية معتادة ، وإنما كانتا تجسيداً لممارسة الآخرين عليه أو له ، وبذلك غدا عريه نوعاً من سلب خصوصيته أو حق من حقوقه ، كما غدت إعادة كسوته إليه تعني إعادة تلك الخصوصية وذلك الحق . إن هذه الصورة بوضعيها المتقابلين تقربنا من إدراك رمز الشجر في خيال الشاعر ؛ فالشجر عنده ، كالندى وكالورد ، مظهر لأحوال الناس بعد أن تغيرت من الأسوأ إلى الأفضل ، ومن الحبس إلى الشمس .

لما كان رد لباس الشجر إليه أنموذجاً للعدل فقد نسب الشاعر فعله للربيع ، «ومن شجر رد الربيع لباسه عليه» ، والربيع ـ كما قد رأينا ـ هو الجو الذي أصبحت الحياة تتنسم عبقه بعد أن حجب عنها لفترة . إن اكتساء الشجر بردائه من جديد يمنحنا فرصة للتأمل في الأبعاد الجمالية التي يثيرها ، وبخاصة حين يكون هذا الجمال في «شجر» مجموع لا شجرة مفردة ، فلك أن تتخيل أشكالاً وألوانا في مساحات من الأرض مختلفة التضاريس والأبعاد والإضاءة والظلال . كأن

الشاعر فكر في هذا كله ولم يجد ما يماثله من صورة متكاملة الجمال خيراً من لوحة «الوشي» التي تؤلفها أشكال وألوان مزركشة تنتشر بفنية عجيبة محسوبة الأبعاد والأحجام «كما نشرت وشياً منمنمًا» . وهذا جمال تستمتع بروعته تلك النفوس التي غدت ـ بعد أن تحررت ـ تنظر إلى الأشياء بروح ملأى بحب الحياة والخير والجمال .

إن انعكاس ذلك التغيير الأخاذ في عيون الناس ونفوسهم صوره الشاعر في صورتين أخريين بناهما من تقابل الحلال / والحرام[٢٥] . وهاتان حالتان توحي الأولى منهما بالحركة نحو الخارج (أحل) لأن السلوك الحلال سلوك يقع في ساحة الفعل المشروع ، لذلك يقترن بالسير في النور بحرية غير مقيدة ، بل يبعث الرضا ويثير الحبور في نفوس الآخرين «أحل فابدى للعيون بشاشة» ، أما الحالة الثانية فتوحي بالحركة نحو «الداخل» لأن السلوك الحرام يقع في منطقة العمل المكروه والممنوع ، لذلك يقترن بالاختباء في العتمة ، وخلف الغفلة ، ويعيش في عالم الحذر والارتباك والتخفي بعيداً عن عيون المجتمع المنضبط الذي تسبب رؤيته له جروحاً محرجة ومؤلمة ، «وكان قذى للعين إذ كان محرما» . ثم إن هاتين الصورتين تتوافقان والوضعين اللذين أثارتهما صورة الشجر قبل قليل . فسلب الشجر لباسه يقع في دائرة الحرام ، بينما يقع رده عليه في مضمار الحلال . إن مثل هذه المقارنة أو المقاربة تدفعنا لأن نحاول فك إيحاء التوافق والتضاد من خلال دلالات السياق العام للقصيدة كلًا . كنا قد كررنا سابقاً أن هجرة الفريق المستقل عن جسد المجتمع المقهور لم تكن قطيعة دائمة وإنما كانت هجرة مرهونة بالزمن الذي يحتاجه تكوين القوة وتمكينها بما يكفل نجاح العودة وتحقيق التوحد ثانية على الأسس الأخلاقية التي تقوم الاعوجاج ، وتصحح الأخطاء وتسير بالأمة نحو التحرر . وتأسيساً على هذا يصبح تجريد الشجر من لباسه إيحاء بخلو المجتمع من أبنائه الذين أرغموا على الهجرة عنه ، وهو تجريد «محرم» لأنه فصل للولد عن أمه ، كما أنه فعل قبيح تتأذى مِنه كل عين تراه « قذى للعين » لأنه يسبب آلاماً غائرة في الأعماق . كما يغدو رد لباس الشجر إليه إيحاء بعودة المهاجرين ، وهي عودة مشروعة تملأ العيون المتلهفة لها «بشاشة» وحبوراً . ثم إن انتشار أفراد الفريق في المجتمع وقد تزينوا بالأخلاق الحميدة ، وراحوا يزينون بها جنبات ذاك المجتمع وأمكنته ، يمكن أن يمثل بنشر لوحات موشاة دقيقة النمنمة ، بعد أن كان قد مثل في مكان آخر بلوحة الربيع التي وقفنا عند روعة جمالها . إن

---

(٢٥) أحل : تعني هنا : دخل في الحلال ، وأحرم : دخل في الحرام ، وكان زهير بن أبي سلمى قد استعملها بهذا المعنى في معلقته الشهيرة حين قال :

جعلن القنان عن يمين وحزنه — وكم بالقنان من محلّ ومحرم

لذلك يخطيء ـ حسب رأيي ـ من يفسر أحرم ، هنا ، بمعنى دخل في ثوب الإحرام . وأحل : خرج منه وتحلل .

الشاعر ـ كما يبدو هنا ـ حريص على أن يستغل مظاهر الجمال المألوفة ليستعين بها على حمل ما بداخله من جمال نفسي وسيع بعد الفتح المبين كما تخيله . لذلك التفت إلى جمال الطبيعة فجلب أبهى صوره فكانت صورة «الربيع» ، كما التفت إلى جمال الفن فجاء بأشمل وأبهج رسومه فكانت «اللوحة الموشاة» .

خامساً : صورة نسيم الريح ، وهي صورة لمسية تنبىء بلطف هذا النسيم «ورق نسيم الريح» في هذا الجو الدافىء الذي غدا سمة الحياة الجديدة . وقد أضاف الشاعر إلى هذه الصورة التي ختم بها وصف مظاهر الربيع ، ما يوحي باكتمال التوحد ، إذ تخيل هذا النسيم وهو يأتيه بأنفاس أحبته الذين خبر نعيم حالهم ، وعذوبة أنفاسهم «حتى حسبته يجيء بأنفاس الأحبة نعما» . لقد جمع البحتري في هذه الصورة التي تبدو بسيطة ، عدة خيوط ، وألف بين مجموعة من علاقاتها المتشابكة ، ثم وزعها على ما يمكن أن نطلق عليه : التوازن بين حالتي الغياب / والحضور . ولكي نحاول أن نعيش تجربة الشاعر علينا ، ونحن نتملى أبعاد هاتين الحالتين عنده ، أن نسترجع بعض الصور القديمة ، التي ترددت في أبيات سابقة ، وبخاصة أبيات المقدمة ، لعل أقرب تلك الصور ، من الوجهة الشكلية على الأقل ـ صورة «الغزال المنعّم» في البيت السادس ، إذ أن لفظة «الغزال» هناك ، التقت مع لفظة «الأحبة» هنا . لكن صورة «الغزال» وصورة «الأحبة» التقتا أيضاً على أبعاد نفسية عميقة الغور داخل الشاعر . فالغزال المنعم ، كان التوحد به هدف الشاعر الأمثل الذي استدعى هجرته ، وبمعنى آخر كان غيابه دافعاً للعمل من أجل حضوره حتى تتواءم نوازع الذات بتوحيد الحلم بالواقع أو الغياب بالحضور . كان هذا شعور الشاعر في المقدمة ، أما شعوره في النهاية بعد تنفيذ المهمة بنجاح فهو إلغاء الغياب والتهيؤ لاستقبال ذلك الحلم الذي أصبح المكان المحرر صالحاً لحضوره ، لهذا تخيله قادماً إليه مع «نسيم الريح» الرقيق للتوحد به . بل لعله جعل رقة هذا النسيم تمثل استشعار حضور ذلك الحلم الذي غدا في خيال الشاعر واقعاً وممثلاً بصورة حبيب ناعم منعم . فالرقة هي التي تتناسب والتنعم الذي وصف به هذا الحبيب .

في صورة « الغزال المنعم » كان هذا الغزال معادلاً موضوعياً لذلك الخيال الذي زار الشاعر لحظة ثم اختفى مأسوفاً على رحيله (أقام كرجع الطرف ثم تصرما» . إذن كانت حركة ذلك الخيال وقتئذ ـ أي قبل الدخول في حياة ما بعد الفتح ـ بادئة من عند الشاعر ومتجهة نحو البعيد (غياب) ، لذلك كان ألم الشاعر يومها هو المسيطر على مشاعره . أما الآن ـ وبعد إتمام الفتح ـ فقد أصبحت حركة ذلك الخيال قادمة من عمق التاريخ ومتجهة نحو الشاعر (حضور) ، لذلك غدت الفرحة

هي السمة الغالبة على أساريره . ولكي نستكمل صورة العلاقات في غيابها وحضورها يلزمنا أن نؤكد ما قلناه في المقدمة من أن الخيال المتصرّم، والغزال المنعّم كانا هناك صورتين «للصّبا» الذي ربطنا رمزه بمجد الأمة الغابر (غياب) ، كما يلزمنا أن نؤكد أقوالنا في نهاية حديثنا من أن «الربيع» هو صبا الحياة الجديدة (حضور). ولما كان «نسيم الريح» ـ وهو جزء من الربيع أو «الصبا» للحياة الحاضرة ـ يندمج ـ حسب تخيل الشاعر وإحساسه ـ «بأنفاس الأحبة نعما» أو «صبا» الأمة ماضياً ، فإن النتيجة الممكنة غدت نفي الغياب نهائياً ، وإثبات الحضور الدائم للماضي والحاضر معاً أو الدخول في عالم التوحد بكل أبعاده الواقعية والتاريخية . لم يعد الشاعر يعاني من تمزق الذات بين الماضي والحاضر ، أو الغياب والحضور ، لأنه أصبح يعيش حياة ألغيت فيها الحواجز النفسية بين ما كان وما يمكن أن يكون ، وأصبحت متوائمة ومتوحدة على ما هو كائن فعلاً في حياة لم يعد فيها أحد يفكر في التمييز بين «صبا الربيع» و«ربيع الصبا» وإنما يعيش متعة رؤيتهما عالمين في عالم واحد .

٣/ب

واستكمالاً للمّ أطراف هذا العالم المتوحد في نهاية القصيدة التفت الشاعر إلى هيثم : قطب هذا التوحد وصانعه وأدار حوله معاني الأبيات الثلاثة التي اختتم بها القصيدة . ويمكن لهذه المعاني أن تجتمع على محور فكري واحد هو «فلسفة القيادة» . لكن الشاعر ناقش هذا المحور بمنطلق شعوري واع أو ما يمكن أن يطلق عليه «الانفعال المتعقل» ، فكانت مناقشته فنية فكرية تضع أمام البصيرة المفارقة الكبرى بين القيادة أصالة / والقيادة زيفاً ، ويمكننا متابعة هذه المناقشة من خلال الصور الثلاث التالية :

أولا : صورة الراح : من المهم ، بداية إدراك أن الراح تثار هنا معنى لا مادة ، وذلك لأن الخمر في الشعر أخذت دلالات وإيحاءات لها قيم جمالية لا تربط ، ضرورة ، بين إيحاءاتها والممارسة الفعلية لشربها ، ومثل ذلك الطرب أو الغناء ، فهو في الشعر ينتمي إلى الفن أكثر من انتمائه إلى الفعل . في صورة الراح هذه أوحى الشاعر بجو الفرحة الكبرى التي غمرت الأمة بعد تحقيق حلم التوحد ، وهو جو يستدعي الاحتفاء به ، والاحتفال له أكلاً وشرباً ورقصاًوغناء . واختيار الشاعر كلمة «الراح» من أسماء الخمر الكثيرةربما كان اختياراً نفسياً للدلالة على ارتياح عام لهذا الجو المنطلق . وتأسيساً على هذا تتجاوز كلمة الراح هنا الدلالة الخاصة لشرب الخمر إلى دلالة أعم وهي أي شراب يتداوله المحتلفون . وقياساً على هذا لا تعني كلمة «الأوتار» المصاحبة لصورة الراح في البيت الواحد والثلاثين نوعاً محدداً من الغناء ضرورة ، ولكنها توحي بما يصاحب الأكل والشرب في الفرح الجماعي من موسيقى ورقص وغناء . لقد كان البحتري منسجماً مع معنى القصيدة العام حين جعل هيثما مركز صورة الراح في قوله «فما يحبس الراح التي

أنت خلها» ، لأن لذلك دلالات بعيدة في فلسفة القيادة . فهيثم في هذا الوضع اللغوي يعني القـائد الذي يهب الأمة فرحتها في تحقيق أمانيها وانتصاراتها بإخلاصه لمبادئها ، وحسن إدارته لقيادة قوتها ، وإيثارها على النفس في المواقف التي تستدعي الفداء . إن هيثما في هذا يمثل الأصالة في القيادة ، وهو يثير في الذهن صورة مضادة هي القيادة الزائفة التي تسلب بجشعها وطغيانها البهجة من أفئدة الناس فلا يجدون في أنفسهم شوقاً للاحتفال حتى في الأعياد والمواسم التي تستدعيه .

لعـل هذين النموذجين المتضادين للقيادة كانا في خيال الشاعر وهو يشكل صورة الراح هنـا ، فاستخـدامه فعلَي الحبس ، والمنع مقرونين بالاستفهام الإنكاري (فما يحبس ؟ . . وما يمنع؟) يوحى بأن هذين الفعلين من عمل القيادة السابقة الذي أدبر وولى مع من كان يقوده ، أما الحاضر الذي أقبل بقيادة جديدة مختلفة فبحاجة إلى أفعال مختلفة كالطلاقة والسماحة .

ثانياً : صورة الشمس : لم يشبه البحتري هيثمًا بالشمس شكلاً ، وإنما شبهه بها قيمة ومعنى حين وضعه في موقع الملهم والمستقطب في آن واحد . فهو مازال شمس «الندامى» حتى في حالـة انتشائهم (إذا انتشوا) وهـم متحررون من الانضباط الوظيفي أو الرسمي ، ومنغمسون كلياً ، في بهجة المرح (وراحوا بدوراً يستحثون أنجما) . إن لهذا التشكيل اللغوى الدقيق دلالة تبرز ، في ناحية ، عظمة هيثم التي حفرت لها أثرا طيباً لا ينمحي في نفوس من عرفوه وتعاملوا معه ، كما تبرز ، في ناحية ثانية ، تقدير أولئك المحتفلين ، بيوم النصر العظيم لكل ما فعله هيثم من أجلهم ، ولم ينسهم إياه ما هم فيه من نشوة قد تصرف الإنسان عن أهم واجباته . لقد برز هيثم في هذه الصـورة ملهم أخـلاق وقيم ، ومستقـطب قلوب وعقول غدت متعلقة به تعلقاً روحياً ، أو تدور في فلك مبادئه دوراناً تلقائياً .

لعل من المهم هنا الوقوف عند بعض الكلمات والألفاظ التي صاحبت هذه الصورة للتعرف على إحسـاس البحتري ، وأبعاد مراميه وهو يشكل معانيها . فعبارة «مازلت» التي استهل بها الصـورة فيهـا إشعار بزمن ماض وآخر حاضر ، أي أن تغير الزمن لا يؤثر في استمرار فاعلية الفعل ، وهذا يعني أن استحواذ هيثم على عواطف الناس لم يكن استحواذاً آنياً ، وإنما غدا موقفاً مستمراً بل ثابتاً لا يتغير بتغير الأوقات . ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا بني على أساس مكين يدعمه عمل مجيد يستحق التخليد . وكلمة «الندامى» ، التي أطلقت على المبتهجين الذين كان هيثم بمثابة الشمس لهم ، تشي بالاقتراب الروحي بينهم وبينه ، فكأنهم اقتربوا منه روحاً وفكراً حتى أصبحوا ينهجون نهجه ، ويحثون غيرهم على سلوك دربه . ولعل صورة البدور والنجوم

«وراحوا بدوراً يستحثون أنجما» توحي بهذا التواصل في تلقي مباديء هيثم . ولقد كان الشاعر بارعاً في تصوير درجات هذا التواصل ؛ إذ بدأ بالشمس مفردة كي تمثل أصل الريادة عند هيثم ، ثم أتبع بها البدور مجموعة كي تمثل الندامى الذين يستلهمون مباديء هيثم عنه مباشرة ، وختم هذه الحلقات بالنجوم مجموعة أيضاً كي تمثل مريدي البدور . وهكذا تتكامل الحلقات لتجسد دوران الأمة كلها في دائرة هيثم والأخلاق والقيم التي يمثلها . لعل المعنى الكبير الذي يمكن استخلاصه من الصورة هو أن القيادة الأصيلة هي قيادة روحية يكون القائد فيها ملهما وقادراً على استحواذ عقول مريديه وأفئدتهم ، وليس مثلها القيادة الزائفة التي تسوق الناس بالعصى والإكراه .

ثالثاً : صورة الكؤوس : وهي ، بالوضع اللغوي الذي أتت عليه ، صورة رمزية توحي بكل المباهج والمفاتن التي قد تذهب العقول ، وتبدل النفوس ، لذا تصلح أن ينظر إليها من خلال ثبات الكريم على ما فطر عليه من أخلاق سوية أمام زينة الحياة ، وتحول سلوك الوضيع إلى ما تسوقه إليه ملذاته حتى لو كان في سلوكه الطائش هذا مخالفاً لطبائع الأمور والناس . إن ما يحكم الأول إحساس داخلي مكين لا يستطيع الفكاك منه حتى لو أرادت غرائز نفسه ذلك ، بينما يحكم الثاني منفعة آنية خارجية تستجيب ـ بلا تردد ـ لغرائز النفس الأمارة بالسوء . ولما كان البحتري قد أبرز مريدي هيثم ذوي قيم أخلاقية ثابتة كما في صورة الشمس السابقة ، فقد أصبح من بدهيات الأمور أن يضع رائدهم (هيثم) في صورة الثبات الفضلى هذه . لقد فعل ذلك حقاً في صورة الكؤوس حين ذكرنا بأن القيم الأخلاقية الكريمة التي كان هيثم قد زرعها في نفوس المحتفلين قبل أن يصل وإياهم إلى مرحلة الاحتفال بالنصر ، فقال : «تكرمت من قبل الكؤوس عليهم» . فليست تلك القيم عنده حالة طارئة ندّت بعد أن وصلت الأمة إلى ما هي عليه ، وإنما هي طبع أصيل فيه ، وقد عمل على أن تظل بعيدة عن أية منفعة أو منقصة . كما أن العبارة السابقة التي شكلت الصورة قد تعني أمراً آخر هو أن الخلق الكريم يبر ز في لحظات الشدة أكثر من بروزه في لحظات الرخاء ، لأن الحاجة إليه هناك تكون أكبر ، وهكذا كان هيثم ، فقد نهض بالعبء الثقيل ، على ما كان يتطلبه من تضحيات جسام يوم أن كانت الأمة بحاجة إلى من يحمل ذلك العبء . ولعل عبارة «فما استطعن أن يحدثن فيك تكرما» تشير إلى ذلك العمل المجيد هيثم ، كما توحي بأمر آخر أيضاً هو أن صفات هذا القائد التي بدت في أثناء تأليفه للقوى المختلفة على هدف نبيل واحد ، وقيادته لهذه القوى قيادة سوية عادلة ، ثم مخاطرته الكبرى في اقتحام أهوال «الفتح» الذي حققه ، كانت كلها صفات تشي بتميز خاص في الأخلاق الحميدة ، بل ببلوغ أقصى حد ممكن من النبل فيها ، حتى لم تعد هناك إمكانية لإحداث درجة في القيمة أعلى من الدرجات التي وصلت إليها ، لذا لم تكن «الكؤوس» قادرة على أن تحدث فيه كرماً زائداً عن

هذا الحد من كرم الأخلاق . ولعل هذا يذكرنا بما كان قد قاله البحتري في البيتين التاسع عشر والعشرين ، إذ جعل هيثمًا هناك باعثاً على بث الأخلاق في فجاج الأرض ، كما صور من يحاول منافسته في بناء المجد كمن يحاول مستحيلاً ، لأن هيثما وصل في ذلك حداً لا يمكن لأحد أن يطاله .

هذه هي أصالة القائد التي تجسدت في ثبات أخلاقه على فطرتها من الطهر ، إذ لاتغيّر في صفاتها الحسنة حتى في المواقف التي تغري بذلك . وعلى النقيض من ذلك القيادة الزائفة التي ترتد إلى فطرة فاسدة ، فهي تعمل لمنفعة ذاتية ، لذا تظل أخلاقها في تحول دائم تبعاً لهذه النفعية حتى لو كان في ذلك ضرر للمجموع .

بقي أن نقول : إن حرص البحتري على أن يظل هيثم حاضراً في نهاية القصيدة لدليل على رغبته في أن ينسب كل فعل حميد صورته أبياتها إلى تلك القيم النبيلة التي جسدها هذا القائد . فما هيثم إلا نموذج فريد من البشر أبرزه الشاعر كي يشخص المباديء والأخلاق التي كان يحلم بتحقيقها فوق أرضه بعد أن فسد هواؤها ، وأصاب العقم تربتها وإنسانها حين ابتليت بفئة لا تحسب لمثل تلك المباديء والأخلاق أي حساب .

٤/أ

لقد رأينا أن أفكاره المشحونة بالانفعال العميق كانت وراء رسم الصور ، واقتران الألفاظ ، وتنوع أشكال التركيب ، أو ما سمي بالتشكيل المكاني للمعنى الشعري . وسنرى فيما يلي أنها كانت أيضاً وراء توزيع الدوائر الوزنية[٢٦] للبحر الذي نظمت عليه القصيدة أو ما سمى بالتشكيل الزماني للمعنى الشعري[٢٧] . وفيما يلي لوحة تمثل توزيع الدوائر وخطوط مسارها في داخل القصيدة . وهي اللوحة التي سأعتمدها أساساً لما يتلو من موازنات وافتراضات ونتائج .

لوحة الخطوط

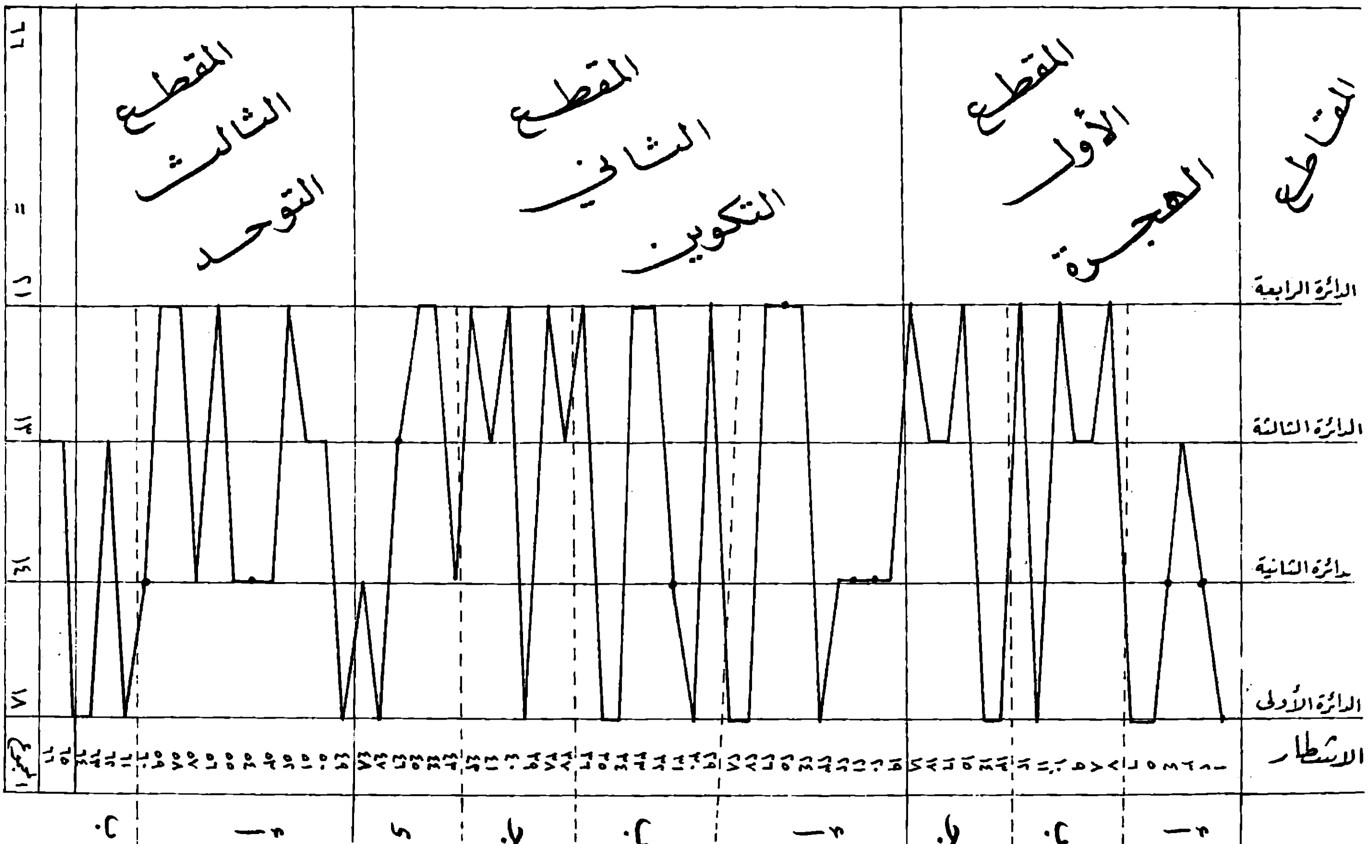
---

(٢٦) أعني بالدائرة الوزنية هنا الشكل الإيقاعي الذي تتخذه تفعيلات البحر الواحد ، في شطر البيت الواحد من القصيدة ، على أساس أن الشطر هو محور البناء الموسيقى للقصيدة العربية .

أنظر تفصيلات هذا الرأي في كتابنا « الصورة الفنية في شعر أبي تمام ص ٢٢٢ ـ ٢٤١ .

(٢٧) أنظر « التشكيل المكاني والزماني » في كتابنا : « الصورة الفنية في النقد الشعري» ص ١٦٧ ـ ٢١٥ .

# لوحة مسار الدوائر الوزنية فى القصيدة



نظم الشاعر قصيدته على البحر الطويل ، وقد استعمل منه أربع دوائر وزنية جاء ترتيبها حسب تتابع ورودها في القصيدة على النحو التالي :

| الدوائر | التفعيــــلات | رموزها | عدد التكرارات في القصيدة |
|---|---|---|---|
| الأولى | فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن | 3121 | ١٨ مـرة |
| الثانية | فعول مفاعيلن فعول مفاعلن | 3424 | ١٤ مرة |
| الثالثة | فعولن مفاعيلن فعول مفاعلن | 3421 | ١٣ مرة |
| الرابعة | فعول مفاعيلن فعولن مفاعلن | 3124 | ٢١ مـرة |
| | مجمــوع الأشطــار | | ٦٦ |

من الـواضح أن الدائرة الوزنية الرابعة هي التي تتفوق في عدد تكرارتها ، على الدوائر الأخرى ، تليها الدائرة الأولى ، فالثانية ، ثم الثالثة التي جاءت أخيراً ، مع أنها تقترب في شكل تفعيـلاتهـا من الـرابعـة المتفـوقة على كل الدوائروالاختلاف بينها هو في موضع ورود كل من التفعيلتين : فعول وفعولن . لكن هذا التوزيع العددي لم يكن واحداً في المقاطع الثلاثة التي تألفت منها القصيدة ، فقد نرى الدائرة التي تتفوق في مقطع تتراجع لتتفوق عليها دائرة أخرى في مقطع آخر ، كما في اللوحة التالية :

| الدوائر | مقطــع الهجرة | مقطـع التكوين | مقطـع التوحد | مجمـــوع التكرارات |
|---|---|---|---|---|
| الأولى | ٦ | ٨ | ٤ | ١٨ مـرة |
| الثانية | ٢ | ٧ | ٥ | ١٤ مـرة |
| الثالثة | ٥ | ٣ | ٥ | ١٣ مرة |
| الرابعة | ٥ | ١٢ | ٤ | ٢١ مـرة |
| مجموع الأشطار | ١٨ | ٣٠ | ١٨ | ٦٦ |

نلاحظ أن الدائرة الأولى كانت لها الغلبة في مقطع الهجرة ، وتقترب منها الثالثة والرابعة خلافاً للثانية . أما في مقطع التكوين فقد تفوقت الرابعة على غيرها بشكل بارز . وأما في مقطع التوحد فقد تقاربت الدوائر ، إذ اشتركت الدائرتان الثانية والثالثة في الغلبة ، لكن الدائرتين الأولى والرابعة لم تبتعدا عنهما كثيراً . وهذا يعني أن التقارب الوحيد بين كل الدوائر في المقاطع الثلاثة لم يحدث إلا في مقطع التوحد . إن هذا قد يفسر على أنه انعكاس لتوافق المشاعر التي غلبت على نفسية الشاعر في هذا المقطع .

وإذا وضعنا في حسابنا نسبة عدد كل دائرة إلى مجموع الدوائر في كل مقطع فإننا نجد أن الأولى التي كان لها التفوق في المقطع الأول قد حافظت على وجودها في الثاني على الرغم من تنازلها عن التفوق فيه للرابعة ، لكنها تراجعت في الثالث . أما الثانية التي كانت آخر الدوائر في المقطع الأول فقد نمت في المقطعين الثاني والثالث حتى كان لها السبق في الأخير . أما الثالثة التي اشتركت في المركز الثاني مع الرابعة في المقطع الأول فقد تراجعت إلى ذيل القائمة في الثاني ، لكنها عادت إلى البروز في الثالث ، واحتلت فيه المركز الأول مع الثانية . أما الرابعة فقد جاءت متقاربة الأعداد في الأول والثالث ، لكنها برزت بروزاً قوياً ومتفوقاً في الثاني . من المهم هنا تأكيد أن أعداد الدوائر في كل مقطع حافظت على استقلالها وتنوعها، حتى بدا لكل مقطع ذاتيته الخاصة في الدوائر التي اختير عددها وتوزيعها على نحو ينسجم وحالة الشاعر فيه .

وحالة الشاعر في كل مقطع لم تكن واحدة أيضاً ، وإنما كانت تخضع لمؤثرات نفسية تصعّد من انفعالها تارة ، وتهديء من روعها تارة أخرى ، وقد اقتضى هذا تنوعاً في الحالات النفسية تبعه تنوع آخر في توزيع الدوائر وترتيبها . فلو أخذنا المقطع الأول مثلا ، لوجدنا فيه ثلاثة مواقف واضحة الاختلاف ، فالأبيات الثلاثة الأولى منه تحمل موقف الإنسان الحالم الذي هاجر فيه الشاعر هجرة نفسية إلى حيث «صبا» الأمة . أما الأبيات الثلاثة التالية لها ، فتحمل موقف الذات الرافض للواقع المهين ، وهو ـ بالنسبة للشاعر ـ موقف الهجرة الفعلية التي ألحقته بالفريق المستقل . أما الأبيات الثلاثة الأخيرة من المقطع ففيها مراجعة للنفس وتقويم لمواقفها السابقة واللاحقة من خلال شعور الرضا بالموقف الجديد الذي أصبح فيه الشاعر ثائراً مع الثائرين ، لقد أتى توزيع الدوائر الوزنية على هذه المواقف الثلاثة كالتالي :

| الدوائر | الهجرة النفسية | الهجرة الفعلية | مراجعة المواقف | مجموع التكرارات |
|---|---|---|---|---|
| الأولى | ٣ | ١ | ٢ | ٦ |
| الثانية | ٢ | — | — | ٢ |
| الثالثة | ١ | ٢ | ٢ | ٥ |
| الرابعة | — | ٣ | ٢ | ٥ |
| مجموع الأشطار | ٦ | ٦ | ٦ | ١٨ |

إذا دققنا النظر في الموقفين الأول والثاني وجدناهما متعاكسين في وضع الدوائر (فعدد الأولى في الأول تساوى عدد الرابعة في الثاني ، والثانية في الأول تساوى الثالثة في الثاني ، والثالثة في الأول تساوي الأولى في الأول ، والرابعة في الأول تتساوى في السلب مع الثانية في الثاني) . إن هذا التعاكس قد يوحي بأن الهجرة الفعلية كانت ردة فعل عملي للهجرة النفسية التي سبقتها . أما الموقف الأخير فقد توافقت فيه أعداد الدوائر المستخدمة ، مما قد يوحي بأن هذا التوافق يمثل انسجاماً داخلياً ، أو الرضا عن الذات بعد أن أطمأنت إلى موقفها العملي الجديد .

وأما المقطع الثاني فيمكننا أن نلاحظ فيه أربعة مواقف نفسية متنوعة : أولها إبراز الصفات الذاتية المتميزة التي أهلت هيثما للقيادة (خمسة أبيات) . وثانيها : إبراز نجاح تلك الذات القيادية عملياً (أربعة أبيات) ، وثالثها : نتائج قيادة هيثم في الناس (ثلاثة أبيات) ، ورابعها : نتائج السلام موزعة على هذه المواقف الأربعة كالتالي :

| الدوائر | الذات القيادية | القيادة عملياً | تغير الناس | تغيرالأرض والبلاد | مجموع التكرارات |
|---|---|---|---|---|---|
| الأولى | ٣ | ٣ | ١ | ١ | ٨ |
| الثانية | ٤ | ١ | — | ٢ | ٧ |
| الثالثة | — | — | ٢ | ١ | ٣ |
| الرابعة | ٣ | ٤ | ٣ | ٢ | ١٢ |
| مجموع الأشطار | ١٠ | ٨ | ٦ | ٦ | ٣٠ |

نلاحظ أن كل موقف استقل بأعداد الدوائر المختارة ، مما جعله متميزاً عن غيره من المواقف الأخرى ، لكننا نلاحظ أيضاً أن كل موقف من المواقف الثلاثة الأولى أسقط واحدة من الدوائر ما عدا الموقف الأخير الذي جمع كل الدوائر فيه ، ثم وازن ـ إلى حد مختلف عن غيره ـ بين أعداد هذه الدوائر مما يتيح لنا مجال الاجتهاد في أن الشاعر بدأ يميل في نهاية المقطع ، إلى تجميع أطراف الدوائر المتفرقة داخل أقسامه الثلاثة السابقة ، ويتجه بها نحو التواؤم والتوافق ، وهذه صنعة تنسجم مع ما رأينا في نهاية المقطع الأول .

وأما المقطع الثالث فيمكن أن نلاحظ فيه موقفين : أولهما استغراق مظاهر التوحد من خلال وصف مظاهر الربيع (ستة أبيات) ، وثانيهما : العودة إلى هيثم ، قطب التغيير والتوحد (ثلاثة أبيات) . وها هو توزيع الدوائر على هذين الموقفين .

| الدوائر | مظاهر التوحد | هيثم قطب التوحد | عدد التكرارات |
|---|---|---|---|
| الأولى | ١ | ٣ | ٤ |
| الثانية | ٥ | — | ٥ |
| الثالثة | ٢ | ٣ | ٥ |
| الرابعة | ٤ | — | ٤ |
| مجموع الأشطار | ١٢ | ٦ | ١٨ |

يلاحظ أن الموقفين متغايران في توزيع الدوائر ، مما يشير إلى استقلال كل موقف عن صاحبه ، لكن يلاحظ أيضاً أن الموقف الأخير حافظ على نهج الشاعر في نهايات المواقف ، فهو - كما رأينا - كان يميل بها نحو التواؤم والتوافق بين الدوائر المستعملة ، والموقف الأخير من هذا المقطع ومن القصيدة كلها أيضاً قد واءم بين الدائرتين : الأولى والثالثة . وإذا عدنا إلى فحص المواقف الأخيرة من المقاطع الثلاثة كلها ، فإننا نجد الشاعر قد حافظ على المواءمة بين هاتين الدائرتين دون سواهما .

وإذا تركنا هذا ونظرنا في المواقف المتعددة للمقاطع الثلاثة ، وجدنا أنه ليس هناك اتفاق تام في توزيع الدوائر بين هذه المواقف إلا في موقفين هما : الموقف الثاني من المقطع الأول ، والموقف الثالث من المقطع الثاني . وبالعودة إلى القصيدة نجد موقف المقطع الأول في الأبيات : الثالث والرابع والخامس من القصيدة ، وهي الأبيات التي أعلن فيها الشاعر التحاقه بالفريق المستقل قائلاً في نهاية الموقف :

فقلت انعموا منا صباحاً وإنما أردت بها قلت الغزال المنعما

أما موقف المقطع الثاني ففي الأبيات التي يثنى فيها الشاعر على هيثم لأنه غير نفوس الناس فكثر الأخلاق وحقق الأمان والسلام ، وقد ختم الموقف بهذا البيت :

سلام ؛ وإن كان السلام تحية فوجهك دون الرد يكفي المسلما

وكنا رأينا - في أثناء التحليل - أن هذين البيتين يمثلان محور المعنى في القصيدة كلها ، فالأول إشعار بنهاية الصراع الداخلي في نفس الشاعر والوصول بها إلى اتخاذ موقف جاد يعمل فيه مع الفريق المستقل لتحقيق الأمل المرجو ، وهو إنقاذ الأمة وتحقيق السلام . إنه نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة في حياة الشاعر ، ولذلك جاءت تحيته (انعموا منا صباحاً) مشعرة بنية العمل الجاد . وقد ظلت الأبيات بعد هذا البيت توحي بمثل هذا العمل الجاد . أما البيت الثاني فكان نهاية الصراع الكبير الذي قاده هيثم حتى تحقق حلم الشاعر وحل السلام ، لذلك أصبحت تحيته هنا ممثلة بقوله : سلام ! وأصبح السلام هو منطق شعور الشاعر في الأبيات التي تلت هذا البيت . لعل التوافق في هذين الموقفين اللذين انتهيا إلى هذين البيتين قادا إلى توافقهما وتناغمهما إيقاعياً ، فالتقيا على نوعية الدوائر الوزنية المختارة وأعدادها ، وإذا ضممنا هذا التناغم في هذين الموقفين المحوريين داخل القصيدة إلى التواؤمات التي وجدناها في نهايات المقاطع الثلاثة تبين لنا أن الدوائر الوزنية ، مهما تعددت وتنوعت داخل القصيدة، فإنها قادرة على توجد نفسها في شكل أو أشكال من التوحد .

وأعتقد أن البحتري لم يكتف بشكل واحد من هذه الأشكال الإيقاعية المتوحدة والمتناغمة ، وإنما نوع فيها وعدد كي يعكس الحالات الشعورية المتعددة داخل نفسه ، فإذا تجاوزنا البحر والقـافية ، والإيقاعات الداخلية التي رأينا بعضاً منها ممثلا في الأصوات المتناغمة الصادرة من الكلمات مفردة أو مركبة ، إلى تشكلّ الدوائر في القصيدة كلاً ـ كما في لوحة مسارها السابقة ـ وقفنا على بعض التـوافقات الإيقاعية المتناغمة ، فهي أشبه ما تكون برنات موسيقية متعددة الأبعاد الزمنية ـ طولاً أو قصراً ـ تتجاوب متقاربة أو متباعدة أو متناظرة أو متعاكسة داخل هذا التشكل العجيب المتحد . من ذلك ـ مثلاً ـ توافق الشكل الذي تؤلفه الدوائر ابتداء بالسادسة وانتهاء بالعاشرة مع الشكل الذي تؤلفه الدوائر ابتداء بالرابعة عشرة حتى التاسعة عشرة ، وكذلك شكل الخامسة والثلاثين حتى التاسعة والثلاثين مع شكل التاسعة والثلاثين حتى الثالثة والأربعين ، وقد يناظره شكل الخامسة والأربعين حتى الخمسين . وهناك أشكال أخرى من التوافقات تتماثل أو تتنـاظر أو تتخالف مما لا يخفي على المتفحص الحصيف . ولكن كل هذه الأشكال تظل جزئية تتساند وتتناغم كي تؤلف الشكل الموسيقى الكلي الذي تقوم وحدته على أساس الانسجام بين النغمات الجزئية والنغمة الكلية الجامعة لها فيما يمكن أن يطلق عليه الوحدة في التنوع ، وهي وحدة تسري داخل وحدة أخرى تؤلفها الكلمات والصور على مبدأ الجزء في الكل والوحدة في التنوع أيضاً . أما الذي يضبط الوحدتين ويجمعهما معاً فهو شعور الشاعر المسيطر على كل حركة وسكون في القصيدة .

لقد كان الشكل الكلي الذي ألفته الدوائر الوزنية ـ كما في اللوحة ـ يميل نحو التعقيد في البناء ، وهو شكل تكثر فيه الرؤوس المدببة عمودياً **(M)** أكثر من الرؤوس الممتدة أفقياً **(Z)** وإذا اعتمدنا أشكال نبضات قلب الإنسان أساساً للمقايسة ، استنتجنا أن الشكل الذي تكثر فيهالرؤوس المدببة يشير إلى شدة في انفعال الشاعر ، لكننا إذا تملينا اللوحة جيداً وجدنا تقارباً في شكلي البداية والنهاية ، فقد كانت البداية صاعدة نحو الصراع الذي أخذت حدته تتعمق منذ الـدائرة الرابعة في الشطر السادس ، لكن النهاية بدأت في الهبوط نحو النهاية منذ آخر ترديد للدائرة الرابعة في الشطر التاسع والخمسين ممتدة في ستة أشطر متساوية لأشطر البداية . أما ما بين تلك البداية وهذه النهاية فألوان من الصعود والهبوط والتجاذب والتناغم . إنها من السكون انطلقت واشتدت ، لكنها إلى السكون عادت واستقرت بعد أن حققت كل طموحات الشاعر وآماله في الحياة والكون .

## الخاتمة :

بسطت قصيدة البحتري ـ كما قدرأينا ـ أبعاد معضلة أصبح مجتمعه ، بعد مقتل الخليفة المتوكل ، يعاني من شرورها وهي ما يمكن أن تسمى بالقهر الإنساني ، الذي غابت فيه القيم العظيمة فلم يعد لكلمات الرحمة ، والعدل ، والمساواة ، والتضحية أي وجود في عالم رجاله المتحكمين بأمره ، وإنما أصبحت مفردات الجشع ، والبغي ، والغل ، والغدر ، والدمار ، والهلاك هي الرائجة في سوق أنانيتهم ، ونفعيتهم ، وجبروتهم .

ولما كان مثل هذا القهر الإنساني سلوكاً شهدته أمة الشاعر ، واستطاعت التغلب عليه والخروج من محنته في الماضي ، فقد تمثل المباديء والوسائل التي اتبعت هناك لتكون الأسلوب الأنجع في حل مأساة مجتمعه في الحاضر ، وبذلك انتقل بخياله إلى هجرة الرسول الكريم وما اعتمدته من أسلوب في التحدي ، وتكوين القوة المتآلفة على الحق العدل والمساواة حتى تحقق الفتح المبين وتغير كل شيء إلى الضد الحسن ، فانقلب الشر خيراً ، والقطيعة لحمة ، والحرب أمناً وسلاماً .

لقد سخر الشاعر كل قدراته اللغوية والفنية كي يغلف أفكاره البعيدة تلك ، متستراً ببعض الأساليب الشعرية المعهودة كالحديث عن الشيب والشباب ، وسرد أوصاف الممدوحين ، ووصف جمال الربيع ، ووسائل الشراب ، لكن قدراً من التفكير النقدي التحليلي في الطريقة الشعرية الكلية التي تعامل فيها الشاعر مع لغة هذه الأساليب وغيرها ، يمنحنا فرصة للكشف عما تخفيه وما ترمي إليه حتى لو كانت مراميها قصيّة .

إننا ـ في نهاية هذا التحليل ـ نؤكد ما لمسناه من براعة الشاعر في الربط بين أفكاره الانفعالية ومعالجاته اللغوية ـ صورة وإيقاعاً وما تبعهما من فنون القول ـ مما مكن المعنى ، في قصيدته هذه ، أن يتشكل في أعمق مستوياته الجمالية ، وأكملها فنية .

## المصادر والمراجع :


١ ـ البحتري ، أحمد أحمد بدوي ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة .

٢ ـ تاج العروس ، السيد محمد مرتضى الزبيدي ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ١٩٦٦ م .

٣ ـ تاريخ الأمم والملوك ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت .

٤ ـ تاريخ ابن خلدون ( كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٧ .

٥ ـ ديوان أبي تمام ، بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة .

٦ ـ ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، الطبعة الثانية ، ذار المعارف ، القاهرة .

٧ ـ ديوان زهير بن أبي سلمى ، بشرح أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٨ ـ رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٦٤ م .

٩ ـ الزمن في الأدب : هانز ميرهوف ، ترجمة الدكتور أسعد رزق ، نشر مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

١٠ ـ سينية أحمد شوقي وعيار الشعر العربي الكلاسيكي ، مجلة فصول ، مجلد ٧ العددان ١ ، ٢ أكتوبر ١٩٨٦ ، مارس ١٩٨٧ ، القاهرة .

١١ ـ الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، عبد القادر الربّاعي ، نشر جامعة اليرموك ، إربد ، ١٩٨٠ م .

١٢ ـ الصورة الفنية في النقد الشعري : دراسة في النظرية والتطبيق ، عبد القادر الربّاعي ، دار العلوم ، الرياض ، ١٩٨٤ م .

١٣ ـ العصر العباسي الثاني ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة .

١٤ ـ الفخري في الآداب السلطانية ، مكتبة صبيح بالقاهرة د.ت .

١٥ ـ المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية ، وليم راى ، ترجمة يونيلل يوسف عزيز ، دار المأمون للترجمة والنشر ، بغداد ، ١٩٨٨ م .

# الحدود النحوية
# مدخل إلى وظائف الاسم في التركيب

د. علي أحمد الكبيسي
مدرس بقسم اللغة العربية ـ جامعة قطر

يهدف التحليل النحوي إلى الكشف عن الوظيفة التي تؤديها الكلمة في الكلام أي إلى التعرف على المعنى النحوي لها فيه، ويجد كثير من المتعلمين صعوبة في الوصول إلى ذلك المعنى الوظيفي لأنهم لا يهتمون بالقرائن المبثوثة في السياق الموصلة إلى ذلك المعنى الوظيفي أو يهتمون بواحدة ويهملون الأخر ، في حين أن المعنى الوظيفي لا يكتمل إلا بمجموعة من القرائن (السمات) التي إذا توفرت في كلمة ما هيأتها لأدائه .

لقد أشار النحاة إلى أن الإعراب في الأسماء موضوع بإزاء معان يدل عليها ، ولا تكون هذه المعاني إلا فيها ، أي أن الاسم ـ لا الفعل ولا الحرف ـ ينفرد بأدائه المعاني الوظيفية النحوية في التراكيب ، من هنا برزت فكرة هذا البحث إذ قامت على أنه إذا كان للاسم وظيفة في الجملة فهل نجد في حدود الوظائف ما يعين على الكشف عنها والوصول إليها ؟ إذا كان «المبتدأ» ـ مثلاً ـ وظيفة للاسم فهل نجد في حده ما يعيننا على الوصول إليه وتحديده .

يتناول هذا البحث دراسة حدود الوظائف النحوية الأساسية والمكملة والتوابع في محاولة للكشف عن القرائن اللفظية والمعنوية التي يتضمنها كل حد ، وقد استعان في ذلك بنظرية د. تمام حسان في القرائن النحوية وتضافرها من أجل تحديد المعنى النحوي الوظيفي[1] .

يتضمن هذا البحث تحليلا لحدود الوظائف النحوية مقسمة حسب حالاتها الإعرابية (المرفوعات ـ المنصوبات ـ المجرورات ـ التوابع) ويقدم في النهاية نظرة عامة تناولت دور تلك القرائن في التمييز بين تلك الوظائف .

---

(١) انظر القرائن النحوية بحث بمجلة اللسان العربي ، المجلد ١١ ، ج ١ ، واللغة العربية معناها ومبناها . ولم يأخذ البحث بقرينة العلامة الإعرابية بل أخرج الأحكام الإعرابية من الحدود لأن المقصود الأول من الحد معرفة ماهية المحدود ثم يأتي بعد ذلك الحكم عليه .

# حدود الوظائف النحوية

## الفاعل :

قيل في حده : هو «المسند إليه فعل تام مقدم فارغ باق على الصوغ الأصلي ، أو ما يقوم مقامه[1]» . يوضح هذا الحد القرائن الموصلة إلى تحديد الفاعل وهي :

١ ـ المسند إليه . ( إسناد )

٢ ـ تمام الفعل . ( بنية )

٣ ـ تقدم الفعل أو شبهه . ( رتبة )

٤ ـ خلو الفعل من الإضمار مع تقدمه . ( بنية )

٥ ـ بقاء الفعل على صيغته الأصلية . ( بنيّة )

وهذه القرائن يمكن توزيعها على نوعين :

### ( أ ) قرائن في الفعل وهي :

ـ أن يكون تاما تمييزا له من الناقص فلا يسمى مرفوعه فاعلا إلا على سبيل التوسع[2]

ـ أن يكون متقدماً ، وهذه رتبة لازمة ، وبها يتميز الفاعل من المبتدإ .

ـ أن يخلو من الضمير مع تقدمه ، وهذه قرينة تميزه من المبتدإ الذي قُدم خبره المتضمن ضميره نحو : قائمٌ زيدٌ ، نجحوا الطلابُ .

ـ أن يبقى على صيغته الأصلية ، فيكون هذا دليلا على وجود الفاعل في التركيب نفسه بخلاف ما إذا حدث تغيير في البنية فهذا دليل على حذف الفاعل .

### ( ب ) قرائن في الفاعل :

وتتمثل في كونه مسندا إليه ، ولا يكون ذلك إلا اسما أو ما يقوم مقامه ، وأن يكون المسندُ الفعلَ أو شبهَه بقرائنه المذكورة .

وبهذه القرائن مجتمعة يتحدد الفاعل فيعطى حكما إعرابيا لضبط آخره وهو الرفع بالعلامات الموضوعة لذلك . والفعل أهم ما يوصِل إلى الفاعل ، فمتى وجدنا فعلاً في التركيب نظرنا في خصائص بنيته فإن وجدناه تاما ، خالياً من الإضمار ، باقيا على أصله فلابد أن يكون له فاعل بعده في التركيب نفسه وعلينا أن نبحث عن اسم يكون مسندا إليه ذلك الفعل ، فيكون هو الفاعل .

---

(١) شرح الكافية الشافية ٢/ ٥٧٦ ، التسهيل ٧٥ .

(٢) التذييل والتكميل ٢/ ١١١ ب .

قال الشاعر :

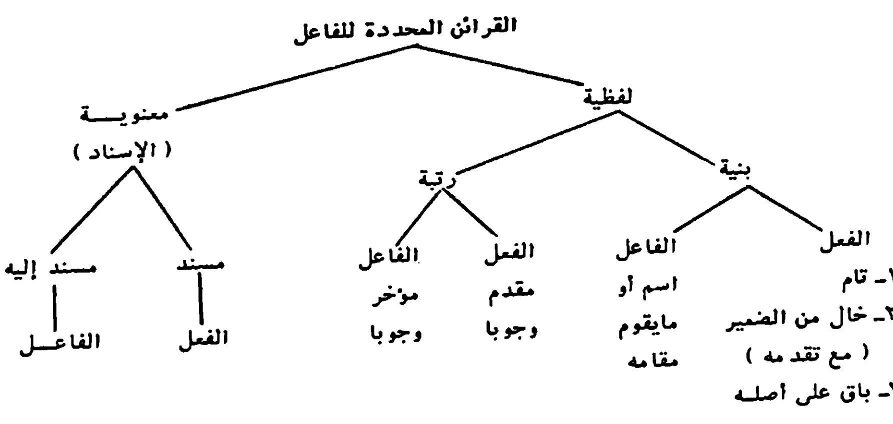
مَضَى عهد الاِستبدادِ واندَكّ صرحُه وولّت أفاعِيه وماتت عقاربُه

لتحديد الفاعل في البيت السابق علينا أن نبحث عن الأفعال وننظر في صفاتها . الأفعال هي (مضى ، اندك ، وَلّت ، ماتت ) وهي كلها مستوفية لما ذكرناه من (التمام ، التقدم مع الخلو من الإضمار ، البقاء على الأصل ) وعليه فمع كل منها فاعل نتعرف عليه بأمرين : أنه اسم مسند إليه .

ما الذي مضى ؟ عهدُ . . .
ما الذي اندك ؟ صرحُه
ما التي ولت ؟ أفاعيه
ما التي ماتت ؟ عقاربُه

وسبب الاعتماد على الفعل بخصائصه المذكورة في تحديد الفاعل أن وقوع الاسم مسنداً إليه لا يوجب له الفاعلية ، بل قد تكون له وظائف أخرى (نائب فاعل ، مبتدأ ، اسم كان ، اسم كاد ، اسم الأحرف المشبهة بليس ) . ومن هنا لا يصح الاقتصار على قرينة الإسناد في تحديد الفاعل بل يجب أن تتضافر معها قرائن أخرى حتى يتميز الفاعل من غيره مما يكون مسندا إليه ، وسبيلنا إلى ذلك قرائن في الفعل :

فتقدمه خاليا من الإضمار يخرج المبتدأ .
وتمامه يخرج أسماء الأفعال الناقصة وأسماء الأحرف المشبهة بليس .
وبقاؤه على صيغته الأصلية يخرج نائب الفاعل .
وبهذه القيود في المسند لا يكون المسند إليه إلا الفاعل .



## نائبالفاعل :

اختلف النحـاة في تسميـة هذه الوظيفة النحوية ، فمنهم من سمّاها «مفعول ما لم يسم فاعله»[١] وهم أكثر المتقدمين ، ومنهم من سمّاها «نائب الفاعل»[٢] وهم المتأخرون ، قال أبو حيان : «لم أر مثل هذه الترجمة لغير ابن مالك والمعروف باب المفعول الذي لم يسم فاعله»[٣] . وقد فضّل ابن هشام ترجمة ابن مالك وقال : إنها أنسب لأن النائب عن الفاعل يكون مفعولا وغيره ، ولأنها تخرج المنصوب في نحو «أُعطِي زيدٌ درهما» وإن كان مفعولا لما لم يسم فاعله»[٤] .

ومن النحاة[٥] من أدخله في باب الفاعل ولم يخصص له بابا مستقلا في المرفوعات وحجته أنه يجري مجرى الفاعل في أنه مسند إليه فِعلٌ قبله «وليس من شرط الفاعل أن يكون موجدا للفعل أو مؤثرا فيه»[٦] وإذا كان الأمر كذلك فلا فرق بين ضَرَبَ زيدٌ وضُرِبَ زيدٌ في جواز تسمية (زيد) في كل منهما فاعلا لأنه قد أُسنِدَ إليه فعلٌ متقدم عليه[٧] .

أما الذين خصوه بباب فقد عرفوه بأنه « كل مفعول حذف فاعله وأقيم هو مقامه وشرطه أن تغير صيغة الفعل[٨] » .

ويكشف هذا الحد القرائن المساعدة على تحديد نائب الفاعل في التركيب وهي أنه :

١ ـ مفعول حذف فاعله ( أصل معناه )

٢ ـ قائم مقام الفاعل ( رتبة ، بنية ، إسناد )

٣ ـ مغيرة من أجله صيغة الفعل ( بنية )

وأهم هذه القرائن وأدلها على نائب الفاعل هي تغيير صيغة الفعل ، وهي السمة الحاسمة في تمييز نائب الفاعل من غيره ، أي أنه مفعول أسند إليه فعل مغير عن أصله .

---

(١) الكتاب ١/ ٤١ ، المقتضب ٤/ ٥٠ ، الأصول ١/ ٧٦ ، الجمل ١/ ٧٨ ، المقتصد ١/ ٣٤٥ ، اللمع ١١٧ ، أسرار العربية ٨٨ .

(٢) التوطئة ٢٣٩ ، شرح الكافية الشافية ٢/ ٦٠٣ ، التسهيل ٧٧ ، أوضح المسالك ١/ ١٣٥ .

(٣) شرح التصريح ١/ ٢٨٦ .

(٤) شرح اللمحة البدرية ١/ ٣٠٩ ، شرح الشذور ١٥٩.

(٥) نسبة الأهدل إلى كثير من البصريين والجرجاني والزمخشري ، الكواكب الدرية ١/ ٧١ ، وانظر شرح الكافية ١/ ٧١ ، المقتصد ١/ ٣٤٦ وشرح المفصل ١/ ٧٤ .

(٦) شرح المفصل ١/ ٧٤ .

(٧) المقتصد ١/ ٣٤٦ .

(٨) شرح الكافية ١/ ٨٣ .

وإذا لم يحدث تغيير في بنية الفعل فلا يجوز الحكم عليه بأنه نائب فاعل[1] .

والمقصود بالمفعول هنا هو المفعول به حقيقة أو حكما لأن المصدر والظرف والمجرور لا يقعن في هذا الموقع إلا بتقدير كونها مفعولات به على السعة «وهذا اتساع لفظي أما المعاني فإنها لا تستحيل أبدا»[2] .

لننظر في الأمثلة الآتية :

١ - «قُضِيَ الأمرُ»[3] .
٢ - «فإذَا نُفِخَ في الصور نفخةٌ واحدةٌ»[4] .
٣ - صِيم رمضانُ .
٤ - «ولما سُقِطَ في أيديهم . . . »[5] .

المتأمل فيها يجد أن لنائب الفاعل صورتين صورة ظاهرة ، وأخرى معنوية مستترة هو في الأولى مشابه للفاعل (بنية ورتبة وإسنادا) أما في الأخرى فهو غير فاعل بل مفعول به أو مصدر أو ظرف أو مجرور بحرف . وقد اعتمد بعض النحاة على الصورة اللفظية الظاهرة فجعلوا نائب الفاعل داخلا مع الفاعل ولم يفردوا له بابا بل سموه «فاعلا» في حين أخذ غيرهم في الاعتبار الصورة المعنوية ومن أجلها فصلوا نائب الفاعل من الفاعل وخصصوا له بابا وألحوا في الحد على ذكر هذه الخاصية تنبيها على الأصل .

مقارنة بين الفاعل ونائب الفاعل :

يتفق الاثنان في كون كل منهما ركنا أساسيا في الجملة الفعلية مسندا إليه، متأخراً عن الفعل ، مرفوعا ويطلبهما فعل تام فارغ .

ويبقى الفصل بينهما ببنية الفعل فإن كان باقيا على أصله فالمسند إليه فاعل ، وإن غيرت صيغته فالمسند إليه نائب فاعل . يتضح هذا من الجدول التالي :

---

(١) التذييل والتكميل ٢/ ١٢١ ب .
(٢) شرح اللمع ١/ ٤٦ .
(٣) يوسف ٤١ .
(٤) الحاقة ١٣ .
(٥) الأعراف ١٤٩ .

| الوظيفة / القرينة | الفاعـــل | نائب الفاعـــل |
|---|---|---|
| السمات المشتركة | مسند إليه ( اسم أو ما يقوم مقامه )<br>متأخر عن الفعل التام الخالي من الإضمار | مسند إليه ( اسم أو ما يقوم مقامه )<br>متأخر عن الفعل التام الخالي من الإضمار |
| السمات الفاصلة | (١) فعله باق على صيغته<br>(٢) فعله متصرف أو جامد | (١) فعله محول عن صيغته الأصلية<br>(٢) فعله متصرف . |

المبتـــدأ :

قيل في تعريفه : إنه «الاسم المجرد عن العوامل اللفظية مسندا إليه أو الصفة الواقعة بعد حرف النفي وألف الاستفهام رافعة لظاهر»(١) .

يكشف هذا الحد سمات المبتدإ وهي :

١ ـ الاسمية ( اسم أو صفة ) ( بنية )
٢ ـ التجرد من العوامل ( بنية )
٣ ـ طرف أساسي في الإسناد (مسند إليه أو مسند) ( إسناد )
٤ ـ الافتقار إلى جزء يتم به الكلام (وهو الخبر) ( تضام )

وتعد قرينة «التجرد من العوامل اللفظية غير الزائدة» سمة حاسمة في تمييز المبتدإ من غيره فليس هناك اسم مسند أو مسند إليه مجرد عن العوامل اللفظية غير الزائدة إلا وهو مبتدأ .

أما « اسمية » المبتدأ فتظهر في صورتين :

( أ ) اسم غير مؤول بالفعل .
( ب ) اسم مشتق ( صفة ) بمعنى الفعل .

---

(١) شرح الكافية ١/ ٨٥ ، وانظر شرح الكافية الشافية ١/ ٣٣٠ ، أوضح المسالك ١/ ١٨٤ .

## التابــع :

لم يحده جمهور النحويين لأنه محصور بالعد[1] .
وقيل في حده : «كل ثان بإعراب سابقه من جهة واحدة»[2] .
وقيل : هو «المشارك ما قبله في إعرابه الحاصل والمتجدد غير خبر» [3] .

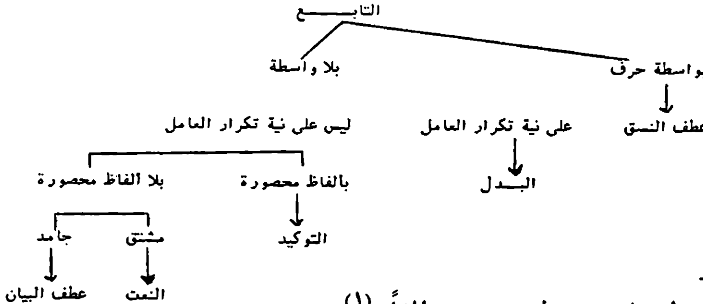
يؤخذ من هذين الحدين أن التابع :

| | |
|---|---|
| ١ ـ ثـان | ( تضام ، رتبة ) |
| ٢ ـ بإعراب سابقه | ( مطابقة ، رتبة ) |
| ٣ ـ من جهة واحدة | ( مطابقة ) |
| ٤ ـ غير خبر | ( معنى ) |

أهم سمات التابع أنه مقترن دائمًا بسابق له يسمى اصطلاحا «المتبوع» ، ولا يمكن أن يوجد تابع بلا متبوع ، ويتميز التابع أيضاً بأنه موافق لمتبوعه في الحالة الإعرابية بحيث يتغير إعرابه بتغير إعراب المتبوع ، وهو مع هذه الموافقة غير خبر .

وتبعية التابع للمتبوع على صور[4] تحدد أنواعه : بواسطة حرف فهو «عطف النسق أو بلا واسطة : على نية تكرار العامل فهو «البدل» ، أو ليس على نية تكرار العامل : بألفاظ محصورة فهو «التوكيد» ، أو بغير ألفاظ محصورة ؛ مشتق فهو النعت، أو جامد فهو «عطف البيان» . وفيما يلي تخطيط لما سبق :

(١) التذييل ٤/ ١٠١ أ ، الهمع ٥/ ١٦٥ .
(٢) شرح الكافية ١/ ٢٩٨ .
(٣) توضيح المقاصد ٣/ ١٣٠ .
(٤) التذييل ٤/ ١٠١ ب ، شرح التصريح ٢/ ١٠٨ ، الهمع ٥/ ١٦٥ .




## النعـــت :

« تابع يدل على معنى في متبوعه مطلقاً »[1] .

وقيل : « التابع المقصود بالاشتقاق وضعا أو تأويلا »[2] .

وقيل : « التابع الموضح لمتبوعه والمخصص له بكونه دالا على معنى في المتبوع أو متعلقه»[3] .

أهم سمات النعت أنه :

| | |
|---|---|
| ١ ـ تابـــع | ( تضام ، رتبة ، مطابقة ) |
| ٢ ـ مشتق | ( بنية ) |
| ٣ ـ يدل على معنى في متبوعه أو متعلقه | ( معنى ) |
| ٤ ـ مطلقا ( بلا قيد ) | ( معنى ) |
| ٥ ـ لتوضيحه أو تخصيصه | ( معنى ) |

الوظيفة الأساسية للنعت أن يوضح متبوعه ويخصصه[4] ببيان معنى فيه أو في متعلقه وهذا البيان إنما يكون باسم مشتق أو مؤول به لأن الجامد لا دلالة له بوضعه على معنى منسوب إلى غيره . ودلالة المشتق تلك مطلقة غير مقيدة بعامل دون آخر . فإذا قلت مثلا : سلمت على رجلٍ عالِمٍ فـ «عالم» خصصت «رجل» بأحد معانيه وهو «العلم»، وهذا المعنى حاصل له مطلقاً نحو هذا رجلٌ عالم ، أكرمت رجلاً عالماً ، فـ (عالم) في كل الحالات تابع أي ملازم لاسم قبله ، مطابق له في إعرابه وتنكيره . ولذا يعرب «نعتا» .

---

(١) شرح الكافية ١/ ٣٠١ .

(٢) التسهيل ١٦٧ .

(٣) شرح ابن الناظم ٤٩٠ .

(٤) إذا استغنى المتبوع عن التوضيح أو التخصيص جاء النعت لأغراض أخرى كالمدح والذم والترحم والتوكيد والإبهام والتعميم والتفصيل . راجع شفاء العليل في إيضاح التسهيل ٢/ ٧٤٧ ، شرح ابن الناظم ٤٩١ ، توضيح المقاصد ٣/ ١٣٣ .

بهذه السمات ( المعنى ـ البنية ـ التضام ـ الرتبة ـ المطابقة) يعرف النعت . ويتميز عن غيره من التوابع بقرينتين أساسيتين هما (المعنى ـ البنية) فليس شيء من التوابع يدل على معنى في متبوعه إلا النعت ، ولا تابعَ مقصودَ بالاشتقاق إلا هو .

## التوكيـــد :

التـوكيد على قسمين : معنوي ولفظي . وقد ذهب بعض النحاة إلى جمعهما في تعريف واحد ، في حين ذهب آخرون إلى حد كل منهما على حدة .

قال ابن الحاجب في حده : « تابع يقرر أمر متبوعه في النسبة والشمول» [١] .

وقال ابن مالك : « تابع يعتضد به كون المتبوع على ظاهره »[١] .

فهذان الحدان يعمان التوكيد بنوعيه .

وقيل المعنوي هو : « التابع الرافع توهم إضافة إلى المتبوع أو أن يراد به الخصوص»[٢] واللفظي هو : « إعادة اللفظ أو تقويته بموافقه معنى»[٣] .

يفهم من هذه الحدود أن سمات التوكيد هي :

| | |
|---|---|
| ١ ـ تابـــع | ( تضام ، رتبة ، مطابقة ) |
| ٢ ـ يُمَكّن معنى متبوعـه | ( معنى ) |
| ٣ ـ بإعادة اللفظ أو بمرادفه | ( بنية ) |

المعنى والبنية والتبعية قرائن مهمة في التعرف على التوكيد ، ذلك أن المتكلم يظن أحيانا أن السامع غافل عنه، أو يظن به الغلط ، أو استعمال المجاز[٤] ، ولذا يورد المتكلم في كلامه ما يدفع به تلك الأمور عنه ، فيعلم السامع أن اللفظ على ظاهره ويتمكن معناه في نفسه .

---

(١) شرح الكافية ١/ ٣٢٨ . وانظر شرح شذور الذهب ٤٢٨ .

(٢) شرح الكافية الشافية ٣/ ١١٦٩ .

(٣) التسهيل ١٦٤ ، ١٦٦ . وانظر شرح ابن الناظم ٥٠١ ، ٥٠٩ .

(٤) شرح الكافية ١/ ٣٢٨ .

وسيلة المتكلم إلى ذلك أن يستعمل ألفاظا معلومة عند العرب لا يعدل عنها إلى غيرها ، وهي ألفاظ التوكيد المعنوي(١) ، أو يكرر اللفظ بعينه أو بمرادفه وهذا هو التوكيد اللفظي .

وكل هذه الألفاظ مرتبطة بالمتبوع ، متأخرة عنه ، موافقة له في الحالة الإعرابية .

## البدل :

هو «تابع مقصود بما نُسب إلى المتبوع دونه» (٢) .
وقيل : « تابع مقصود بالحكم بلا واسطة » (٣) .

أهم قرائن البدل أنه :

| | |
|---|---|
| ١ ـ تابع | ( تضام ، رتبة ، مطابقة ) |
| ٢ ـ مقصود بالحكم | ( معنى ) |
| ٣ ـ بلا واسطة | ( معنى ) |

التضام والمعنى قرينتان مهمتان في تحديد هذه الوظيفة ، أما التضام فلأن البدل مسبوق بمبدل منه دائمًا ، وأما المعنى فلأن البدل هو المقصود بالحكم دون المبدل منه ، وهذا يعني أن النسبة قد صرفت عن المبدل منه إلى البدل ، وكأن المتكلم حين ذكر المبدل منه ظن أن السامع قد يحمله على ما فيه من عموم أو ما وقع فيه من غلط ، فجاء بلفظ آخر أخص في دلالته وهو مراده حقيقة وهو «البدل». وبهذا المعنى تميز البدل من النعت والتوكيد وعطف البيان «لأن كل واحد منها مكمل للمقصود بالنسبة لا مقصود بها»(٣) .

ومما يميز البدل أيضا أنه يؤدي ذلك المعنى بلا واسطة بينه وبين المبدل منه ، وبهذا خرج عطف النسق والمعطوف ببل في نحو : نجحَ خالدٌ بل سعيدٌ «لأن كل واحد منهما مقصود بالنسبة ولكن بواسطة»(٤)

---

(١) وهي النفس ، والعين ، وكل ، وجميع ، وعامة ، وكلا ، وكلتا . الهمع ٥/ ١٩٧ .
(٢) شرح الكافية ١/ ٣٣٧ .
(٣) شرح الكافية الشافية ٣/ ١٢٧٦ ، أوضح المسالك ٣/ ٣٩٩ .
(٤) شرح ابن عقبل ٢/ ١٩٣ .

| الوظيفة | التعريف | القرائن المميزة | القرائن المساعدة |
|---|---|---|---|
| خبر كان وأخواتها<br>خبر كاد وأخواتها<br>خبر المشبهات بليس | المسند بعد دخولها | (١) مسند (معنى)<br>(٢) بعد دخولها (أداة + تضام) | البنية ، ح<br>شروط العمل . . . |
| اسم إن وأخواتها<br>اسم لا النافية للجنس | المسند إليه بعد دخولها | (١) مسند إليه (معنى)<br>(٢) بعد دخولها (أداة + تضام) | أ ـ البنية (نكرة)<br>ب ـ الرتبة |

المجرور بالحرف :

لم يحده النحاة استغناء بما دل عليه من اسمه : اسم مجرور بحرف جر، ولظهور القرينة الدالة عليه وهي حرف الجر .

وأطلق عليه سيبويه[1] والمبرد[2] وابن الحاجب[3] لفظ «المضاف إليه» اعتمادا على المعنى اللغوي لأنهم يعدون حروف الجر حروف إضافة بمعنى أنها تضيف أي توصل معاني الأفعال إلى الأسماء المجرورة فهي واسطة بين المضاف وهو الفعل ، وبين المضاف إليه وهو الاسم المجرور بالحرف ، وهذا على خلاف ما هو مشهور عند المتأخرين حيث خصوا «المضاف إليه» بالاسم المجرور بإضافة اسم مثله إليه[4] .

وأهم القرائن الدالة عليه أنه :

| | |
|---|---|
| ١ ـ اسم | ( بنية ) |
| ٢ ـ مسبوق بحرف جر | ( رتبة + أداة + تضام ) . |

وتعد الأداة « حرف الجر » القرينة الحاسمة في تحديده ، إذ لا يكون بعدها إلا الاسم المجرور لفظا ومعنى أو لفظا فقط ، ولذا اعتنى النحاة بها وبوبوا لها في كتبهم وبينوا معانيها .

المضاف إليه :

المشهور بين النحاة أنه وظيفة المجرور بإضافة اسم إليه ، وأطلقه بعضهم على المجرور بالحرف أيضا[5] ، وليس له حد عند أكثرهم اكتفاء بدلالة لفظه على معناه ، وبما يفصلونه في باب «الإضافة» من تفسيرها وبيان أقسامها .

الإضافة عندهم «اتصال آخر الاسم الأول بأول الاسم الثاني من غير فصل غالبا اتصالا يعقبه جر الثاني لفظا أو محلا»[6] .

---

(١) الكتاب ١/ ٤١٩ .

(٢) المقتضب ٤/ ١٣٦ .

(٣) شرح الكافية ١/ ٢٧٢ .

(٤) السابق ، والفوائد الضيائية ٢/ ٣ .

(٥) المصادر السابقة ، وشرح الكافية ١/ ٢٧٢ .

(٦) شرح ألفية ابن معطي ١/ ٧٢٩ .

وقيل : هي «إسناد اسم إلى ما أُقيم مَقامَ تنوينه أو نونه التالية للإعراب»[1] أو «نسبة تقييدية بين اسمين توجب لثانيهما الجر»[2] .

تؤكد مثل هذه التعريفات أن الإضافة لا تتحقق في مفرد بل في مركب من اسمين ، لكنه غير مفيد لأنه يدل على معنى لا يحسن السكوت عليه .

يتألف المركب الإضافي من اسمين أولهما المضاف والآخر المضاف إليه .

وقد عرّف ابن مالك المضاف بقوله : «هو الاسم المجعول كجزء لما يليه خافضا له»[3] .

وعرّف ابن الحاجب المضاف إليه بقوله : هو « ما ينسب إليه اسم قبله بواسطة حرف جر مراد »[4] .

يؤخذ من هذين الحدين أن قرائن المضاف إليه هي أنه :

| | |
|---|---|
| ١ ـ اسم (حقيقة أو حكما) | ( بنية ) |
| ٢ ـ منسوب إليه اسم قبله | (معنى ، بنية ، رتبة ، تضام) |
| ٣ ـ بواسطة حرف جر مراد | (معنى) |

أول القرائن الموصلة إلى هذه الوظيفة هي «التضام» بين اسمين فالمضاف إليه ملازم دائمًا للمضاف ، يليها المعنى الذي يحدد شكل التضام على أنه نسبة المضاف إلى المضاف إليه بواسطة أداة هي حرف الجر المقدر[5] .

ويتحقق معنى النسبة بقرائن لفظية أهمها : البنية والرتبة .

أما البنية فتتمثل في أن المضاف لا يكون إلا اسما[6] نكرة[7] ، محذوفا منه التنوين أو ما يقوم مقامه غيرَ مقترن بأل .

(١) شرح اللمحة ٢/٢٦٨ .

(٢) الهمع ٤/ ٢٦٤ .

(٣) التسهيل ١٥٥ .

(٤) شرح الوافية ٢٤٨ .

(٥) هذا في الإضافة المعنوية ، أما اللفظية فلا يحسن تقدير حرف الجر فيها . انظر شرح الكافية ١/ ٢٧٢ .

(٦) كشف المشكل في النحو ١/ ٥٨٦ ، وحاشية يس بهامش شرح التصريح ٢/ ٢٤ .

(٧) المقتصد ٢/٨٧٢ ، شرح المفصل ٢/ ١٢١ .

وحـذف التنـوين منه قرينة دالة على إرادة معنى الإضافة ، أي الاتصال والنسبة وتوقع المضاف إليه بعده إن لم تقترن به أل ، ذلك أن التنوين أصل في الاسم المعرب ولا يحذف إلا إذا كان الاسم ممنوعاً من الصرف أو معرفة بأل أو مضافا وإذا انتفى الأولان تعين الثالث .

كما يعد اقتران أل بالاسم قرينة مانعة من تنوينه ومن إرادة معنى الإضافة الحقيقية .

والمضاف إليه يكون اسما صريحا نكرة ومعرفة ومصدراً مؤولا وجملة .

وأما الرتبة فتقضي أن يكون المضاف إليه أبداً بعد المضاف بلا فصل غالبا .

بهذه القرائن مجتمعة ( التضام والمعنى والبنية والرتبة ) يتحدد المضاف إليه .

## قرائن المجرورات

| الوظيفة | التعريف | القرائن المميزة | القرائن المساعدة |
|---|---|---|---|
| المجرور بالحرف | اسم مسبوق بحرف جر | ١ ـ اسم (بنية)<br>٢ ـ حرف جر<br>(أداة + تضام) | ـ الرتبة |
| المضاف إليه | ماينسب إليه اسم قبله بواسطة حرف جر مراد | ١ ـ منسوب إليه (معنى)<br>٢ ـ اسم مثله (تضام) | ـ الرتبة<br>ـ البنية (المضاف اسم بلا تنوين، المضاف اليه (مفرد ، مصدر مؤول ، جملة) |

# القرائن ودورها في التمييز بين الوظائف النحوية

| الوظيفة | المعنى الخاص |
| --- | --- |
| الفاعل | بيان من فعل الفعل (المسند إليه) |
| نائب الفاعل | بيان ما يقوم مقام الفاعل |
| المبتدأ | بيان ما ابتدىء به ليخبر عنه |
| الخبر | بيان ماحكم به على المبتدأ |
| اسم كان وأخواتها<br>اسم كاد وأخواتها<br>اسم الحروف المشبهة بليس | بيان المحكوم به على اسمها مقيدا بمعانيها |
| خبر إن وأخواتها<br>خبر لا النافية للجنس | بيان المحكوم عليه بخبرها مقيدا بمعانيها |
| المفعول المطلق | توكيد الفعل ، بيان نوعه ، أو عدد مراته |
| المفعول به | بيان من وقع عليه فعل الفاعل |
| المفعول له | بيان سبب وقوع الفعل |
| المفعول معه | بيان مَن فعل معه الفعل (مصاحبة الفاعل) |
| المفعول فيه | بيان زمان أو مكان حدوث الفعل |
| الحال | بيان هيئة الفاعل أو المفعول |
| التمييز | تفسير المبهم مفردا أو جملة |
| المستثنى | مخالفة حكم المستثنى منه |
| خبر كان وأخواتها<br>خبر كاد وأخواتها<br>خبر الحروف المشبهة بليس | بيان المحكوم به على اسمها ، مقيدا بمعانيها |
| اسم إن وأخواتها<br>اسم لا النافية للجنس | بيان المحكوم عليه بخبرها مقيدا بمعانيها |
| الاسم المجرور | إيصال معنى الفعل إلى الاسم بواسطة حرف الجر<br>(منسوب إليه معنى الفعل بواسطة حرف الجر) |
| المضاف إليه | منسوب إليه المضاف |
| النعت | الدلالة على معنى في متبوعه مطلقا |
| التوكيد | تقرير أمر المتبوع في النسبة والشمول |
| البدل | مقصود بالحكم دون متبوعه بلا واسطة |
| عطف البيان | توضيح المتبوع بما هو أشهر منه |
| عطف النسق | مقصود بالنسبة مع متبوعه بواسطة حرف معين . |

أما الفروق اللفظية فتتمثل فيما تطلبه كل وظيفة من صفات لفظية معينة في الكلمة التي تؤديها من حيث البنية أو الأداة أو الرتبة أو التضام أو المطابقة .

أ ـ البنية :

تشترك الوظائف كلها في جنس البنية وهو «الاسم» لكنها تختلف في نوع البنية الذي يمثلها ، ذلك أن البنية على أنواع : مفردة (اسم صريح) أو مؤولة بالمفرد (مصدر مؤول ـ جملة) أو متعلقة بمفرد (شبه جملة)، وليست الوظائف سواء في قبول هذه الأنواع بل تختلف فيما بينها اختلافا يميز بينها ، بل إن بعض الوظائف تضع قيودا صارمة على البنية فتحصرها في شكل معين (مفرد) ، (مشتق) ، (جامد) ، (نكرة ) ، (معرفة) . وتعد هذه القيود قرائن بنيوية تميز بين الوظائف .

وإلى جانب هذه القيود في البنية الخاصة بالوظيفة ، توجد في التراكيب أبنية تساعد في التعرف على الوظيفة النحوية دون أن تؤديها ، فبنية الفعل التام الأصلية قرينة مميزة للفاعل ، وبنية الفعل التام المحولة عن أصلها قرينة على نائب الفاعل ، وبنية الفعل المتعدي قرينة على المفعول به وبنية الفعل الناقص قرينة على اسمه وخبره ، بل إن بنية الفعل توحي أحيانا بمتعلقاته لأنه متعلق بها لفظا أو معنى ، فيكون وجوده قرينة على اسم «قد فُعِل ، أو فُعِل به ، أو فُعِل فيه ، أو فُعِل لأجله ، أو فُعِل معه»[1] .

ب ـ الأداة :

وهي تميز الوظائف التي تؤدى بواسطتها ، فحرف الجر قرينة على الاسم المجرور ، والحروف الناسخة قرينة على اسمها وخبرها ، وواو المعية قرينة على المفعول معه ، وحرف العطف قرينة على المعطوف ، وإلا الاستثنائية قرينة على المستثنى .

ج ـ الرتبة :

لكل وظيفة رتبة تحدد موقع الكلمة التي تؤديها في التركيب ، لكنها تختلف فيما يقتضيه المعنى الوظيفي من حفظ الرتبة أو عدم حفظها .

ويعد حفظ الرتبة قرينة مميزة لبعض الوظائف ، فالفاعل ونائب الفاعل بعد الفعل ، والمفعول معه بعد واو المعية ، والمستثنى بعد إلا ، والمجرور بعد حرف الجر ، والمضاف إليه بعد المضاف والتابع بعد المتبوع ، وأسماء النواسخ لا تتقدم عليها .

---

(١) شرح ألفية ابن معطي ١/ ٥٢٤ .

د ـ التضـــام :

تحتـاج كل وظيفة إلى نوع من التضام يحقق المعنى المراد منها لكنها تختلف في خصوصية العنـاصر المتضامة ، ويصبح التضام قرينة مميزة للوظيفة بتحديده التلازم بين العناصر التي بها يكتمل معناها ، كالتلازم بين الفعل ومرفوعه ، والخبر والمبتدإ ، والناسخ واسمه وخبره ، وحرف الجـر ومجـروره ، والمضـاف والمضاف إليه ، والتابع ومتبوعه ، والمستثنى وإلا والمستثنى منه ، والتمييز والمميَّز .

هـ ـ المطابقة :

وهي تميز الوظائف التي تحتاج إلى نوع من المطابقة اللفظية أو المعنوية بين الكلمة التي تؤديها وأحد العناصر في التركيب ، كالذي بين المفعول المطلق وفعله من اشتراك في اللفظ والمعنى أو المعنى فقط والذي بين المفعول له وفعله من اشتراك في الزمان والفاعل ، وكالمطابقة في الإعراب بين التابع والمتبوع .

هكذا تتميز الوظائف بالمعنى النحوي أولا ثم بقيود في البنية الحاملة لذلك المعنى ثم بما تفرضه من قيود على الرتبة أو التضام أو المطابقة أو الأداة .

ولما كان المعنى النحوي دقيقا وخفيا ، صار من اللازم الاستعانة بما يحمله السياق من قرائن متعلقة بألفاظه ، وأهمها البنية ، فهي المدخل إلى تحديد الوظيفة ، لأن المبنى هو الناقل للمعنى ، ثم تأتي القرائن الأخرى (الرتبة ـ التضام ـ الأداة ـ المطابقة) وتكون قيودها صفات لتلك البنية ، أي أن المعنى النحوي ينقل إلينا في التركيب من خلال بنية ذات سمات محددة . أما الحكم الإعرابي فمتأخر عن معرفة الوظيفة ، لأن المطلوب الأول تحديد وظيفة الكلمة ثم تضبط بما يناسبها من علامات الإعراب .

# المصادر والمراجع


١ ـ الأزهري ( خالد بن عبد الله ت ٩٠٥ هـ ) .

شرح التصريح على التوضيح ـ دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٣١٢ هـ .

٢ ـ الأشموني ( نور الدين أبو الحسن علي بن محمد ت ٩٢٩ هـ )

منهج السالك إلى ألفية ابن مالك . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٧٠ م .

٣ ـ ابن الأنباري ( أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٥٧٧ هـ )

أسرار العربية . تحقيق محمد بهجة البيطار . مطبعة الترقي ـ دمشق ١٩٥٧ م .

٤ ـ الأهدل (محمد بن أحمد بن عبد الباري) ت ١٢٩٨ هـ ).

الكواكب الدرية شرح متممة الأجرومية ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة . د. ت .

٥ ـ ابن برهان ( أبو القاسم عبد الواحد بن علي ت ٤٥٦ هـ )

شرح اللّمع . جزآن . تحقيق د. فائز فارس . المجلس الوطني للثقافة ـ الكويت ـ ١٩٨٤ م .

٦ ـ البغدادي ( عبد القادر بن عمر ت ١٠٩٣ هـ )

خزانة الأدب . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مكتبة الخانجي . القاهرة .

٧ ـ تمام حسان ( دكتور )

ـ القرائن النحوية بحث منشور بمجلة اللسان العربي مج ١١ ج ١ ـ الرباط ـ ١٩٧٤ م .

ـ اللغة العربية معناها ومبناها . الهيئة المصرية العامة ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ م .

٨ ـ الجامي ( نور الدين عبد الرحمن ت ٨٩٨ هـ )

الفوائد الضيائية . تحقيق د. أسامة الرفاعي . مطبعة وزارة الأوقاف ـ العراق ـ ١٩٨٣م .

٩ ـ الجرجاني ( أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ت ٤٧١ هـ)

المقتصد في شرح الإيضاح . تحقيق د. كاظم المرجان . وزارة الثقافة والإعلام ـ العراق ١٩٨٢م .

١٠ ـ ابن جني ( أبو الفتح عثمان ت ٣٩٢ هـ )

اللمع في العربية . تحقيق د. حسين محمد شرف ـ عالم الكتب ـ القاهرة ١٩٧٩ .

١١ ـ ابن الحاجب ( أبو عمرو عثمان بن عمر ت ٦٤٦ هـ )

ـ الإيضاح في شرح المفصل . تحقيق د. موسى بناي العليلي . مطبعة العاني . بغداد ـ ١٩٨٣ م .

ـ الأمالي النحوية . تحقيق هادي حسن حمود . دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٥م .

ـ شرح الوافية . تحقيق د. موسى العليلي . مطبعة النجف الأشرف . العراق ١٩٨٠م .

١٢ ـ الحيدرة ( علي بن سليمان ت ٥٩٩ هـ )

كشف المشكل في النحو . تحقيق د. هادي مطر . مطبعة الإرشاد . بغداد ١٩٨٤ م .

١٣ ـ أبو حيان ( أثير الدين محمد بن يوسف ت ٧٥٤ هـ )

التذييل والتكميل في شرح التسهيل . مصورة بمكتبتي عن مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٠١٦ هـ ، ٦٢ نحو .

١٤ ـ الرضي ( رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي ت ٦٨٦ هـ )

شرح الكافية . دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٨٢ م .

١٥ ـ الزجاجي ( أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق ت ٣٣٧ هـ )

الجمل تحقيق د. علي الحمد . مؤسسة الرسالة . بيروت ١٩٨٤م .

١٦ ـ الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر ت ٥٣٨ هـ)

**عطف البيان :**

« تابع غير صفة يوضح متبوعه »[1] .

وقيل : «جريان اسمٍ جامدٍ معرفةٍ على اسم دونه في الشهرة أو مثله يبينه كما يبينه النعت ولا يشترط فيه أن يكون مشتقا ولا في حكمه ، وأكثر استعماله في الأسماء الأعلام إذا جرت على الكُنى وفي الألقاب إذا جرت على الكُنى»[2] .

وقيل : التابع الموضح والمخصص متبوعه غير مقصود بالنسبة ولا مشتقا ولا مؤولا بمشتق»[3] .

أهم قرائن هذه الوظيفة :

| | |
|---|---|
| ١ ـ تابع | ( تضام ، رتبة ، مطابقة ) |
| ٢ ـ غير صفة ( اسم جامد معرفة) | ( بنية ) |
| ٣ ـ يوضح متبوعه | ( معنى ) |

تتضافر هذه القرائن لتوصل إلى «عطف البيان» ذلك أنّ الغرض هنا إيضاح المتبوع وإزالة الاشتراك الواقع فيه باستعمال اسم جامد معرفة بعده أشهر منه . قال ابن السراج : «وإنما سمي عطف بيان ولم يقل إنه نعت لأنه اسم غير مشتق من فعل ولا هو تحلية ولا ضرب من ضروب الصفات فعدل النحويون عن تسميته نعتا وسموه عطف بيان لأنه للبيان جيء به ، وهو مفرق بين الاسم الذي يجرى عليه وبين ما له مثل اسمه[4]» . ومن هنا نزله الزمخشري من متبوعه «منزلة الكلمة المستعملة من الغريبة إذا ترجمت بها»[5] أي أنه أشهر من متبوعه عرفا واستعمالا .

وللبنية دور مهم في تحديد «عطف البيان » لأنه لا يكون إلا بالأسماء الجامدة ، المعرفة ، الـظاهرة (عند البصريين)، وأكثر استعماله أن يكون علما ومتبوعه كنية نحو : قام أبو حَفْصٍ عُمَرُ ، أو يكون لقبا ومتبوعه كنية نحو : قام أبو حَفصٍ قُفَّةُ ، أو يكون لقبا ومتبوعه علم مضاف نحو : قام عبد الله قُفّةُ[6] .

---

(١) شرح الكافية ١/ ٣٤٣ .

(٢) المقرب ٢/ ٢٤٨ .

(٣) شرح ابن الناظم ٥١٤ .

(٤) الأصول ٢/ ٤٥ .

(٥) المفصل ١٢٢ . وانظر شرح المفصل ٣/ ٧١ .

(٦) إصلاح الخلل ٦٧ ، شرح الجمل لابن عصفور ١/ ٢٩٧ ، المقرب ١/ ٢٤٨ .

وأكثر ما يلتبس عطف البيان بالبدل حتى قال الرضي : « وأنا إلى الآن لم يظهر لي فرق جلي بين بدل الكل من الكل وبين عطف البيان بل لا أرى عطف البيان إلا البدل . . »[١] . يفهم من هذا أنه لا توجد قرائن فارقة بينهما لا لفظا ولا معنى .

وقال غيره : « كل اسم صح الحكم عليه بأنه عطف بيان مفيد للإيضاح أو للتخصيص صح أن يحكم عليه بأنه بدل كل من كل مفيد لتقرير معنى الكلام وتوكيده لكونه على نية تكرار العامل»[٢] ، ومعنى هذا اختفاء القرائن اللفظية الفارقة بينهما ولم يبق سوى المعنى وهو أمر يصعب على المخاطب إدراكه من غير تصريح المتكلم به .

ومع هذا التداخل بين الوظيفتين أشار النحاة إلى وجود فرق جوهري بينهما وهو «أن عطف البيان تقديره تقدير النعت التابع للاسم الأول ، والبدل تقديره أن يوضع موضع الأول»[٣] أي أن عطف البيان ليس مقصوداً أن يحل محل متبوعه بل هو مبين وموضح له ، أما البدل فعلى تقدير أن يحل محل المبدل منه أو على نية تكرار العامل فالكلام مع عطف البيان جملة واحدة ،٠ أما مع البدل فجملتان[٤] . ومن هنا قالوا : متى امتنع أن يحل التابع محل المتبوع فالتابع عطف بيان ولا يجوز البدل، وإذا لم يمتنع فالوجهان جائزان كما في نحو جاءني زيدٌ أخوك .

ينفرد عطف البيان في مثل[٥] : يا زيدُ الحارثُ ، فـ«الحارث» عطف بيان وليس بدلا لأنه لو حل محل المنادى لاقترن حرف النداء بما فيه أل وهو غير جائز .

وينفرد أيضاً في نحو : يا أخانا زيدا ، إذ لا يصح كون «زيدا» بدلا ، لأنه إذا حل محل المنادى صار مبنيا على الضم لأنه علم مفرد .

وينفرد أيضا في نحو قول المرار الفقعسي :

أنا ابنُ التاركِ البكريِّ بِشْرٍ ... عليه الطيرُ تَرقُبه وُقوعا[٦] .

فبشر عطف بيان لـ (البكري) ، ولا يجوز كونه بدلا إذ يلزم منه إضافة الصفة المفردة المعرفة

---

(١) شرح الكافية ١/ ٣٣٧ .

(٢) شرح القطر ٢٩٨ .

(٣) الأصول ٢/ ٤٦ .

(٤) شرح المفصل ٣/ ٧٢ ، المغني ٥٩٧ .

(٥) الأصول ٢/ ٤٦ ، إصلاح الخلل ٦٨ ، شرح الشذور ٤٣٦ ، أوضح المسالك ٣/ ٣٥٠ .

(٦) من الوافر ، للمرار الفقعسي في الكتاب ١/ ١٨٢ ، والمفصل ١٢٣ ، وشرح المفصل ٣/ ٧٣ ، والخزانة ٤/ ٢٨٤ ، ٥/ ١٨٣ ، ٢٢٥ وبلا نسبة في الأصول ١/ ١٣٥ ، شرح الشذور ٤٣٦ ، أوضح المسالك ٣/ ٣٥١ .

بأل إلى اسم مجرد منها وهو غير جائز نحو (أنا ابنُ التاركِ بِشرٍ) .

قال ابن السيد البطليوسي : ومن أجل هذه المواضع احتيج إلى عطف البيان[1] .

## عطف النسق :

«تابع مقصود بالنسبة مع متبوعه يتوسط بينه وبين متبوعه أحد الحروف العشرة[2]» .

يوضح هذا الحد أهم سمات المعطوف عطف النسق وهي أنه :

| | |
|---|---|
| ١ ـ تابـــع | ( تضام ، رتبة ، مطابقة ) |
| ٢ ـ مقصود بالنسبة مع متبوعه | ( معنى ) |
| ٣ ـ يتوسط بينهما أحد (حروف العطف) | ،( أداة ) |

التبعية والأداة قرينتان واضحتان في تحديد هذه الوظيفة النحوية ، فالتبعية تميزه عن غيره من الوظائف ، والأداة تميزه من التوابع .

---

(١) إصلاح الخلل ٦٧ ، ٦٨ .

انظر : الهمع ٥/١٩٣ ـ ١٩٦ . المغني ٥٩٣

(٢) الايضاح في شرح المفصل ١/ ٤٥٤ ، شرح الكافية ١/٣١٨ ، شرح ابن الناظم ٥١٩ ، شرح ألفية ابن معطي ١/٧٧٣ .

| الوظيفـة | التعريـــف | القرائن المميزة |
|---|---|---|
| النعـت | تابع يدل على معنى في متبوعه مطلقـا | ١ ـ التبعية (تضام، رتبة، مطابقة)<br>٢ ـ البنية (مشتق)<br>٣ ـ المعنى (الدلالة على معنى المتبوع) |
| التوكيد | تابع يقرر أمر متبوعه في النسبة والشمول | ١ ـ التبعية<br>٢ ـ المعنى (تقرير المتبوع)<br>٣ ـ البنية (ألفاظ مخصوصة ـ أو إعادة اللفظ نفسـه) |
| البـدل | تابع مقصود بالحكم بلا واسطة | ١ ـ التبعية<br>٢ ـ البنية (الجمود)<br>٣ ـ المعنى (مقصود بالحكم بلا واسطة). |
| عطف البيان | تابع غير صفة يوضح متبوعه | ١ ـ التبعية<br>٢ ـ البنية (اسم معرفة جامد)<br>٣ ـ المعنى (توضيح المتبوع) |
| عطف النسق | تابع مقصود بالنسبة مع متبوعه يتوسط بينه وبين متبوعه حرف عطف | ١ ـ التبعية<br>٢ ـ الأداة (حرف عطف)<br>٣ ـ المعنى (مقصود بالنسبة مع متبوعه). |

## القرائن ودورها في التمييز بين الوظائف النحوية

اتضح من التحليل السابق للحدود أهميتها الكبرى في الكشف عن ماهية الوظيفة النحوية وتمييزها من غيرها بما تتضمنه من سمات عامة مشتركة وأخرى خاصة بالمحدود ، وأن لكل وظيفة نحوية مجموعة من القرائن اللفظية والمعنوية تعين على الوصول إليها في التركيب . ويأتي الآن السؤال عن التمييز بين الوظائف كيف يحدث ؟

يتم التمييز بينها من جهتين : المعنى واللفظ .

الفروق المعنوية تكمن في المعاني الخاصة ، فلكل وظيفة نحوية معنى خاص بها لا يشاركها فيه غيرها ، وهو السمة الفاصلة (القيمة الخلافية) بينها وبين غيرها من الوظائف ، أي أن لقرينة المعنى النحوي الوظيفي دورا مهما جدا في تمييز الوظيفة وتحديدها ، وفيما يلي جدول بأهم الوظائف ومعانيها الأساسية :

| الوظيفة | التعريف | القرائن المميزة | | القرائن المساعدة |
| --- | --- | --- | --- | --- |
| خبر كان وأخواتها<br>خبر كاد وأخواتها<br>خبر المشبهات بليس | المسند بعد دخولها | (١) مسند<br>(٢) بعد دخولها | (معنى)<br>(أداة + تضام) | البنية ، ع<br>شروط العمل . . . |
| اسم إن وأخواتها<br>اسم لا النافية للجنس | المسند إليه بعد دخولها | (١) مسند إليه<br>(٢) بعد دخولها | (معنى)<br>(أداة + تضام) | أ ـ البنية (نكرة)<br>ب ـ الرتبة |

**المجرور بالحرف :**

لم يحده النحاة استغناء بما دل عليه من اسمه : اسم مجرور بحرف جر، ولظهور القرينة الدالة عليه وهي حرف الجر .

وأطلق عليه سيبويه[1] والمبرد[2] وابن الحاجب[3] لفظ «المضاف إليه» اعتمادا على المعنى اللغوي لأنهم يعدون حروف الجر حروف إضافة بمعنى أنها تضيف أي توصل معاني الأفعال إلى الأسماء المجرورة فهي واسطة بين المضاف وهو الفعل ، وبين المضاف إليه وهو الاسم المجرور بالحرف ، وهذا على خلاف ما هو مشهور عند المتأخرين حيث خصوا «المضاف إليه» بالاسم المجرور بإضافة اسم مثله إليه[4] .

وأهم القرائن الدالة عليه أنه :

| | |
|---|---|
| ١ ـ اسم | ( بنية ) |
| ٢ ـ مسبوق بحرف جر | ( رتبة + أداة + تضام ) . |

وتعد الأداة « حرف الجر » القرينة الحاسمة في تحديده ، إذ لا يكون بعدها إلا الاسم المجرور لفظا ومعنى أو لفظا فقط ، ولذا اعتنى النحاة بها وبوبوا لها في كتبهم وبينوا معانيها .

**المضاف إليه :**

المشهور بين النحاة أنه وظيفة المجرور بإضافة اسم إليه ، وأطلقه بعضهم على المجرور بالحرف أيضا[5] ، وليس له حد عند أكثرهم اكتفاء بدلالة لفظه على معناه ، وبما يفصلونه في باب «الإضافة» من تفسيرها وبيان أقسامها .

الإضافة عندهم «اتصال آخر الاسم الأول بأول الاسم الثاني من غير فصل غالبا اتصالا يعقبه جر الثاني لفظا أو محلا»[6] .

---

(١) الكتاب ١/ ٤١٩ .

(٢) المقتضب ٤/ ١٣٦ .

(٣) شرح الكافية ١/ ٢٧٢ .

(٤) السابق ، والفوائد الضيائية ٢/ ٣ .

(٥) المصادر السابقة ، وشرح الكافية ١/ ٢٧٢ .

(٦) شرح ألفية ابن معطي ١/ ٧٢٩ .

وقيل : هي «إسناد اسم إلى ما أُقيم مَقامَ تنوينه أو نونه التالية للإعراب»[١] أو «نسبة تقييدية بين اسمين توجب لثانيهما الجر»[٢] .

تؤكد مثل هذه التعريفات أن الإضافة لا تتحقق في مفرد بل في مركب من اسمين ، لكنه غير مفيد لأنه يدل على معنى لا يحسن السكوت عليه .

يتألف المركب الإضافي من اسمين أولهما المضاف والآخر المضاف إليه .

وقد عرّف ابن مالك المضاف بقوله : «هو الاسم المجعول كجزء لما يليه خافضا له»[٣] .

وعرّف ابن الحاجب المضاف إليه بقوله : هو « ما ينسب إليه اسم قبله بواسطة حرف جر مراد »[٤] .

يؤخذ من هذين الحدين أن قرائن المضاف إليه هي أنه :

| | |
|---|---|
| ١ ـ اسم (حقيقة أو حكما) | ( بنية ) |
| ٢ ـ منسوب إليه اسم قبله | (معنى ، بنية ، رتبة ، تضام) |
| ٣ ـ بواسطة حرف جر مراد | (معنى) |

أول القرائن الموصلة إلى هذه الوظيفة هي «التضام» بين اسمين فالمضاف إليه ملازم دائمًا للمضاف ، يليها المعنى الذي يحدد شكل التضام على أنه نسبة المضاف إلى المضاف إليه بواسطة أداة هي حرف الجر المقدر[٥] .

ويتحقق معنى النسبة بقرائن لفظية أهمها : البنية والرتبة .

أما البنية فتتمثل في أن المضاف لا يكون إلا اسما[٦] نكرة[٧] ، محذوفا منه التنوين أو ما يقوم مقامه غيرَ مقترن بأل .

---

(١) شرح اللمحة ٢/٢٦٨ .
(٢) الهمع ٤/ ٢٦٤ .
(٣) التسهيل ١٥٥ .
(٤) شرح الوافية ٢٤٨ .
(٥) هذا في الإضافة المعنوية ، أما اللفظية فلا يحسن تقدير حرف الجر فيها . انظر شرح الكافية ١/ ٢٧٢ .
(٦) كشف المشكل في النحو ١/ ٥٨٦ ، وحاشية يس بهامش شرح التصريح ٢/ ٢٤ .
(٧) المقتصد ٢/٨٧٢ ، شرح المفصل ٢/ ١٢١ .

وحـذف التنـوين منه قرينة دالة على إرادة معنى الإضافة ، أي الاتصال والنسبة وتوقع المضاف إليه بعده إن لم تقترن به أل ، ذلك أن التنوين أصل في الاسم المعرب ولا يحذف إلا إذا كان الاسم ممنوعاً من الصرف أو معرفة بأل أو مضافا وإذا انتفى الأولان تعين الثالث .

كما يعد اقتران أل بالاسم قرينة مانعة من تنوينه ومن إرادة معنى الإضافة الحقيقية .

والمضاف إليه يكون اسما صريحا نكرة ومعرفة ومصدراً مؤولا وجملة .

وأما الرتبة فتقضي أن يكون المضاف إليه أبداً بعد المضاف بلا فصل غالبا .

بهذه القرائن مجتمعة ( التضام والمعنى والبنية والرتبة ) يتحدد المضاف إليه .

## قرائـن المجـرورات

| الوظيفـة | التعريـف | القرائن المميزة | القرائن المساعدة |
|---|---|---|---|
| المجرور بالحرف | اسم مسبوق بحرف جر | ١ ـ اسم (بنية)<br>٢ ـ حرف جر<br>(أداة + تضام) | ـ الرتبة |
| المضاف إليه | ماينسب إليه اسم قبله بواسطة حرف جر مراد | ١ ـ منسوب إليه (معنى)<br>٢ ـ اسم مثله (تضام) | ـ الرتبة<br>ـ البنية (المضاف اسم بلا تنوين ، المضاف اليه (مفرد ، مصدر مؤول ، جملة) |

# التوابـــع

## التابــع :

لم يحده جمهور النحويين لأنه محصور بالعد[1] .
وقيل في حده : «كل ثان بإعراب سابقه من جهة واحدة»[2] .
وقيل : هو «المشارك ما قبله في إعرابه الحاصل والمتجدد غير خبر» [3] .

يؤخذ من هذين الحدين أن التابع :

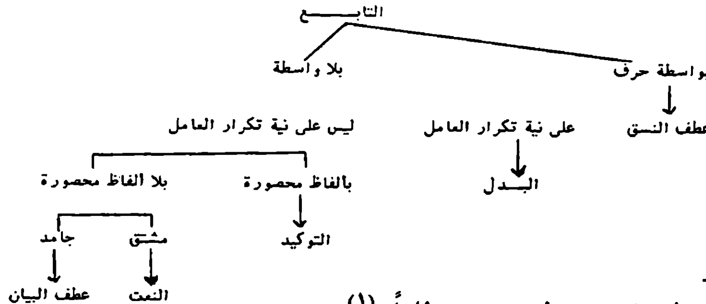
| | |
|---|---|
| ١ ـ ثـان | ( تضام ، رتبة ) |
| ٢ ـ بإعراب سابقه | ( مطابقة ، رتبة ) |
| ٣ ـ من جهة واحدة | ( مطابقة ) |
| ٤ ـ غير خبر | ( معنى ) |

أهم سمات التابع أنه مقترن دائمًا بسابق له يسمى اصطلاحا «المتبوع» ، ولا يمكن أن يوجد تابع بلا متبوع ، ويتميز التابع أيضاً بأنه موافق لمتبوعه في الحالة الإعرابية بحيث يتغير إعرابه بتغير إعراب المتبوع ، وهو مع هذه الموافقة غير خبر .

وتبعية التابع للمتبوع على صور[4] تحدد أنواعه : بواسطة حرف فهو «عطف النسق أو بلا واسطة : على نية تكرار العامل فهو «البدل» ، أو ليس على نية تكرار العامل : بألفاظ محصورة فهو «التوكيد» ، أو بغير ألفاظ محصورة ؛ مشتق فهو النعت، أو جامد فهو «عطف البيان» . وفيما يلي تخطيط لما سبق :

---

(١) التذييل ٤/ ١٠١ أ ، الهمع ٥/ ١٦٥ .
(٢) شرح الكافية ١/ ٢٩٨ .
(٣) توضيح المقاصد ٣/ ١٣٠ .
(٤) التذييل ٤/ ١٠١ ب ، شرح التصريح ٢/ ١٠٨ ، الهمع ٥/ ١٦٥ .




## النعــــت :

« تابع يدل على معنى في متبوعه مطلقاً »[1] .

وقيل : « التابع المقصود بالاشتقاق وضعا أو تأويلا »[2] .

وقيل : « التابع الموضح لمتبوعه والمخصص له بكونه دالا على معنى في المتبوع أو متعلقه»[3] .

أهم سمات النعت أنه :

| | |
|---|---|
| ١ ـ تابـــــع | ( تضام ، رتبة ، مطابقة ) |
| ٢ ـ مشتق | ( بنية ) |
| ٣ ـ يدل على معنى في متبوعه أو متعلقه | ( معنى ) |
| ٤ ـ مطلقا ( بلا قيد ) | ( معنى ) |
| ٥ ـ لتوضيحه أو تخصيصه | ( معنى ) |

الوظيفة الأساسية للنعت أن يوضح متبوعه ويخصصه[4] ببيان معنى فيه أو في متعلقه وهذا البيان إنما يكون باسم مشتق أو مؤول به لأن الجامد لا دلالة له بوضعه على معنى منسوب إلى غيره . ودلالة المشتق تلك مطلقة غير مقيدة بعامل دون آخر . فإذا قلت مثلا : سلمت على رجلٍ عالِمٍ فـ «عالم» خصصت «رجل» بأحد معانيه وهو «العلم»، وهذا المعنى حاصل له مطلقاً نحو هذا رجلٌ عالم ، أكرمت رجلاً عالماً ، فـ (عالم) في كل الحالات تابع أي ملازم لاسم قبله ، مطابق له في إعرابه وتنكيره . ولذا يعرب «نعتا» .

---

(١) شرح الكافية ١/ ٣٠١ .

(٢) التسهيل ١٦٧ .

(٣) شرح ابن الناظم ٤٩٠ .

(٤) إذا استغنى المتبوع عن التوضيح أو التخصيص جاء النعت لأغراض أخرى كالمدح والذم والترحم والتوكيد والإبهام والتعميم والتفصيل . راجع شفاء العليل في إيضاح التسهيل ٢/ ٧٤٧ ، شرح ابن الناظم ٤٩١ ، توضيح المقاصد ٣/ ١٣٣ .

بهذه السمات ( المعنى ـ البنية ـ التضام ـ الرتبة ـ المطابقة) يعرف النعت . ويتميز عن غيره من التوابع بقرينتين أساسيتين هما (المعنى ـ البنية) فليس شيء من التوابع يدل على معنى في متبوعه إلا النعت ، ولا تابعَ مقصودَ بالاشتقاق إلا هو .

## التوكيـد :

التـوكيد على قسمين : معنوي ولفظي . وقد ذهب بعض النحاة إلى جمعهما في تعريف واحد ، في حين ذهب آخرون إلى حد كل منهما على حدة .

قال ابن الحاجب في حده : « تابع يقرر أمر متبوعه في النسبة والشمول» [1] .

وقال ابن مالك : « تابع يعتضد به كون المتبوع على ظاهره » [1] .

فهذان الحدان يعمان التوكيد بنوعيه .

وقيل المعنوي هو : « التابع الرافع توهم إضافة إلى المتبوع أو أن يراد به الخصوص» [2] واللفظي هو : « إعادة اللفظ أو تقويته بموافقه معنى» [3] .

يفهم من هذه الحدود أن سمات التوكيد هي :

| | |
|---|---|
| ١ ـ تابـــع | ( تضام ، رتبة ، مطابقة ) |
| ٢ ـ يُمَكِّن معنى متبوعـه | ( معنى ) |
| ٣ ـ بإعادة اللفظ أو بمرادفه | ( بنية ) |

المعنى والبنية والتبعية قرائن مهمة في التعرف على التوكيد ، ذلك أن المتكلم يظن أحيانا أن السامع غافل عنه، أو يظن به الغلط ، أو استعمال المجاز[4] ، ولذا يورد المتكلم في كلامه ما يدفع به تلك الأمور عنه ، فيعلم السامع أن اللفظ على ظاهره ويتمكن معناه في نفسه .

---

(١) شرح الكافية ١ /٣٢٨ . وانظر شرح شذور الذهب ٤٢٨ .

(٢) شرح الكافية الشافية ٣/ ١١٦٩ .

(٣) التسهيل ١٦٤ ، ١٦٦ . وانظر شرح ابن الناظم ٥٠١ ، ٥٠٩ .

(٤) شرح الكافية ١ /٣٢٨ .

وسيلة المتكلم إلى ذلك أن يستعمل ألفاظا معلومة عند العرب لا يعدل عنها إلى غيرها ، وهي ألفاظ التوكيد المعنوي[1] ، أو يكرر اللفظ بعينه أو بمرادفه وهذا هو التوكيد اللفظي .

وكل هذه الألفاظ مرتبطة بالمتبوع ، متأخرة عنه ، موافقة له في الحالة الإعرابية .

## البدل :

هو «تابع مقصود بما نُسب إلى المتبوع دونه» [2] .
وقيل : « تابع مقصود بالحكم بلا واسطة » [3] .

أهم قرائن البدل أنه :

| | |
|---|---|
| ١ ـ تابـع | ( تضام ، رتبة ، مطابقة ) |
| ٢ ـمقصود بالحكم | ( معنى ) |
| ٣ ـ بلا واسطة | ( معنى ) |

التضام والمعنى قرينتان مهمتان في تحديد هذه الوظيفة ، أما التضام فلأن البدل مسبوق بمبدل منه دائمًا ، وأما المعنى فلأن البدل هو المقصود بالحكم دون المبدل منه ، وهذا يعني أن النسبة قد صرفت عن المبدل منه إلى البدل ، وكأن المتكلم حين ذكر المبدل منه ظن أن السامع قد يحمله على ما فيه من عموم أو ما وقع فيه من غلط ، فجاء بلفظ آخر أخص في دلالته وهو مراده حقيقة وهو «البدل». وبهذا المعنى تميز البدل من النعت والتوكيد وعطف البيان «لأن كل واحد منها مكمل للمقصود بالنسبة لا مقصود بها»[3] .

ومما يميز البدل أيضا أنه يؤدي ذلك المعنى بلا واسطة بينه وبين المبدل منه ، وبهذا خرج عطف النسق والمعطوف ببل في نحو : نجحَ خالدٌ بل سعيدٌ «لأن كل واحد منهما مقصود بالنسبة ولكن بواسطة»[4]

---

(١) وهي النفس ، والعين ، وكل ، وجميع ، وعامة ، وكلا ، وكلتا . الهمع ٥/ ١٩٧ .
(٢) شرح الكافية ١/ ٣٣٧ .
(٣) شرح الكافية الشافية ٣/ ١٢٧٦ ، أوضح المسالك ٣/ ٣٩٩ .
(٤) شرح ابن عقيل ٢/ ١٩٣ .

## عطف البيان :

« تابع غير صفة يوضح متبوعه »[1] .

وقيل : «جريان اسمٍ جامدٍ معرفةٍ على اسم دونه في الشهرة أو مثله يبينه كما يبينه النعت ولا يشترط فيه أن يكون مشتقا ولا في حكمه ، وأكثر استعماله في الأسماء الأعلام إذا جرت على الكُنى وفي الألقاب إذا جرت على الكُنى»[2] .

وقيل : التابع الموضح والمخصص متبوعه غير مقصود بالنسبة ولا مشتقا ولا مؤولا بمشتق»[3] .

أهم قرائن هذه الوظيفة :

| | |
|---|---|
| ١ ـ تابع | ( تضام ، رتبة ، مطابقة ) |
| ٢ ـ غير صفة ( اسم جامد معرفة) | ( بنية ) |
| ٣ ـ يوضح متبوعه | ( معنى ) |

تتضافر هذه القرائن لتوصل إلى «عطف البيان» ذلك أنّ الغرض هنا إيضاح المتبوع وإزالة الاشتراك الواقع فيه باستعمال اسم جامد معرفة بعده أشهر منه . قال ابن السراج : «وإنما سمي عطف بيان ولم يقل إنه نعت لأنه اسم غير مشتق من فعل ولا هو تحلية ولا ضرب من ضروب الصفات فعدل النحويون عن تسميته نعتا وسموه عطف بيان لأنه للبيان جيء به ، وهو مفرق بين الاسم الذي يجرى عليه وبين ما له مثل اسمه[4]» . ومن هنا نزله الزمخشري من متبوعه «منزلة الكلمة المستعملة من الغريبة إذا ترجمت بها»[5] أي أنه أشهر من متبوعه عرفا واستعمالا .

وللبنية دور مهم في تحديد «عطف البيان » لأنه لا يكون إلا بالأسماء الجامدة ، المعرفة ، الظاهرة (عند البصريين)، وأكثر استعماله أن يكون علما ومتبوعه كنية نحو : قام أبو حَفْصٍ عُمَرُ ، أو يكون لقبا ومتبوعه كنية نحو : قام أبو حَفصٍ قُفَّةُ ، أو يكون لقبا ومتبوعه علم مضاف نحو : قام عبد الله قُفَّةُ[6] .

---

(١) شرح الكافية ١/ ٣٤٣ .

(٢) المقرب ٢/ ٢٤٨ .

(٣) شرح ابن الناظم ٥١٤ .

(٤) الأصول ٢/ ٤٥ .

(٥) المفصل ١٢٢ . وانظر شرح المفصل ٣/ ٧١ .

(٦) إصلاح الخلل ٦٧ ، شرح الجمل لابن عصفور ١/ ٢٩٧ ، المقرب ١/ ٢٤٨ .

وأكثر ما يلتبس عطف البيان بالبدل حتى قال الرضي : « وأنا إلى الآن لم يظهر لي فرق جلي بين بدل الكل من الكل وبين عطف البيان بل لا أرى عطف البيان إلا البدل . . »[1] . يفهم من هذا أنه لا توجد قرائن فارقة بينهما لا لفظا ولا معنى .

وقال غيره : « كل اسم صح الحكم عليه بأنه عطف بيان مفيد للإيضاح أو للتخصيص صح أن يحكم عليه بأنه بدل كل من كل مفيد لتقرير معنى الكلام وتوكيده لكونه على نية تكرار العامل»[2] ، ومعنى هذا اختفاء القرائن اللفظية الفارقة بينهما ولم يبق سوى المعنى وهو أمر يصعب على المخاطب إدراكه من غير تصريح المتكلم به .

ومع هذا التداخل بين الوظيفتين أشار النحاة إلى وجود فرق جوهري بينهما وهو «أن عطف البيان تقديره تقدير النعت التابع للاسم الأول ، والبدل تقديره أن يوضع موضع الأول»[3] أي أن عطف البيان ليس مقصوداً أن يحل محل متبوعه بل هو مبين وموضح له ، أما البدل فعلى تقدير أن يحل محل المبدل منه أو على نية تكرار العامل فالكلام مع عطف البيان جملة واحدة ، أما مع البدل فجملتان[4] . ومن هنا قالوا : متى امتنع أن يحل التابع محل المتبوع فالتابع عطف بيان ولا يجوز البدل، وإذا لم يمتنع فالوجهان جائزان كما في نحو جاءني زيدٌ أخوك .

ينفرد عطف البيان في مثل[5] : يا زيدُ الحارثُ ، فـ «الحارث» عطف بيان وليس بدلا لأنه لو حل محل المنادى لاقترن حرف النداء بما فيه أل وهو غير جائز .

وينفرد أيضاً في نحو : يا أخانا زيدا ، إذ لا يصح كون «زيدا» بدلا ، لأنه إذا حل محل المنادى صار مبنيا على الضم لأنه علم مفرد .

وينفرد أيضا في نحو قول المرار الفقعسي :

أنا ابنُ التاركِ البكريِّ بِشْرٍ     عليه الطيرُ تَرقُبه وُقوعا[6] .

فبشر عطف بيان لـ (البكري) ، ولا يجوز كونه بدلا إذ يلزم منه إضافة الصفة المفردة المعرفة

---

(١) شرح الكافية ١/ ٣٣٧ .

(٢) شرح القطر ٢٩٨ .

(٣) الأصول ٢/ ٤٦ .

(٤) شرح المفصل ٣/ ٧٢ ، المغني ٥٩٧ .

(٥) الأصول ٢/ ٤٦ ، إصلاح الخلل ٦٨ ، شرح الشذور ٤٣٦ ، أوضح المسالك ٣/ ٣٥٠ .

(٦) من الوافر ، للمرار الفقعسي في الكتاب ١/ ١٨٢ ، والمفصل ١٢٣ ، وشرح المفصل ٣/ ٧٣ ، والخزانة ٤/ ٢٨٤ ، ٥/ ١٨٣ ، ٢٢٥ وبلا نسبة في الأصول ١/ ١٣٥ ، شرح الشذور ٤٣٦ ، أوضح المسالك ٣/ ٣٥١ .

بأل إلى اسم مجرد منها وهو غير جائز نحو (أنا ابنُ التاركِ بِشرٍ) .

قال ابن السيد البطليوسي : ومن أجل هذه المواضع احتيج إلى عطف البيان[1] .

## عطف النسق :

«تابع مقصود بالنسبة مع متبوعه يتوسط بينه وبين متبوعه أحد الحروف العشرة[2]» .

يوضح هذا الحد أهم سمات المعطوف عطف النسق وهي أنه :

| | |
|---|---|
| ١ ـ تابـــع | ( تضام ، رتبة ، مطابقة ) |
| ٢ ـ مقصود بالنسبة مع متبوعه | ( معنى ) |
| ٣ ـ يتوسط بينهما أحد (حروف العطف) | ( أداة ) |

التبعية والأداة قرينتان واضحتان في تحديد هذه الوظيفة النحوية ، فالتبعية تميزه عن غيره من الوظائف ، والأداة تميزه من التوابع .

---

(١) إصلاح الخلل ٦٧ ، ٦٨ .

انظر : الهمع ٥/١٩٣ ـ ١٩٦ . المغني ٥٩٣

(٢) الايضاح في شرح المفصل ١/ ٤٥٤ ، شرح الكافية ١/٣١٨ ، شرح ابن الناظم ٥١٩ ، شرح ألفية ابن معطي ١/٧٧٣ .

| الوظيفة | التعريف | القرائن المميزة |
|---|---|---|
| النعت | تابع يدل على معنى في متبوعه مطلقا | ١ - التبعية (تضام، رتبة، مطابقة)<br>٢ - البنية (مشتق)<br>٣ - المعنى (الدلالة على معنى المتبوع) |
| التوكيد | تابع يقرر أمر متبوعه في النسبة والشمول | ١ - التبعية<br>٢ - المعنى (تقرير المتبوع)<br>٣ - البنية (ألفاظ مخصوصة - أو إعادة اللفظ نفسه) |
| البدل | تابع مقصود بالحكم بلا واسطة | ١ - التبعية<br>٢ - البنية (الجمود)<br>٣ - المعنى (مقصود بالحكم بلا واسطة). |
| عطف البيان | تابع غير صفة يوضح متبوعه | ١ - التبعية<br>٢ - البنية (اسم معرفة جامد)<br>٣ - المعنى (توضيح المتبوع) |
| عطف النسق | تابع مقصود بالنسبة مع متبوعه يتوسط بينه وبين متبوعه حرف عطف | ١ - التبعية<br>٢ - الأداة (حرف عطف)<br>٣ - المعنى (مقصود بالنسبة مع متبوعه). |

## القرائن ودورها في التمييز بين الوظائف النحوية

اتضح من التحليل السابق للحدود أهميتها الكبرى في الكشف عن ماهية الوظيفة النحوية وتمييزها من غيرها بما تتضمنه من سمات عامة مشتركة وأخرى خاصة بالمحدود ، وأن لكل وظيفة نحوية مجموعة من القرائن اللفظية والمعنوية تعين على الوصول إليها في التركيب . ويأتي الآن السؤال عن التمييز بين الوظائف كيف يحدث ؟

يتم التمييز بينها من جهتين : المعنى واللفظ .

الفروق المعنوية تكمن في المعاني الخاصة ، فلكل وظيفة نحوية معنى خاص بها لا يشاركها فيه غيرها ، وهو السمة الفاصلة (القيمة الخلافية) بينها وبين غيرها من الوظائف ، أي أن لقرينة المعنى النحوي الوظيفي دورا مهما جدا في تمييز الوظيفة وتحديدها ، وفيما يلي جدول بأهم الوظائف ومعانيها الأساسية :

## القرائن ودورها في التمييز بين الوظائف النحوية

| الوظيفـة | المعنــى الخــــاص |
|---|---|
| الفاعــل | بيان من فعل الفعل (المسند إليه) |
| نائب الفاعـل | بيان ما يقوم مقام الفاعل |
| المبتــدأ | بيان ما ابتدىء به ليخبر عنه |
| الخبــر | بيان ماحكم به على المبتـدأ |
| اسم كان وأخواتها<br>اسم كاد وأخواتها<br>اسم الحروف المشبهة بليس | بيان المحكوم به على اسمها مقيدا بمعانيها |
| خبر إن وأخواتها<br>خبر لا النافية للجنس | بيان المحكوم عليه بخبرها مقيدا بمعانيها |
| المفعول المطلـق | توكيد الفعل، بيان نوعه، أو عدد مراته |
| المفعول بـه | بيان من وقع عليه فعل الفاعل |
| المفعول لـه | بيان سبب وقوع الفعـل |
| المفعول معـه | بيان مَن فعل معه الفعل (مصاحبة الفاعل) |
| المفعول فيـه | بيان زمان أو مكان حدوث الفعل |
| الحــال | بيان هيئة الفاعل أو المفعـول |
| التمييـز | تفسير المبهم مفردا أو جملة |
| المستثنى | مخالفة حكم المستثنى منـه |
| خبر كان وأخواتها<br>خبر كاد وأخواتها<br>خبر الحروف المشبهة بليس | بيان المحكوم به على اسمها، مقيدا بمعانيها |
| اسم إن وأخواتها<br>اسم لا النافية للجنس | بيان المحكوم عليه بخبرها مقيدا بمعانيها |
| الاسـم المجـرور | إيصال معنى الفعل إلى الاسم بواسطة حرف الجر<br>(منسوب إليه معنى الفعل بواسطة حرف الجر) |
| المضاف إليه | منسوب إليه المضاف |
| النعـت | الدلالة على معنى في متبوعه مطلقا |
| التوكيـد | تقرير أمر المتبوع في النسبة والشمول |
| البدل | مقصود بالحكم دون متبوعه بلا واسطة |
| عطف البيان | توضيح المتبوع بما هو أشهر منه |
| عطف النسـق | مقصود بالنسبة مع متبوعه بواسطة حرف معين. |

أما الفروق اللفظية فتتمثل فيما تطلبه كل وظيفة من صفات لفظية معينة في الكلمة التي تؤديها من حيث البنية أو الأداة أو الرتبة أو التضام أو المطابقة .

أ ـ البنية :

تشترك الوظائف كلها في جنس البنية وهو «الاسم» لكنها تختلف في نوع البنية الذي يمثلها ، ذلك أن البنية على أنواع : مفردة (اسم صريح) أو مؤولة بالمفرد (مصدر مؤول ـ جملة) أو متعلقة بمفرد (شبه جملة)، وليست الوظائف سواء في قبول هذه الأنواع بل تختلف فيما بينها اختلافا يميز بينها ، بل إن بعض الوظائف تضع قيودا صارمة على البنية فتحصرها في شكل معين (مفرد) ، (مشتق) ، (جامد) ، (نكرة ) ، (معرفة) . وتعد هذه القيود قرائن بنيوية تميز بين الوظائف .

وإلى جانب هذه القيود في البنية الخاصة بالوظيفة ، توجد في التراكيب أبنية تساعد في التعرف على الوظيفة النحوية دون أن تؤديها ، فبنية الفعل التام الأصلية قرينة مميزة للفاعل ، وبنية الفعل التام المحولة عن أصلها قرينة على نائب الفاعل ، وبنية الفعل المتعدي قرينة على المفعول به وبنية الفعل الناقص قرينة على اسمه وخبره ، بل إن بنية الفعل توحي أحيانا بمتعلقاته لأنه متعلق بها لفظا أو معنى ، فيكون وجوده قرينة على اسم «قد فُعِل ، أو فُعِل به ، أو فُعِل فيه ، أو فُعِل لأجله ، أو فُعِل معه»(١) .

ب ـ الأداة :

وهي تميز الوظائف التي تؤدى بواسطتها ، فحرف الجر قرينة على الاسم المجرور ، والحروف الناسخة قرينة على اسمها وخبرها ، وواو المعية قرينة على المفعول معه ، وحرف العطف قرينة على المعطوف ، وإلا الاستثنائية قرينة على المستثنى .

ج ـ الرتبة :

لكل وظيفة رتبة تحدد موقع الكلمة التي تؤديها في التركيب ، لكنها تختلف فيما يقتضيه المعنى الوظيفي من حفظ الرتبة أو عدم حفظها .

ويعد حفظ الرتبة قرينة مميزة لبعض الوظائف ، فالفاعل ونائب الفاعل بعد الفعل ، والمفعول معه بعد واو المعية ، والمستثنى بعد إلا ، والمجرور بعد حرف الجر ، والمضاف إليه بعد المضاف والتابع بعد المتبوع ، وأسماء النواسخ لا تتقدم عليها .

---

(١) شرح ألفية ابن معطي ١/ ٥٢٤ .

## د ـ التضـــام :

تحتـاج كل وظيفة إلى نوع من التضام يحقق المعنى المراد منها لكنها تختلف في خصوصية العنـاصر المتضامة ، ويصبح التضام قرينة مميزة للوظيفة بتحديده التلازم بين العناصر التي بها يكتمل معناها ، كالتلازم بين الفعل ومرفوعه ، والخبر والمبتدإ ، والناسخ واسمه وخبره ، وحرف الجـر ومجـروره ، والمضـاف والمضاف إليه ، والتابع ومتبوعه ، والمستثنى وإلا والمستثنى منه ، والتمييز والمميَّز .

## هـ ـ المطابقة :

وهي تميز الوظائف التي تحتاج إلى نوع من المطابقة اللفظية أو المعنوية بين الكلمة التي تؤديها وأحد العناصر في التركيب ، كالذي بين المفعول المطلق وفعله من اشتراك في اللفظ والمعنى أو المعنى فقط والذي بين المفعول له وفعله من اشتراك في الزمان والفاعل ، وكالمطابقة في الإعراب بين التابع والمتبوع .

هكذا تتميز الوظائف بالمعنى النحوي أولا ثم بقيود في البنية الحاملة لذلك المعنى ثم بما تفرضه من قيود على الرتبة أو التضام أو المطابقة أو الأداة .

ولما كان المعنى النحوي دقيقا وخفيا ، صار من اللازم الاستعانة بما يحمله السياق من قرائن متعلقة بألفاظه ، وأهمها البنية ، فهي المدخل إلى تحديد الوظيفة ، لأن المبنى هو الناقل للمعنى ، ثم تأتي القرائن الأخرى (الرتبة ـ التضام ـ الأداة ـ المطابقة) وتكون قيودها صفات لتلك البنية ، أي أن المعنى النحوي ينقل إلينا في التركيب من خلال بنية ذات سمات محددة . أما الحكم الإعرابي فمتأخر عن معرفة الوظيفة ، لأن المطلوب الأول تحديد وظيفة الكلمة ثم تضبط بما يناسبها من علامات الإعراب .

# المصادر والمراجع


١ ـ الأزهري ( خالد بن عبد الله ت ٩٠٥ هـ ) .

شرح التصريح على التوضيح ـ دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٣١٢ هـ .

٢ ـ الأشموني ( نور الدين أبو الحسن علي بن محمد ت ٩٢٩ هـ )

منهج السالك إلى ألفية ابن مالك . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٧٠ م .

٣ ـ ابن الأنباري ( أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٥٧٧ هـ )

أسرار العربية . تحقيق محمد بهجة البيطار . مطبعة الترقي ـ دمشق ١٩٥٧ م .

٤ ـ الأهدل (محمد بن أحمد بن عبد الباري) ت ١٢٩٨ هـ ) .

الكواكب الدرية شرح متممة الأجرومية ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة . د . ت .

٥ ـ ابن برهان ( أبو القاسم عبد الواحد بن علي ت ٤٥٦ هـ )

شرح اللمع . جزآن . تحقيق د. فائز فارس . المجلس الوطني للثقافة ـ الكويت ـ ١٩٨٤ م .

٦ ـ البغدادي ( عبد القادر بن عمر ت ١٠٩٣ هـ )

خزانة الأدب . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مكتبة الخانجي . القاهرة .

٧ ـ تمام حسان ( دكتور )

ـ القرائن النحوية بحث منشور بمجلة اللسان العربي مج ١١ ج ١ ـ الرباط ـ ١٩٧٤ م .

ـ اللغة العربية معناها ومبناها . الهيئة المصرية العامة ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ م .

٨ ـ الجامي ( نور الدين عبد الرحمن ت ٨٩٨ هـ )

الفوائد الضيائية . تحقيق د. أسامة الرفاعي . مطبعة وزارة الأوقاف ـ العراق ـ ١٩٨٣م .

٩ ـ الجرجاني ( أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ت ٤٧١ هـ)

المقتصد في شرح الإيضاح . تحقيق د. كاظم المرجان . وزارة الثقافة والإعلام ـ العراق ١٩٨٢م .

١٠ ـ ابن جني ( أبو الفتح عثمان ت ٣٩٢ هـ )

اللمع في العربية . تحقيق د. حسين محمد شرف ـ عالم الكتب ـ القاهرة ١٩٧٩ .

١١ ـ ابن الحاجب ( أبو عمرو عثمان بن عمر ت ٦٤٦ هـ )

ـ الإيضاح في شرح المفصل . تحقيق د. موسى بناي العليلي . مطبعة العاني . بغداد ـ ١٩٨٣ م .

ـ الأمالي النحوية . تحقيق هادي حسن حمود . دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٥م .

ـ شرح الوافية . تحقيق د. موسى العليلي . مطبعة النجف الأشرف . العراق ١٩٨٠م .

١٢ ـ الحيدرة ( علي بن سليمان ت ٥٩٩ هـ )

كشف المشكل في النحو . تحقيق د. هادي مطر . مطبعة الإرشاد . بغداد ١٩٨٤ م .

١٣ ـ أبو حيان ( أثير الدين محمد بن يوسف ت ٧٥٤ هـ )

التذييل والتكميل في شرح التسهيل . مصورة بمكتبتي عن مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٠١٦ هـ ، ٦٢ نحو .

١٤ ـ الرضي ( رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي ت ٦٨٦ هـ )

شرح الكافية . دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٨٢ م .

١٥ ـ الزجاجي ( أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق ت ٣٣٧ هـ )

الجمل تحقيق د. علي الحمد . مؤسسة الرسالة . بيروت ١٩٨٤م .

١٦ ـ الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر ت ٥٣٨ هـ)

المفصل صححه محمد النعساني ـ دار الجيل ـ بيروت ١٣٢٣ هـ
١٧ ـ ابن السراج (أبو بكر محمد بن سهل ت ٣١٦ هـ) .
الأصول . تحقيق عبد الحسين الفتلي . مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٥ م .
١٨ ـ السلسيلي ( أبو عبد الله محمد بن عيسى ت ٧٧٠ هـ )
شفاء العليل في إيضاح التسهيل ، تحقيق د. الشريف عبد الله علي البركاتي . المكتبة الفيصلية ـ مكة المكرمة ـ ١٩٨٦ م .
١٩ ـ سيبويه ( أبو بشر عمرو بن عثمان ت ١٨٠ هـ )
الكتاب . تحقيق عبد السلام هارون . الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٧م .
٢٠ ـ ابن السيد البطليوسي ( عبد الله بن محمد ت ٥٢١ هـ )
إصلاح الخلل الواقع في الجمل تحقيق د. حمزة النشرتي . دار المريخ ، الرياض ١٩٧٩م .
٢١ ـ السيوطي ( جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ )
همع الهوامع تحقيق د. عبد العال سالم مكرم . دار البحوث العلمية . الكويت (١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ م) .
٢٢ ـ الشلوبين ( أبو علي عمر بن محمد ت ٦٤٥ هـ )
التوطئة . تحقيق يوسف المطوع . دار التراث العربي . القاهرة ١٩٧٣ م .
٢٣ ـ ابن عصفور ( علي بن مؤمن بن محمد ت ٦٦٩ هـ )
ـ شرح الجمل ( الشرح الكبير ) . تحقيق د. صاحب أبو جناح . منشورات وزارة الأوقاف ـ الموصل ١٩٨٢ م .
ـ المقرب تحقيق أحمد الجواري وعبد الله الجبوري . مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٩٧٢م .
٢٤ ـ ابن القواس ( عبد العزيز بن زيد بن جمعة الموصلي ت ٦٩٦ هـ )
شرح ألفية ابن معطي . تحقيق علي الشوملي . مكتبة الخريجي . الرياض ١٩٨٥ م .
٢٥ ـ ابن مالك ( أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله ت ٦٧٢ هـ )
ـ تسهيل الفوائد . تحقيق محمد كامل بركات . دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٨م .
ـ شرح الكافية الشافية . تحقيق د. عبد المنعم هريدي . دار المأمون للتراث ١٩٨٢ م.
٢٦ ـ المبرد ( أبو العباس محمد بن يزيد ت ٢٨٥ هـ )
المقتضب . تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة (١٣٨٦ هـ ـ ١٣٩٩ هـ) .
٢٧ ـ المرادي ( حسن بن قاسم بن عبد الله ت ٧٤٩ هـ )
توضيح المقاصد . تحقيق د. عبد الرحمن علي سليمان . مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ١٩٧٦ م .
٢٨ ـ ابن الناظم ( أبو عبد الله بدر الدين محمد بن محمد ت ٦٨٦ هـ.)
شرح ألفية ابن مالك . تحقيق د. عبد الحميد السيد . دار الجيل . بيروت . د.ت .
٢٩ ـ ابن هشام ( أبو محمد جمال الدين عبد الله بن يوسف ت ٧٦١ هـ )
ـ أوضح المسالك تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة دار السعادة بمصر ١٩٦٧م .
ـ شرح اللمحة البدرية . تحقيق د. صلاح راوي . مطبعة حسان ـ القاهرة ١٩٨٥ م .
ـ شرح شذور الذهب . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الثقافة . القاهرة .
ـ شرح قطر الندى . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . المكتبة التجارية . القاهرة ١٩٦٣ م
ـ المغني ( مغني اللبيب ) تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله . دار الفكر . بيروت ١٩٧٩ م .
٣٠ ـ ابن يعيش ( ( موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي ت ٦٤٣ هـ. )
شرح المفصل تعليق مشيخة من الأزهر الشريف . دار المطبعة المنيرية . القاهرة . (د.ت).

# التحولات العالمية المعاصرة والاهتمامات البحثية الجديدة في مجتمعات العالم الثالث

دكتور السيد الحسيني*

منذ مطلع الثمانينات من القرن الحالي ، والعالم يشهد تحولات سريعة وشاملة إما بسبب صعود الرأسمالية المحافظة في الغرب متمثلة في «الريجانية» «والتاتشرية» ، أو بسبب انهيار إيديولوجية ومعتقدات ونظم سياسية فرضت نفسها على العالم فرضا منذ مطلع القرن العشرين متمثلة في الماركسية كأيديولوجية ، والاتحاد السوفيتي كدولة إشتراكية رائدة ، أو بسبب سيطرة النزعة العالمية **Globalisation** التي تجسدها الأسواق العالمية ، ووسائل الاتصال الكونية التي قلصت المكان واختزلت الزمان ، أو بسبب إنهيار أنساق ثقافية ظلت سائدة ومسيطرة لحقب طويلة ، ثم ما لبثت أن فقدت شرعيتها وقدسيتها ووظيفتها . إن من الصعب حصر التحولات العالمية المعاصرة التي شهدها وسيشهدها العالم خلال الربع الأخير من القرن العشرين ، كما أن من الصعب بدرجة أكبر التعرف على انعكاساتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والبيئية على المجتمعات القومية[1] . ولاشك أن ذلك يفرض مهام جديدة على العلماء الاجتماعيين . إذ لا يجب أن تقتصر مهمتم على فهم وتحليل ما حدث بالفعل ، بل يجب أن تتعدى ذلك الى محاولة استشراف المستقبل ورسم المشاهد المحتملة له .

وفي هذا المقال أود أن أطرح في البداية بعض ملامح التحولات المعاصرة التي شهدها العالم منذ منتصف الثمانينات والتي كان لها تأثيرات بالغة على النظام الدولي بمكوناته المختلفة ، على أن أشير بعد ذلك إلى انعكاس تلك التحولات على مجتمعات العالم الثالث ، والاهتمامات البحثية التي يجب أن تظهر في محاولة لتحليلها وفهمها وطرح البدائل المختلفة لمواجهتها . والواقع أن دراسة انعكاس التحولات العالمية على المجتمعات القومية تتطلب تبني تصورات ورؤى أوسع نطاقا من تلك التي درج عليها عدد كبير من الباحثين ، كما تحتاج الى خيال خاص يستطيع أن يربط بين المتغيرات والأبعاد على المستويات العالمية والقومية والمحلية . لقد برهن ما أطلق عليه «النظام العالمي الجديد» في سياق «عاصفة الصحراء» ، أن العالم المعاصر قد تقلص وانكمش وأصبح صغيرا ، وأن النظام الرأسمالى الذي استوعب العالم منذ القرن السادس عشر ما يزال باقيا قادرا على الضم والاتساع والاحتواء والمناورة ، وطرح نفسه كبديل تنموي دائم .

---

* أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس .

## أولا : تحولات عالمية معاصرة

١ ـ بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتراجع الاشتراكية كمذهب فكري ، واختفاء النظام العالمي القائم على الثنائية القطبية ، بدأت معالم عملية إعادة تشكيل العلاقات الدولية داخل النظام الرأسمالي(٢) . ويمكننا التمييز في هذا المجال بين مجموعة من القوى السياسية الرأسمالية : الولايات المتحدة وكندا والمكسيك ومن ورائها أمريكا السطى وأمريكا الجنوبية ، واليابان والدول الصناعية الجديدة في جنوب شرق آسيا ومن ورائها الصين والهند والقارة الآسيوية ذاتها التي تشكل أكبر قارات العالم سكانا وسوقا ، وأوروبا الموحدة في عام ١٩٩٢ وما ستسفر عنه من امكانيات اقتصادية هائلة يمكن ان تزداد تدعيما بانضمام أوروبا الشرقية اليها بعد نجاحها في عملية إعادة التكييف الهيكلي لاقتصادها طبقا لقوانين التطور الرأسمالي . ومن شأن ذلك كله التأثير على موقع أقطار العالم الثالث داخل تلك المنظومة الدولية الجديدة . ذلك أن دول أوروبا الشرقية سوف تحصل في ظل تلك التحولات على مكانة «الدول الأولى بالرعاية» ، وبالتالي سوف تتعرض مكانة الدول النامية للتدهور . وإذا ما تمكنت دول أوروبا الشرقية من التكامل السريع مع النظام الاقتصادي العالمي الجديد ، فإن الحوار بين الشمال والجنوب لابد وأن يكتسب أبعادا جديدة بعد انتهاء الصراع الايديولوجي بين الشرق والغرب .

٢ ـ من المتوقع في ظل التكتلات الرأسمالية الضخمة أن تظهر منافسة شديدة بينها من أجل كسب مزيد من الأسواق ، وتحقيق مزيد من النمو الاقتصادي والتقدم التكنولوجي . وهناك شواهد تشير الى ظهور تلك المنافسة إذا ما تأملنا واقع الولايات المتحدة واليابان وأوروبا الغربية . فبينما تميل الأولى الى الاستثمار وتحقيق الربح من خلال دوران رأس المال لا توظيفه في عمليات إنتاجية ، نجد الثانية (اليابان) تميل الى تدعيم تفوقها التكنولوجي ، ورفع معدلات إنتاجها ، والسيطرة على الصناعات العريقة في بريطانيا وأوروبا وأمريكا وتشغيلها لحسابها(٣) . أما أوروبا التي ما تزال في حالة سيولة شديدة بعد أحداث دولها الشرقية واتحاد الألمانيتين ، فإنها تتأهب لأداء أدوار جديدة من منطلق ضخامة حجمها ومواردها وعراقة تقاليدها الصناعية . والقضية الهامة التي يثيرها هذا النظام الرأسمالي الجديد هو التفاوت الملحوظ في امتلاك عناصر القوة . فالكتلة القوية عسكريا (الولايات المتحدة) ليست هي بالضرورة المسيطرة اقتصاديا ، كما ان الكتلتين اللتين تحققان سيطرة اقتتصادية تعانيان من ضعف عسكري ظاهر . إن مواجهة هذا التفاوت في القوة سوف يظل أحد القضايا الهامة التي يثيرها النظام العالمي الجديد .

٣ ـ على الـرغـم من أن دانيـل بيـل **Bell** قد أشـار قبـل ثلاثـين عامـا الى فكرة «نهاية الايديولوجيا»(٤) ، فإننا نجدها الآن قد أصبحت واقعا فعليا مع مطلع التسعينيات . بل إننا قبل شهـور قليلة نجـد مفكرا أمريكيا من أصل ياباني مثل فوكوياما يذهب الى أننا قد أصبحنا في مواجهة «نهاية التاريخ» . ويحاول فوكوياما أن يوفق بين فكرتين متعارضين : الفكرية الهيجيلية الذاهبه الى ان التاريخ عملية إنسانية ارتقائية مستمرة ، والفكرة الرأسمالية الذاهبة الى أن قيم الرأسمالية هي قمة القيم التي تعبر عن نهاية الكمال الإنساني . وإذا كان لنا أن نستنتج من ذلك شيئا فهو ؛ أن حقبة الصراع الايديولوجي بين الغرب الرأسماي والشرق الاشتراكي قد ولت ، وأن الرأسمالية قد بدت وكأنها الايديولوجية العالمية الملائمة لعالم المستقبل . إن جيلين على الأقل من العلماء الاجتماعيين قد وجدو أنفسهم في حاجة ماسة إلى إعادة النظر في المفاهيم والنظريات والمسلمات التي اعتادوا العمل والتفكير في ضوئها . ولا يقتصر الأمر على العلماء الاجتماعيين ، بل يصل الى حد المراجعة الفكرية للاشتراكيين ، والمصلحين الاجتماعيين ، وقطاعات واسعة من المثقفين في أماكن مختلفة من العالم(٥) . ولكنها أيضا مواجهة واقعية وتهديد سافر لحلم جميل طالما راود أصحـاب النـزعـات الإنسـانية الذين أملوا في إقامة واقع مثالي يقوم على العدالة وتكافؤ الفرص . كذلك فإن «نهاية الايديولوجية هي بداية طريق طويل صعب ومتشعب لابد وان يؤدي الى ظهور جيل جديد من المعتقدات السياسية والاجتماعية القادرة على حشد الموارد البشرية في اطار صيغ انسانية ملائمة .

٤ ـ ربما كانت الثورة الصناعية الثالثة واحدة من أبرز التحولات التي شهدها النظام العالمي المعاصر منذ عقد السبعينيات على أقل تقدير(٦) . فعلى الرغم من أن جذور تلك الثورة تعود الى عقد الأربعينيات حينما ظهر الجيل الأول من الحاسبات الالكترونية ، وتطورت بقدر ملموس مع غزو القضـاء في نهايـة الخمسينـات والسينيـات ، حين شارك فيهـا الاتحاد السوفيتي ، إلا أن السبعينيات قد شهدت انطلاقة واسعة الى آفاق غير مسبوقة في الولايات المتحدة واليابان وبدرجة أقل في أوروبا الغربية ، لقد جاءت الثورة الصناعية الثالثة لكي تمنح المعسكر الرأسمالى الغربى قدرات جديدة في المجالات الاقتصادية والاتصالية والدعائية على مستوى النظام العالمي ، ومنذ عقدالسبعينيات واجه النظام الاشتراكي صعوبات شديدة في مجال تنمية التكنولوجيا ، مما دفعه الى استـيرادها من الغرب وظهور أنماط من التبادل تتسم بسمات التبعية الذائعة في علاقات العالم الغـربي بالعـالم الثـالث . وحتى منتصف الثـمانينـات لم يستطع النظام الاقتصادي والاجتماعي (وبالتأكيد السياسي) في العالم الاشتراكي من استيعاب التكنولوجيا الغربية أو التفوق عليها كما

فعلت اليابان وذلك برغم الشراء أحيانا والسرقة أحيانا أخرى . وإذا كانت الثورة الصناعية الثانية قد أنجزت بواسطة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي من خلال الاسلحة النووية فإن الثـورة الصناعية الثالثة تركز على التحكم في العقل الانساني وتنميته ، وتعتمد على ثورة المعلومات والتـدفق الـلامتنـاهي واللامحدود للمعرفة والأفكار ويكفى أن نشير في هذا المجال الى الثورة المعلوماتية **Informatics** ، وثورة التكنولوجيا الحيوية **Biotechnology** وما ترتب عليهما من تطبيقات في مجال الهندسة الوراثية ، وإنتاج الغذاء ، وتخليق المواد الجديدة ، ان كمية المواد الخام المطلوبة لوحدة من المنتج الصناعي لا تتعدى الآن ١/٥ الكمية التي كانت مطلوبة في سنة ١٩٠٠ ، فاليـابـان ـ مثلا ـ استهلكت في سنة ١٩٨٥ أقل من ٦٠٪ فقط من المواد الخام التي استهلكتها في سنة ١٩٧٣ لإنتاج نفس الكمية من المنتجات الصناعية . كذلك يمكننا الإشارة الى الإنجازات الهامة التي تمت في مجال الأتمته **Automation** ، والروبتة **Robotization** بعد أن ظلت الميكنة وتطبيقاتها هي دعامة الصناعة العالمية ، والى جانب ذلك هناك الثورة التكنولوجية في مجال الزراعة ، وزيادة إنتاج الغذاء واستحداث محاصيل جديدة غزيرة الإنتاج يمكنها النمو في ظل ظروف بيئـات قاسية ، واستحداث بدائل جديدة للطاقة والوقود[٧] . وباختصار فإنه إذا كانت الثورة الصناعية الأولى قد اعتمدت على الاستخدام المكثف للعمل ، وإذا كانت الثورة الصنـاعيـة الثانية قد ارتكزت على رأس المال المكثف ، فاننا نجد الثورة الصناعية الثالثة تجد دعائمها في ثلاثة مجالات أساسية هي : الالكترونات الدقيقة ، والهندسة الوراثية ، وتطبيقات علوم الفضاء .

٥ ـ مع التحولات العالمية المتسارعة ، بدأت كثير من الصراعات الاقليمية تأخذ طريقها الى الحـل وعـلى الأخص منذ نهاية الثمانيات ومطلع التسعينات . فلقد قبل الإتحاد السوفيتي انسحابه من افغانستان بعد اتفاق مع واشنطن على وقف المساعدات . كما قبل الإتحاد السوفيتي بمشروع سلام أمـريكـا الـوسـطى لوقف الحـرب الأهلية في السلفادور ونيكاراجوا ، وإقامة حكومات ديموقراطية في دول المنطقة . كذلك قبلت أنجولا ـ بتأثير سوفيتي ـ بمبدأ انسحاب القوات الكوبية منها ، كما أعلنت فيتنام عن سحب جزء من قواتها من كمبوديا . وفي الشرق الأوسط حرصت الولايات المتحدة في أعقاب «عاصفة الصحراء» على تشجيع أطراف النزاع في الشرق الأوسط على الدخول في مفاوضات سلام منذ أكتوبر ١٩٩١ ، في الوقت الذي تحقق فيه اسرائيل إنجازات متسارعة منذ مطلع التسعينيات بدءاً من استيعاب مئات الألوف من اليهود السـوفييت المهـاجرين إليها ، حتى تبادل علاقاتها الدبلوماسية مع الإتحاد السوفيتي والصين ، وانفراج علاقاتها بالعالم الخارجي .

٦ ـ انعكست التحولات العالمية المعاصرة على فرص تنمية دول العالم الثالث ومواقعها داخل النظام العالمي الجديد ، إذ يصعب الحديث الآن بشكل مطلق عن هذه الدول بسبب تنوعاتها الشديدة ، ومواقعها المتباينة من القوى الكبرى ، والفرص المتاحة أمامها لتحقيق تنمية اقتصادية ملموسة . واذا كانت بعض الدول النامية مثل كوريا وتايوان والبرازيل قد استطاعت كسر الدوائر الجهنمية للتخلف والفقر ، فإن الفرص ستكون محدودة في هذا المجال بالنسبة لغالبية الاقطار النامية الأخرى[٨] . ومع ذلك فهناك فئة أكبر نسبيا من الدول النامية ذات الإمكانيات والقاعدة الاقتصادية الأكبر (مثل الارجنتين والهند ومصر وباكستان) تستطيع الإفادة من النظام العالمي الجديد من خلال تجسيد مزاياها النسبية ؛ إما لكونها تشكل أسواقا كبرى ، أو لدورها الاقليمي المتميز ، أو لقدرتها على التكامل الوظيفي مع القوى الرأسمالية العالمية . وهناك فئة ثالثة من الدول ذات القاعدة الاقتصادية المحدودة ، ولكنها تتمتع برخاء نسبي لأسباب استثنائية وأهمها مجموعة الدول المصدرة للبترول . وأخيرا فان هناك القاعدة الواسعة من الدول النامية ذات الامكانيات الاقتصادية المحدودة ، والقاعدة الاقتصادية الطبيعية ، ومستوى الدخل الفردى المنخفض . وتضم هذه الفئة الغالبية العظمى من الدول النامية ، وخاصة تلك الأفريقية منها . والواقع ان عقد التسعينيات لن يشهد تحسنا ملحوظا في الأوضاع الاقتصادية لمعظم تلك الدول ، حيث لن يحقق الدخل الفردي فيها زيادة تتجاوز ١٪ سنويا على أقصى تقدير . أما الفئتان الثانية والثالثة من الدول النامية فلا تستطيعان تحقيق تنمية اقتصادية ملموسة أو واعدة ، إلا إذا قررت الشركات متعددة الجنسية تكثيف وتوسيع حجم استثماراتها فيها خلال عقد التسعينيات . إلا أنه مع تراجع معدل نمو الإستثمارات الأجنبية (بسبب الركود الاقتصادي الأمريكي، وانهيار الكتلة الاشتراكية ، وإتحاد الالمانيتين) ، فإن فرص النمو الاقتصادي السريع في هاتين الفئتين من الدول النامية لن تكون كبيرة ، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار تدفق رؤوس الأموال الغربية الى دول الإتحاد السوفيتي (سابقا)، وأقطار أوروبا الشرقية بعد تكييف هياكلها الاقتصادية لتتلاءم مع متطلبات النظام الرأسمالي الجديد . وهكذا تقودنا أغلب الاحتمالات الى توقع المزيد من تهميش غالبية دول العالم الثالث ، وعلى الأخص الأفريقية داخل النظام الاقتصادي الدولي ، وإن ظلت الفرصة متاحة أمام بعض الدول النامية ذات الامكانيات الاقتصادية الكبيرة والموارد البشرية الماهرة من تحقيق معدلات نمو اقتصدي عالية نسبيا .

## ثانيا : اهتمامات بحثية في مجتمعات العالم الثالث

من الطبيعي ان تنعكس التحولات العالمية المعاصرة التي أشرنا اليها على واقع مجتمعات العالم الثالث . والواقع ان ما نسعى اليه هنا هو الإشارة الى بعض القضايا والتساؤلات الملحة المرتبطة بتلك التحولات ، والتي تفرض نفسها فرضا على واقع هذه المجتمعات . ولسوف نركز على القضايا والتساؤلات ذات الصفة العامة ، والتي تتجاوز - بطبيعة الحال - الاختلافات والفروق بين الدول النامية . ونحن نسلم بأن بعضها قد طرح من قبل بعض الباحثين ، إلا أن مناقشتها في ضوء التحولات العالمية التي أشرنا اليها هو أمر بالغ الأهمية .

١ - مع السيطرة العالمية للنظام الرأسمالي ، تبدو الليبرالية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية نزعة فكرية أساسية ومدخلا تنموياً في كثير من أقطار العالم الثالث . ومن الطبيعي ان تنعكس تلك الليبرالية على التكوينات الاجتماعية في تلك الأقطار . إذ تظهر جماعات طبقية جديدة مستفيدة من الليبرالية تمارس تأثيرات سياسية واجتماعية وثقافية ، بينما يتقلص نفوذ الطبقة الوسطى القديمة . إن فهم تكوين تلك الجماعات الطبقية الجديدة هو مسألة بالغة الأهمية ، كما ان فهم موقفها من التنمية القومية هو أيضا أمر حيوي . ان الجانب الاقتصادي من الليبرالية قادر على إفراز جماعات جديدة من الملاك وأصحاب المشروعات ، بينما الجانب السياسي منها قادر على تحديد القوى السياسية الجديدة التي تلعب دوراً هاما في عملية اتخاذ القرارات القومية . أما الجانب الاجتماعي من الليبرالية فيتجسد من خلال الحراك الاجتماعي المحدود المتاح لقطاعات من الطبقة الدنيا الى الطبقة الوسطى[٩] . والقضية الهامة هنا هي : أن الليبرالية في كثير من دول العالم الثالث سوف تتحقق على أنقاض قطاع عام ساد وسيطر منذ تحقيق الاستقلال السياسي ، وبالتالي فإن من الضروري التعرف على ديناميات عملية تصفية القطاع العام ، وتحويله الى مشروعات اقتصادية كبرى ، والكشف عن القوى المستفيدة من ذلك في مقابل القوى المعارضة لعملية تحويل القطاع العام الى قطاع خاص .

٢ - مع التحول الى القطاع الخاص والدعم الداخلي والخارجي الذي سيلقاه ، يصبح من الضروري تحليل ديناميات تحقيق الاستقرار الاجتماعي ، خاصة وأن معظم الدول النامية سوف تشهد معدلات بطالة عالية ، وانخفاضا ملموسا في القوى الشرائية ، وارتفاعا ملحوظا في معدلات التضخم ، وتهميشا اجتماعيا واسع النطاق . وفي ضوء تلك الظروف يصبح من الضروري فهم موقف الدولة في مجتمعات العالم الثالث فهما دقيقا ، كما يصبح من الضروري أيضا تحليل آليات الاستقرار الاجتماعي في غياب الوظائف التقليدية التي كانت تؤديها الحكومات . إن

الحكومات بتخليها عن كثير من التزاماتها التقليدية مطالبة بأداء أدوار جديدة ، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار «ثورة التوقعات» ، «ثورة الاتصال» ، و«حركات الشباب» ، واتجاهات الاحياء الديني والقومي والعرقي في مناطق مختلفة من العالم الثالث .

٣ ـ من المتوقع أن يحدث النظام الاتصالي العالمي تأثيرات بالغة على مجتمعات العالم الثالث ، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتحول الحوار الثنائي الى مونولوج فردي ، ويزداد الآن تأثير الرسالة الاعلامية للدول الصناعية الغربية من خلال وكالات الأنباء الأربعة الرئيسية (الاسوشيتدبرس ، واليونايتدبرس ، ورويتر ، ووكالة الانباء الفرنسية) ، حيث تتحكم في الأنباء التي تراها عالمية ، وتوزعها على نطاق عالمي . وبالنسبة للصفوات الثقافية والسياسية في كل أقطار العالم الثالث ، فإن قراءة الصحف الصادرة غن مؤسسات مثل النيويورك تايمز والواشنطن بوست والنيوزويك والتايمز الأمريكية ، والصانداي تايمز والجارديان البريطانية ، ودي فيليت الالمانية ، واللوموند والفيجارو الفرنسيتين ، قد أصبح من الأمور البالغة الأهمية في تشكيل وعيهم السياسي والثقافي (عالميا وقوميا ومحليا) . ولا نستطيع أن نغفل في هذا المجال الدور الاعلامي الجماهيري الذي تلعبه محطات الاذاعة البريطانية ، وصوت أمريكا ، ومونت كارلو الفرنسية باعتبارها مصادر أساسية للأنباء والثقافة للعالم أجمع . إن التسعينات سوف تشهد قفزة كيفية في البث التليفزيوني العالمي ، بعد ان ظل لفترة طويلة ظاهرة محلية . ومن المتوقع أن تختفي أو تضعف القيود القومية على رسائل شبكات التلفزيون العالمية من أمثال CNN و CBS ، حيث سيصبح في مقدورها الوصول الى المشاهد أينما كان وحيثما وجد على هذا الكوكب[١٠] . ومن الطبيعي ان يطرح هذا الواقع الاعلامي العالمي الرأسمالي تساؤلات حول مصير الثقافات الوطنية في مجتمعات العالم الثالث ، خاصة وان تفكك الأنساق الثقافية االقائمة لا يصاحبه ظهور انساق ثقافية تكاملية جديدة . ويتحدث بعض المفكرين عن ظاهرة «العالمية» الناجمة عن ثورة الاتصال العالمي في مجالات عديدة كالاستهلاك ، والمعرفة ، والنقود ، والنظم السياسية ، والقضايا العامة ، إلا ان ذلك ـ في نظرنا ـ لا يعدو ان يكون فرضا لمعايير «ثقافية مسيطرة» على «ثقافة خاضعة» ان كان لنا ان نستخدم تلك الثنائية

٤ ـ في ظل عالم تسيطر عليه عقيدة سياسية واحدة مدعمة بنماذج عديدة من النجاح والانجاز ، تثار تساؤلات عديدة حول المعتقدات السياسية والاجتماعية والثقافية التي ظلت سائدة لفترات طويلة في مجتمعات العالم الثالث . وربما كان مثقفو العالم الثالث (وعلى الأخص التقدميين منهم) هم أكثر الفئات الاجتماعية حرجا وانزعاجا ودهشة واحساسا بالاغتراب بسبب التحولات العالمية الأخيرة ، وعلى الأخص بعد انهيار الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية في سنوات معدودات

دون نضـال أو صراع ظاهـر[11] . لقد وجدوا أن المفاهيم والتصورات والنظريات والأدوات التحليلية التي اعتادوا عليها قد أصبحت غير ملائمة الى حد كبير ، وان عليهم ان يواجهوا موقفا جديدا : إما الدفاع العنيد عن واقع يصعب الدفاع عنه ، أو اعلان الافلاس الفكري والبحث عن اهتمامات بحثية جديدة محايدة . وباختصار فإذا كانت التحولات العالمية قد شهدت انتكاسة شديـدة في النظرية والممارسة الاشتراكيين ، فإن المثقفين الإشتراكيين في أقطار العالم الثالث قد فقدوا الحلم ، وتسارعت الأحداث حتى وجدوا صعوبة في متابعتها والربط بينها في سياق منطقي متكامل . ويشبه هذا الموقف ـ ولكن بطريقة عكسية ـ ما حدث للمثقفين الليبراليين الصينيين في أعقاب الثورة الصينية في سنة ١٩٤٩ . إذ وجدوا أنفسهم ـ وعلى الأخص العلماء الاجتماعيين منهم ـ يمارسون مهام بحثية «برجوازية» لا تتفق مع متطلبات المجتمع الاشتركي الجديد ، حتى انتهى الأمر ببعضهم الى التخلي عن معتقداتهم الخاصة والتكامل مع النظام السياسي الجديد ، في حين هرب البعض الآخـر الى أقـطار أخرى يمارس فيها اهتماماته البحثية الليبرالية ، بينما آثر البعض الثالث الانسحاب كلية من الموقف والعيش في عالم خاص .

٥ ـ من الـطبيعي أن يطرح المثقفـون والعلماء الاجتماعيون تساؤلات كثيرة حول مصير الثقـافـات الشعبيـة ، والمعتقـدات الدينية والاخلاقية ، وأساليب الإنتاج والتفكير السائدة في مجتمعات العالم الثالث في ظل «النظام العالمي الجديد» الذي أشرنا الى أهم ملامحه ومعالمه . إن السيطرة الرأسمالية العالمية لن تقتصر على فرض أنماط عالمية من التفكير والسلوك ، بل ستؤدي ـ بشكـل مباشر أو غير مباشر ـ الى طمس كثير من الثقافات الشعبية في مناطق مختلفة من العالم النامي . ويكفي الإشارة الى مجال الاستهلاك لندرك مدى تأثير الثقافة الرأسمالية عليه : من نمط إنتـاج السلع ، الى طريقـة استخـدامهـا وتـذوقهـا ، الى الارتباط بها واعتبارها رمزا للحداثة والمعاصرة . لذلك فإن علماء الاجتماع والانثربولوجيا مطالبون بدراسة أساليب الانتشار الثقافي ، بما في ذلك السلع والأفكار في إطار علاقات عدم التكافؤ[12] . ومن الضروري أن يعيد هؤلاء العلماء النظر في كوكبة المفاهيم المحافظة التي اعتادوا العمل في ضوئها . ذلك أن الانتشار الثقافي على صعيد عالمي ليس عملية حيادية ، وإنما هو تعبير عن علاقات قوة تتخذ أشكالا مختلفة . ولابد من أن نطرح في هذا المجال أيضا مصير المعتقدات السياسية ذات النشأة الوطنية في مجتمعات العالم الثالث . ففي مجتمعاتنا العربية نجد المعتقدات السياسية السائدة (كالاشتراكية ، والقومية) ذات أصول غربية ، بينما نجد الاسلام (في صورته السياسية) هو المعتقد السياسي الذي نبت من أرض عربيـة . وفي ظل التحـولات العالمية المعاصرة لابد من طرح تساؤلات حول مصير المعتقدات السيـاسيـة الـوطنيـة في مواجهـة الـرأسـماليـة العـالمية وفي حالة الإسلام بالذات يمكننا طرح تساؤلات إضافية بعد إنهيار الإتحاد السوفيتي ، واستقلال الجمهوريات ذات الأغلبية الإسلامية ،

واحتمالات تفاعلها مع أقطار إسلامية مجاورة مثل افغانستان وايران وتركيا ، والأقطار العربية الإسلامية المجاورة .

٦ ـ في ظل التحولات العالمية المعاصرة تظهر أشكال جديدة من العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني في الأقطار النامية التي تأخذ بنظام التعددية السياسية والمشروع الخاص . إن هيمنة النظام الرأسمالي على مستوى عالمي وافتقار نماذج تنموية أخرى مؤثرة سوف يفرض ضغوطا متزايدة على تلك الأقطار من أجل اختزال التاريخ وتجاوز الخصوصيات الثقافية والاجتماعية . وإذا كانت الدولة كجهاز سياسي على إستعداد لتشجيع مبادرات القطاع الخاص وتدعيم المجتمع المدني من خلال النقابات والأحزاب السياسية والنوادي والجماعات الوسيطة الأخرى ، فإنها يجب أن تكون على إستعداد ـ في الوقت ذاته ـ لتقليص سلطاتها وقص بعض أجنحتها ، وتلك معضلة تواجه الدولة في علاقتها بالمجتمع المدني ، وستظل تفرض نفسها بقوة في ظل «النظام العالمي الجديد» الذي تشكل الديمقراطية أحد رموزه القوية .

٧ ـ من الضروري تحليل الدور السياسي للقوى الإجتماعية التي لن تستطيع تحقيق مزايا اقتصادية واجتماعية من الليبرالية الجديدة في الأقطار النامية . وربما كانت أبرز تلك القوى الاجتماعية : فقراء المدن ، ومعدمو الريف ، وصغار الموظفين ، والعاطلون والمهمشون العاجزون عن الدخول في فلك تلك الليبرالية . إن المشاركة السياسية لتلك القوى الاجتماعية هي مسألة ضرورية ، وان كانت تكلفتها الاجتماعية سوف تكون باهظة بالنسبة للحكومات . لذلك فإننا نتوقع وصول تلك الحكومات الى صيغ سياسية جديدة ملائمة لم تشهدها الدول الرأسمالية الغربية خلال تاريخها الديموقراطي . وفي كل الأحوال ، فإن التعددية السياسية التي تميل الى الأخذ بها الأقطار النامية في ظل «النظام العالمي الجديد» ، سوف تطرح تساؤلات حول مصير الحركات الراديكالية ، والاتجاهات الاشتراكية ، والنزعات القومية ، فضلا عن المعتقدات السياسية القادرة على حشد الجماهير وتوجيهها نحو أهداف تنموية عامة .

٨ ـ يستطيع العلماء الاجتماعيون الوصول الى دلالات هامة إذا ما تأملوا نمط التنمية الصناعية التي شهدتها الدول الصناعية الجديدة NIC في جنوب شرق آسيا ، وعلى الأخص النمور الأربع : تايوان ، وسنغافورة ، وكوريا الجنوبية ، وتايلاند ، بالإضافة الى دول نامية أخرى مثل المكسيك والبرازيل(١٣) . ومهما قيل من دوافع سياسية خارجية لدعم تلك الدول ، إلا أن الحقيقة تظل باقية وهي ؛ أن مجموعة من الدول النامية قد تمكنت من كسر حلقة التخلف الجهنمية لا عن طريق التثوير ، بل عن طريق التحديث . إن هذه التجارب التنموية يجب أن تشكل معامل حقيقية للعلماء الاجتماعيين في الأقطار النامية ، بهدف التعرف على الظروف الملائمة للنمو

الاقتصادي ، وديناميات التحول الاجتماعي ، والقوى الاجتماعية التي تلعب دورا قياديا في مجال التنمية الاقتصادية ، فضلا عن الوزن النسبي لكل من العوامل الداخلية والخارجية في إنجاز التنمية الاقتصادية والتغيير الثقافي .

٩ ـ انقضى وقت طويل مارس فيه العلماء الاجتماعيون في الاقطار النامية مهامهم البحثية في ضوء تعصب فكري ، أدى الى تجاهل كثير من المشكلات الاجتماعية والبيئية التي تواصل فرض نفسها يوما بعد يوم . فقبل عقدين من الزمان كان الحديث عن تلوث أو تدهور البيئة في الأقطار النامية يبدو في نظر بعضهم ضرب من الترف الفكري أو «التجهيل الايديولوجي» . وقبل عقد واحد فقط كان الحديث عن قضية التصحر ضربا من اللغو ، لأنه لا يتصل في نظر البعض الآخر ـ بشكل مباشر ـ بطبيعة التكوين الاجتماعي في الأقطار النامية(١٤) . والواقع أنه منذ مطلع عقد الثمانينيات من القرن الحالي ، والأقطار النامية تواجه مشكلات بيئية واجتماعية بالغة الحدة والشدة : التلوث البيئي ، وأحزمة الفقر حول المدن ، والجفاف ، والتصحر ، والديون الخارجية ، والتكنولوجيا الملائمة ، والصراعات الاقليمية والدينية ، والمشكلات العرقية . إن هذه المشكلات بحاجة الى مزيد من اهتمام الباحثين الاجتماعيين المعاصرين ، خاصة وان معظمها يتصل ببنية مجتمعات العالم الثالث ، والتحولات التي مرت بها بعد حصولها على استقلالها السياسي .

١٠ ـ على الرغم من أن الفرص المتاحة أمام الأقطار النامية للإفادة من «النظام العالمي الجديد» تبدو محدودة على الأقل في المدى القصير ، إلا أن باستطاعة بعضها الإفادة من بعض تلك الفرص ، وذلك باستثمار دورها الاقليمي ، وقدرتها على التعبير عن نموذج ديموقراطي رائد ، فضلا عن الدور الذي يمكن أن تلعبه في أية ترتيبات أمنية مقبلة . وفي عصر تسوده الكتل الاقتصادية الرأسمالية الكبرى ، فإن التعاون أو التكامل الاقليمي بين الأقطار النامية يصبح مصيرا حتميا يصعب تفاديه . وينطبق ذلك على أكثر الأقطار النامية فقرا ، وهي الأقطار الأفريقية التي يجب أن تواجه اعتمادها على منتج واحد، وتخلف هياكلها الإنتاجية ، وصغر قواعدها السكانية بشكل عام ، من خلال تجمعات إقليمية تتيح لوحداتها الإفادة من مزايا التكامل الاقتصادي . إلا أن تجارب العالم الثالث قد برهنت على أن التكامل الاقتصادي ليس نزهة جماعية سهلة ، بقدر ما هو تضحيات متبادلة تتطلب نضجا سياسيا وتطورا اجتماعيا على نحو ما حدث في أوروبا الموحدة . إن أمام الأقطار النامية الآن فرصا عديدة للإفادة من النظام العالمي الجديد دون الوقوع في أخطاء تعرضت لها الأقطار الرأسمالية عبر مسيرتها منذ مطللع القرن التاسع عشر. هناك إمكانية الإفادة من التكنولوجيا العالمية ، وثورة المعلومات والاتصال ، على أن يواكب ذلك عمل نشط من أجل حل معضلة التكنولوجيا وخلقها . إن هذا الانتقال هو خطوة أساسية وضرورية على طريق التنمية الحقيقية .

# المراجـــــع

(١) يمكن الرجوع الى عدد من الدراسات والبحوث التي تناولت آفاق النظام الدولي خلال عقد التسعينات ، أنظر على سبيل المثال : محمد السيد سعيد ، آفاق النظان الدولي في التسعينات ، سلسلة بحوث سياسية (١٨) ، جامعة القاهرة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، مركز البحوث والدراسات السياسية ، اغسطس ، ١٩٨٩ ، وكذلك عبد المنعم سعيد : مصر والنظام الدولي في التسعينات ، في أعمال المؤتمر السنوي الثالث للبحوث السياسية ، مركز البحوث والدراسات السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ص ٢٣٧ - ٢٩٥ .

(٢) لمزيد من التفصيل أنظر إرنست مانديل ؛ الإتحاد السوفيتي الى أين في ظل جورباتشوف ؛ ترجمة كميل داغر ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٩١ . ويمكن الوقوف على تحليل أكثر دقة لنتائج تفكك الإتحاد السوفيتي بالرجوع الى المقدمة المستفيضة التي كتبها المترجم .

(٣) أسامة خالد : المستقبل العربي في العصر الأمريكي ، مركز القادة للكتاب والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ص ٢٥ - ٢٨ .

(4) Bell, D; The End of Ideology : On The Exhaustion of Political Ideas in The Fifties , The Free Press , New York , 1960 .

(٥) اتخذت تلك المراجعة أشكالا مختلفة . إلا أن ما يعنينا هنا هي تلك التي ظهرت من داخل أقطار أوروبا الاشتراكية (سابقا) . وفي هذا المجال يمكننا الإشارة الى المحاولة المبكرة التي قدمها ديجلاس Djilas في كتابه الصغير الحجم : الطبقة الجديدة (١٩٥٧) The New Class ، حيث كشف عن تناقضات المجتمع الاشتراكي اليوغسلافي من خلال خبراته الشخصية والسياسية ، خاصة وأنه قد ظل لفترة طويلة نائباً للرئيس اليوغوسلافي جوزيف بروز تيتو . أنظـر :

Djilas, M; The New Class London , 1957

وهناك الى جانب ذلك تحليلات جيدة تناولت البناء الطبقي في الإتحاد السوفيتي سابقاً ، أنظر على سبيل المثال .

Lane , D ; Politicsand Society in The USSR , Weidenfeld and Nicolson , 1970

Armstrong , J ., The Soviet Bureaucratic Elite : A Casa Study of The Ukranian Apparatus , Praeger , 1059 ; Parkin , F ; "Class Stratification in Socialist Societies" , British Journal of Sociology - December , 1969 .

(٦) أنـظر سلوى شعـراوي جمعـة ؛ مصر والنظام الدولي : سيناريو التسعينات ، في : مصر وتحديات التسعينات ، مرجع سابق ، ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .

(٨) هناك محاولات حديثة لفهم تأثير التحولات العالمية على فرص التنمية في أقطار العالم الثالث ، إنظر :

Hettne , B ; Development Theory and Three Worlds , Longman Group Limited , London . 1990 ; Galtung ; J. Development Theory : Netes For an Alternative Approach , Institute For Environment and Society , Berlin , 1985 ; George , S ; A Fate Worse Than Dept , Penguin , London , 1988 ; Redclift , M ; Sustainable Development , Exploring The Contradictions , Meuthuen , London , 1987 .

(٩) أنـظر السيـد الحسيني ؛ التنمية والتخلف ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٢ ، وعلى الأخص الفصل الأول .

(١٠) عبد المنعم سعيد ؛ مصر والنظام الدولي في التسعينات ، مرجع سابق ، ص ٢٦٢ .

(١١) منذ ظهور البروسترويكا في عام ١٩٨٥ وهناك جدل شديد حولها من جانب مثقفي العالم الثالث ، ويمكننـا الإشـارة في هذا المجـال الى : وجهـة نظر عربية إلى البيروسترويكا ، عرض مها صالح ، الفارابي ، بيروت ، ١٩٩٠ ، البيروسترويكا في عيون الآخرين ، تقديم فؤاد موسى ، مركز البحوث العربية ، القاهرة ، غير وارد تاريخ النشر ؛ وانـظر أيضـا المقالات الواردة في مجلة قضايا فكرية ، نوفمبر ١٩٩٠ ، والتي تناولت البروسترويكا ومستقبل الاشتراكية .

(١٢) طرحت بعض هذه الأفكار منذ مطلع السبعينات في نطاق الانثروبولوجيا .

أنظر : Asad, T; Antropology , The Colonial Encounter , Ithaca Press , London , 1975 .

(١٣) أنظر : Cline, W; "Can The East Asian Model of Development be Generalized ? World Development, 10, (2), pp. 81-90; Harris, R; The End of The Third World : Newly Industrializing Countries and the Decline of an Ideology, Penguin Books, 1987., Haggard, S., "The Newly Industrializing Countries in The International System , World Politics XXXVIII (2), Jan 1986 .

(١٤) أنظر على سبيل المثال :

Timberlake, L; Africa in Crisis , Earthscan , London , 1985 , George , S; From The World Food Conference to 1984 : a Decade of Failure., Third World Affairs , Third World Foundation , London , 1985 .

# التأثير السلوكي لوسائل الاعلام :
# تحليل من المستوى الثاني

د . محمد عرفه
جامعتا القاهرة وقطر

## مقدمة :

« وسائل الإعلام والسلوك الإنساني » مجال بحثي ، رغم أنه قديم قدم البحث الإعلامي الجاد منذ بداية االأربعينات من هذا القرن ، يبدو أنه لن تتقادم تساؤلاته بحيث يأتي اليوم الذي نقرر فيه أن كل تلك التساؤ لات قد تمت الاجابة عليها بالفعل ، ويبدو أنه لن تموت قضاياه مهما إستهلكها النقاش على المستويين العام والعلمي . فاجراءات البحث الإعلامي أو الاجتماعي في هذا المجال الحيوي مازالت بعيدة عن الكمال ، في الوقت الذي تتعامل فيه مع تساؤلات صعبة ومعقدة . وقضايا هذا المجال البحثي ذات أهمية متجددة بحيث يصعب تجاهلها في أي وقت . وأهم من ذلك كله فان كلا من طرفي هذا المجال : أي وسائل الإعلام والسلوك عرضة للكثير من أوجه التغيير والتغير ، وهو ما يجعل العلاقة بينهما هي الأخرى دائمة التغير .

والوضع في هذا المجال البحثي اليوم مازال بعد واحد وثلاثين عاما أبعد ما يكون عما تنبأ به برنارد بيرلسون عام ١٩٥٩[١] في بداية حلقة دراسية حول مستقبل البحث الاتصالى أو الإعلامي من أن باحثي العلوم الاجتماعية قد ينصرفون قريبا عن البحث في الإعلام أو الاتصال الجماهيري ذلك أن التساؤلات الرئيسية ستكون قد تمت الإجابة عليها . فالواقع اننا اليوم أقرب إلى مقولة ولبور شرام في نفس تلك الحلقة الدراسية منا إلى مقولة بيرلسون . ومقولة شرام هي أنه أنه ليس من قبيل المبالغة ان نقرر أن البحث الإعلامى في مجال التأثير السلوكي لوسائل الإعلام يبدو وكأنه قد بدأ الآن فقط[٢] . رغم أنه بدأ منذ أكثر من خمسين عاما .

---

(1) berelson, B.R., 1959, "The State of Communication Research", Public Opinion Quarterly, vol. 23, pp. 1 – 15.

(2) Comstock, et al., 1978, **Television and Human Behavior**, New York: Columbia University Press, p. XIV.

وأنا لا أقصد هنا أن البحوث التي تناولت التأثير السلوكي لوسائل الإعلام نادرة أو حتى قليلة . فالواقع عكس ذلك . ولكن ما أقصده هو أن هذا الموضوع مازال يحظى باهتمام العديد من الباحثين وكأنه موضوع جديد ليس في مجال الإعلام (الاتصال) فقط بل في مجالات عديدة نذكر منها علوم النفس والطب النفسي والاجتماع والتربية والاجرام والسياسية .

ودراسة التأثير المقصود وغير المقصود لوسائل الإعلام كما يظهر في سلوك مستهلكي تلك الوسائل كانت ومازالت مليئة بالجدل والخلاف حول قدرة العلوم الاجتماعية والسلوكية ، التي يعد علم الاتصال أحد أعضائها ، على الوصول إلى نتائج تؤكد أو تنفي بشكل قابل للتحقيق العلاقة السببية بين محتوى وسائل الإعلام بشكل عام وبين سلوك المستهلكين الدائمين **Heavy Consumers** لمحتوى تلك الوسائل مقارنة بسلوك غير المستهلكين أو المستهلكين النادرين **Light Consumers** لذلك المحتوى . وربما ضاعف من الضجيج حول هذا الموضوع حقيقة أن القليل النادر فقط من باحثي العلوم الاجتماعية والسلوكية ، بل من الجمهور العام ، هم الذين لا يعتبرون أنفسهم خبراء في وسائل الإعلام وتأثيرها على جماهيرها **Audiences** . ويكفي أن أذكر هنا أنه بعد أن نشرت في الصحافة العامة نتائج دراسة قام بها بعض علماء الاتصال الجماهيري لحساب المركز القومي للصحة النفسية بالولايات المتحدة ، كتب أحد القراء إلى لجنة البحث بالمركز يقول «لو أنكم سألتموني عن تأثير مضمون العنف بوسائل الإعلام وبالذات التليفزيون على سلوك المشاهدين لاسترحتم ووفرتم مبالغ طائلة أنفقتموها من عوائد ضرائبنا على هذا البحث[1] .

لكن ما هي أسباب اختيار هذا الموضوع ليكون محورا لورقة بحث في بداية التسعينات ؟

خمسة أسباب على الأقل كانت وراء اختياري لهذا الموضوع :

١ ـ ان هناك اليوم في العالم كله درجة عالية من الاهتمام بالتحقيق الامبريقي **Empirical verification** من تأثير وسائل الاعلام على سلوك الفردوالمجتمع ، وذلك بتأثير إتساع نطاق البث الاذاعي المباشر بالأقمار الصناعية في مناطق عديدة من العالم . هذا البث الذي جعل استقبال اشارات الراديو أو التليفزيون يسيرمباشرة من القمر الصناعي إلى أجهزة الاستقبال دون حاجة إلى وساطة محطة القمر الصناعي الأرضية والتي كانت تعمل كأحد أكبر حراس البوابة **Gate Keepers** في عملية الاتصال الدولي بالوسائل الالكترونية فتستقبل الاشارات الاذاعية وتعيد

---

(1) Comstock et al., Op., cit. p. 1.

بث ما تريـد فقط إلى أجهزة الاستقبال الاذاعي من راديو وتليفزيون . هذا الاهتمام بالتحقق الامبريقي من تأثير وسائل الإعلام بدأ يظهر في عمليات اعادة تقويم الدراسات السابقة في مجال تأثير وسائل الإعلام في مستهلكيها بعامة وفي سلوك هؤلاء المستهلكين بشكل خاص واعادة النظر في الافتراضات التي بنيت عليها تلك الدراسات وفي المناهج والأدوات التي استخدمتها في البحث .

٢ ـ إن الوقت الذي مر على البحوث التي ركزت على أحد جوانب هذا الموضوع وهو صلة مضامين العنف في وسائل الاعلام بالسلوك العدواني أو العنيف لمستهلكي تلك المضامين والتي تم نشر معظمها في تقريرين صدرا عن المفوض الصحي العام بالولايات المتحدة Surgeon General في عامي ١٩٧٢ ، ١٩٨٢ . . هذا الوقت يعد كافيا لاعادة النظر في تلك البحوث وتقويمها تقويمًا أقرب إلى الدقة .

٣ ـ إن هناك تغيرا أساسيا في بنية الاعلام العالمي . وأبرز مظاهر هذا التغيير هو بروز وسائل الإعلام متعددة الجنسية والتي تعطي للفرد المستهلك للرسائل وللجمهور فرصة للاختيار ليس فقط من بين الرسائل التي تبثها وسائل الاعلام القومية بل الوسائل الدولية . هذا التغير في البنية الإعلامية الدولية بدأ يؤثر على مضمون وأداء وسائل الإعلام القومية . وهو ما يثير العديد من المشاكل التي سوف تكون بؤر اهتمام باحثى الاتصال في المستقبل القريب . وهذا البحث المستقبلي يجعل عملية مراجعة التجارب البحثية السابقة أمرا ضروريا .

٤ ـ إن اهتماما متزايدا بدرجات متفاوتة قد بدأ يظهر داخل حدود كل دولة وبين الدول بترجمة البحوث الاجتماعية والسلوكية إلى سياسات فعلية . ولما كان الباحثون في الإعلام ، بل في العلوم الاجتماعية كلها ، مازالوا يعيشون في عوالم مستقلة تبدو قليلة الصلة بما يحيط بهم ، ومازالوا يستخدمون لغة بحثية بعيدة عن لغة التطبيق فإن هناك حاجة اليوم إلى اعادة النظر في مناهج البحث وأدواته حتى يصبح قادرا على اعارة نفسه بسهولة للتطبيق . ونجاح عملية استخدام البحث العلمي كأساس لوضع السياسة التطبيقية يعتمد في جزء منه على إعادة النظر في تركة التجارب البحثية الماضية . فاعادة النظر هذه سوف تزيد من ايضاح بؤر الاهتمام التي ينبغي أن يتركز عليها البحث المستقبلي الذي يصلح أن يكون مرشدا للسياسة الإعلامية إن لم يكن أساسها .

٥ ـ ان هناك جدالا بدأ منذ سنوات طويلة ومازال يتردد في بحوث الإعلام حول أحد جوانب التأثير السلوكي لوسائل الإعلام وهو علاقة العنف الذي يظهر في تلك الوسائل وبالذات

التليفـزيون بالسلوك العدواني لبعض جماهير تلك الوسائل وبالذات الأطفال والمراهقون[1] . فالبعض يرى أن هناك علاقة سببية بين الاثنين - أي ان جرعة العنف الاعلامي الضخمة التي تقدمها وسائل الإعلام تسبب تزايدا في السلوك العدواني لمن يستهلك تلك الجرعة بكثافة وبالذات الأطفال . البعض الآخر يجد علاقة إرتباط فقط **Association** وليس علاقة سببية . وهؤلاء يقررون أن اتجاه علاقة الارتباط قد يأخذ عكس علاقة السببية أي أن فئات الجمهور ذات السلوك العدواني هي التي تبحث عن مضامين العنف في وسائل الإعلام وتستهلكها لأسباب نفسية تتعلق بالتبرير . بل إن البعض الثالث يرى انه ليس هناك مبرر علمي كاف للاعتقاد بوجود علاقة على الاطلاق - أيا كانت طبيعتها ، سببية أو ارتباط . ونحن نأمل من خلال هذه الدراسة أن نجمع دلائل علمية من البحوث المتوافرة تساهم في حسم هذا الموضوع .

## اجراءات البحث **Procedures** :

لأن العلاقة بين مضامين وسائل الإعلام وسلوك مستقبلي تلك المضامين ، أو التأثير السلوكي لوسائل الإعلام هو أوسع مجالات البحث الاتصالي ، وهو في الواقع الهدف النهائي لكل بحوث الإعلام سواء تعلقت تلك البحوث بالقائم بالاتصال أو بالوسيلة أو بالرسالة أو المستقبل ، فإن من الصعب أن نحصر كل الدراسات التي أجريت في هذا المجال . فقد ذكر كومستوك وزملاؤه مثلاً أن الدراسات التي عالجت تأثير وسيلة واحدة فقط هي التليفزيون على سلوك مشاهديه قد زادت عام ١٩٧٨ على ٢٣٠٠ دراسة منشورة ما بين كتاب ومقالة وتقرير بحث ووثيقة باللغة الانجليزية فقط[2] . ودلت خدمات المعلومات **Information Service** التي استخدمتها خلال صيف ١٩٩٠ على أن هذا العدد قد وصل هذا العام إلى أكثر من ٣٤٥٠ دراسة باللغة الانجليزية فقط بعد أن كان شيرون لويري وميلفين دى فلير قد قدراها عام ١٩٨٨ بأكثر من ٢٩٠٠ دراسة[3] .

فاجراء تحليل من المستوى الثاني أو حتى مجرد الحصول على كل هذا الكم الهائل من الدراسات والاطلاع عليه إذا يخرج عن نطاق ما هو ممكن انسانيا **Humanly Impossible** حتى بالنسبة لفريق كبير من الباحثين ولا أقول باحثا واحدا .

(1) Ibid, p. XV.

(2) Ibid, p. XVII.

(3) Lowery, Shearon A. and Melvin L. Fleur, 1988, **Milestones in Mass Communication Research,** 2nd ed. New York: Longman Inc., pp. 353 – 424.

لهذا فقد ركزت البحث على موضوعين اثنين فقط من الموضوعات ذات البروز Most Selient Topics في مجال التأثير السلوكي لوسائل الإعلام . هذان الموضوعان هما : الأول هو التأثير السلبي لمضامين العنف في وسائل الإعلام ، وعلى الأخص في التليفزيون على سلوك مستهلكي تلك المضامين ، كما يظهر هذا التأثير في شكل أنماط عدوانية للسلوك Aggressive Behavioral Patterns . والثاني هو التأثير الايجابي لوسائل الإعلام على سلوك جمهور تلك الوسائل كما يظهر في أربعة أنماط هي بالتحديد الإيثار Altruism أو سلوك المشاركة Sharing Behavior ، السلوك الودي Friendly Behavior تجاه فرد أو جماعة أو تنظيم اجتماعي ، ضبط النفس Self - Control ثم سلوك الاطفال والبالغين في مواجهة مشاعر الخوف Effects of showing people coping with Fears .

واقتصر التحليل على الدراسات التي استخدمت واحدا أو كلا من تصميمين منهجيين اثنين فقط هما : التصميم التجريبي Experimental Design والدراسات الحقلية Field Studies سواء كانت تلك الدراسات الحقلية عادية أو طولية Longitudinal Field Studies . وسبب الانتقاء واضح . فهذين النوعين من الدراسات هما اللذان يقيسان بالفعل إما التأثير السلوكي لمضمون معين على سلوك متلقي هذا المضمون وبذلك يفحص علاقة السببية ، أو التأثير المقصود أو غير المقصود لتجربة التعرض بشكل عام Exposure Experience لوسيلة أو مجموعة من الوسائل خلال فترة زمنية معينة على سلوك الجمهور ذى الاستخدام المكثف لهذه الوسائل Heavy Users وبذلك يبحث علاقة الارتباط .

وقد مكنت الاستعانة بخدمات المعلومات المتوافرة في إحدى جامعات الولايات المتحدة خلال الصيف الماضي من الحصول على الدراسات التي ينطبق عليها التحديد المنهجي السابق . وتركزت خدمات المعلومات على نوعين : الأول هو استخدام نظام الفهارس المميكنة Automated Indexes التي قدمت قائمة بالكتب التي نشرت في هذا الموضوع وتم تضمينها في قوائم مكتبة الكونجرس حتى عام ١٩٩٠ . ومن هذه الكتب تم اختيار الكتب والتقارير التي نشرت بالانجليزية خلال السبعينات والثمانينات على أساس أن تلك المواد أعادت مراجعة المواد التي نشرت قبل ذلك وبنت عليها أو اكتشفت الثغرات المختلفة في هذا التراث وحاولت ملأها .

الثاني : هو أسلوب فيرجو Vergo الذي تستخدمه جامعة فرجينيا في البحث البيلوجرافي بالكمبيوتر On - line Search والذي يقدم كل البحوث التي نشرت في الموضوع في شكل

مقالات أو بحوث وغيرها من ملخصات بحوث الماجستير والدكتوراه التي لم يتم جمعها بين دفتي كتاب . واقتصر البحث البيلوجرافي بالكمبيوتر على المواد التي ظهرت في السبعينات والثمانيات لنفس السبب السابق، إضافة إلى ما لاحظته خلال دراستي وعملي في مجال بحوث الاتصال في السنوات الأخيرة من تغير في محور الاهتمامات البحثية خلال هذين العقدين في مجال التأثير السلوكي لوسائل الاعلام. فقد شهدت السبعينات وما قبلها تركيز باحثي الاتصال المهتمين بهذا المجال على صلة المضامين العنيفة لوسائل الاعلام بالسلوك العدواني أو السلوك العنيف لجمهور تلك الوسائل. أما الثمانينات فقد شهدت تقسيما لاهتمامات الباحثين بشكل متوازن بين دراسة التأثير السلبي لوسائل الاعلام على انماط سلوك جماهير تلك الوسائل والذي يظهر في شكل عنف وسلوك غير مقبول اجتماعيا **Antisocial Behavior** من جهة وتأثير هذه الوسائل في خلق أو تدعيم أنماط سلوكية مقبولة اجتماعيا **Prosocial Behaviors** من جهة أخرى .

وكانت محصلة هذه الاجراءات الانتقائية هي ١٢٣ دراسة منها ٤٧ دراسة عن العلاقة بين العنف في وسائل الاعلام والسلوك العنيف لجمهور تلك الوسائل والباقي عن علاقة مضامين معينة لوسائل الإعلام بالسلوك المقبول اجتماعيا . وهذه المجموعة الأخيرة من الدراسات كان توزيعها كالتالي : ١٣ دراسة عن تأثير وسائل الإعلام في خلق سلوك الايثار و ٧ دراسات عن التأثير الإعلامي في خلق وتدعيم السلوك الودي لجمهور المستقبلين و ١٤ دراسة عن علاقة مضمون وسائل الإعلام بسلوك لبالغين للتغلب على مشاعر الخوف و ٤٢ دراسة عن تأثير وسائل الإعلام في تنمية سلوك ضبط النفس .

والتحليل من المستوى الثاني الذي استخدمه الباحث هنا ليس هو النمط البسيط من هذا الاجراء المنهجي والذي يقوم فيه الباحث بتحليل مادة أو بيانات **Data** كان بحث آخر قد قام بجمعها والوصول إلى مجموعة من النتائج قد تتفق أو تختلف عن النتائج التي توصل إليها الباحث الأصلي ان كان هذا الأخير قد تخطى مرحلة جمع البيانات إلى صياغة مجموعة من النتائج ، بل أنه أقرب إلى النمط الذي استخدمه باحثو الاتصال لي بيكر **Lee B. Becker** وراندي بيم **Randy Beam** وجون روشيال **John Russial** [(1)] في تحليلهم لأكثر من مئة بحث لتقويم آداء الصحف اليومية في بعض الولايات الامريكية في منطقة نيو انجلند بالساحل الشمالي

(1) Becker, Lee B., Randy Beam, and John Russial, 1978, "Correlates of Daily Newspaper Performance in New England", Journalism Quarterly, vol. 55 pp. 100–108.

الشرقي والتي كانت قد نشرت أصلا في كتاب حررته لورين جيجلوين **Loren Ghigloine** [1] عام ١٩٧٣ . هذا النمط من التحليل من المستوى الثاني **Type of Secondary Analysis** والذي يعد لي بيكر أشهر المتحمسين له في بحوث الإعلام اليوم [2] هو ببساطة وضع مجموعة من الدراسات أو البحوث جنباً إلى جنب بهدف المقارنة بينها عن طريق استخدام تحليـل مضمـون تلك البحـوث وهـو الاجـراء الـذي تحدد فئاتـه المتغيرات التي قاستها تلك الدراسات ، وأساليب القياس ، ثم النتائج التي توصلت إليها بحيث تقود تلك المقارنة في النهاية ليس فقط إلى تقويم تلك الدراسات ونقدها بل إلى الوصول إلى بناء نظري أوسع وأكثر صقلا **A More Substantive and Sophisticated Theorectical structure** من الابنية النظرية التي توصلت إليها كل دراسة على حدة .

## النتائـج ومناقشتهـا **Results and Discussions**

### أولاً : العنف في وسائل الإعلام والسلوك العدواني للجمهور المستقبل :

رغم أن علاقة المضامين الإعلامية التي يصفها البعض بأنها عنيفة بظهور أنماط من السلوك العدواني أو غير المقبول إجتماعيا لدى مستهلكي تلك المضامين سبب قلقا في الأوساط العامة وبين الباحثين في الإعلام منذ ظهور قوة التليفزيون في الخمسينات إلا أن الستينات والسبعينات شهدت أعلى درجات القلق والاهتمام العام والعلمي بهذا الموضوع .

ففي عام ١٩٧٧ حدث بمدينة ميامي الأمريكية أثناء محاكمة روني زامورا **Ronnie Zamora** [3] والذي كان متهما مع صديق له بقتل سيدة مقعدة في الثمانين من عمرها ، حدث أن دفع محامي المتهم بأن موكله قد تعلم من التليفزيون أن القتل هو أفضل وسيلة يتم بها فرض الصمت على مصدر التهديد . فقد كانت الضحية قد شاهدت المتهم أثناء ارتكابه جريمة سطو على أحد المنازل المجاورة وهددته بأنها سوف تبلغ الشرطة بما رأت . وكان زامورا قد تعلم من التليفـزيـون ـ كما قال محاميه ـ أن الأموات لا يتكلمون ، وأن النموذج السلوكي الذي يقدمه التليفزيون للمشاهد هو نفس السلوك الذي سلكه موكله . الخلاصة هي أن محامي زامورا قدم

---

(1) Ghigloine, Loren, 1973, **Evaluating the Press: The New England Daily Newspaper Survey,** South Bridge, MA: Published by the editor.

(2) Becker, Lee B., 1989, "secondary Analysis" in Stempel, Guido H. and Bruce H. Westley, eds., 1989, 3nd (ed(, **Research Methods in Mass Communication,** Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall, pp. 247–261.

(3) Lowery, Shearon A. and Melvin L. Fleur, 1988, Op. Cit., p. 353.

دفاعاً جديداً في نوعه للقضاء الأمريكي بل وللقضاء في العالم كله انه ما أسماه «التخدير بالتليفزيون **Television Intoxication** أو التغييب عن الوعي بالتليفزيون» . وحجته هي أن من يفعل شيئاً وهو تحت تأثير التخدير الإعلامي لايكون مسئولا بشكل كامل عما يفعل . فالتعرض لمضامين العنف المكثفة في التليفزيون هو الذي قاد زامورا إلى ارتكاب جريمته التي تصور أنها سلوك شائع يشاهده كل يوم تقريبا على الشاشة الصغيرة . فجريمته تنحصر في تقليد سلوك شاهده ويشاهده الملايين غيره كل يوم . ففي نظر الدفاع كان زامورا مدمنا للتليفزيون **Television Addict** وتربى على جرعات تليفزيونية وإعلامية يومية هي في معظمها عنف وجريمة ودراما ذات إيقاع سريع وصاخب **High Action Drama** . لهذا فإن المذنب الحقيقي في جريمة القتل البشعة التي راحت السيدة العجوز ضحية لها هو التليفزيون وليس موكله الذي هو في الحقيقة أحد ضحايا التليفزيون وغيره من وسائل الإعلام المزدحمة بالمحتوى العنيف .

صحيح أن القاضي حكم بإدانة زامورا وزميله مقررا في حيثيات الحكم أن التعرض للعنف والجريمة في التليفزيون أو غيره من وسائل الإعلام لايمكن إعتباره سببا أو مبر را للقتل العمد ، إلا أن العديد من الباحثين في الاتصال الجماهيري ، بل والجمهور العام في الولايات المتحدة وفي الدول العديدة التي تلتهم بشراهة مضامين وسائل الإعلام الأمريكية في معظم أنحاء العالم بدأوا يتساءلون بإلحاح عما إذا كانت مشاهدة التليفزيون سبباً مباشراً أو لعبت دوراً ما في تشكيل سلوك زامورا الذي جنح للعنف بل بدأنا جميعا نردد سؤالا جوهريا هو : ألا يمكن أن يكون أطفالنا ومراهقونا الجالسون أمام التليفزيون هم الآخرون زامورا صغاراً - أي قنبلة موقوتة تنتظر الظرف المناسب للانفجار كما كان زامورا الذي ما أن توفرت له الظروف المناسبة للسلوك العنيف حتى قلد بالضبط السلوك الذي تعلمه من التليفزيون . . ؟!

وزادت درجة الاهتمام بموضوع العنف في وسائل الإعلام والسلوك العدواني أو غير المقبول إجتماعياً حينما حدث بعد ذلك بشهور أن أشعلت جماعة من المراهقين في ولاية فلوريدا النار في بعض المشردين المسنين مباشرة بعد أن شاهد هؤلاء المراهقون حدثا مماثلا في فيلم تليفزيوني أذيع في إحدى أمسيات نهاية الأسبوع . وتكرر نفس الشيء في بوسطن حينما استدرجت عصابة من الصبية فتاة في العشرين من عمرها إلى مكان خال وإنهالت عليها ضربا ثم صبت البنزين عليها وأشعلت النار فيها وذلك بعد يومين فقط من إذاعة فيلم تليفزيوني صور سلوكا مماثلا [1] .

---

(1) Ibid, p. 353.

رغم أن أحداً من الباحثين في الإعلام أو في علم النفس والاجرام أو الاجتماع أو الطب النفسي لم يلق باللوم كله على وسائل الإعلام وعلى الأخص التليفزيون كسبب وحيد لظاهرة انتشار العنف بين أفراد المجتمع الأمريكي أو غيره من المجتمعات التي تعد جرعات المضامين العنيفة في وسائل إعلامها عالية بشكل ملحوظ ، إلا أن علاقة تلك المضامين بالسلوك العدواني أو العنيف أو غير المقبول إجتماعياً لقطاعات معينة من جماهير تلك الوسائل اصبحت مصدر قلق متزايد للجمهور العام وللعديد من باحثي الاتصال الجماهيري والعلوم الأخرى المهتمة بالموضوع خلال السبيعنات.

وقد انحصرت فئات التحليل للعلاقة بين العنف الإعلامي والسلوك العنيف لمستهلكيه في الدراسات التي تناولتها خلال السبعينات والثمانينات في أربع هي نفسها الفئات التي استخدمها تقرير المفوض الصحي العام للولايات المتحدة **Surgeon General** الثاني المنشور عام ١٩٨٢ فيما عدا الفئة الأولى وهي المراجعة التاريخية للجدال حول العنف الإعلامي والسلوك العدواني لجماهير وسائل الإعلام . هذه الفئات الأربع هي :

أ ـ قياس العنف في مضامين وسائل الإعلام وبالذات التليفزيون .
ب ـ الاتجاهات الكمية للعنف الإعلامي في تلك المضامين .
ج ـ تأثير العنف وبالذات المتلفز **Televised Violence** على سلوك المتلقي .
د ـ العمليات التي تنتج العلاقة بين العنف الإعلامي والسلوك العدواني [1] .

## أ ـ قياس العنف في مضامين وسائل الإعلام :

إحدى المشاكل المنهجية الرئيسية في دراسة تأثير مضامين العنف الإعلامي على سلوك الجمهور المستقبل هي تعريف العنف أو المضمون العنيف . فقبل أن يتم فحص العلاقة بين هذين المتغيرين لابد من تحديد المتغير المستقل : أي العنف . لابد للباحث أن يوضح ما هو المقصود بالعنف ؟ وما هي المعايير التي يمكن على أساسها اعتبار المضمون الإعلامي عنيفا أو غير عنيف ؟ وكيف يمكن حساب درجات العنف المختلفة حتى يمكن دراسة العلاقة بين درجات العنف المختلفة وبين درجات السلوك العدواني المختلفة ؟ فسواء كانت الدراسة معملية أو حقلية

---

(1) Pearl, David, Lorraine Bouthilet and Joyce Lazar, (eds.), 1982, **Television and behavior: ten Years of Scientific Progress and Implications for the Eighties** vol.II, Washington, D.C.: Government Printing Office.

لابد أن يتم أولا تعريف العنف . ولابد من قياسه بمقاييس مقبولة وبعدها يمكن اختبار العلاقة سواء كانت سببية أو ارتباط أو نفي وجود علاقة على الاطلاق بين مضمون معين والسلوك الذي أبداه مستقبل هذا المضمون . فالقياس الموضوعي والثابت **Objective and Reliable Measure** للعنف هو الخطوة الأولى نحو اختبار العلاقة بين المتغيرين .

والمشكلة في تعريف العنف وبالتالي تحديد السلوك العدواني الذي قد ينتج عنه وقياس هذا العنف هي ماذكرته احدى باحثات الإعلام من أن الباحثين قدموا خلال العشرين سنة الماضية تعريفات للعنف تعددت بتعدد هؤلاء الباحثين [١] . ومع ذلك فكل التعريفات التي استخدمها الباحثون أجمعت على عناصر للعنف تبدو واحدة تقريباً وهي : التعبير الصريح **Overt Expression** عن استخدام القوة الجسدية **Physical Force** ، ضد الآخرين أو الذات ، لاحداث قتل أو جرح أو اصابة [٢] . وأضافت بعض التعريفات أعمال التخريب للممتلكات والحوادث غير المتعمدة ، بينما ضمنت تعريفات أخرى العنف السيكولوجي مثل السب والاهانة . وضمن عدد نكاد يكون نادراً من الدراسات الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والبراكين والفيضانات في العنف .

ويزيد من تعقيد هذه المشكلة الاجرائية صعوبة تحديد وحدات العد **Unitization** . فحتى يمكن عد أحداث العنف الإعلامية لابد من معرفة أين يبدأ حدث عنيف وأين ينتهي ليبدأ حدث آخر ، خصوصا فيما يتعلق بالدراما التليفزيونية . ورغم أن هذا التحديد قد يكون تعسفيا يقرره الباحث كجزء من التعريفات الاجرائية فإنه قد يؤدي إلى تضليل في النتائج إذا لم تكن عملية التحديد هذه معقولة وواقعية . لهذا فقد قدم مشروع المؤشرات الثقافية والتأثير المزروع **Cultivation Effect** الذي بدأه جورج جربنر وزملاؤه في مدرسة الاتصالات بجامعة بنسلفانيا تحديداً معقولاً للحدث العنيف في التليفزيون وبالذات في الدراما التليفزيونية بأنه «المشهد الذي يتضمن واحداً أو أكثر من أشكال العنف ويقتصر على نفس المشاركين [٣] . معنى ذلك أن أي مشهد يضم مشاركين جددا يعد حدثا مستقلا جديدا قائما بذاته .

---

(1) Signiorelli, Nancy, Larry Gross and Michael Morgan, 1982, "Violence in Television Programs: Ten Years Later", in Pearl, D. et al., op. Cit., p. 158.

(2) Gerbner, George, 1971, "Violence in TV Drama: Trends and Symbolic Functions", in Comstock, G. and E.A. Rubinstein, eds., **Television and Social Behavior, Vol.I, Media Content and Control,** Washington, D.C.: Government Printing Office.

(3) Gerbner, George and Larry Gross, 1976, "Living with Television: The Violence Profile", Journal of Communication, vol. 26, no. pp. 173-199.

المشكلة الثالثة التي يثيرها قياس العنف هي مؤشرات العنف **Violence Indices** في كل حدث يعد عنفا . والمؤشر كما عرفه جربنر وزملاؤه هو «المقياس المركب **Composite Measure** الذي يلخص عدة ملاحظات ويمثل بعدا أكثر عمومية في قياس العنف . وهو يشمـل ثلاثـة مكونات من البيانات هي : البروز **Prevalence** ، المعدل **Rate** ودور العنف **Role of Violence** [1] ، والبروز هو النسبة المئوية للمواد الإعلامية التي تحتوي على عنف من المضمون الكامل لوسيلة ما خلال فترة زمنية أو ضمن عينة معينة للدراسة . أما المعدل فهو تكرار أحداث العنف في وحدات البرامج أو وحدات الوقت وبذلك يمكن قياس المعدل في الساعة أو المعدل في العدد الواحد من الصحيفة أو البرنامج . وأخيراً فإن الدور هو تصوير الشخصيات كمرتكبي لأعمال العنف أو ضحايا لتلك الأعمال وبذلك يمكن حساب نسبة الشخصيات العنيفة أو نسبة ضحايا العنف إلى مجموع الشخصيات في البرنامج أو العرض أو القصة الخبرية أو الدراما الاذاعية أو التليفزيونية . صحيح أن مؤشر العنف بهذا الشكل يعد مؤشراً تعسفيـاً ـ أي حدده مستخـدمـوه وقد يختلف عليه الآخرون ، لكن هذه هي حال كل المؤشرات التي تستخدم في العلوم الاجتماعية أو حتى في الاقتصاد مثل مؤشر الناتج القومي **GNP** [٢]

## ب ـ الاتجاهات الكمية للعنف الإعلامي :

يتـطبيق التعـريف ووحـدات العـد ومؤشرات القياس السابقة نجد أن وسائل الإعلام الأمريكية ، وبالذات التليفزيون ، هي الوحيدة بين وسائل الإعلام في العالم التي تم قياس العنف في مضمونها خلال فترات زمنية طويلة [٣] . فمنذ ١٩٦٧ ومشروع المؤثرات الثقافية أو ما أسماه جورج جربنر وزملاؤه «ملف العنف **"Violence Profile"** يقدم قياسا كميا للعنف في التليفزيون أمكن من خلاله بيان اتجاهات مضامين العنف خلال سنوات طويلة وفي أوقات بث مختلفـة . ودون الـدخول في التفاصيل نستطيع أن نؤكد أن مستوى العنف في وسائل الإعلام الأمـريكيـة ـ التي تشكـل مضـامينهـا جزءاً غير قليـل من محتـويات وسائل الإعلام في الدول

---

(1) Signiorelli, N., L. Gross and Michael Morgan, 1982 "Violence in Television Programs: Ten Years Later", in D. Pearl et al, Op. Cit., p. 165.

(2) Lowery, S. and M. De Fleur, Op. Cit., p. 367.

(٣) مع العلم بأن هناك دراسات محدودة لقياس العنف في بريطانيا والسويد واسرائيل .

الأخرى [1] في ارتفاع مطرد [2] . صحيح أن مستوى العنف قد انخفض في فترات قصيرة في أوقات بث معينة خلال المدة من ١٩٦٧ الى ١٩٧٩ بشكل عام ، إلا أنه تزايد خلال تلك الفترات في أوقـات ذروة المشـاهـدة **Prime-time** وأثنـاء نهار عطلات نهاية الأسبوع . ولم يقتصر الارتفاع على المستوى العام للعنف فقط بل ان عدد أحداث العنف في كل برنامج على حده شهد هو الآخر تزايداً منذ بدأ القياس للمحتوى في التليفزيون الامريكي بشبكاته الرئيسية . ولم يهبط متوسط عدد أحداث العنف في أي برنامج تم دراسته عن ٤ر٤ أحداث منذ عام ١٩٧١ .

وأخطر من النتيجة السابقة نتيجة أخرى تسبب المزيد من القلق وهي أن مستوى العنف في برامج الأطفال التي تتركز أوقات بثها في نهار عطلة نهاية الأسبوع ظل عالياً نسبياً . صحيح أن ارتفـاعـه لم يأخـذ اتجـاهـا خطيـا **it was non-linear** فقـد تأرجـح بين الارتفاع الحاد والانخفاض الحاد من سنة إلى أخرى ، إلا أنه بشكل عام كان عالياً . ووصل أعلى مستوياته عام ١٩٧٨ في حين شهد العالم التالي أدنى تلك المستويات [3] .

ج ـ تأثير العنف الإعلامي على سلوك الجمهور المستقبل للرسالة :

قد لانكـون مبـالغين اذا قررنا أن البحث الاتصالي لم يحقق للآن تقدما في أي مجال من مجالاته ، ربما باستثناء مجال تكنولوجيا الاتصال ـ يوازي التقدم الذي حققه في مجال دراسة علاقة العنف الإعـلامي بسلوك المستهلكين الدائمين له . ولايظهر هذا التقدم فقط في نوعية المناهج والأدوات التي استخدمت في البحث ، بل انعكس نتيجة لكفاءة تلك المناهج والأدوات على دقة صياغة النتائج وقابليتها للتعميم . فهناك فارق كبير بين الطريقة التي صاغ بها باحثو الاتصال الأوائل نتائج دراساتهم وبين دقة الصياغة التي نجدها اليوم في بحوث الاتصال . ويكفي أن نذكر مثالا هنا . ففي أشهر دراسة تم نشرها عام ١٩٦١ بعنوان «التليفزيون في حياة أطفالنا» [4] ذكر الباحثون أن أهم النتائج هي «أن بعض محتوى التليفزيون قد يكون له تأثير ضار على سلوك بعض

---

(١) هذه الظاهرة يطلق عليها بعض الدارسين أمركه التليفزيون الدولي **"Americanization of World Television"** .

(2) Gerbner, G., L. Morgan and N. Signorelli, 1980, "The Mainstreaming of America: Violence Profile No. 11. Journal of Communication, vol. 30, pp. 10–27.

(3) Pearl, David, Lorraine Bothilet and Joyce Lazar, (eds.), 1982, Op. Cit., p. 168.

(4) Schramm, Wilbur, jack Lyle and Edwin B. Parker, 1961, **Television in the Lives of our Children,** Stanford Cal.: Stanford University Press, p. 13.

الأطفال تحت بعض الظروف : television is harmful For some children under some conditions some .

ومع ذلك فإن نفس ذلك المحتوى قد يكون نافعاً أو مفيداً لبعض الأطفال الآخرين تحت نفس الظروف أو لنفس الأطفال تحت ظروف مختلفة . be beneficial or for the same children under other conditions it may for other children , under the same conditions . ومن هنا فإن معظم المحتوى التليفزيوني في أغلب الظروف ربما لايكون له تأثير لا ضار ولا نافع بشكل واضح على معظم الأطفال !! particularly beneficial Most television is probably neither harmful nor . وبعدها بعشرة أعوام أي عام ١٩٧١ استطاع ثلاثة باحثين في الاتصال أن يدرسوا نفس العلاقة وان يصلوا إلى نتائج محددة صاغوا بعضها كما يلي :

١ ـ أن مضمون وسائل الإعلام وعلى الأخص التليفزيون مشبع بالعنف بشكل مكثف Heavily saturated with violence .

٢ ـ أن الأطفال والبالغين يقضون وقتا يتزايد يوما بعد يوم في التعرض لهذا المحتوى العنيف .

٣ ـ ان هناك دلائل تؤكد الفرض القائل بأن التعرض للعنف الظاهر في محتوى المواد الترفيهية في وسائل الإعلام وبالذات التليفزيون يزيد من احتمال ظهور درجة أكبر من العدوانية في سلوك الجمهور . هذه الدلائل اثبتتها كل من التجارب المعملية التي تسمح بالاستدلال السببي أو العلي Causal Inference والمسوح الاجتماعية التي وفرت دلائل من واقع الحياة اليومية على علاقات الارتباط الايجابية بين المتغيرين : أي العنف الإعلامي والسلوك العدواني (١) .

وبعد ذلك بعشرة أعوام أخرى توصل باحثو الإعلام مثل رويل هوزمان Rowell Huesmann (٢) وج . ل . سنجر و د . ج سنجر (٣) إلى أن الدراسات التجريبية قد أثبتت بما لايدع مجالاً للشك It is beyond challenge أن هناك علاقة سببية بين العنف

---

(1) Comstock, george and E.A. Rubinstein, (eds.), 1971, **Television and Social Behavior,** vol. III: Television and Adolescent Agressiveness, Washington, D.C.: Government Printing Office.

(2) Huesmann, Rowell, 1982, "television Violence and Aggressive Behavior", in Pearl, D., L. Bothilet and J. Lazar, Op. Cit., p. 127.

(3) Singer, J.L. and D.G. Singer, 1980, **Television, Imagination and Aggression: A Study of Preschoolers, Play,** Hillsdale, N.J.: Erlbaum.

الإعلامي والسلوك العدواني للجمهور المستقبل . وان الجدال الذي يدور بشأن تلك العلاقة يتعلق بمنهج البحث في الـدراسـات الحقلية التي تعتمد على استمارات الاستبيان أو الملاحظة بالمشاركة أو جماعات المناقشات المحورية .

يبـدو من تحليلنـا للدراسـات المختلفة التي شملتها دراستنا أن معظم الباحثين سواء في السبعينات أو الثمانينات يوافقون على أن هناك علاقة سببية بين العنف الإعلامي وبين السلوك العدواني الذي يبديه الجمهور سواء تم قياس هذا السلوك بعد التعرض مباشرة أو في مرحلة تالية من العمر . وقد أكدت هذه النتيجة معظم دراسات الثمانينات وهي في غالبيتها العظمى دراسات حقلية حيث لم يعد إثبات تلك العلاقة في المعمل محل خلاف ، وأذكر هنا بعض الأمثلة لتلك الدراسات الحقلية .

أول تلك الدراسات هي تلك التي قام بها سنجر وسنجر [١] وفيها نفذا بحثين مستقلين استخدما فيهما الملاحظة بالمشاركة لسلوك عدد كبير من الأطفال في سن الثالثة والرابعة وذلك لمدة عام كامل . وقاست الدراسة عدداً من المتغيرات في أربعة فترات زمنية خلال العام . وتوصلت إلى أن مشاهدة الأطفال للتليفزيون في المنزل ارتبطت بأنماط السلوك المختلفة التي أبداها الأطفال في أوقات اللعب الحر في مراكز الرعاية اليومية **Day Care Centers** . وأظهرت تحليلات التباين للبيانات التي جمعها الباحثان أن مشاهدة التليفزيون وبالذات مشاهدة العنف هي أحد أسباب العدوانية البارزة **Hightened Aggressiveness** في سلوك الأطفال في هذه السن [٢] .

الدراسة الثانية هي تلك التي قام بها مكارثي **E. D. Mc Carthy** وزملاؤه وهي دراسة طولية **Longitudinal** إستغرقت خمس سنوات قام فيها الباحثون بجمع بيانات عن عينة من الأطفال بلغت ٧٣٢ مفردة . وأيدت تلك البيانات الفرض القائل بأن مشاهدة العنف مرتبطة ارتباطاً إيجابياً بالسلوك العدواني للأطفال . فأنماط السلوك العدواني المختلفة التي تمت ملاحظتها مثل الشجار مع الزملاء ، والخلاف مع الوالدين أو حتى الانحراف **Delinquency** كانت كلهـا مرتبـطة ارتبـاطاً إيجابياً مع مشاهدة العنف على شاشة التليفزيون . وتلك نتيجة ليست جديدة . لكن الجديد هو أن الباحثين توصلوا إلى أن هناك علاقة إرتباط إيجابية بين حجم مشاهدة

---

(1) Singer, J.L. and D.G. Singer, 1980, Op. Cit.

(2) Ibid, p. 127.

العنف وبين درجة العدوانية التي ظهرت في سلوك الطفل [1] فأيا من الدراسات السابقة لم تقس العلاقة بين كم التعرض (المشاهدة) ودرجة العدوانية التي يبديها الطفل .

أما الدراسة الثالثة فهي التي قام بها ايرون **Eron** وهيوزمان[2] وفيها جمع الباحثان بيانات مكثفة عن سلوك الاطفال في ثلاث دول هي : الولايات المتحدة وفنلندا وبولندا . ودلت البيانات على انه في كل دولة من الدول الثلاث كانت هناك علاقة ارتباط ايجابية بين العنف في وسائل الإعلام وعلى الأخص التليفزيون وبين السلوك العدواني لكل من الاولاد والبنات في المرحلتين الابتدائية والإعدادية . وتميز هذه الدراسة هو في أنها استطاعت أن تثبت العلاقة الايجابية بين العنف الإعلامي والسلوك العنيف ليس عبر الثقافات فحسب ، ولكن لدى البنين والبنات أيضا بعد أن كانت كل الدراسات السابقة تبحث في تلك العلاقة بالنسبة للبنين فقط .

باختصـار تلك عينة صغيرة من الدراسات التي أثبتت علاقة العنف الإعلامي بالسلوك العدواني . وهناك اليوم ثلاثة باحثين على الأقل أعدوا حديثا مصنفات تشمل ملخصات للبحوث التي تربط التعرض للعنف الإعلامي بالسلوك العدواني للمتعرضين وبالذات بالنسبة للأطفال والمراهقين[3] . ومع أن تلك المصنفات لا تخلوا من الشوائب إلا أنها تؤكد بشكل مقنع الأدلة القـاطعـة على وجـود علاقـة ايجابية بين التعرض للعنف في وسائل الإعلام والسلوك العدواني للمتعرضين بكثافة لذلك العنف .

وإذا كانت غالبيـة البـاحثـين تؤكـد وجود علاقة إيجابية بين العنف الإعلامي والسلوك العدواني للجمهور المستقبل ، فان ذلك يعني بالضرورة أن هناك أقلية من الباحثين لا تقبل وجود تلك العـلاقـة . . هؤلاء البـاحثون جاء معظمهم من علوم اجتماعية غير الاتصال . ونقدهم ورفضهم لوجود تلك العلاقة لا يأتيان من مراجعتهم لدراسات بعينها بل من التوجه العام في مناهج البحث في العلوم الاجتماعية ، هذا التوجه الذي يشكك في امكانية اثبات علاقة السببية في العلوم الاجتماعية والانسانية . فهم يجادلون في أن أساليب الاستدلال والتحليلات الاحصائية التي تستخـدم فيهـا هي أسـاليب وتحليـلات جامـدة يصعب استخدامها للتعامل مع الظاهرة الاجتماعية أو الانسانية .

---

(1) McCarthy, E.D., et al., 1975 "Violence and Bahavior Disorders", Journal of Communication, vol. 25, no. 4; pp. 71–85.

(2) Eron, E.D. and L.R. Huesmann, 1980, "Adolescent Aggression amd Television", Annals of the New York Academy of Sciences, 347, pp. 319–331.

(3) Huesmann, Rowell L., Op. Cit., p. 128.

هل هناك دراسات نفت وجود علاقة ، سواء كانت سببية أو علاقة ارتباط ايجابي ، بين العنف الإعلامي وبين السلوك العدواني ؟

في مقابل وفرة المقالات النقدية **Critiques** التى شككت في نتائج البحوث التي أثبتت وجود علاقة سببية عن طريق التصميم التجريبي أو وجود علاقة ارتباط إيجابية عن طريق الدراسة الحقلية باستخدام أدوات بحثية عديدة ، فان هناك ندرة في الدراسات الامريقية التي نفت وجود تلك العلاقة سواء بالاختبار في المعمل أو بمسحها في الواقع . وحتى تلك الدراسات النادرة لم تستطع أن تنفي وجود أية علاقة على الاطلاق ، بل شككت في قوة تلك العلاقة أو قصرتها على نمط واحد ونفت الأنماط الأخرى . فبعض تلك الدراسات نفت وجود تأثير تراكمي طويل الأمد **Cumulative long - term effect** فقط للمحتوى الإعلامي العنيف ولكنها أقرت بوجود تأثير مباشر وقصير المدى على سلوك الجمهور المستقبل اذا تم القياس بعد التعرض مباشرة(١) . وأشهر تلك الدراسات هي دراسة رونالد ميلافسكي **Ronaldmed Milavsky** وزملاؤه . والبعض الآخر نفى وجود التأثير المباشر **Immediate short - term** قصير المدى وأقر بوجود تأثير تراكمي طويل المدى وغير مباشر يتمثل في إعادة تشكيل الحقيقة الاجتماعية **Social Reality** التي ترشد السلوك الانساني(٢) .

## د ـ العمليات التي تنتج العلاقة بين العنف الاعلامي والسلوك العدواني :

لم يعد الاهتمام الأساسي اليوم للعديد من باحثي الاتصال هو البحث في وجود علاقة بين العنف الإعلامي والسلوك العدواني بل يذهب هؤلاء الباحثون إلى ما وراء ذلك ليبحثوا في العمليات التي تنتج تلك العلاقة . وهناك اليوم أربع عمليات ممكنة لانتاج تلك العلاقة هي :

---

(1) Milavsky, Ronald J., Ronald Kessler, Horst Stipp, and William S. Rubens, 1982, "Television and Aggression: Results of a Panel Study", in Pearl, D., L. Bouthilet and J. Lazar, Op. Cit., pp. 138 – 157.

(2) Gerbner, George, L. Gross, M. Morgan and N. Signiorelli, 1986, "Living with Television: The Dynamics of the Cultuvation Process", in Bryant, J. and D. Zillmann, eds., **Perspectives On media Effects,** Hillsdale, N.J.: Lawrence Erlbaum, pp. 17 – 40.

Hawkins, Robert et al., 1987, "Searching for Cognitive Processes in the Cultivation Effect", Human Communication Research, vol. 13, No. 4, pp. 553 – 577. Hawkings, R.P. and S. Pingree, 1986, "activity in the Effects of Television on Children", in Bryant, J. and D. Zillmann., Cit., pp. 233 – 250.

التعليم بالملاحظة **Observational Learning** أو التعلم الاجتماعي **Social Learning** أو النمذجة وتغيير الاتجاهات **Attitude Changes** والاستثارة الفسيولوجية **Physiological Arousal** ، وأخيرا عمليات التبرير **Jusification Processes**[1] .

## ١ - التعلم بالملاحظة أو التعلم الاجتماعي والنمذجة Modeling :

ويقرر نموذج التعلم بالملاحظة أو التعلم الاجتماعي الذي يعد ألبرت **Albert Bandura** أشهر رواده[2] أن الاطفال (والبالغين) يتعلمون من وسائل الإعلام السلوك العدواني بنفس الطريقة التي يتعلمون بها المهارات المعرفية والسلوكية من الوالدين والاسرة والرفاق والمدرسة وغيرها من مؤسسات التنشئة الاجتماعية .

ولو أننا ينبغي عند مناقشة النمذجة أو التعلم الاجتماعي أن نميز بين اكتساب سلوك جديد **Acquision** وقبول ذلك السلوك . بمعنى آخر ينبغي أن نميز بين القدرة على تكرار سلوك كان غير مألوف من قبل (إكتساب) وبين القيام الفعلي بسلوك هو نفس السلوك أو يشبه السلوك الذي تم ملاحظته (قبول) . فامكانية اكتساب سلوك ما من خلال الملاحظة وإستبقائه **Retain It** دون القيام به مباشرة أو أدائه على الاطلاق لها مغزاها في فهم تأثيرات وسائل الإعلام . فاذا استطاع الفرد أن يكتسب سلوكا جديدا خلال التعلم الاجتماعي من وسائل الإعلام فلديه القدرة على إعادة إنتاجه خصوصا اذا وجد نفسه في موقف يجعل هذا الانتاج أو الأداء يبدو مفيدا أو مرغوبا فيه - على سبيل المثال موقف يشبه الموقف الذي تم تعلم السلوك فيه . ومن هنا ، فمع أن تعلم سلوك ما لا يعني بالضرورة أداء هذا السلوك إلا أنه يزيد من احتمال هذا الأداء الذي كان غير محتمل بدون هذا التعلم .

فالتعلم الاجتماعي يغير في إطار السلوكيات المحتملة التي قد يبديها الطفل إذا تمت اثارته أو وقع تحت ضغط ما خصوصا في موقف جديد عليه . ولهذا فيمكن أن نتصور عملية التعلم الاجتماعي أو النمذجة على أنها مراحل ثلاث[3] :

---

(1) Lowery, Shearon A. and Melvin L. Fleur, 1988, Op. Cit., p. 361.

(2) Bandura, Albert, 1965, "Influence of Models: Reinforcement Contingencies on the Acquision of Imitative Responses", Journal of Personality and Social Psychology, vol. 1, pp. 589–595.

(3) Lowery, Shearon and Melvin De Fleur, 1988, Op. Cit., p. 305.

١ ـ في الأولى يتعرض الفرد **Is Exposed** لسلوك فرد آخر سواء كان هذا الآخر نموذجا حيا مثل التعرض المباشر لسلوك الآخرين أو نموذجا رمزيا **Symbolic Model** كما هو الحال في السلوكيات المعروضة في وسائل الأعلام .

٢ ـ في الثانية يكتسب الفرد السلوك ويصبح قادرا على أداء ما سمع أو شاهد أو قرأ .

٣ ـ في الثالثة يقبل الفرد أو يرفض النموذج السلوكي الذي اكتسبه وأصبح قادرا على آدائه كمرشد لسلوكه أو أفعاله هو .

واذا طبقنا ذلك على العنف في وسائل الإعلام نجد أن الجمهور المستقبل يتعرض له (المرحلة الأولى) وأن هذا الجمهور وبالذات الاطفال والمراهقين يتعلمون بلا شك من هذا التعرض وما كان غائبا هو دراسة الظروف التي تجعل الجمهور يقبل ذلك السلوك حتى جاء بندورا **Bandura** [1] وأجرى دراسة معملية أثبت فيها أن مجموعة الأطفال التي شاهدت فيلما تليفزيونيا تقوم فيه عارضة أزياء ببعض الأعمال العدوانية ضد دمية دون أن تعاقب على ذلك ومجموعة الأطفال التي شاهدت نفس العارضة ترتكب تلك الأعمال العدوانية ضد الدمية وتكافأ عليها . . هاتان المجموعتان من الأطفال قلدتا نفس السلوك أثناء ساعات اللعب . أما مجموعة الأطفال التي شاهدت عارضة الازياء تعاقب على أعمالها العدوانية ضد الدمية فقد أبدت استجابات عدوانية وتقليدا أقل بكثير في ساعات اللعب وهي نتيجة لا تحتاج إلى مزيد من الايضاح . ومع ذلك فحينما طلب الباحث من كل المجموعات فيما بعد أن يقلدوا ما أمكنهم من الأفعال العدوانية لعارضة الازياء **Reproduce As Many Acts** وكانت هناك مكافأة على ذلك أبدت كل المجموعات درجة عالية ومتشابهة من التعلم . وهو ما يثبت بما لا يدع مجالا للشك بأن الاطفال تتعلم السلوك العدواني من العنف الاعلامي .

هذه التجربة وغيرها كثير ركزت على نوعين من التأثير للعنف في مضامين الإعلام على سلوك الجمهور المستقبل . هذا النوعان هما : التقليد **Imitation** والتحريض **Instigation** [2]

والتقليد هو الأثر الذي يحدث حينما ينسخ الطفل أو البالغ نفس ما شاهده أو سمعه وقرأه . أما التحريض فهو ما يحدث حينما يتبع التعرض للعنف تزايد عام في النزعة العدوانية للفرد

---

(1) Bandura, Albert, Op, Cit., p. 590–595.

(2) Lowery, S. and M. De Fleur, Op. Cit., p. 306.

المستقبل للرسالة . فحينما يشاهد طفل مباراة في الملاكمة على شاشة التليفزيون قد يقدم على القيام بعدد أكبر من الأفعال العدوانية التي قد لا تشبه السلوك الذي شاهده على الشاشة . معنى ذلك أن السلوك الذي يبديه الطفل بعد التعرض قد يختلف في طبيعته ودرجته عن السلوك الذي شاهده أو تعرض له لكن الاتجاه العام هو تزايد أعداد ودرجات الأعمال العدوانية في هذا السلوك .

ولكن هل يقلد كل الأطفال أو البالغين سلوك كل النماذج العنيفة التي يتعرضون لها في وسائل الإعلام ؟ بالطبع لا . فتقليد السلوك العدواني يعتمد إلى حد كبير على :

أ ـ درجة توحد المستقبل مع النموذج الرمزي **Receiver's Identification With the Symbolic Model** الذي يعرض في وسائل الاعلام .

ب ـ مدى إدراك الجمهور المستقبل لامتلاك النموذج الذي يتم تقليده لخصائص واقعية وذات قيمة **Pereived Realistic and Valued Characteristics** .

ج ـ مدى تطابق إشارات الموقف **Cues** الذي تم فيه تعلم السلوك مع الموقف الذي يجد فيه المستقبل نفسه . فاذا وجد الفرد نفسه في موقف مماثل للموقف الذي شاهد فيه النموذج وقدم هذا الموقف حلا للمشكلة التي يواجهها المتعرض فان هناك احتمالا أكبر لاسترجاع السلوك الذي تم تعلمه والاقدام عليه . وهنا نتذكر حالة حادثة بوسطن التي أشعلت فيها عصابة من الصبية النار في الفتاة حينما توفر لها نفس الموقف الذي شاهدته في الفيلم التليفزيوني(١) .

## ٢ ـ تغيير الاتجاهات **Attitude change** :

الطريقة الثانية التي يعتقد الباحثون أن العنف الإعلامي يؤثر بها على سلوك الجمهور وبالذات جمهور الاطفال والمراهقين هي التأثير على اتجاهاتهم **Favorable Attitudes** نحو العنف لدى أفراد ذلك الجمهور وعلى الأخص الأطفال والمراهقين(٢) . ويميل المشاهدون الدائمون للتليفزيون بشكل عام إلى اظهار اتجاه أكثر إيجابية **More Positive Attitude** نحو

---

(1) Ibid., p. 362.

(2) Heusmann, L.R., L.D. Eron, R. Klein, P. Brice, and P. Fischer, 1981, "Mitigating the Imitation of Aggressive Behaviors", Technical Report, Chicago: Department of Psychology, University of Illinios.

العنف من ذلـك الذي يبديه المشاهدون النادرون للتليفزيون . ذلك أن المشاهدين الدائمين يدركـون السلوك العـدواني على أنه عادي **It Is the Norm** [1] وهو ما يسميه البعض تقليل حساسية الجمهور نحو العنف **Desensitization** . ذلك أن المشاهدين الدائمين للتليفزيون أكثر قابلية لتصور الواقع على أنه أقرب إلى الواقع التليفزيوني **Reality Is More Like Tv Reality** [2] ، صحيح أن بعض الدراسات أثبتت أن مشاهدة العنف تؤدي إلى اتجاه أكثر رفضا للعنف إلا أن الغالبية العظمى من البحوث أثبتت أن الاتجاه العام هو أن التعرض للعنف بشكل مستمر يؤثر على اتجاه المشاهدين بزيادة قبولهم للعنف على أنه طبيعي . المشكلة الرئيسية هنا هي أن الاتجاهات في بعض الأحيان قد تتناقض في طبيعتها مع طبيعة السلوك .

فالاتجاه المواتي للعنف لدى الطفل أو المراهق لا يتبعه بالضرورة سلوك عدواني ، ومازلنا في حاجة إلى دراسات تؤكد أو تنفي مدى إتساق الاتجاه مع السلوك لدى الفرد .

## ٣ ـ الاستثارة الفسيولوجية والانفعالية

## Physiological and Emotional Arousal :

يفترض بعض الباحثين[٣] أن عمليات الاستثارة الانفعالية والفسيولوجية هي العامل الوسيط **Interveing Factor** بين التعرض للعنف وتغيير الاتجاهات نحوه . ومع أن بحث تأثير التعرض للعنف على عمليات الاستثارة شهد تزايدا ملحوظا في السبعينات[٤] والثمانينات نتيجة لتطور المفاهيم النظرية وأدوات القياس في بحث ذلك الموضوع ، فمازالت هناك درجة كبيرة من الغموض والاختلاط حول طبيعة تأثير التعرض للعنف الإعلامي على عمليات الاستثارة أو الاثارة الفسيولوجية والانفعالية . فبينما قرر بعض الباحثين أن العنف الإعلامي وبالذات في التليفزيون يجعل الأطفال نشيطين بشكل مفرط أو مرضي **Hyperactive** وذلك بشحنهم الزائد بالمثيرات **Overloading Them With Stimulation** ، خلص باحثـون آخرون إلى أن العنف في التليفزيون «يخدر **Anesthetize** » الأطفال بشحنهم بالاثارة[٥]

(1)Lowery, S. and M. De Fleur, Op. Cit., p. 363.

(2) Hawkins, R., S. Pingree and I. Adler, 1987, Op. Cit., p. 573.

(3) Ibid., pp. 363-364.

(4) Ibid, pp. 376-377.

(5) Cline, V.B., R.G. Croft and S. Courrier, 1973, "Desensitization of Children to Television Violence", Journal of Persornality and Social Psychology, vol. 27, pp. 360-365.

ويتم قياس الاستثارة بطرق مختلفة طبقا للاطار النظري الذي يستخدمه الباحث. ومع ذلك فإن غالبية البحوث حددت الاستثارة بأنها « القوة المتكاملة **Unitary Force** التي تستحث **Energizes** وتزيد حدة **Intensifies** أي سلوك توجه وسيلة مستقلة **Means Behavior That Receives Direction by Independent**[١].

معنى ذلك أن الاستثارة يمكن تصويرها على أنها حالة منشطة لسلوك وليست مرشدة لهذا السلوك **An Energizer, Not A guide to Behavior**.

وبشكل عام ، تشير البحوث إلى أن التعرض لوسائل الإعلام يقلل من حالة الاستثارة التي قد يشعر بها المتعرض سواء كانت استثارة فسيولوجية أو انفعالية . فالحياة اليومية للانسان العصري تشحنه بالاثارة ولهذا فقد يعرض نفسه لوسائل الإعلام في محاولة لتفريغ تلك الشحنة أو للتقليل منها . على أن محتوى الرسالة الإعلامية هو الذي يحدد اذا ما كانت ستؤدي الى تقليل حالة الاثارة أو التوتر لدى المستقبل أو تزيد منها أو قد تخلقها لدى المستقبل غير المتوتر . فقد توصلت دراسة تعرضت فيها مجموعة من البالغين المتوترين لبرنامج عنيف في التليفزيون بينما تعرضت مجموعة أخرى مماثلة في الخصائص لبرنامج خال من العنف إلى أن البرامج العنيفة تزيد من استثارة المستقبل المتوتر بينما أبدى المستقبلون المتوترون الذين تعرضوا لبرنامج محايد ، أي لا صلة له بالعنف درجة أقل من التوتر والعدوانية[٢] . وأشارت دراسة أخرى إلى أن التعرض للعنف يؤدي إلى استمرار حالة النزوع للعدوان الموجود لدى المتعرض بالفعل[٣] **"Media Violence Tends To Perpetuate an Existing Propensity for Aggression"**. اذا كان ذلك صحيحا لماذا إذن يلجأ الجمهور المستقبل إلى التليفزيون أو الى الصحيفة من أجل الاسترخاء اذا كانت هناك محتويات في الوسيلتين قد تزيد من حالة التوتر ؟ دلت البحوث الحديثة على أن المستقبلين الذين يشعرون بحالة من الاستثارة **Arousal** ينتقون من مضامين وسائل الإعلام المواد التي لا تؤدي إلى استمرار حالة التوتر أو المحافظة على درجتها[٤] .

---

(1) Zillmann D., 1982, "Television Viewing and Arousal", in Pearl, D., L. Bothilet and J. Lazar, Op. Cit., Vol. II, p. 53.

(2) Zillmann, D. and R.C. Johnson, 1973, "Motivated Aggressiveness Perpetuated by Exposure to Non-Aggressive Films and Reduced by Exposure to Aggressive Films", Journal of Research in Personality, Vol. 7, pp. 261–267.

(3) Donnerstein, E., M. Donnerstein and G. barret, 1976, "Where is the Faciliation of Media Violence: The Effects of Non–Exposure and Placement of Arousal", Journal of Research in Personality, Vol. 10.

(4) Lowery, S. and M. De Fleur, Op. Cit., p. 378.

ما علاقة حالة الاستثارة **Arousal** بالسوك ؟

دلت البحـوث على أن التأثير السلوكي العاجل والمباشر للعنف الإعلامي قدلا يأتى من مضمون العنف نفسه بل قد يكون سببه هو حالة الاستثارة التي حافظ عليها التعرض للعنف[1] .

ماذا عن فرضيـة التطهير**Catharsis Hypothesis** التي تقول ان التعرض للعنف في وسـائـل الإعلام يؤدي إلى تقليل حالة العدوانية لدى المتعرض ذلك أن التعرض يعد نوعا من المشاركة في العنف وبالتالي ينفس عن الفرد دون اللجوء إلى المشاركة الفعلية في العنف . حقيقة الأمر أن هذه الفرضية تعارضها كل البيانات التي جمعتها كل البحوث في الموضوع سواء كانت بحوثا تجريبية أو مسوحا ودراسات حقلية . ولهذا فليس هناك أي دليل على صحتها .

## ٤ ـ عمليات التبرير **Justification Processes** :

وطبقا للفرض الذي يقف خلف تلك العمليات فان الأفراد ذوى النزعة العدوانية يرغبون في التعرض للمضامين العنيفة في وسائل الإعلام ويفضلونها ، ويبحثون عنها ، في تلك الوسائل لأنهم يستخدمونها لتبرير سلوكهم العدواني على أنه سلوك سوى عاد طالما أنه متعدد النظائر في وسـائـل الاتصـال الجماهيري . وتلك العمليات أشبه بتغيير الاتجاهات لكنها تعمل في الاتجاه المعـاكس . فالعنف في وسـائـل الإعـلام لا يسبب السلوك العـدواني لدى المستقبل طبقا لهذا الفرض ، بل ان الشخص العدواني هو الذي يبحث عن العنف ويستهلكه . . والعنف الإعلامي بذلك لا يسبب السلوك العدواني بل ينتج عنه بالنسبة للفرد المستقبل له[2] . فالسلوك العدواني لدى الفرد يؤدي إلى خلق شعور بالذنب **Guilt** . وهذاالشعور بالذنب يتم تخفيفه بالتعرض لوسائل الإعلام التي تتعامل مع العنف وتعطي له بروزا **Salience** وتكرره في رسائلها بشكل يجعله عاديا **Normalize** .

هذا الفرض إذن يقول إن الطفل أو المراهق أو البالغ ذا السلوك العدواني**Who Behaves Aggressively** لم يتعلم العنف من وسائل الإعلام وانما يتعرض للعنف الإعلامي حتى

---

(1) Tannebeaum, P.H. and D. Zillmann, 1975, "Emotional Arousal in the Faciliation of Aggression through Communication", in Berkowitz, L., ed., **Advances in Experimental Social Psychology,** Vol. 8, New York: Academic Press.

(2) Lowery, S. and M. De Fleur, Op. Cit., p.364.

يبرر عنفه هو أو عدوانيته هو . فما صحة هذا الفرض ؟ ان البحوث التي حاولت اختبار هذا الفـرض تعد نادرة . ولهذا فليس بالامكان الآن ان نؤكد صحة هذا الفرض أو ننفيه بناء على التراث العلمي المتوفر حاليا .

ويعد هذا المجال من المجالات البحثية التي ينبغي أن يتجه إليها باحثو الاتصال بالدراسة والتمحيص .

## ثانيا : وسائل الإعلام والسلوك المقبول اجتماعيا **Prosocial Behavior** :

إذا كانت السبعينات والعقود الثلاثة السابقة عليها قد شهدت تركيزا على دراسة التأثير السلبي لوسائل الإعلام في خلق أو تدعيم أنماط السلوك غير المقبولة اجتماعيا وبالذات السلوك العدواني من جهة ودراسة تأثير تلك الوسائل في السلوك السياسي للمستقبلين الناخبين أو في سلوك مستهلكي السلع والخـدمـات **Consumer Behaviors** من جهـة أخرى ، فإن الثمانينات شهـدت إجراء عدد لا بأس به من البحوث حول تأثير تلك الوسائل في خلق أو تدعيم أنماط السلوك المقبولة اجتماعيا بين المستقبلين المتعرضين بكثافة لتلك الوسائل .

فإذا قبلنا بحقيقة أن التعرض لوسائل الإعلام قد ينتج سلوكا غير مقبول اجتماعيا فإن من المعقول أن نقبل افتراض أن التعرض لتلك الوسائل يمكن أن ينتج أو يساهم في انتاج سلوك مقبـول اجتماعيا تبعا لمضمون الرسائل التي تنشرها أو تبثها . فوسائل الإعلام يمكن أن تقدم لجماهـيرها نطاقا واسعا من خبرات التعلم بالملاحظة أو النمذجة يمتد من السلوك غير المقبول اجتماعيا إلى ذلك السلوك المرغوب فيه من قبل المجتمع .

وقد عرف فيليبيه راشتون **Philipe Rushton** السلوك المقبول اجتماعيا بانه (1)« السلوك الذي يؤديه الفرد ويبدو مرغوبا فيه من جانب المجتمع **Socially Desirable** أو يمكن أن يفيد منه بطريقة أو بأخرى فرد آخر أو المجتمع بشكل عام» . وقد اقتصر تحليلنا على دراسة تأثير وسائل الإعلام في خلق أو تدعيم أربعة أنماط فقط من السلوك المقبول إجتماعيا على النحو التالي :

---

(1) Rushton, Philipe Z., 1982, "Television and Prosocial Behavior", in Pearl, D., L. Bouthilet, and J. Lazar, Op. Cit., vol. II. p. 249.

### أ ـ الايثار **Altruism** : أو سلوك المشاركة **Sharing Behavior** ، والتعاون **Cooperation** ، وسلوك المساعدة **Helping Behavior** :

تتفق الـدراسـات التي بحثت تأثير التعرض لوسائل الإعلام على خلق أو تدعيم سلوك الإيثار على أن الاطفال الذين تعرضوا لهذا النمط من السلوك في وسائل الإعلام أظهروا درجة أعلى من الإثار في سلوكهم من أولئك الذين لم يتعرضوا لنفس الرسائل ، أو تعرضوا لرسائل تتبنى سلوكا عكس الايثار ، أي سلوكا تبدو فيه درجة عالية من الانانية **Selfishness** .

ففي مجموعة من التصميات التجريبية ـ على سبيل المثال ـ تم تعريض عدة مئات من البنين والبنات الذين يتراوح عمرهم بين السادسة والتاسعة لبرنامج تليفزيوني كانت الشخصية الرئيسية فيه طفلا يلعب مباراة في البولينج مع مجموعة من اقرانه ثم يفوز ويحصل على بعض شهادات الهدايا **Gift Certificates** . بعد ذلك تم تقسيم الأطفال عشوائيًا إلى مجموعتين وتعريض المجموعة الأولى لبقيـة الـبرنـامج وفيها يقوم الطفل الذي يكسب مباراة البولينج بالتبرع بما كسبه لأحد المشروعات الخيرية . أما المجموعة الثانية فتتعرض لجزء ثان مختلف من البرنامج لا يقوم فيهالطفل البطل بالتبرع بما كسب . وفي النهاية تتم ملاحظة سلوك المجموعتين في موقف مشابه لما شاهدوه في الـبرنامج يكسبون فيه بعض الأموال لتحديد مقدار ما يتبرعون به لأعمال الخير . وأشارت النتائج إلى أن الأطفال قد تأثروا بشكل واضح بما شاهدوه في البرنامج وأن نمذجة سلوك الايثار قد ظهرت بشكل واضح . فالأطفال الذين شاهدوا الطفل البطل يتبرع بما كسب تبرعوا بمبالغ أكبر كأفراد وكجماعة في حين أن الأطفال الذين شاهدوا نموذجا لسلوك أناني كانوا أقل ايثارا وأميل إلى الانانية(1) .

وقـد أعيـد إثبـات نفس النتـائـج في عدة دراسات أخرى استخدمت نفس الاجراءات المنهجية . فقد توصلت احدى الدراسات إلى أن الأطفال قد تأثروا بالنماذج الإعلامية السلوكية وذلـك باظهـار درجة أعلى من سلوك المشاركة باقتسام الحلويات والنقود التي كانت لديهم مع الأطفال الآخرين .

على ان النقد الأساسي الذي وجه لمثل تلك الدراسات هو أنها توصلت إلى نتائجها في بيئة معملية وأن تلك النتائج قد لا تكون هي نفسها التي يتم الوصول اليها في بيئة المنزل أو الحياة اليومية الطبيعية .

---

(1) Bryan, J. H., 1975, "Children's Cooperation and Helping Behavior", in Hetherington, E.M., ed., **Review of Child Development Research,** Vol. 5, Chicago: University of Chicago Press.

ومع ذلك فقد أجريت ثماني دراسات[١] تناولت بحث العلاقة بين التعرض لنماذج سلوكيات الايثار في وسائل الإعلام ودرجة التدعيم لنفس السلوكيات لدى المتعرضين في الواقع ، وفي حين لم تكن النتائج بنفس الوضوح والقطع Clear - Cut الذي ظهر في نتائج الدراسات المعملية الا أن اجمالي تلك النتائج يؤيد النتيجة الرئيسية التي تم التوصل اليها في المعمل وهي أن سلوك الايثار يمكن تعلمه وتقليده أو اعادة انتاجه من النماذج التي يتم عرضها في وسائل الإعلام وبالذات التليفزيون .

## ب ـ السلوك الودي Friendly Behavior :

دلت كل الدراسات السبع التي تناولت علاقة التعرض لوسائل الإعلام بخلق أو تدعيم السلوك الودي نحو الآخرين ، وكلها أجريت على أطفال في سن ما قبل المدرسة ، أن المحتوى التليفزيوني الذي يبر ز نماذج من السلوك الودي بشكل صريح أو ضمنى مفهوم للأطفال قد أدى إلى تزايد السلوك الودى للأطفال المتعرضين نحو أطفال الأقليات العرقية الأخرى[٢] . فقد أظهرت دراسة أجريت في كندا على مجموعة من الأطفال البيض الناطقين بالانجليزية انهم أبدوا درجة أعلى من التفضيل للعب مع أطفال الأقليات غير البيضاء بعد مشاهدة أجزاء من برنامج شارع السمسم Seasme Street تصور أطفالا بيضا يلعبون مع أطفال من اقليات عرقية غير بيضاء . في حين لم تبد مجموعة أخرى من الأطفال لها نفس الخصائص لم تتعرض للبرنامج مثل هذه الدرجة من التفضيل[٣] .

وتوصلت دراسة مسحية [٤]إلى ان الأطفال من ذوي الميول الانعزالية في الحضانة يؤدي تعرضهم لبعض المواد التليفزيونية التي تظهر التفاعل مع الاقران على أنه سلوك يستحق المكافأة إلى ابداء درجة أعلى من التفاعل . وقد وصف البعض نتائج تلك الدراسة المسحية بأنها درامية .

---

(1) Rushton, J.P. and D. Owen, 1975, "Immediate and Delayed Effects of TV Modeling and Preaching on Children's Generosity", British Journal of Social and Clinical Psychology, Vol. 14, pp. 309-310.

(2) **Lowery, S. and M. De Fleur, Op. Cit., P. 370.**

(3) Gorn, G.J. M.E. Goldberg and R.N. Kanungo, 1976, "The Role of Educational Television in Changing the Intergroup Attitudes of Children", Child Development, Vol. 47, pp. 277-280.

(4) O'Conner, R.D., 1969, "Modification of Social Withdrawal Through Symbolic Modeling", Journal of Applied Behavior Analysis, Vol. 2, pp. 15-22.

فقد زاد معدل التفاعل لدى مجموعة الأطفال التي تعرضت للبرنامج من تفاعل واحد في اليوم إلى اثنى عشر تفاعلا بعد التعرض . ولم تظهر المجموعة الضابطة التي لم يتم تعريضها للبرنامج أية زيادة في عدد تفاعلاتها مع الأطفال الآخرين (١) .

## ج - ضبط النفس Self - Control :

أثبتت التجارب المعملية أن مضامين وسائل الإعلام يمكن أن تؤثر على قدرة الطفل على ضبط النفس . وقد استخدمت تلك التجارب مواد تليفزيونية لدراسة أو وصف مظهر أو آخر من مظاهر ضبط النفس . فقد صممت احدى تلك الدراسات لفحص علاقة مضامين وسائل الإعلام بقدرة الأطفال على مقاومة الاغراء Resistance to Temptation (٢) وذلك بوضع مجموعة من الأطفال في الخامسة من عمرهم داخل حجرة كبيرة ووضع قاموس لغوي ومجموعة من لعب الأطفال معهم في نفس الحجرة . وقيل للأطفال ان بامكانهم استخدام القاموس في اللعب بالنظر إليه لمعرفة معاني الكلمات أو مشاهدة الصور التي يتضمنها القاموس وهو عمل لايعد بحال مفضلا من جانب أطفال في الخامسة من عمرهم . وفي نفس الوقت قيل لهم إنه غير مسموح لهم بالاقتراب من لعب الأطفال الموجودة معهم في نفس الحجرة . بعد ذلك تم تقسيم الأطفال إلى ثلاث مجموعات . تم تعريض المجموعة الأولى منها إلى برنامج تليفزيوني يظهر فيه طفل وأمه إلى جواره يلعب بلعب أطفال مماثلة للعب التي كانت بالحجرة (أي نموذج التشريط الجزائي (Mo-del-Rewarded Conditioning) بينما لم تتعرض المجموعة الثانية إلى أي برنامج . في حين تم تعريض المجموعة الثالثة إلى برنامج تليفزيوني يظهر فيه طفل يلعب بنفس اللعب ولكن يتم معاقبته بالتوبيخ Scolding (أي نموذج التشريط العقابي Model-Punished Condit-ioning ) بعد ذلك ترك كل طفل وحده في الغرفة وسجل الباحثون من مكان لايراهم فيه الطفل قياسهم للوقت الذي أمضاه الطفل في اللعب باللعب الممنوعة والوقت الذي استغرقه كل طفل في مقاومة الاغراء قبل أن يلعب باللعب الممنوعة . وقد أبدى الأطفال الذين شاهدوا النموذج التليفزيوني يعاقب على سلوكه في اللعب بالممنوع درجة أعلى من المقاومة للاغراء وسجلوا وقتاً أطول قبل الاستسلام للاغراء وقضوا وقتاً أقل في اللعب بالممنوع وهي نتيجة متوقعة . بل ان

---

(1) Lowery, S. and M. De Fleur, 1982, Op. Cit., p. 370.

(2) Dominick, Joseph R.. 1987, **The Dynamics of Mass Communication,** New York: Random House, p. 540.

بعض اطفال هذه المجموعة قاوموا الاغراء طول الوقت ولم يقتربوا من اللعب الممنوعة . وكما هو متوقع قضى الاطفال الذين شاهدوا النموذج يكافأ على اللعب بالالعاب الممنوعة أطول وقت في اللعب بالممنوع .

## د ـ سلوك الأطفال والبالغين في مواجهة مشاعر الخوف : Effects of Showing People Coping With Fears

أشارت أربع عشرة دراسة إلى قدرة بعض المضامين الإعلامية على تخفيف مشاعر الخوف وتعـديلهـا **To Modify Fears** لدى الجمهـور المستقبل لتلك المضامين . وقد أجريت عدة دراسات على مبحوثين من فئات عمرية متنوعة . فقد أثبتت دراسة رائدة[1] أن وسائل الإعلام يمكن أن تساعد الأطفال في التغلب على بعض مشاعر الخوف المرضي مثل الخوف من طلاب **Dog Phobias** . وأثبتت دراسـات أخرى قدرة وسائل الإعلام على تخفيف مشاعر الخوف المرضي من زيارة طبيب الاسنان **Dentophobia** لدى الأطفال ، في حين توصلت دراسات من نوع ثالث إلى أن للتليفزيون قدرة على تخفيف مشاعر الخوف من الثعابين لدى المراهقين والبالغين[2] .

هذه النتـائج بالطبع تعد درامية بشكل كبير وتثير الكثير من الجدل خصوصا انها تنسب لوسائل الإعلام القدرة على تغيير السلوك سواء كان تغييرا كبيرا أو طفيفا . والمعروف أن معظم البحوث في مجال التأثير السلوكي لوسائل الإعلام تؤكد على أن قدرة تلك الوسائل على تدعيم **Reinforcement** أنماط السلوك الموجودة بالفعل تفوق قدرتها على خلق انماط جديدة ، وأن قدرتها على خلق أنماط جديدة تفوق بلا شك قدرتها على تعديل أو تغيير تلك الأنماط . فليس هناك أصعب على وسائل الإعلام من التغيير السلوكي . وهذه النتائج تعد درامية أيضا اذا عرفنا أن تغيير السلوك يتطلب جلسات عديدة من العلاج النفسي المكثف من علماء الطب والعلاج النفسي !![3] .

---

(1) Bandura, A. and F.L. Menlove, 1968, "Factors Determining Vicarious Extinction of Aviodance Behavior Through Symbolic Modeling", Journal of Personality and Social Psychology, Vol, 8, pp. 99-108.

(2) Bandura, A., E.B. Blanchard and D.E. Mott, 1969, "the Relative Efficacy of Desensitization and Modeling Approaches for Inducing Behavioral, Affective and Attitudinal Changes", Journal of Personality and Social Psychology, Vol. 13, pp. 173-199.

(3) Dominick, 1987, Op. Cit., p. 540.

بعد هذا العرض المفصل لنتائج تحليل المستوى الثاني ومناقشتها يصبح من الضروري التأكيد على الملاحظات التالية :

١ ـ ان معظم بحوث الإعلام حول التأثيرات السلوكية لوسائل الإعلام تركز بشكل أساسي على دراسة تلك التأثيرات في سلوك فئتين أساسيتين من فئات جماهير تلك الوسائل وهما : الأطفال سواء من كانوا في سن ما قبل المدرسة **Preschoolers** أو من كانوا في سن المدرسة الابتدائية **Grade schoolers** ، ثم المراهقون **Adolescents** .

٢ ـ منذ بداية الستينات وحتى النصف الثاني من الثمانينات من هذا القرن دارت معظم الدراسات بشكل عام حول تأثير وسيلة واحدة هي التليفزيون . وكان موضع الدراسة هو المواد الترفيهية والدرامية في هذه الوسيلة . معنى ذلك أن المواد الاخبارية أو مواد وبرامج الشئون العامة لم تحظ بإهتمام كاف من الباحثين . وكان المنطق الذي يقف خلف هذا التركيز على المواد الترفيهية والدرامية في التليفزيون بالذات هو أن ما ينبغي دراسته هو أكثر المواد الإعلامية التي تتعرض لها أغلبية الجمهور معظم الوقت .

٣ ـ تركز معظم بحوث الإعلام المتعلقة بالتأثير السلوكي حتى عام ١٩٨٦ على التأثير السلبي لوسائل الإعلام المتمثل في خلق وتدعيم أنماط السلوك غير المقبولة اجتماعيا **Antisocial Behaviors** وبالذات تأثير التعرض للعنف في وسائل الإعلام على خلق وتدعيم أنماط السلوك العدواني للمتعرضين بكثافة للمضامين العنيفة . وأثبتت الدراسات المعملية بما لا يدع مجالا للشك وجود علاقة سببية بين التعرض للعنف وزيادة وتدعيم السلوك العدواني للمتعرض . كما أثبتت الدراسات الحقلية وجود علاقة إرتباط ايجابي بين التعرض للعنف في وسائل الإعلام وتزايد اتجاهات السلوك العدواني وتدعيمه لدى المتعرضين بكثافة لهذا النوع من المضمون .

٤ ـ اذا كان الأمر كذلك فهل نتخذ الاجراءات التي تمنع ظهور المضامين العنيفة في وسائل إعلامنا ؟ بالطبع لا . فالعنف الذي يعكس الصراع الإنساني فضلا عن كونه جزءاً أساسياً من الفن الإعلامي وبالذات فن الدراما التليفزيونية فهو جزء من الحياة الإنسانية ذاتها . والمشكلة الأساسية ليست هي العنف الذي يعكس الصراع الانساني الذي لا يخلو منه عصر ، ولا مكان يقطنه إنسان . بل ان المشكلة هي العنف التجاري **Commercialized Violence** . العنف الذي يتم تعليبه في وسائل الإعلام ليساعد في بيع محتوى تلك الوسائل كسلعة **Violence as Commodity** . المشكلة هي في العنف الذي يتم تعليبه وتغليفه في وسائل الإعلام وتقديمه للجمهور على انه الواقع . . العنف الذي يشوه الواقع ويقود إلى تشويه ادراكات الجمهور الذي

يعيش في هذا الواقع ويعايشه . المشكلة هي في تقديم العنف في وسائل الإعلام لمجرد الاثارة والتسلية . ذلك أن مثل هذا العنف قد ينقلب في نهاية التسلية والاثارة إلى واقع . . وواقع مؤلم .

٥ ـ ان علاقة مضامين وسائل الإعلام بالسلوك المقبول اجتماعيا أصعب في الدراسة **More Difficult to Detect** وتبـدو اضعف من علاقـة تلك المضـامـين وبالذات المضامين العنيفة بالسلوك العدواني . ربما يكون السبب هو أن العنف يتم تقديمه في وسائل الإعلام بشكل مجسد وشديد الوضوح **Blatant** في حين أن المضامين التي تروج للسلوك المقبول اجتماعيا غالبا ما تكون أقل وضوحا وأكثر ضمنية **More Subtle** ويتم تقديم معظمها في شكل سلوك لفظي **Verbal Begavior** . ولهذا فنحن في حاجة إلى مزيد من البحوث في هذا المجال قبل أن نكون قادرين على تحسين أداء وسائل الإعلام في تحقيق أهداف التنمية في بلداننا النامية .

# REFERENCES


- Bandura, A., E.B. Blanchard and D.E. Mott, 1969, "Relative Efficacy of Desensitization, and Modeling Approaches for Inducing Behavioral, Affective and Attitudinal Changes", Journal of Personality and Social Psychology, vo. 13, pp. 173-199.
- Bandura, A. and D.L. Menlove, 1968, "Factors Determining Vicaruous Extinctions of Avoidance Behavior Through Symbolic Modeling", Journal of Personality and Social Psychology, vol. 8, pp. 99-108.
- Bandura, Albert, 1965, "Influence of Models: Reinforcement Contingencies on the Acquisition of Imitative Responses", Journal of Personaliry and Social Psychology, vol. 1, pp. 589-95.
- Becker, Lee B., 1989, "Secondary Analysis" in Stempel, Guido H. and Bruce H. Westley, eds., **Research Methods in Mass Communication,** Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall.
- Becker Lee B., Randy Beam, and John Russial, 1978, "Correlates of Daily Newspaper Performance in New England", Journalism Quarterly, vol. 55, pp. 100-108.
- Berelson, Bernard R., 1959, "The State of Communication Research", Public Opinion Quarterly, vol. 23, pp. 1-15.
- Bryan, J.H., 1975, "Children's Cooperation an Helping Behavior", in Hetherington, E.M., ed., **Review of Child Development Research,** vol. 5, Chicago: University of Chicago Press.
- Cantor, J. and G. Sparks, 1984, "Children's Fear Responses to Mass Media: Testing Some Piagetian Predictors", Journal of Communication, vol. 34, pp. 90-103.
- Chaffee, Steven H., "Television and Adolescent Aggressiveness", In Comstock, G., and E. Rubinstein, eds., 1971, **Television and Social Behavior,** vol. III: Televiosion and Adolescent Aggressiveness, Washington, D.C.: US Government Printing Office.
- Cline, V.B., R.G. Croft and S. Courrier, 1973, 'Desensitization of Children to Television Violence",Journal of Personality and Social Psychology, vol. 27, pp. 360-365.
- Comstock, G., et al., 1978, **Television and Human Behavior,** New York: Columbia University Press.

- Comstock, George and E.A. Rubinstein, (eds.), 1971, **Television and Social** Government Printing Office.
- DeFleur, Melvin and Everette Dennis, 1981, **Understanding Mass Communication,** Boston: Houghton Mifflin.
- Dominick, Joseph R., 1987, **The Dynamics of Mass Communication,** New York: Random House.
- Donnerstein, E., M. Donnerstein and G. Barret, 1976, "Where is the Facilitation of Media Violence: The Effects of Non-Exposure and Placement of Arousal", Journal of Research in Personality, vol. 10, pp. 241-267.
- Eckman, Paul et al., 1971, "Facial Expressions of Emotion While Watching Televised Violence as Predictors of Subsequent Aggression", in Comstock et al., **Television and Social Behavior,** vol. V: Television's Effects: Further Explorations, Washington, D. C.: US Government Printinf Office.
- Eron, E.D. and L.R. Huesmann, 1980, "Adolescent Aggression and Television", Annals of the New York Academy of Sciences, 347, pp. 319-331.
- Foulkes, David, E. Belvedere and Terry Brubaker, 1971, "Televised Content and Dream Content", in Comstock, R. and P. Murray, Op. Cit.
- Gerbner, George, L. Gross, M. Morgan and N. Signiorelli, 1986, "Living with Television: The Dynamics of the Cultivation Process", in Bryant, J. and D. Zillmann, (eds.), **Perspectives on Media Effects,** Hillsdale, N.J.: Lawrence Erlbaum, pp. 17-40.
- Gerbner, G., L. Gross M. Morgan and N. Signiorelli, 1980, "The Mainstreaming of America: Violence Profile No. 11", Journal of Communication, vol. 30, pp. 10-27.
- Gerbner, George and Larry Gross, 1976, "Living with Television: The Violence Profile", Journal of Communication, vol. 26, no. 2, pp. 173-199.
- Gerbner, George, 1971, "Violence in TV Drama: Trends and Symbolic Functions", in Comstock, G. and E.A. Rubinstein, eds. **Television and Social Behavior, vol. 1 Media Content and Control,** Washington, D.C.: US Government Printing Office.
- Ghigloine, Loren, ed., 1973, **Evaluating The Press: The New England Daily Newspaper Survey,** South Bridge, Ma.: Published by the editor.
- Hawkins, R. and S. Pingree, 1982, "Television's Influence on Social Reality" in Pearl, D., L Bouthilet and J. Lazar, Op. Cit., pp. 224-247.

- Huesmann, Rowell, 1982, "Television Violence and Aggressive Behavior", in Pearl, D., L. Bouthilet and J. Lazar, Op. Cit.
- Huesmann, L.R., L.D. Eron, R. Klein, P. Brice, and P. Fischer, 1981, "Mitigating the Imitation of Aggtessive Behaviors", Technical Report, Chicago: Department of Psychology, University of Illinios.
- Lefkowitz, Monroe M., et al., 1971, "Television Violence and Child Aggression: A Follow-up Study" in Comstock and Rubinstein, eds., **Television and Social Behavior,** vol. III, Television and Adolescent Aggressiveness, Washington, D.C.: US Government Printing Office.
- Liebes I. and E. Katz, 1986, "Patterns of Involvement in Television Fiction: A Comparative Analysis" European Journal of Communication, vol. 1, No. 2, pp. 151-172.
- Liebert, Robert M. and Robert Baron, 1971, "Television and Social Learning: Some Relationships Between Viewing Violence and Behaving", in Murray, Rubinstein, and Comstock, Op. Cit.
- Lowery, Shearon A. and Melvin L. DeFleur, 1988, **Milestones in Mass Communication Research, 2nd., New York: Longman, Inc.**
- **Lill, J., 1982, "The Social uses of Television" in Whitney, D.C. et al, Mass Communication Review Yearbook,** Beverly Hills: Sage Publications, pp. 397-409.
- McCarthy, E.D. et al., 1975, "Violence and Behavior Disorders", Journal of Communication, vol. 25, No. 4, pp. 71-85.
- McQuail, D., 1986, "Is Media Theory Adequate to the Chalenge of New Communications Technologies?" in Ferguson, M., ed., **New Communication Technologies and the Pubic Interest,** Beverly Hills: Sage Publications, pp. 1-17.
- Milavsky, Ronald J., Ronald Kessler, Horst Stipp, and William S. Rubens, 1982, "Television and Aggression: Results of a Panel Study" in Pearl, D. L. Bouthilet and J. Lazar, Op. Cit., pp. 138-157.
- Murray, J.P., 1972, "Television in Innercity Homes: Viewing Behavior of Young Boys", in Rubinstein, E.A., G.A. Comstock and J.P. Murray, (eds.), **Television and Social Behavior,** vol. 4, Television in Day-to-Day Life: Patterns of Use, Washington, D.C.: Government Printing office, pp. 345-394.

- Newcomb H., 1978, "Assessing the Violence Profile of Gerbner and Gross: A Humanistic Critique and Suggestion", Communication Research, vol. 5, No. 3, pp.
**Behavior,** vol. III: Television and Adolescent Aggressiveness, Washington, D.C.: 264-282.
O'Conner, R.D., 1969, "Modification of Social Withdrawal Through Symbolic Modeling", Journal of Applied Behavior Analysis, vol. 2, pp. 15-22.
Palmgreen, P. and J.D. Rayburn, 1985, "An Expectancy-Value Approach to Media Gratifications", in Rosengren, K.E. et al., **Media Gratification Research,** Beverly Hills: Sage Publications, pp. 61-72.
Pearl, David, Lorraine Bouthilet and Joyce Lazar, eds., 1982, **Television and Social Behavior: Ten Years of Scientific Progress and Implications for the Eighties,** vol. II, Washinfton, D.C.: Government Printing Office.
Rayburn, J.D. and P. Palmgreen, 1984, "Merging Uses and Gratifications and Expectancy - Value Theory", Communication Research, vol. 11, pp. 537-562.
Richardson, K. and J. Corner, 1986, "Reading Reception: Mediation and Transference in Viewers' Accounts of TV Programme", Media, Culture and Society, vol. 8, No. 4, pp. 485-508.
Rushton, Philipe Z., 1982, "Television and Prosocial Behavior", in Pearl, D., L. Bouthilet, and J. Lazar, Op. Cit., vol. II.
Rushton, P. and D. Owen, 1975, "Immediate and Delayed Effects of TV Modeling and Preaching on Children's Generosity", British Journal of Social and Clinical Psychology, vol. 14, pp. 309-310.
Schramm, Wilbur, Jack Lyle and Edwin B. Parker, 1961, **Television in the Lives of our Children,** Stanford Cal.: Stanford Univcersity Press.
Signiorelli, Nancy. Larry Gross and Michael Morgan, 1982, "Violence in Television Profeammes: Ten Years Later", in Parl, D. et al., Op. Cit.
Singer, J.L. and D.G. Singer, 1980, **Television, Imagination and Aggression: A Study of Preschoolers Play,** Hillsdale, N.J.: Erlbaum.
Snow, R.P., 1984, **Media Power,** Beverly Hills: Sage Publications.
Sprafkim, Joyce and Eli Rubinstein, 1979, "Children's Television Viewing Habits and Prosocial Behavior: A Field Correlational Study", Journal of Broadcasting, vol. 23, No. 3, pp. 265-276.
Tannebaum, P.H. and D. Zillmann, 1975, "Emotional Arousal in the Facilitation of Aggression through Communication", in Berkowitz, L., ed., **Advances in Experi-**

**mental Social Psychology,** vol. 8, New York: Academic Press.
- Wartella, E. et al., 1983, **Mass Communication Review Yearbook,** Beverly Hills: Sage Publications.
- Winick, Charles, ed., 1978, **Deviance and Mass Media,** Beverly Hills: Sage Publications.
- Wobor, J.M., 1978, "Televised Violence and the Paranoid Perception: The View from Great Britain", Public Opinion Quarterly, vol. 42, pp. 315-321.
- Zillmann, D. and J. Bryant, eds., 1985, **Selective Exposure to communication,** Hillsdale, N.J.: LEA.
- Zillmann, D., 1982 "Television Viewing and Arousal", in Pearl, D., L. Bouthilet and J. Lazar, Op. Cit., vol. II.
- Zillmann, D. and R.C. Johnson, 1973, "Motivated Aggressiveness Perpetuated by Exposure to Aggressive Films and Reduced by Exposure to Non-Aggressive Films", Journal of Research in Personality, vol. 7, pp. 261-267.

# المعوقات التي تواجه دور المرأة السعوديةفي التنمية
# دراسة مطبقة بمدينة مكة المكرمة

د . عواطف فيصل بياري
جامعة أم القرى

## المقــدمة :

منـذ بدايـة القـرن العشرين والمرأة السعودية ومؤيدوها من الرجال يكافحون من أجل حصولها على حقوقها ومساواتها بالرجل ، ايمانا بما لها من قدرات خلاقة وادوار مؤثرة في تطور المجتمـع والنهـوض به في مختلف المجـالات ، ولا شك ان الاهتـمام بالنهوض بها والعمل على مشـاركتها بايجابية في الانشطة العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها يدفع عملية التنمية الى الامام لتحقيق الرخاء والحياة الفضلى للجميع .

وأعطت المملكة في الأونة الأخيرة اهتماما بالغا بالمرأة السعودية ، فحصلت على مزيد من الفـرص في مجالات التعليم والعمـل ووضعت القـوانين لحمايتها وحماية الأسرة وقد واكب هذا الاهتمام اهتمام مماثل على الصعيد الدولي بدأ بنداء عالمي من هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٧٥ بالدعوة الى النهوض بالمرأة ثم عقد المؤتمر العالمي للمرأة عام ١٩٧٥ الذي كان نقطة تحول هامة على طريق النهوض بالمرأة ، اذ ان من نتائجه ان تكونت المجالات الاجتماعية والاقتصادية واللجنة التشريعية . . الخ .

ولقد أدركت كثير من البلدان النامية عندما حاولت ان تجند ثروتها البشرية وتستفيد منها من أجل نموها ، انها لا تستطيع ان نغض النظر عن نصف هذه الثروة البشرية الا وهي طاقة المرأة وجعل جميع البلدان العربية على وجه التقريب تعتمد على المرأة في اقتصادها القومي كسياسة وطنية عامة .

ومما لا شك فيه ان خروج المرأة العربية الى ميدان العمل واسهامها في شتى مجالات التنمية في العصر الحديث أصبح ظاهرة تسترعي الانتباه ، فضلا عن احاطة موضوع مساهمة المرأة في النشاط العام للمجتمع بالاعتراف بالكثير من التقدير والتشجيع ، وكذلك بالدعوة عن طريق المفكرين وادوات الاعلام وغيرها لحث المرأة على الأسهام في مشروعات وبرامج الخطط المختلفة للتنمية .

الا ان خروج المرأة السعودية الى ميدان التنمية واشتراكها في كثير من الانشطة ظاهرة جديدة في المجتمع السعودية ، اذ لم يكن من المألوف ان تخرج المرأة وتشق طريقها في مجالات التنمية ، فالمرأة التي تمثل نصف المجتمع وهي التي يقع عليها أساسا مهمة تربية النشء ظلت بعيدة عن ميدان العمل والانتاج ومجالات التنمية الأخرى أجيالا طويلة مقتنعة بتربية الصغار والاشراف على مجتمعها الكبير الذي لم يكن على دراية بكل ما يجرى به ، فما ان تهيأت لها فرص التعليم خلال العشرين سنة الأخيرة حتى أغتنمتها وقد ترتب على ذلك تغيير في وضعها الاجتماعي ودورها في الأسرة والمجتمع على السواء .

واندفعت نحو ميدان التنمية الشائعة ومارست الوظائف التي حددها لها المجتمع في اطار من تقاليده التي لا تتعارض مع تعاليم الشريعة الاسلامية ، وخروج المرأة الى ميدان التنمية لا يعنيها وحدها ولا تنعكس اثاره عليها بمفردها انما تنعكس على المجتمع على سعته .

لذا تهدف هذه الدراسة الى تحديد دور المرأة السعودية كطاقة بشرية في عمليات التنمية لاسيما وقد ثبت بالدليل العملي ان دور المرأة الاجتماعي والاقتصادي قد تحول تحولا كبيرا في بعض الدول وقد أشارت كثير من الدراسات التي أجرتها الهند وسيرالنكا ، وغانا عن المرأة في المجتمعات المحلية المختلفة ان الادوار الاقتصادية والاجتماعية التي تقوم بها المرأة في هذه المجتمعات لاسيما في الريف لا تنال التقدير الكافي[1] .

ولا شك ان الوضع الاجتماعي للمرأة في المجتمع السعودي يتصل اتصالا وثيقا بالتطور الحضاري وبالانماط الثقافية التي يمر بها المجتمع السعودي ، ولما كان المجتمع العربي السعودي يواكب حركات التغير المعاصرة في باقي المجتمعات فإن تغيره أصبح حقيقة واضحة جديرة بالدراسة ، خاصة بعد اكتشاف البترول في أواخر الثلاثينات من هذا القرن وأخذ المملكة بأسباب التعليم منذ بداية الستينات واستجابت الاسرة شأنها في ذلك شأن نظم النسق الاجتماعي الأخرى لهذا التغير .

وقد ساعد تعليم المرأة وخروجها الى ميدان العمل على تعدد دورها في مجالات التنمية ، وبدأت تظهر صعوبات التعارض ومحاولة التكيف بين أدوارها المختلفة ، وترتب على ذلك أهمية التناول العلمي لهذا الموضوع .

## الأهمية القومية لدراسة الموضوع :

أكد كثير من العلماء على أن دور المرأة في التنمية يغير من وضع المرأة التقليدي في المجتمع فبعد ان كان هذا الوضع يتسم بالخضوع والتبعية أدى العمل والمشاركة من جانب المرأة في شتى مناشط التنمية ، الى رفع مكانتها في الاسرة والمجتمع . واضافة أبعاد جديدة الى دورها .

ولاشك ان تطور المجتمع السعودي قد أسهم أسهاما مباشرا في تغيير الدور الوظيفي التقليدي للمرأة وذلك بوسائل شتى أولها تمكين المرأة من التعليم وقبول فكرة تعليمها العالي وحصولها على مؤهلات متخصصة ثم تقبل المجتمع لانشغالها ببعض المهن كالتدريس والطب وحصولها على مؤهلات متخصصة ثم تقبل المجتمع لانشغالها ببعض المهن كالتدريس والطب والرعاية الاجتماعية والتمريض ، والوظائف الادارية في مجالات التعليم ، كما فتح لها مجالات جديدة ، وقد بدأت حركة أشتغال المرأة السعودية في أعمال البنوك والاعلام ، ومازال التغيير يأخذ ابعاده المختلفة وخاصة وان المجتمع السعودي أخذ ينظر الى النساء على أنهن قوة عمل يمكن أن تكون فعالة وتستطيع المشاركة في البناء والتنمية في المجتمع .

وتتركز أهمية هذه الدراسة في كونها أول دراسة في هذا الميدان فهي تعتبر رائدة في الكشف عن أهم المعوقات التي تواجه قيام المرأة السعودية بدورها في مجالات التنمية .

## فروض البحث :

ويدور موضوع البحث حول سؤال رئيسي :

هل توجد معوقات تحول دون قيام المرأة السعودية بدورها في مجالات التنمية ؟

وترتب على هذا التساؤل بعض الفروض الفرعية هي : -

- هناك علاقة بين المعوقات الخاصة من بالقيم السائدة في المجتمع السعودي وقيام المرأة بدورلاها في البيئة .
- هناك علاقة تبين المعوقات الخاصة بالزوجة وقيام المرأة السعودية بدورها في التنمية .
- هناك علاقة بين المعوقات الخاصة بعمل المرأة وقيامها بدور في أنشطة التنمية .

## خطة البحث ومناهجه :

وقد استخدمت الباحثة في معالجة الجانب الاميريقي للبحث المنهج الوصفي اذ استهدفت الباحثة باديء ذي بدء ان تتأكد ان ثمة علاقة بين الخدمات التي تواجه المرأة بالمجتمع السعودي ومدى قيامها بدورها في التنمية الاجتماعية .

وقد استهدفت الباحثة أيضا تقرير خصائص هذه الظاهرة وتحديدها تحديدا كيفيا وكميا .

## مناهج الدراسة :

هذه الدراسة احتاجت الى الاستعانة بمنهج **Method** وأساليب أو نماذج **instruments** وأدوات **Technoque** بحثية تتسق مع طبيعة الوحدات الاجتماعية موضوع الدراسة .

لذا أثبتت الباحثة المنهج الوصفي **Descriptive** والهدف من اختيار هذا المنهج هو الحصول على بيانات ومعلومات عن المعوقات المختلفة المؤثرة في دور المرأة في التنمية بالمملكة العربية السعودية ، لاسيما وان البيانات المتاحة حالياً لا توصل بقدر كاف لاطار تصوري - يعطى تفسيرا لقضية البحث الأساسية .

كما يتلاءم هذا المنهج على الوضوح المدرسي حيث ان جهد الباحثة لا يقتصر على أبعاد الظاهرة على الدراسة وجوانبها المختلفة ، وانما سيتعداه الى تحديد العلاقات الارتباطية بين المتغيرات النوعية التي تم تحديدها ، أي الاهتمام بالمستوى الوصفي والتفسيري معا ، وذلك لاستخلاص التعليمات حول الظاهرة المدروسة من خلال الوصف المنظم والتحليل المنسق لجميع الجوانب ذات الأهمية في الدراسة وهذا يتفق مع الرأي الدي يرى ان البحث الوصفي لا يقتصر على جمع البيانات وتبويبها وانما يعني الى ما هو أبعد من ذلك لانه يتضمن قدرا من التفسير لهذه البيانات لاستخلاص دلالتها[٢] .

في ضوء ذلك فان الباحثة تهتم بالمستوى الوصفي والتفسيري لموضوع الدراسة وتكمل هذه العملية تنظيم البيانات بتحليلها واسنخراج الاستنتاجات ذات الدلالة بالنسبة للمشكلة المطروحة للبحث والتي تخدم أهداف الدراسة ، وذلك مثل الكشف عن أهم المعوقات التي تواجه المرأة السعودية في دورها في التنمية الاجتماعية للمملكة .

لذلك كان المنهج الوصفي هو المطلب الأساسي للوصول الى حقائق حول مشكلة البحث من حيث اعتباره احد المناهج الأساسية في البحث الاجتماعي لدراسة الحقائق الراهنة المتعلقة بطبيعة ظاهرة أو موقف أو مجموعة من الناس أو مجموعة من الأحداث أو مجموعة من الأوضاع[٣] .

وبناء عليه ، كانت النماذج أو الأساليب المستخدمة **The instruments Designs** في اطار المنهج الوصفي التحليلي متعددة وكانت على النحو التالي ؛ -

(١) المسح الاجتماعي بطريقة العينة .

(٢) الوثائق والمستندات .

(٣) استمارة البحث .

١ ـ المسح الاجتماعي :

المسح الاجتماعي كنموذج للبحث الوصفي[٤] هو النموذج الأول المختار للدراسة ، عن طريق العينة للطالبات بجامعة أم القرى والموظفات بالمصالح المختلفة بمكة المكرمة .

كما استخدمت الاستمارة كأداة لجمع البيانات عن طريق المقابلة .

٢ ـ الوثائق والمستندات :

وقد اختارت الباحثة ، البحث الوثائقي **The Documen tary Research** كأسلوب في الدراسة الوصفية وفقا لتصنيف **Whitney** [٥] بهدف الاستفادة من الوثائق والتقارير المطبوعة المتاحة من خطط الخدمات الاجتماعية بالمملكة وذلك للحصول منها على بيانات ومعلومات تتصل بمشكلة البحث ، خاصة المراحل الأولى لتخطيط الدراسة ، والرجوع اليها كمحك خارجي لصدق المعلومات التي تذكرها المبحوثات في مرحلة العمل الميداني وفي اطار تحليل البيانات الامبريقية التي تم الحصول عليها .

وقد قامت الباحثة بالاستعانة بتلك النماذج التي أتاحت لها الفرصة لاستخدام أسلوب البحث الكيفي **Qualitative technique** وأسلوب البحث الكمي **Quantitative Technigue** في آن واحد أي استخدام الأسلوب التعاملي في البحث **Trianqulation Techique** .

وبذلك تحددت مصادر البيانات والمعلومات في تلك الدراسة على النحو الآتي :

— الطالبات بجامعة أم القرى .
— الوثائق والمستندات .
— المراجع العلمية .

الاطار المكاني للدراسة :

تحدد المجال الجغرافي ـ عموما ـ لهذه الدراسة في مدينة مكة المكرمة وخصوصا جامعة أم القرى وذلك لعدة اعتبارات .

ان هناك عدداً كبيراً من الطالبات من مختلف أجزاء المملكة يدرسن في هذه الجامعة إنهن يعملون في قطاعات عديدة يمكن ان تسهم في مجالات التنمية المتعددة .

ـ الحصول على تسهيلات يمكن للباحث معها اجراء الدراسة الحقلية بسهولة .

## المجال البشري « عينة البحث » :

أخذ في الاعتبار عند تعميم الاطار المنهجي للدراسة الحصول على بيانات ومعلومات كمية - كيفية ، تتسق مع موضوع وأهداف البحث وذلك من عدة مصادر تشمل عينة من الطالبات الموظفات بالمملكة .

حيث قامت الباحثة باجراء حصر شامل للطالبات الدارسات بجامعة أم القرى حيث بلغ عددهن ٦٠٠ طالبة ثم قامت باختبار عينة قدرها ٣٠٪ من الطالبات حيث بلغ عدد العينة ٢٠٠ طالبة .

وبذلك بات المجال البشري للدراسة يشمل :

الطالبات اللائي يدرسن بجامعة أم القرى ويعملن أيضا في قطاعات الانتاج والخدمات المختلفة بالمملكة .

## المجال الزمني للدراسة :

من يناير ١٩٨٣ الى نهاية ديسمبر عام ١٩٨٤ .

## أدوات جمع البيانات :

استعانت الدراسة للوصول الى أهدافها ، بأدوات جمع البيانات التالية :

(١) استمارة البحث .

(٢) دراسة الوثائق والمستندات

وفيما يلي نبذة مختصرة عن كل من هذه الوسائل السابق ذكرها :

### ١ - استمارة البحث :

وهي أداة جمع البيانات في المسح الاجتماعي ، وقد تم تصميم الاستمارة الخاصة بمعوقات دور المرأة في التنمية والموجهة الى الطالبات الدارسات والعاملات بالقطاعات المختلفة بالمملكة .

وتشكل هذه الوسيلة المصدر الأساسي للحصول على بيانات حول طبيعة المتغيرات التي تضمنتها فروض الدراسة ، وللاجابة على تساؤلاتها .

وأهم الاعتبارات المنهجية التي اعتمدت عليها الباحثة في اختيارها لأداة الاستمارة كوسيلة أساسية لجمع بيانات الدراسة الحقلية تتلخص في :

١ - ان الاستمارة نموذج يضم مجموعة اسئلة توجه الى المبحوثات من أجل الحصول على معلومات حول موضوع أو مشكلة أو موقف .

٢ ـ الاتساق بين استخدام استمارة المقابلة وطبيعة هذه الدراسة من حيث اعتمادها على آراء الطالبات .

٣ ـ تساعد المقابلة الشخصية والتي تم بها جمع بيانات الاستمارة في تبصير المبحوثين بأغراض البحث وتفسير مما قد يثور في ذهنهم من تساؤلات .

وقد اتبعت الخطوات التالية في تعميم استمارة البحث ما يلي :

محاولة : تحديد نوع المعلومات والبيانات الواجب الحصول عليها من المبحوثين والتي يمكن من خلالها الكشف عن تأثيرات المتغيرات المختلفة التي تتضمنها فروض البحث . ولقد لجأت الباحثة من أجل هذا الى عدة مصادر للمعلومات في صورة مراجع علمية وبحوث وتقارير رسمية ، وكذلك في صورة خبراء ممن لهم اهتمام بموضوع البحث .

تحديد النقاط الرئيسية والفرعية التي سوف تتناولها الاستمارة .

تحديد الشكل الذي سوف تصاغ فيه هذه الاسئلة كل على حدة والشكل الذي سوف تصاغ فيه الاستمارة في مجملها .

وقد روعي في بناء الاستمارة ما يلي :

- ان تكون تتضمن البيانات الوثيقة الصلة بموضوع البحث وأهدافه .
- البعد عن الاسئلة التي تشير الى حساسية المبحوثات وتضعف الثقة بينهن وبين الباحثة وتمنع المبحوث من الأداء بالبيانات الوافية .

أما عن توافر الشروط المنهجية في استمارة البحث ، فقد خضعت الاستمارة للتجربة المبدئية وكان الهدف من وراء ذلك :

- التأكد من أن البنود التي تم اختيارها ، تتصل مباشرة بمشكلة البحث وتخدم أغراضه .
- التعرف على الصياغة الملائمة للاسئلة من حيث وضوحها وفهم المبحوثين لها .
- الوقوف على ما قد يكون قد احتوته الاستمارة من أسئلة مكررة يمكن الاستغناء عنها .
- الوقوف على ترتيب الاسئلة وعما اذا كان الأمر يستلزم البدء بأسئلة متأخرة أو ترتيب اسئلة وردت في المقدمة .
- الزمن الذي تستغرقه الباحثة في ملء الاستمارة .
- استجابة المبحوثات للبحث بصفة عامة وللاستمارة بصفة خاصة .

ولقد أجريت دراسة استرشادية على عينة عشوائية من الطالبات عددهن ١٠ من أفراد مجتمع البحث وقد ساهم هذا الاختيار في اجراء بعض التعديلات قبل طبع الاستمارة بصورتها النهائية

أما فيما يتعلق بصدق الاستمارة أي تحقيقها للهدف الذي صممت من أجله ، فلقد لجأ الباحث الى اختبار الصدق الظاهري **Face Validity** ويعتمد هذا النوع من الاختبارات على مدى وضوح السؤال واتصاله مباشرة بالظاهرة التي تستفسر عنها[٦] حيث عرضت الاستمارة على بعض المسئولين في مناهج البحث كهيئة محلفة للتحقق من صدق الاستمارة المنطقي ، وارتباط اسئلتها مباشرة بتساؤلات البحث وفروضه .

دراسة الوثائق :

يقصد بالوثائق أي مواد مكتوبة يمكن ان تستخدم كمصدر للمعلومات بها يخدم اغراض الدراسة[٧] وتشير الوثائق هنا والتي ليست نتيجة لجهد الباحثة ـ الى مجالات التنمية المتاحة بالمملكة بالنسبة للمرأة االسعودية وكذلك القرارات المنظمة للاستفادة بجهود المرأة السعودية في التنمية .

وقد استفادت الباحثة من دراسة الوثائق فيما يلي :

- مرحلة التخطيط والبحث حيث اعطت مؤشرات استفادت منها الباحثة في بلورة مشكلة البحث .
- مرحلة تحليل البيانات حيث تم الرجوع اليها في سياق هذا التحليل كمحك خارجي لصدق المعلومات التي ذكرتها المبحوثات .

ثانيا ـ الدراسة السابقة :

ولقد قامت الباحث بالاطلاع على بعض الدراسات التي لها اتصال مباشر أو غير مباشر بموضوع الدراسة وهي : ـ

١ ـ د. كاميليا عبد الفتاح ، خروج المرأة الى ميدان العمل ج.م.ع دراسته ونتائجه دكتوراة ، كلية الأداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٦٧ .

٢ ـ رقيه محمد رشدي بركات ، علاقة التغير التكنولوجي بدور المرأة في الاسرة ، ماجستير ، كلية الآداب ، عين شمس ، ١٩٧٠ .

٣ ـ جلال اسماعيل ، المرأة والعمل : دراسة ميدانية في القاهرة لبعض العاملات المؤهلات تأهيلا عاليا ، ماجستير ، كلية البنات ، عين شمس ١٩٧٣ .

٤ ـ محمد سلام آدم ، صراع الدور لدى المرأة العاملة ، دراسة نفسية اجتماعية لتصور المرأة العاملة لدورها الاجتماعي في ضوء بعض سمات الشخصية ، (دكتوراة ، كلية التربية ، عين شمس ، ١٩٨٠ ) .

٥ ـ عواطف فيصل بياري ، التصنيع والمتحضر في مدينة جدة ، دراسة لأثر التصنيع على البناء الاجتماعي للمدينة ، ماجستير ، جامعة القاهرة كلية الأذاب ١٩٧٢ .

٦ ـ أمية سليمان البسام ، دور المرأة في تنمية المجتمع المحلي ، دراسة في منطقة الدرعية بالمملكة العربية السعودية ، ماجستير ، قسم الاجتماع ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٧ .

٧ ـ فريال بهجت عزيـز ، عمل المرأة وأثره على دورها في الأسرة ، دراسة ميدانية مع النساء العاملات وغير العاملات في مدينة بغداد (ماجستير ، عين شمس ، كلية البنات ، ١٩٨١ ) .

هذا وقد قامت الباحثة بوضع تعريف لبعض المفاهيم مثل :

— مفهوم المعوقات
— مفهوم الدور
— مفهوم المرأة العاملة
— مفهوم التنمية .

## ثالثا ـ الاطار النظري للبحث :

ولقد تعرضت الدراسة لوجهة نظر المدارس المختلفة التي تناولت مفاهيم الدور وحاولت الباحثة من خلاله ان تربط بين ادوار وسلوك المرأة السعودية داخل بناء الاسرة والمجتمع وأصبح لا يمكن عزل المرأة عن البناء الاجتماعي الذي تتواجد فيه . . ولهذا كانت وجهة نظر الباحثة شاملة لكل وجهات النظر سواء كانت المدرسة النفسية . حيث رأى البورت ان تصور الدور وقبوله وتوقعاته يختلف من فرد الى آخر(٨) .

وترى الباحثة ان الادوار الاجتماعية أحد جوانب الشخصية ، فالطفل يتعلم منذ تنشئته أداء الادوار ويكتسب التوقعات والسلوك ويتوحد مع القيم والعرف والثقافة التي تكون احدى نتائجها الجانب الاجتاعي للشخصية(٩) .

هذا وقد اهتمت المدرسة الاجتماعية بتعريف الدور حيث يشير سبيجل Speigel لمفهوم الدور بقوله إن دراستنا لمفهوم الدور تعطينا فرصا لدراسة تفاعل شخصية الفرد مع الجماعات الاجتماعية المختلفة التي ينتمي اليها أثناء علاقاته بهم وفي اطار البناءات الاجتماعية(١٠) .

ومن مختلف الآراء التي عرضت حول مفهوم الدور سواء وجهة نظر جود Good لينتون وود ورث وسوتر لايتر بتذكيت Land and Bendeet wood worlh, southern ناديل Nadil وغيرهم .

وقد علقت الباحثة من ذلك الى ان الدور هو الوحدة الصغيرة المميزة للحدث السلوكي داخل البناء الاجتماعي ومن ثم تنظم وتصف الأفعال الانسانية في أدوار وان الأشخاص يؤدون الدور الواحد بطرق متقاربة مما يؤدي الى تماسك الاشخاص داخل البناء الاجتماعي .

ولقد تعرضت الباحثة لاتجاهات المدرسة النفسية الاجتماعية التي تحاول أن تربط بين الفرد والمجتمع لتحقيق الترابط بين الشخصية والبناء الاجتماعي ومن أهم الكتاب الذين تزعموا هذا الاتجاه في علم الاجتماع بارسونز Parsons وقد رأى أن كل دور من الأدوار التي يؤديها الشخص تكون جزء من شخصية(١١) .

وقد اتجه دانيل لينفسون Livenson اتجاها مماثلا لبارسونز يشمل الجوانب النفسية والاجتماعية ويشير الى ان الدور هو أفكار الأفراد وأفعالهم وفي نفس الوقت يرتبط بتأثير المطالب البنائية الاجتماعية على الأفراد(١٢) .

وقد أشار Newlomb في كتابه علم النفس الاجتماعي إلى أن : هناك مجموعة عوامل تساعد على أداء الدور وهي :

١ ـ العوامل البيولوجية .

٢ ـ الظروف المميزة التي يتعلم من خلالها الانسان أداء دوره .

٣ ـ وعي الذات بأدوارها وأدوار الآخرين .

هذا وقد عرضت الباحثة في الاطار النظري دراسة عدة موضوعات تتعرض من خلالها للاتجاهات والمداخل النظرية للتنمية . حيث لوحظ ان مجال التنمية مجال فسيح ومتشعب والعنصر البشري بينه هو الاتصال بالجانب البشري(١٣) فهي تتعامل مع كافة احتياجات الانسان . وتقوم سياسة التنمية على أساس من الاستخدام المثمر المفيد لطاقات الناس .

ويحمل مصطلح تنمية Deve lopment في مضمونه اللفظي معنى المساعدة على تغيير الظروف القائمة ، التي يعيشها الفرد والحاجة الى ما هو أحسن من ذلك ومعنى هذا ان مصطلح تنمية يعني تحديد امكانيات الفرد والحاجة لاستخدامها الاستخدام الأمثل الذي يجعلها تعطي أعلى درجة ممكنة من الفائدة ، ومعنى ذلك أيضا ان مصطلح التنمية يحمل معنى الوعي ، والارادة في عملية التغيير فالانسان هو منطلق لانهائية وهدمها(١٤) .

والدراسة هذه تبحث عن دور المرأة السعودية في البيئة لذا يعتمد مفهوم التنمية المرتبط بالتغيير والمرتبط بالارادة هو الأنسب لهذه الدراسة كما ان التغيير لا يحدث طفرة واحدة بين يوم

وليلة وانما يحتاج الى مراحل وتفكير سابق ودراسة شاملة وذلك لان المجتمع الذي نعمل من خلاله هو الـذي يحدد ظروف العمليات الانمائية وأسسها كما ان دور المرأة السعودية مازال في بدايته يتحسس الخطى ويحاول بقدر الامكان المساهمة في تنمية المجتمع السعودي .

هذا وقد أشارت الباحثة الى النهج العلمي والتخطيط للتنمية من أجل مجتمع عربي أفضل(١٥) .

وفيما يلي عرض النتائج الدراسية والتعليق عليها :

رابعا ـ نتائج الدراسة الميدانية :

ابـرزت نتائج الدراسة المتعلقة بمعوقات دور المرأة في االتنمية عدداً من النتائج بعضها متعلق باعطاء وصف عام لمجتمع البحث والبعض الآخر يتعلق بالاجابة على فروض البحث

وفيما يتعلق بالوصف العام لمجتمع البحث أبرزت نتائج الدراسة : ـ

١ ـ نسبة ٤٥٪ من المبحوثات يقع عمرهن في الفئة العمرية (٢٥ ـ ٣٠) سنة بينما انخفضت نسبة كبار السن الى ٥٪ .

٢ ـ ان ٦٧٪ من المبحوثات ممن تلقين تعليمًا عالياً بالنسبة للحالة التعليمية بينما انخفضت نسبة التعليم الابتدائي الى ٢,٥٪ .

٣ ـ ان نسبة ٤٩٪ من مجتمع البحث من المتزوجات .

٤ ـ ان ما يقرب من نصف مجتمع البحث (٤٧,٥٪) يحصلن على مرتب شهري ما قدره ٦٠٠٠ ريال ، ٧٠٠٠ فأكثر .

٥ ـ فيما يتعلق بمدى وجود دور المرأة في التنمية أبرزت الدراسة ان نسبة ٨٥٪ من المبحوثات ترى ان هناك دوراً للمرأة في التنمية . وان نسبة ١٥٪ ترى انه لا يوجد للمرأة دور في التنمية .

٦ ـ كما أبرزت نتائج الدراسة ( جدول رقم ٧ ) ان أهم المجالات التي تساهم فيها المرأة لأحداث التنمية هي :

- المجال التعليمي (٨٥٪) يلي ذلك المجال الطبي (٨٠٪)
- المجال الثقافي (٥٩٪) المجال الأسري (٥٦٪)
- مجال الخدمة الاجتماعية (٥٤٪) مجال الخدمة العامة (٥٥٪)

بينما انخفض دور المرأة في المجالات الأخرى مما يوضح ان غالبية المجالات التي تعمل فيها المرأة تتعلق بالتعليم والصحة والخدمة الاجتماعية .

٧ ـ وفيما يتعلق بمدى وجود معوقات تواجه المرأة أثناء قيامها بدورها في مجالات التنمية الاجتماعية والاقتصادية بالمجتمع السعودي أشارت النتائج الى ما يؤكد صدق الفروض الموضوعة للبحث حيث أبرزت النتائج : ـ

ـ ان هناك معوقات تتصل بالعمل وذلك بنسبة ٦٥٪ من الآراء وان أهم هذه المعوقات تتمثل في :

— عدم تقدير الرؤساء لعمل المرأة .

— عدم الاهتمام بالنواحي الابتكارية لدى المرأة .

— عدم اعطاء المرأة الحرية الكافية في ابداء الرأي .

— عدم توافق الآراء مع زملاء العمل .

— الروتين الذي يسود العمل .

— النظرة الروتينية لدور المرأة في برامج التنمية .

٨ ـ ان هناك معوقات تتصل بالأسرة ومدى تقبل الأزواج لقيام المرأة بالعمل كأحد جوانب التنمية ويتمثل ذلك في :

— رفض بعض الازواج لعمل المرأة لان ذلك يجعلها تتغيب كثيرا من المنزل .

— ارهاق المرأة ، وعدم اهتمامها بأمور منزلها وزوجها .

— كما ان وجود أبناء وضرورة العناية بهم من العوامل التي تعوق قيام المرأة بدورها في التنمية .

٩ ـ وفيما يتعلق بتقبل المجتمع السعودي لدور المرأة في التنمية أبرزت النتائج ان نسبة ٦٤,٥٪ ترى ان هناك تقبلا بينما رأت نسبة ٣٥,٥٪ انه لا يوجد تقبل لدور المرأة في التنمية . وان ذلك يرجع إلى : ـ

— النظرة المحدودة لدور المرأة في برامج التنمية .

— عدم الاهتمام بالاعلام عن دور المرأة في التنمية .

— النظرة الى ان مكان المرأة هو المنزل .

— الثقافة السائدة في المجتمع السعودي كلها تركز حول الحد من دور المرأة في التنمية .

— سيادة بعض التقاليد والقيم التي لا تجيز قيام المرأة بأي دور في التنمية .

١٠ ـ وفيما يتعلق بالمعوقات التي ترجع الى أجهزة الاعلام تبين ان نسبة ٤٧,٥٪ ترى ان أجهزة الاعلام لا تقوم بدور واضح في الاعلام عن دور المرأة في التنمية بينما رأت نسبة ٢,٥٪ ان هناك اهتماما من جانب الأجهزة الاعلامية متمثلا في عمل جريدة للمرأة ، نشر برامج اذاعية وتليفزيونية عن المرأة ، عقد الندوات والمحاضرات ، وانشاء الجمعيات النسائية .

# توصيات الدراســـة

١ ـ ضرورة فتح مجالات جديدة لعمل المرأة وخصوصا ان هناك ثورة صناعية تجتاح المملكة فلم لا تشارك المرأة في هذه النهضة . ٢ ـ الاهتمام بانشاء الوسائل التي تيسر قيام المرأة بدورها في التنمية مثل انشاء دور الحضانة وبعض الخدمات الأسرية الأخرى .

٣ ـ الاهتمام من خلال وسائل الاعلام بما يؤدي الى تغيير نظرة المجتمع نحو عمل المرأة .

٤ ـ الاكثار من البعثات الدراسية الخارجية للمرأة للاطلاع على الحديث في العلوم

٥ ـ عقد الندوات والمحاضرات لايضاح أهمية دور المرأة في مجالات التنمية .

# المراجع المستخدمة في البحث


1. Clinord, M. Community Development in slums (N.Y. Free press, 1970) p. 305.

٢ ـ د. عبد الباسط حسن : أصول البحث الاجتماعي (الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار البيان العربي ، ١٩٦٦) ص ٢٢٠ .

٣ ـ جمال زكي وسيد ياسين : أسس البحث الاجتماعي (القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٣) ص ٨٣ ـ ١٩٨٤ .

4. Kerclienger, Fred N., Foundation of Behevioral (N.Y., Pinehert and winston, inc, 1973) pp. 410-426.

5 - Bernards. Phillips Sulial resoreh Shatrgy and Tacticl (N.Y. the Macmillars Cervary 1961) P. 147 - 157

6 - Bernard S. Pbillips, IBID, P. 147.

7 - Allport, G. Pattern and Growth in personality (N.Y., Hold, Pinehart and winston, 1961) P. 184.

٨ ـ فرج سعيد : البناء الاجتماعي للشخصية (دكتوراه ، كلية الآداب ، الاسكندرية ، ١٩٧١) ص ٣٥٤ ـ ٣٤٦ .

9 - Spiegel, J., The Resolution of Role conflict within the familly (chicago, Free press, 1960) pp. 361-380.

10 - Parsons, T., Toward a theory of social Action (N.Y. Howed University press, 1951) pp. 23-26.

11 - Livenson, D., Role of personality and Social atucture in the organizational setting (N.Y., prentic-Hall, 1961) pp. 500-304.

١٢ ـ د. محيي الدين صابر ، البيئة الاجتماعية طبيعتها ، وأهدافها ، بحث مقدم الى مؤتمر الشئون الاجتماعية والعمل ، القاهرة مايو ، ١٩٦٧ ، ص ٦١ .

١٣ ـ المفاهيم الحديثة للآثار في لبنان ، أبحاث قدمت في الحلقة الدراسية الاثانية ٦٥/١٩٦٦ ، لبنان ، ص ١٣ .

١٤ ـ أنظر البحث الرئيسي الخاص بالباحثة ، ص ٩٥ .

## استمــارة بحــث عــن

## المعوقـات التي تواجـه دور المرأة السعودية

## في التنمية

### دراسة مطبقة بمدينة مكة المكرمة

النـوع : ........................................................................

السـن : ........................................................................

محل الميلاد الأصلي : ........................................................

محل الاقامة الحالي :

الحالة التعليميـة : ...........................................................

تاريخ إجراء المقابلة : ........................................................

**الباحثـــة**

**د. عواطف فيصل بياري**

---

المعلومات التي سترد في هذه الصحيفة سرية . ولايجوز الاطلاع عليها أو استخدامها الا في الاغراض العلمية للبحث .

**الباحثـــة**

**أولا — بيانـات أوليـة :**

١) الاسم : ..........................................................

٢) السـن : ٢٠ - ( ) ٢٥ - ( ) ٣٠ - ( ) ٣٥ - ( ) ٤٠ - ( ) فأكثر ( )

٣) الحالة التعليمية : ابتدائية ( ) اعدادية ( ) متوسط ( ) فوق المتوسط ( ) عالي ( )

٤) الحالة الاجتماعية : بدون زواج ( ) متزوجة ( ) مطلقة ( ) أرملة ( )

٥) الدخل الشهري ان وجـد ( ) بالريال .

**ثانيـا — دور المرأة في التنميـة :**

٦ - هل تعتقدين أن للمرأة دوراً في التنمية : نعم ( ) لا ( )

٧) هل هذا الدور هام وحيوي في احداث التنمية : نعم ( ) لا ( )

٨) ما هي فكرتك عن دور المرأة السعودية في التنمية ؟

١) المساهمة في عملية التنمية الاجتماعية ( )

٢) المساهمة في النشئة الاجتماعيـة ( )

٣) المساهمة في العمل بالمصانـع ( )

٤) العمل في الجمعيات الخيرية الاسلامية ( )

٥) العمل في جمعيات خدمة المجتمع ( )

٦) أخرى تذكـــر

٩) ما هي المجالات التي يمكن أن تساهم فيها المرأة بصورة افضل في عملية التنمية ؟

ضعي ترتيباً تصاعدياً حسب أهمية كل مجال بأن يعطى أهم مجال رقم (١) ثم المجال الذي يليه (٢) وهكذا . . . . )

— مجال طبـي ( ) — مجال سياسي ( ) مجال ترويحي ( )

— مجال صناعي ( ) — مجال تجاري ( ) أخرى تذكر ( )

— مجال زراعي ( ) — مجال خدمة اجتماعية ( ) أخرى تذكر ( )

— - مجال تعليمي ( ) — مجال ثقافي ( ) أخرى تذكر ( )

## ثالثا — معوقات دور المرأة السعودية في التنمية :

١٠) هل توجد معوقات أمام تأدية المرأة لدورها في التنمية نعم (   ) لا (   )

في حالة الاجابة بنعم فهل هذه المعوقات تتصل بـ :

أ) تتصل بالعمل (   )

ب) تتصل بالنواحي الثقافية (   )

ج) تتصل بالنواحي الاجتماعية (   )

د) تتصل بالنواحي الاجتماعية (   )

هـ) تتصل بنواحي خاصة بالمجتمع (   )

أ) المعوقات التي تتصل بالعمل :

(١) هل يتقبل زوجك عملك نعم (   ) لا (   )

إذا كانت الاجابة بلا تسأل لماذا ؟

— لأنك تتغيبين في العمل عن المنزل كثيرا (   )

— لأنك تعودي مرهقة من العمل (   )

— أخرى تذكــــــــــر (   )

١٢) هل يقدر رؤساؤك في العمل مجهوداتك نعم (   ) لا (   )

١٣) هل روتين العمل يؤدي الى اعاقة دورك في التنمية نعم (   ) لا (   )

١٤) هل هناك معوقات أخرى تتصل بعملك :

—

—

ب) المعوقات المتصلة بالناحية الثقافية :

١٥) هل يتقبل السعودي دوركن في التنمية نعم (   ) لا (   )

١٦) في حالة (نعم) ما هي الأسباب ؟

— لأن المجتمع اصبح يخدم عمل المرأة (   )

— لأن جهدنا بجانب الرجل يدفع المجتمع الى الامام (   )

— لأن المجتمع يوزع برامج ثقافية مناسبة توضح دور المرأة (   )

— أخرى تذكــــــــــر

١٧) في حالة (لا) ما هي الاسباب ؟

- المجتمع لايقبل عملنا ( )
- لا توجد برامج ثقافية مناسبة ( )
- ينظرون الى عملنا على أنه معطل للانتاج ( )
- أخرى تذكـــــر ( )

١٨) هل توجد دورات تدريبية لزيادةكفاءتكن في العمل ( ) لا ( )

١٩) في حالة الاجابة بنعم هل هذه الدورات والبرامج كافية نعم ( ) لا ( )

٢٠) في حالة الاجابة بلا ما هي اسباب عدم كفاية هذه البرامج :

- ضعف محتويات هذه البرامج ( )
- الوقت والجهد المخصص لها غير كافي ( )
- وقت العمل لايساعد الاشتراك في هذه الدورات ( )
- عدم وجود حوافز مادية أو معنوية لهذه الدورات ( )
- أخرى تذكـــــر ( )

٢١) هل تقوم أجهزة الاعلام بإيضاح دوركن في التنمية نعم ( ) لا ( )

٢٢) في حالة الاجابة بنعم ما هي مظاهر هذا الاهتمام من جانب أجهزة الاعلام :

- عمل جريـدة خاصة ( )
- برامج الاذاعـــة ( )
- برامج التليفزيـون ( )
- أخـرى تذكـــر ( )

المعوقات المتصلة بالناحية الاجتماعية :

٢٣) هل لديك ابناء نعم ( ) لا ( )

٢٤) إذا كان لديك فكم عدد أبنائك؟

١ ( ) ٢ ( ) ٣ ( ) ٤ ( ) ٥ فأكثر ( )

٢٥) هل تعتقدين أن مسئولية تربية ألاولاد تحول دون تأدية المرأة لدورها في التنمية :

نعم ( ) لا ( )

٢٦) هل توجد حضانة بالمنطقة السكنية التي تقيمين فيها : نعم ( ) لا ( )

٢٧) في حالة الاجابة (بـلا) فأين تتركين أبنائك عند ذهابك للعمل :

١) عند الجيران ( ) عند أهلك ( ) أخرى تذكر ( )

٢) عند أهل الزوج (   ) عند الأقارب (   )

٢٨) هل تحول ظروفك الأسرية دون اسهامك بفاعلية في تنمية المجتمع : نعم (   ) لا (   )

٢٩) في حالة الاجابة (بنعم) لماذا تحول ظروفك الأسرية دون المساهمة في تنمية المجتمع ؟

لأنه لايبقى لديك وقت المساهمة في مشروعات تنمية المجتمع (   )

لأنك مثقلة بأمور المنزل والعمل (   )

لأنه لايوجد أي رغبة من الزوج في ذلك (   )

أخـــرى تذكـــــر (   )

المعوقات المتصلة بالناحية الاقتصادية :

٣٠) إذا طلب منك الاسهام في بناء دار حضانة فهل تساهمين ؟

نعم (   ) لا (   )

٣١) عندما يكون لديك مبلغ من المال فهل تفضلين :

— صرفه على أشياء خاصة بالمنزل (   )

— التبرع لبناء مشروع يفيد المجتمع (   )

— وضعه في البنك (   )

— أخـــرى تذكـــــر (   )

معوقـات خاصـة بالمجتمـع :

٣٢) ضع علامة أمام العبارة التي تؤيد وجهة نظرك :

ان المجتمع لايحترم عمل المرأة (   )

المجتمع يحترم عمل المرأة (   )

يتيح المجتمع فرصة للمرأة لكي تعمل في غالبية المجالات (   )

يتيح المجتمع اي فرصة للمرأة للعمل في مجالات التنمية (   )

يتيح المجتمع بعض المجالات للعمل في مجالات التنمية (   )

أخرى تذكـــــر (   )

٣٣) ما هي المعوقات التي يصفها المجتمع أمام دوركن في التنمية ؟

٣٤) ما هي مقترحاتكن للتغلب على المعوقات التي تقف أمام دوركن في التنمية ؟

# ردود الفعل الشعبية في امارات الخليج تجاه العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ من واقع الوثائق البريطانية

د. ابراهيم محمد ابراهيم شهداد
قسم التاريخ ـ جامعة قطر

لعل أهم ما شهدته منطقة الخليج العربي خلال وبعد الحرب العالمية الثانية هو ذلك التنامي في الوعي السياسي الذي أصاب نسبة كبيرة من أبنائها ، والذي كان للنشاط الدعائي السياسي الذي مارسته الاطراف المشاركة في الحرب دور جلي في ميلاده ولو بشكل غير مباشر ، حيث أججت الحرب الدعائية للحرب بين دول المحور والحلفاء مشاعر أبناء المنطقة واسهمت في تعديل نظرتهم لواقعهم الذي أضحوا ينظرون إليه بعين الناقد المتفحص .

وكانت الصحف والاذاعات أهم وسائل الحرب الدعائية ، حيث ان السلطات البريطانية بغية مواجهة ما كانت تبثه اذاعة برلين من دعاية مضادة ضد الحلفاء ، وادراكاً منها بأن مثل هذه الدعاية ستؤثر على استقرار المنطقة لما سوف تؤدي اليه من اضطرابات بالرغم من الرقابة المباشرة عليها قامت بإصدار أول صحيفة محلية وهي صحيفة «البحرين اليومية» التي بدأت في الصدور في شهر مارس ١٩٣٩ لاستغلالها كوسيلة دعاية مضادة للمحور ، وفي الوقت ذاته تقوم بالدعاية للحلفاء ، حيث اصطبغت من أول يوم لها بخطوط الدعاية الانجليزية ومقاومة الدعاية الالمانية والحد من تعاطف الخليجيين معها ، وأصبحت الحرب الدعائية سجالاً بين هذه الصحيفة وبين اذاعة برلين التي أخذت تجذب انظار العرب بعد ان ضمت إليها بعض المحاضرين العرب المعروفين والمثقفين من فلسطين والعراق وبقية الاقطار الواقعة تحت النفوذ البريطاني ، عاملة من خلال بثها التركيز على البرامج المؤثرة والجذابة ، مركزة خطوط دعايتها الموجهة الى العالم العربي في تقوية الاتجاهات القومية ، واثارة الشعور الاسلامي ، وبعث الثقافة العربية وتحريض العرب من أجل استخلاص استقلالهم بالقوة مركزة على قضيتين مهمتين لاثارة التناقض بين موقف الرأي العام العربي وبين بريطانيا .

أما القضية الأولى : فهي الوطن القومي لليهود في فلسطين الذي تتعاطف معه بريطانية وأمريكا .

والقضية الثانية : الوحدة العربية التي استطاعت الدعاية الالمانية استغلالها لبث الشك والريبة ضد بريطانيا واستقطاب الرأي العام العربي .

فقد بدا تأثير ما كانت تطرحه الاذاعة المذكورة واضحاً على الجمهور الخليجي المستمع لها وبالذات في البحرين والكويت حيث تهاتف الناس على الإستماع إلى تعليقاتها في المقاهي والأماكن العامة ، ويمكننا تأكيد ذلك من الصراع الذي خاضته صحيفة البحرين في ردها على الدعاية الالمانية ومحاولة إحباط تأثيرها ، مطلقة على الاذاعة الالمانية بالمحامي المتطفل(١) .

والجدير بالاشارة انه على الرغم من تغلب أخبار الحرب على صحيفة البحرين والدعاية المضادة لدول المحور إلا انها وظفت بإقتدار من قبل رئيس تحريرها عبد الله الزايد لاثارة بعض القضايا التي كانت تمس منطقة الخليج كالقضايا الاجتماعية والاقتصادية ، وتوجيه النقد لممارسات شركات النفط العاملة في المنطقة كشركة بابكو «شركة نفط البحرين » والكشف عن مساوىء سياسات الحكومة البحرينية ولو بأسلوب مبطن ، كما أن بعض صفحاتها أصبحت في الوقت ذاته قبلة لمستنيري المنطقة كعبد الرزاق البصير من الكويت ومحمد لقمان من السعودية ، اذ قامت بنشر آرائهم وأفكارهم .

ومن ناحية أخرى باتت السلطات البريطانية بعد مرور فترة على اقتناع بأهمية تدعيم الدعاية المضادة لدول المحور عن طريق الإذاعة لكونها أبلغ تأثيراً على الجمهور ، وفي الوقت ذاته فإن تأثيرها يمس جميع فئات المجتمع من متعلمين ، وغير متعلمين بالاضافة لإحكام القبضة على دعاية اذاعة برلين وللرد كذلك على بعض ما كانت تبثه بعض الاذاعات الاقليمية كاذاعة قصر الزهور العراقية التي انشأها الملك غازي وجعل توجهها العام معبرا عن الاتجاه القومي العربي وآراء الملك نفسه في القضية العربية بشكل عام . مما حدا بالكثيرين من معتنقي فكرة القومية العربية للاهتمام بما كانت تبثه وتحبيذ برامجها(٢) ، فبناء على ذلك قامت بريطانيا بإنشاء أول اذاعة محلية في البحرين حيث بدأت ارسالها في نوفمبر ١٩٤٠ ، واستغلت لنفس الاغراض التي استغلت فيها صحيفة البحرين ، الا انها في الوقت ذاته كانت تقدم بعض البرامج التعليمية والاجتماعية والترفيهية(٣) .

وقد تأثر أبناء الخليج كثيراً بالشعارات الدعائية التي كانت تطرحها أدوات الدعاية من اذاعة

---

(١) هلال الشايجي . الصحافة في الكويت والبحرين منذ نشأتها حتى عهد الاستقلال ، البحرين ، مطبوعات بانوراما الخليج ، ١٩٨٩ ص ٩٨ ـ ١٠٣ .

(٢) مصطفى عبد القادر النجار . التاريخ السياسي لعلاقات العراق بالخليج العربي ، البصرة ، مركز دراسات الخليج بالبصرة ، ١٩٧٥م ، صص ٢٥٣ ـ ٢٥٥ .

(٣) محمد الرميحي . البحرين مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي ، بيروت ، دار ابن خلدون ١٩٧٦ ص ٢٢٨ .

وصحف ، فمثلا تأثر أبناء البحرين بشعارات الدعاية البريطانية وخاصة تلك التي كانت تتعلق بالحرية والديموقراطية تجد صدى لدى البحرينيين حيث كانوا يأملون تطبيق مثل هذه الشعارات على أنفسهم(٤) .

ونتيجة لذلك النشاط الدعائي السياسي الذي ساد المنطقة خلال الحرب بدأ في التبلور وعي سياسي فيها لعبت مجموعة كبيرة من العوامل دوراً في تأطيرها كإنفجار مشكلة تقسيم فلسطين ، وزيادة الرقعة التعليمية في الخليج الى جانب انتشار عدوى الوعي القومي العربي بعد ان أضحى له مفهوم مغاير لما كان عليه عن ذي قبل في عقول أبناء الخليج خاصة في أعقاب ولادة حركة القوميين العرب على أثر نكبة ١٩٤٨ ، حيث تحول هذا المفهوم من فكرة سياسية أساسها وحدة اللغة والتاريخ والثقافة المشتركة والانتماء لأمة واحدة إلى مفهوم يحمل طابعاً ثورياً كمناهضة الاستعمار وتصعيد النضال ضده من أجل الحرية والاستقلال والتصدي للقوى المعوقة للتقدم ، وجاءت ثورة ٢٣ يوليو المصرية لتزيد من توقد هذا المفهوم لدى الجماهير حينما ربط قائد الثورة جمال عبد الناصر حركة القومية العربية بفكرة معاداة الاستعمار وقيامه بتطبيق أحد مبادىء هذا المفهوم ، عند إعلانه تأميم قناة السويس .

وبحكم الربط السابق الذي أوجده عبد الناصر ، وتصعيده هو وأجهزة اعلامه التي كانت اذاعة صوت العرب احدى ركائزها في الهجوم على الاستعمار ، واعلان وقوفه مع كافة حركات التحرر في الوطن العربي وعلى رأسها حركة التحرير الجزائرية . بدأ الوعي السياسي في منطقة الخليج يدخل في طور جديد يمكن تسميته ان صح التعبير «طور التعبير والانطلاق» ، كان أبرز مظاهره تزايد روح السخط المشحون بالانتقام ضد كل شيء يرمز الى الاستعمار وتوابعه ومواجهة تردي الأوضاع الداخلية التي كانت شعوب المنطقة تعتقد بأن الاستعمار هو مهندس استمرارها وتغذيتها عن طريق تدعيم أدوات الحكم فيها وحمايتها ، ولذلك لم يكن من الغريب بأن تستلهم كل النخب الواعية والمعبرة عن ذلك السخط جل تحركاتها من القاهرة ، وان تتمحور أغلب توجهاتها السياسية حول الاطروحات السياسية التي كان يطرحها عبد الناصر من خلال خطاباته السياسية والتي كثيراً ما كانت تتميز بمهاجمة الاستعمار والدعوة الى القضاء على الحكومات الفاسدة التي كانت تتلاعب بمقدارات الأمة . وأصبح الشارع الخليجي السياسي مع مرور الإيام أسيراً لتوجهات الثورة المصرية وقائدها ذي الشخصية الكرزمية ، بل أن هذا الشارع أصبح متحفزاً

---

4) Rosemarie Siad Zahlan The Gulf states And The PALESTINE PROBLEM. 1936 - 48. Arab studies Quaterly, Vol. 3, No. 1, winter, 1981,P.16.

لدرجة بذل النفس والنفيس ضد كل من كان يحاول ضربها ويعمل على الاطاحة بها ، ولعل ردود الفعل الشعبية العارمة والغاضبة التي حدثت في المنطقة خلال العدوان الثلاثي على مصر ضد المصالح الأجنبية وبالذات البريطانية والتي كشفتها لنا وثائق الخارجية البريطانية والمذكرات اليومية لمندوبيها في المنطقة ركائز أساسية لادراك مدى حجمها والوقوف على الاجراءات التي اتخذت من قبل السلطات المحلية بغية عدم تطورها ، خير ترجمة لتبيان ذلك الالتصاق السياسي والشعبي في الخليج بحكومة ناصر الثورية في ذلك الوقت .

## ردود الفعل الشعبية :

جاءت ردود الفعل الشعبية تجاه العدوان الثلاثي سريعة في الشارع الخليجي نتيجة للكراهية المطلقة للتدخل الأجنبي الذي جاء من اطراف كانت تمثل في الضمير العربي ووجدانه بل في واقعه ألد أعدائه ، ولعل ردود الفعل التي شهدتها أمارات الخليج والتي سوف نسرد تفاصيلها كانت تمثل جزءاً من ذلك الضمير الذي بات متحفزا للرد على ذلك العدوان بالكيفية المقتدرة غير مبال بالنتائج المترتبة عنه ، ولذلك فإنه بمجرد وصول أنباء ذلك العدوان بدأت عواصم تلك الامارات تشهد مظاهرات وأعمال مناهضة ضد دول العدوان متفاوتة الحدة والطابع ، الأمر الذي دفعنا الى سردها بشكل مسهب في كل امارة على حدة :

## أولا : البحرين :

شهدت العاصمة البحرينية المنامة صباح يوم أول نوفمبر أول رد فعل على التدخل الأجنبي ضد مصر في ٣١ أكتوبر ، حيث أخذت جموع طلاب المدرسة الثانوية والصناعية مع غيرهم من الشباب في التجمهر حول الوكالة السياسية والمستشارية البريطانية واستراحة شركة الخطوط الجوية البريطانية مرددين هتافات معادية للغرب ، وبمرور الوقت كانت اعداد المتظاهرين في تزايد مما أدى إلى انقطاع الطريق الموصل بين المنامة والمحرق وظل الحال كذلك حتى منتصف الليل مما دفع قوات الشرطة لإرسال عرباتها لمواجهة المتظاهرين ، والعمل على مكافحة أعمال الشغب وحماية العائلات الأوروبية وبالاخص الامريكية والبريطانية ، التي كان أفرادها يعملون في شركة الخطوط الجوية البريطانية وطيران الخليج والقوات الجوية البريطانية ، وذلك بالعمل على ترحيلهم من مساكنهم التي يسكنونها في ضواحي مدينة المنامه ، اذ كان من الصعب السيطرة على المتظاهرين ، وبالفعل تم تنفيذ الخطة التي سبق ان وضعتها الوكالة البريطانية لترحيل العائلات عن المنامه قبل ان يمتد الموقف المعادي الى مدينة عوالي حيث وافقت شركة نفط البحرين

على استضافة هذه العائلات حيث بذل متطوعوها جهدا كبيرا لانجاح خطة الترحيل وفي وقت قياسي[٥] .

ويبدو لنا من وحي خطة ترحيل العائلات التي وضعتها الوكالة البريطانية ، أن الأجهزة البريطانية السياسية العاملة في البحرين كانت على علم بمدى تغلغل الدعوة الناصرية وتوجهاتها في الشارع البحريني ولذلك أعدت العدة لأي طارىء يتولد نتيجة أية خطوة مضادة تتخذ ضد قيادتها .

وانسجاما مع الوضع الناشيء ، قامت لجنة هيئة الاتحاد الوطني بإصدار منشورها رقم (٧٧)[★] الذي دعت فيه المواطنين الى القيام بإضراب عام وشامل واستمراره الى أشعار آخر تعبيراً عن الرغبة الشعبية العارمة في مد يد العون لأخوانهم أبناء مصر الخالدة ، محملة بريطانيا مسؤولية ما سيحدث من تطورات من جراء عدوانها على الشعب المصري وفي الوقت ذاته طالب أعضاء الهيئة ، الحكومة البحرينية بالسماح لهم بتنظيم مسيرة منظمة في نفس اليوم الذي دعي فيه للأضراب .

وقد تمت المسيرة بشكل طبيعي في صباح اليوم المذكور ، وكانت الأمور هادئة ولم تتعرض الأعداد القليلة من الأوربيين الذين اتجهوا الى مكاتبهم لأية متاعب ، غير أن وقوع مظاهرة في أعقاب المسيرة اربكت الوضع حيث خرجت عن نطاقها عندما اندفعت مجموعات من الشباب يقدر عددها بالمئات الى محاصرة الوكالة البريطانية ودار المستشارية وشركة الخطوط البريطانية محاولة الحاق الضرر بها ، الا ان وصول قوات شرطة إضافية لحمايتها حالت دون ذلك ، اذ نجحت في صد تلك المحاولات وتفريق المجموعات المندفعة رغم تكرار محاولات الهجوم ، غير أن الأمر لم يتوقف عند ذلك ، فبحلول الساعة الثانية بعد الظهر وردت الأنباء عن توجه المتظاهرين نحو الشرق حول شارع الحكومة حيث اشعلوا النار في عدة شركات ومكاتب أجنبية ، محاولين حرق أحدى محطات النفط في وسط السوق ، كما قاموا بقذف بعض المحلات التجارية والشركات الأجنبية بالحجارة بعد ان عجزت قوات الشرطة عن إزالة الحواجز التي وضعها المتظاهرون في الشارع المسمى بشارع البحر المؤدى الى المطار ، وبالاضافة الى ذلك فقد تعرضت بحسب قول الوثائق البريطانية شقق شركة الخطوط الجوية البريطانية للسلب والحرق .

5) Political Diaries of Persian Gulf, Vol.20, 1955-1958, Archive Editions, 1990, P.233.

★ قامت الهيئة المذكورة منذ ولادتها في أكتوبر ١٩٥٤ الى ان قضى عليها في نوفمبر ١٩٥٦ باصدار ثمانية وسبعين بياناً عالجت فيها شؤون الساعة . لمعرفة المزيد عن تلك البيانات يمكن الرجوع إلى عبد الرحمن الباكر . من البحرين الى المنفى (سانت هيلانه) بيروت ، دار مكتبة الجهاد ، ١٩٦٥ .

وفي ضوء أحداث يوم ٢ نوفمبر اجتمع في صباح اليوم التالي عدد من رؤساء الشركات البريطانية في المنامة داخل الوكالة البريطانية للتعبير عن مخاوفهم من ان السلطة الحكومية عاجزة عن حماية ممتلكاتهم بدليل ما حدث في شقق شركة الخطوط الجوية البريطانية في المحرق ، ولبعض الشركات والمكاتب في المنامة ، وبخاصة وان هذه الشركات لا توجد بها قوات حراسة ، واتفق الحاضرون على انه لو تفاقم الوضع أكثر من ذلك فلابد من الاستعانة بالقوات البريطانية على الفور .

وقد كان الوضع مستقراً قبيل الساعة التاسعة صباح ذات اليوم إذ كانت الشوارع هادئة والأمن مستتباً فيها مما دفع بعض الموظفين الأجانب إلى الذهاب الى أعمالهم ومن بينهم بعض الكتبة من أبناء البحرين ، ولكن سرعان ما بدأ التوتر من جديد قبيل الظهيرة ، وكان من أبرز علاماته ان اشتعلت النيران في أربعة مبان لشركات بريطانية وادارة الاشغال العامة على طريق المحرق حيث التهمت النيران الطابق العلوي ، وكذلك جرى تحطيم قوارب وماكينات احدى الشركات البريطانية ، كما تعرضت مكاتب صحيفة الخليج وهي صحيفة بريطانية ، بالاضافة الى تعرض الكنيسة لعدوان كبير على حد قول الوكالة البريطانية ، وقد استخدم بعض المشاركين في المظاهرة في تلك الأعمال قنابل المولوتوف التي لم تستخدم من قبل في البحرين .

ونتيجة لذلك بدأت القوات البريطانية في الساعة الحادية عشر والنصف بالتمركز في شارع عيسى بناء على طلب الحكومة البحرينية ، فارضة حظر التجول بدءاً من الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، عاملة في الوقت ذاته على ازالة الحواجز والاحجار عن طريق المحرق البحري مما نتج عنه إنسياب المرور فيه من جديد . وقد تولد شعور بالثقة لدى الأجانب عند وصول أول طلائع قوات المشاه الملكية البريطانية .

ونتيجة لانتشار القوات المذكورة في الشوارع وتمركزها حول بعض الشركات والمكاتب الأوربية شهد الوضع الداخلي تحسناً نسبياً . وتم رفع حظر التجول من الساعة الثامنة صباحاً حتى العاشرة قبيل الظهر يوم ٤ نوفمبر من أجل توفير وقت ملائم للتحرك حول مدينة المنامة ، ولتسيير المواصلات من المحرق لاحضار تعزيزات اضافية وكافية لحماية العاملين في الشركات المنعزلة في منطقة المطار[٦] .

6) Political Diaries, OP. cit., P. 235

ويعود طلب الحكومة البحرينية نزول القوات البريطانية الى اتفاق مسبق بينها وبين المقيم السياسي البريطاني في البحرين نص على انه في حالة عجز قواتها عن السيطرة على الأوضاع فإنها سوف تقوم بإستدعاء القوات البريطانية من أجل اعادة الأمور الى ما كانت عليه .

وكان مبعث الطلب المسبق لنزول تلك القوات بحسب ما أورده المقيم السياسي الآتي :

أولا : انه كان هناك انطباع لدى الأوساط الشعبية بأنهم - أي البريطانيين - ومعهم الفرنسيين قد شجعوا الهجوم الاسرائيلي حتى يكون لهم مبرر لاعادة احتلال القناة .

ثانيا : انه كان هناك انتقاد لموقفهم الذي تم بالتعاون مع الفرنسيين الذين يأتون في المرتبة الثانية من الكراهية بعد اسرائيل .

ثالثا : ظهور تعليقات من أشخاص حكماء تقول إن معظم الجماهير العربية تقف مع عبد الناصر سواء كان على حق أو على باطل ، وإنهم اذا هاجموا مصر في الظروف الراهنة سوف يكون العالم العربي كله ضدهم(٧) .

فبناء على ذلك سارع المقيم السياسي الى تنبيه الحكومة البحرينية على ضرورة اتخاذ الاجراءات اللازمة ، وفي حالة عدم نجاحها فلابد من طلب القوات البريطانية ادراكاً منه على ما يبدو لنا لصعوبة الموقف الذي هم فيه .

والجدير بالاشارة انه على الرغم من سيطرة القوات البريطانية على الوضع الا ان بعض المجموعات استغلت فترة رفع حظر التجول فقامت بمظاهرة على طريق البحر بالمحرق قاذفة الحجارة على بعض المصالح الأجنبية مما حدا برجال الشرطة إلى استخدام الغاز المسيل للدموع واطلاق الرصاص لتفريق المتظاهرين ، وعدم رفع حظر التجول في المساء ، ولذا شهد مساء ذلك اليوم هدوءاً تاماً بإستثناء توزيع منشور جديد أصدرته لجنة هيئة الاتحاد الوطني رقم (٧٨) كان فحواه على شكل قرارات اتخذت من قبل الهيئة المذكورة تدعو الى :

أولا : مقاطعة السلع الانجليزية والفرنسية .

ثانيا : الامتناع عن شحن أو تفريغ السفن التابعة للدولتين .

ثالثا : عدم تموين الطائرات التابعة لهما .

رابعا : عدم تموين القوات البريطانية بالطعام والمؤن المختلفة وانسحاب الموظفين والعمال من خدمة تلك القوات .

---

7) F.O. 371/120567, Tel. No.971, From P.R. in Bahrain To F.O. in London, October 31, 1956.

وتضمن المنشور أيضاً احتجاجاً على إلقاء القبض على ابراهيم فخرو أحد أعضاء الهيئة الوطنية(٨) .

ونتيجة لصدور ذلك المنشور وتفادياً من تأزم الموقف بسببه ، بدأت السلطات المحلية بفرض غرامة مالية على مخالفي حظر التجول ، منشئة من أجل ذلك محاكم خاصة الحقت بمقر رئاسة الشرطة ، ومع ذلك تعرض الحظر للخرق ، ولكن على نطاق ضيق وطبقت على مخترقيه غرامة حظر التجول وبخلاف ذلك قامت السلطات المحلية بإصدار قرار آخر يمنع تجمع أكثر من عشرة أفراد معاً كإجراء احترازي كما يبدو لنا عندما قامت تلك السلطات بالاعلان :

أولا : بأنها قامت بالقبض على الأعضاء البارزين لهيئة الاتحاد الوطني وهم عبد الرحمن الباكر وعبد العزيز الشملان وعبد العلي عليوان وابراهيم موسى★ موجهة إليهم عدة تهم كالتآمر على قتل الحاكم وقلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة وتدمير قصر الحاكم والمطار .

ثانيا : حل هيئة الاتحاد الوطني(٩) .

مبررة سبب الحل بحسب ادعائها بفشل الهيئة في الوفاء بالالتزامات التي تعهدت بها عند الاعداد لمسيرة الجمعة ـ ١ نوفمبر ـ وللتخريب الذي نجم عن ذلك ، وفي المساء اذاع الحاكم ـ شيخ البحرين ـ بياناً ندد فيه بهيئة الاتحاد الوطني لعدم نجاحها في التعاون مع الحكومة لتهديدها لكل مواطن يريد التعامل مع الحكومة ، مؤكداً على ضرورة ايجاد هيئة مسؤولة لتمثيل مصالح الشعب والتعاون مع الحكومة داعياً مواطنيه في نهاية البيان إلى وجوب عودتهم لأعمالهم .

واستجابة لنداء الحاكم من أجل عودة المواطنين لأعمالهم ، رفع حظر التجول عن الفترة الصباحية حتى الخامسة مساءً ، ففتحت المكاتب والشركات الأوربية أبوابها واقبل بعض الموظفين البحرينيين على العمل ، وفتحت الأسواق أيضاً وان بقيت الحوانيت الكبرى مغلقة أبوابها وذلك بسبب الشائعات عن وقوع مزيد من الاضطرابات ، حيث كان بعض التجار غير مستعدين للمخاطرة ببضائعهم ما لم تتواجد قوات شرطة كافية في السوق .

---

8) F.O. 371126871. Monthly Diary Nouvember 1956. Britsh Residenoy. BAHRAIN. January 10. 1957.

★ لمعرفة المزيد حول كيفية القاء القبض على الأشخاص المذكورين يمكن الرجوع الى عبد الرحمن الباكر : المرجع السابق .

9) F.O. 371/12549, manthly Diary, December 1956, Britsh Residency, Bahrain, January 25,1957.

وفي ٨ نوفمبر ، ولهدوء الأحوال فتحت المزيد من الحوانيت أبوابها ، واعلنت الحكومة انتهاء الاضطرابات وعودة الموظفين إلى أعمالهم بحيث عادت الحياة في ١٠ نوفمبر بشكل ما يشبه الوضع الطبيعي مع عودة غالبية الأوربيين من عوالي(★) وهي المنطقة التي تحصنوا فيها خلال تلك الاضطرابات الى المنامة من جديد(١٠) .

مما سبق يمكن القول إن ردود الفعل تلك والتي أخذت في بعض أطوارها طابع العنف تكشف لنا عن مدى تعلق الشارع البحريني بالثورة الناصرية وتوجهاتها ، كما قدمت لنا في الوقت ذاته مؤشرات تعطينا تفسيراً صادقاً عما كان يكنه ذلك الشارع من حقد دفين ضد الوجود البريطاني في بلاده ، وقد وجد في العدوان البريطاني على مصر فرصة من الفرص للتعبير عن ذلك الحقد ورفضه الشديد لكل أشكال تواجده .

## ثانيا : الكويت :

تواردت إليها أنباء العدوان الثلاثي في نفس اليوم الذي تواردت إلى البحرين ، فكان لها صدى عميق واثارت مشاعر الكراهية بشكل ملحوظ ضد البريطانيين وبخاصة في أوساط الفلسطينيين والمصريين وغيرهم من المواطنين العرب الذين كانوا يعملون في الكويت ، وبالرغم من انه لم يظهر رد فعل شعبي فوري ، فإن الوكيل السياسي ذكر حاكم الكويت بمسؤولياته وواجبه نحو حماية الأجانب المقيمين في الكويت والحفاظ على حياتهم وممتلكاتهم ، فأكد له الحاكم إنه يدرك جيداً ما يحدث داخل البلاد ، ووعده بانه لن تقع أية متاعب .

غير انه مع كل التأكيدات والضمانات التي قدمها الحاكم للوكيل السياسي الا ان الأخير كزيادة في الحرص ، التقى مرة أخرى بحاكم الكويت وبالشخصين المسؤولين عن ادارة الأمن العام وادارة الشرطة ، فأكد له الجميع مرة أخرى سيطرتهم على الموقف وإستتباب الأمن في بلدهم(١١) ويمكن تفسير شدة حرص الوكيل السياسي في الحصول على تلك الضمانات والتأكيدات من السلطة فيما يبدو لنا بالآتي :

---

★ يعود تحصن الاوربيين في منطقة عوالي لكونها منطقة خاصة لشركة بابكو البحرينية ويبدو انها كانت منطقة مغلقة بحيث لا يستطيع أحد الدخول فيها الا بتصريح خاص .

10) F.O. 37112549, BAHRAIN manthly INTELLIGENCE Sumerly, November, 1956.

11) F.O. 371/120551, Confidential Annex To kuwait Diary No.- 8 covering THe Period July 31-August-26,1956.

أولا : ادراكه لتصاعد تعاطف الرأي العام في الكويت مع عبد الناصر نظراً لوقوفه موقفاً قوياً ضد الغرب ، وكانت لديه شواهد على ذلك يمكن ذكر واحد منها على سبيل المثال وهو استجابة الكويتيين لنداء عبد الناصر عندما دعا البلاد العربية الى الاضراب احتجاجاً على مؤتمر قناة السويس في لندن ، حيث تجمع حوالي ٤٠٠٠ شخص مساء يوم ١٤ أغسطس ١٩٥٦ في النادي الثقافي الوطني ، القيت خلال ذلك التجمع خطب تمجد عبد الناصر وتطالب بالاضراب في اليوم التالي وهو اليوم الذي حدده عبد الناصر للاضراب[١٢] .

ثانيا : ما ساد الكويت في يوم ٢٨ أكتوبر من جو مشوب بالحنق والغضب احتجاجاً على اعتقال فرنسا لخمسة جزائريين ، اذ شهدت الكويت في ذلك اليوم بطوله اضراباً عاماً حيث ظلت المحلات التجارية والاسواق والمكاتب مغلقة فيه ، بالاضافة الى عقد اجتماع في مساء اليوم نفسه في قاعة مدرسة الشويخ الثانوية تحت اشراف ادارة التعليم بالتعاون مع الاندية الكويتية ، حضره أكثر من ٤٠٠٠ شخص من مختلف المستويات والجنسيات بما فيهم بعض أفراد الأسرة الحاكمة ، وعلى رأسهم الحاكم بالانابة عبد الله بن مبارك الصباح . ولقد القيت عدة خطب كان من بينها خطبة الدكتور أحمد الخطيب الذي كان يعتبر من أبرز الشخصيات الشعبية في الكويت ، اذ وصفت خطبته بإنها كانت نارية وصفق له الحاضرون كثيراً عندما أشار الى ضرورة استخدام الأموال الكويتية المجمدة في دعم القضايا العربية ، وانتهى الاجتماع بدعوة الجمهور الى التبرع للثورة الجزائرية ، وبعد ذلك تجمع عدد محدود من الجمهور في موكب سار في الشارع العام بإتجاه المدينة وكانوا يرددون الهتافات التي تطالب بدعم الجزائر .

والجدير بالتنويه ان مشاركة الحاكم بالانابة في الاجتماع المذكور قد فسرت من ناحيتين :

الناحية الأولى : رحب بها كبادرة لتلاحم الكويت مع الدول العربية الأخرى وهو ما كانت تتعاطف معه العائلة الحاكمة .

---

12) Loc. cit.

أما الناحية الأخرى : فقد فسرها البعض بضعف الحكومة في مواجهة المد المتزايد لتيار القومية(١٣) .

وقد ظهر أول رد فعلي من جراء العدوان الثلاثي على مصر في ٢ نوفمبر من جانب لجنة الاندية(★) التي كثيرا ما كانت تتبنى في ذلك الوقت الدفاع عن القضايا الداخلية في الكويت نفسها والخارجية ذات الصلة بالقضايا العربية ، إذ وزعت منشوراً ادانت فيه التصرف البريطاني ضد مصر ، ودعت إلى اضراب واجتماع جماهيري في يوم ٣ نوفمبر .

إلا أن الشرطة اذاعت بياناً للجماهير عند الظهيرة تؤكد فيه عدم السماح بتنظيم أية مظاهرات أو حدوث أية اضطرابات ، فبناء على ذلك بقى الوضع على ما هو عليه إلى اليوم التالي حيث ظلت أغلبية المتاجر فاتحة أبوابها الى ان تم عقد اجتماع جماهيري غاضب في مسجد السوق الرئيسي ، فأخذت المتاجر في أغلاق أبوابها تدريجياً ، وأخذت قوات الأمن العام والشرطة في الاشتباك مع الجماهير لتفريقها ، واستمر ذلك نحو ساعتين في قلب المدينة واسفر الاشتباك عن إصابة رأس اثنين من المتظاهرين ، ولم تكن هناك حاجة للخوض في المزيد من العنف ، فقد تمت السيطرة على الموقف بإستثناء مظاهرة أو اثنتين استمرتا بعض الوقت قذفت خلالها الحجارة على دار الوكيل السياسي البريطاني ، واستطاع أحد أفراد العائلة الحاكمة وهو الشيخ مبارك بن عبد الله الأحمد السيطرة على الموقف بفاعلية(١٤) .

وفي محاولة من قبل لجنة الأندية في استثمار النجاح المحدود الذي حققته في اليوم السابق عندما استجابت الجماهير لدعوتها ، أصدرت منشوراً جديداً تحض فيه على استمرار الاضراب ، وبالفعل استجابت لذلك أغلب الجماهير والمدارس نظراً لسيطرة العناصر الموالية لمصر والاصلاحية على ادارة التعليم .

---

13) F.O. 371/120555, Eyewitness Report Of The strike and Meeting Held in Kuwait on October-28-1956 in Protest A Gainst The French Action in Arresting Five ALGERIAN Leaders.

★ الاندية المذكورة كانت ممثلة في نادي المعلمين والخريجين والنادي الثقافي القومي وقد اغلقت في أواخر الخمسينات من قبل الحكومة نظراً لتعرضها في مناقشاتها واجتماعاتها لمسائل كان يعتبرها المسؤولون خارجة عن قوانينها .

14) F.O. 371/120549, Confidential Annex To Kuwait Diary No.11 Covering The Period October 28 To November 18,1956.

وفي نهاية اليوم ذاته ناشدت اللجنة الجماهير التي استجابت لدعوتها لانهاء هذه الاضرابات مؤكدة استمرار الحملة بالأساليب السلمية أوضحتها في نشرة لاحقة تضمنت في جملتها الآتي :

أولا : تنظيم المظاهرات مستقبلاً واعداد المزيد لها .

ثانيا : مقاطعة البضائع والسفن والطائرات البريطانية والفرنسية .

ثالثا : تجنيد متطوعين لخوض الحرب مع مصر .

رابعا : جمع الأموال وتقديمها لمصر(١٥) .

وتأكيدا لما جاء في المنشور الأخير ، فقد تقدم ممثلو الأندية وادارة التعليم بمجموعة من المطالب للحاكم والشيوخ المسؤولين الآخرين كانت على النحو التالي :

١ ـ جمع التبرعات لمصر .

٢ ـ فتح باب التطوع للقتال مع المصريين .

٣ ـ الغاء عقود الشركات البريطانية .

٤ ـ مقاطعة السلع البريطانية والفرنسية وسحبها من السوق .

٥ ـ طرد كل البريطانيين العاملين في الحكومة والشركات الكويتية .

وقد قبل الحاكم المطلبين الأولين ، الا انه رفض بقية المطالب متذرعاً بأن التجار يمكنهم اختيار السلع من أية دولة يريدونها والمستهلكين احرار فيما يشترون(١٦) .

ظل الجو العام يومي ٥ و٦ نوفمبر متوتراً وان كان هادئاً ، فقد كانت الشوارع وجدران المنازل مغمورة بلافتات تحض على مقاطعة السلع البريطانية والفرنسية وعدم التعامل مع رعايا الدولتين وتحث على التبرع لاخوانهم المصريين الابطال ، وبالقرب من دار المندوب السياسي البريطاني كتبت باللغة الانجليزية على جدران المنازل عبارة «الموت للاعداء» .

ونتيجة لظهور تلك اللافتات في الشوارع بدأ التوتر في التزايد رغم الهدوء النسبي ضد البريطانيين في شوارع الكويت حيث انصبت عليهم النظرات الغاضبة من قبل فئات الشعب الكويتي . وفي الوقت ذاته سعت لجنة الاندية وبتشجيع من ادارة التعليم وبخاصة من مديرها عبد العزيز حسين ، وبدعم من مدير ادارة الشرطة المقدم جاسم القطامي في العمل على تنفيذ المطالب الأخيرة التي قدمت للحاكم .

---

15) F.O.371/120557 Tel. No. 304 From P.A. Kuwait To F.o., London, November 4,1956

16) F.O. 371/120567, Tel. No, 310 From P.A. Kuwait To F.O., London. November 7 1956.

وفي سعي آخر لاتخاذ اجراءات مناهضة للدول المعتدية استطاعت لجنة الاندية إقناع خمسين من كبار التجار في المدينة بعقد اجتماع يوم ٨ نوفمبر لبحث فرض المزيد من اجراءات المقاطعة ، وسبق ذلك عقد اجتماع مع الوكلاء التجاريين للمطالبة بعدم عرض نماذج للسلع البريطانية والفرنسية في الأسواق ، وبقطع العلاقات مع الشركات حاملة جنسيتي الدولتين ، وبوضع السلع التي سبق التعاقد عليها لاستيرادها منهما في القائمة السوداء ، والأكثر من ذلك اعداد سجل بأسماء الوكلاء المخالفين لهذه المطالب بغية وضع أسمائهم في القائمة السوداء حتى لا يتعامل التجار معهم مستقبلاً .

وتلافياً لتعقد الأمور حسب إعتقادنا مع لجنة الاندية وخوفاً من اتهامهم بعدم التعاون قرر التجار تشكيل لجنة مصغرة تتكون من ستة عشر عضواً ، لبحث الوسائل اللازمة لمواجهة الموقف حيث أشار التجار من خلالها بصراحة انهم سيتعرضون لخسائر فادحة اذا نفذوا المقاطعة ، كما ان تخليهم عن الوكالات التجارية لسلع الدولتين مسألة ضارة جداً بالاقتصاد الوطني لإن الدول الأخرى المجاورة والمنافسة للكويت ستحصل على هذه التوكيلات ، ومع ذلك فقد أبدوا رغبتهم في ايجاد حلول توفيقية تتمشى مع قرارات لجنة الأندية .

والجدير بالاشارة انه على الرغم من مطالب لجنة الأندية الجدية وتأكيدها على عدم التعامل مع البريطانيين ، فقد ظلت الائتمانات المالية مفتوحة بين الكويت وبريطانيا ، بالاضافة الى ذلك فإن العقود البريطانية مع الادارات الحكومية لم تلغ بإستثناء ادارة التعليم التي قررت عدم الاستمرار في تنفيذ عقود الموردين البريطانيين ، كذلك رفضت أغلب الحوانيت سواء أكانت عربية أم هندية التعامل مع البريطانيين ، الا ان بعض التجار رحبوا بتوصيل السلع لزبائنهم البريطانيين واستمروا في التعامل بحرية مع خدمهم .

وقد بدأت موجة الغضب الشعبي في التراخي مع وقف اطلاق النار في مصر ، وكان أبرز دليل على ذلك هو الغاء العمل في مشروع التطوع بعد ان تطوع ما بين ١٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ شخص تولى صندوق مصر الانفاق عليهم[١٧] .

مما سبق يمكن القول إن رد الفعل الشعبي في الكويت قد اتخذ طابع تنظيم وسائل مناهضة ذات فاعلية في التأثير على مصالح الدول المعتدية في المستقبل القريب أكثر من طابع المظاهرات والاضطرابات كما في حالة البحرين

17) Political Diaries Of The Persian Guf. OP. Cit., P.P. 237-241.

## ثالثا : قطر :

كان وصول أنباء العدوان الثلاثي إليها في الوقت نفسه الذي وصلت فيه إلى بقية الامارات المجاورة ، ولذلك فبمجرد وصول تلك الأنباء سارع المندوب السياسي البريطاني في نفس اليوم لابلاغ الشيخ أحمد ابن الحاكم بما حدث طالباً منه ضمانات مؤكدة بأنه ووالده سيفعلان كل ما هو ممكن للحفاظ على سلامة الأجانب وحماية ممتلكاتهم ، فما كان من الشيخ أحمد الا ان أكد له نيابة عن والده الذي كان آنذاك متواجداً في الريان تحقيق ذلك ، كما تحدث المندوب السياسي وفي اليوم ذاته أيضاً مع المستشار وقائد الشرطة اللذين كان من رعايا بريطانيا ، ومديري شركة نفط قطر وشركة شل لاتخاذ الاحتياطات اللازمة تجاه أي طاريء .

وتأسيسا على ذلك ، فقد بدأت قوات الأمن منذ الساعة الخامسة صباح اليوم التالي بالانتشار حول المنشآت الحيوية والوكالة البريطانية ، ورغمًا عن ذلك وزيادة في الحرص قام المندوب السياسي بالتحدث مع الحاكم نفسه في اليوم ذاته ، حيث ابدى الحاكم الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني ، خلال ذلك امتعاضه الشديد من التصرفات البريطانية مشيراً الى انه لا يصدق بأن حكومة صاحبة الجلالة قد فعلت ما تذيعه الاذاعات ملوحاً له بإنه لن يكون هناك شيء مستحيل في المستقبل ، في اشارة منه فيما يبدو انه لا يستطيع كبح جماح شعبه أزاء ذلك العدوان ، ذاكراً ان العرب مثل المصريين تماماً ، والعرب متفقون في كراهيتهم لليهود منوهاً بأن الحكومة البريطانية بعدوانها تعمل ضد المعاهدات والمواثيق الدولية ، ومع ذلك وعد ببذل أقصى جهده للحفاظ على الأمن والسلام في قطر ، وانه اذا ساءت الأمور وخرجت عن نطاق سيطرته فسوف يطلب المساعدة في أي وقت[١٨] .

وقد تمثلت أولى علامات عدم الرضا في الأوساط الشعبية في اغلاق السوق الكبير وقطع أنابيب النفط على بعد ١١ ميلاً شرق منطقة أم باب حيث قام سائق بلدوزر قطري بعمل ذلك ، ويمثل هذا العمل بحسب اعتقادنا أول عملية تخريب لخطوط الانابيب في المنطقة ويأتي في المرتبة الثانية بعد عملية تدمير خطوط أنابيب التابلاين الذي قام به العمال السوريون أثناء العدوان .

وكانت الدلائل تشير الى ان حمد عبد الله العطيه هو مدبر هذه الأعمال التخريبية ، وبالاضافة الى عملية قطع خط انابيب النفط قام العاملون من الجنسية اللبنانية عند الظهر في شركة الدرويش وشركة لوفانتين ارتيزان - **Levantine Artisan** - بالاضراب عن العمل ، وفي اليوم ذاته قامت مظاهرة قام بها طلاب المدارس رددوا خلالها الهتفات المعادية لدول العدوان .

---

18) F.O. 371/120567, Tel. No. 965 From. P.R., Bahrain To. A London, November 2, 1956.

وفي صباح اليوم التالي شهدت منطقة السوق مظاهرة بدأت تتجه نحو الوكالة البريطانية يترأسها حمد العطيه وأخوه خليفة ، الا ان وصول الشيخ أحمد الى مكان المظاهرة استطاع ان يحول مسارها الى الضواحي الشرقية للمدينة وبالتالي منعها من الوصول الى مقر الوكالة ، ومع ذلك استمرت المظاهرة قرابة ساعتين(١٩) .

وفي خطوة من قبل السلطات المحلية للتقليل من الاندفاع الشعبي على ما يبدو لنا القى القبض على الاخوين حمد وخليفه العطيه على أساس انهما المحرضان للمظاهرات ويقومان بتشجيع الجماهير وتم حجزهما في منزل والدهما في الدوحة ، مع انه كان هناك اتجاه لسجنهما أو ابعادهما من البلاد(٢٠) ومن ناحية أخرى فقد سرت شائعة مفادها بأن العمال الفنيين سيدمرون المشروع الضخم في أم سعيد★ الا ان مجموعة من حرس الحاكم والضباط البريطانيين تم ارسالها من الدوحة الى أم سعيد ، ولم تجد أية متاعب هناك . وبعد الظهر قامت مجموعة من الفلسطينيين بتنظيم مظاهرة في قلب الدوحة بعد اعلان سقوط غزة ، وللمرة الثانية استطاع الشيخ أحمد تفريقها مع مجموعة أخرى كانت توقف السيارات وتردد الشعارات المعادية .

وفي ٣ نوفمبر أعلن عن اضراب عام ، وان كان العمل في أم سعيد ودخان قد سار بشكل طبيعي نظراً لوجود عمالة غير عربية في هذه المشروعات الحيوية . والغريب في الأمر انه على الرغم من ان المدرسين عادة يقودون عملية اثارة المشاعر الوطنية الا انهم لم يلعبوا دوراً بارزاً في تهييج الرأي العام القطري .

وفي تطور آخر وكنوع من ابداء عدم الرضا من قبل الحكومة القطرية تجاه العدوان الثلاثي على مصر رفض الحاكم السماح بتصدير النفط القطري الخام الى البحرين ، وفي الوقت ذاته قام ٢٠٠ شخص بتقديم اسمائهم للتطوع معلنين عن رغبتهم في التطوع للقتال بجانب المصريين وكان من بينهم بعض رجال الشرطة .

والجدير بالاشارة انه على الرغم من تزايد الغضب يوماً بعد يوم ضد بريطانيا سواء على مستوى الحاكم أو الشعب الا ان ذلك لم يمنع الحاكم وابنه من بذل أقصى جهد لحماية الأمن في قطر لدرجة ان الحاكم انفق مبالغ طائلة لاغراء الناس بإلتزام الهدوء بحسب ادعاء احدى الوثائق البريطانية .

---

19) Political Diaries Of The Persian Gulf, OP. cit, P.P. 241-243.

20) Records Of Qatar, Primary Documents 1820 1960,. vol.. 7. 1949-1960 Archive Edotions, 1991, P.P. 447-448.

★ ميناء تصدير النفط والمصفاة .

والسؤال لماذا اتخـذ حاكم قطر موقفـاً حازمـاً ومتشدداً ضد المظاهرات المعادية لبريطانيا بالرغم من عدم تعاطفه معها ؟

وقد فسرت الوثائق والمصادر البريطانية ذلك الموقف كالآتي :

أولا : ان أحداث البحرين قد أعطته مؤشراً انه عندما يتساهل الحاكم مع الاضطرابات الشعبية فإن الأمور تخرج عن سيطرته .

ثانيا : اقتنـاعه بأن حياة شعبه تتوقف على التدفق المستمر للنفط لكون بلاده فقيرة من الناحية الزراعية والصناعية[٢١] .

هذا وقد بدأت الأوضاع تستقر بعد اعلان وقف اطلاق النار وبالتالي عودة الحياة كسابق عهدها .

## رابعا : الامارات المتصالحة(★) :

كان الموقف فيها متوتراً وبصفة عامة في امارتي دبي والشارقة ، وظهر رد الفعل فيهما بعدما حدث في البحرين وقطر من أحداث بعدة أيام ولقد تعاون كل من الشيخ راشد بن سعيد حاكم دبي والشيخ صقر القاسمي حاكم الشارقة مع الوكالة البريطانية لضمان الحفاظ على الأمن العام .

وقد التقى في ٣ نوفمبر الشيخ راشد بأعيان دبي ووجهائها حيث أعلن أمامهم انه لن يسمح بأية مظاهرات أو أي حديث معاد لبريطانيا ، بينما هدد الشيخ صقر بإعتقال المعلمين المصريين والأردنيين .

ومع ذلك حـدث اضراب عـام ومظاهرات في يومي ٥ و٦ نوفمبر في دبي وقد اتخـذت على وجـه السرعـة التدابير اللازمـة والمناسبة ، فأحاطت فرق كشـفية «كشـافة عمـان Lavy - Oman Group -»(★) بدار الوكالة البريطانية وانتشرت دوريات الشرطة في مختلف ارجاء المدينة وبخاصة في الأماكن التي ينتظر ان تقع فيها المتاعب والشغب ، الا ان شيئاً لم يحدث في الواقع بإستثناء اشعال النار في كراج منزل مساعد الوكيل السياسي والتي أخمدتها قوات الحراسة وبعض أفراد الشعب مما قلل من حجم الخسائر كثيراً .

---

★ دولة الامارات العربية المتحدة حالياً .

★ هذه الفرق قامت بانشائها السلطات البريطانية في الامارات المتصالحة وكانت بمثابة قوات جيش محلية رادعة وكان يقودها بريطاني .

21) Loc. Cit.

أما في الشارقة فقد تجمع طلاب المدارس محاولين إحراق المنشآت العامة في القاعدة البريطانية الجوية الموجودة في الشارقة مرددين شعارات معادية لبريطانيا ، مما دفع بالمندوب السياسي البريطاني الى تحذير مدير المدرسة بأنه سيكون مسؤولاً عن تصرفات طلابه وخاصة وان بعض المعلمين كانوا يحرضون الطلاب بالفعل ، فهدأت الأحوال بعد ذلك باستثناء تجمهر بعض الطلاب مرددين هتافاتهم المعادية لبريطانيا في وجوه الضباط البريطانيين العاملين في جمعية الكشافة العمانية ، وحتى ٢٦ نوفمبر ظهرت ثلاث محاولات لاشعال الحريق مرة واحدة : منها على سبيل المثال محاولة احراق منزل قائد كشافة عمان ، وقد بذل حاكم الشارقة جهوداً كبيراً لتتبع المجرمين المسؤولين على حد قول المصادر البريطانية عن حوادث الحريق الا ان تلك الجهود باءت بالفشل مما حدا بالحاكم ان يعلن عن مكافأة قدرها ٥٠٠ روبية لمن يقدم له اسماء المسؤولين عن تلك الحوادث .

أما في أبو ظبي فإن شيوخ آل أبو فلاح وجمهور المدن فيها كانوا مشغولين كالعادة بأمورهم الخاصة والشؤون المحلية حتى انهم كانوا لا يهتمون كثيراً بالشؤون الدولية ، ولهذا فقد رحبوا وبشكل غريب بالتدخل الثلاثي ، ويعود ترحيبهم فيما يبدو لتشككهم كثيراً في الروابط الوثيقة القائمة آنذاك بين القاهرة والرياض وخاصة فيما يتعلق بموضوع مشكلة البريمي المحتدمة في ذلك الوقت بين كل من السعودية من جهة وأبو ظبي وعمان من جهة أخرى وتدعيم بريطانيا لهما في ذلك وأكثر من ذلك فإن موقف المسؤولين في أبو ظبي لم يتوقف عند حد عدم الترحيب بل انهم أبلغوا المندوب السياسي انه يجب على الاسرائيليين تلقين عبد الناصر درساً قاسيا مع تمنيهم بالمضي قدماً في تنفيذ خطتهم ـ أي البريطانيين ـ حتى تتحقق النتيجة المنطقية الا وهي القضاء على حكومة ناصر ، فإنسجاما مع ذلك الموقف لم تحدث أية أحداث شغب أو أعمال عدائية على الاطلاق(٢٢) ، ويبدو لنا ان سبب ذلك يرجع الى ان المجتمع في امارة أبو ظبي لم يكن سوى مجتمع بدوي منغلق على نفسه في ذلك الوقت ولم تكن معالم التحديث التي مست اقطار الخليج المجاورة قد اطلت بوجهها في ذلك المجتمع .

والجدير بالاشارة ان ردود النعل بدأت بالانكماش في الامارات المتصالحة وبالذات في دبي والشارقة اللتين كانت فيهما ردود الفعل أكثر وضوحاً عن باقي الامارات المتصالحة بعد دخول وقف اطلاق النار حيز التنفيذ .

---

22) Political Diaries Of Persian Gulf, Op. cit., P.P. 243-246.

**خامسا : عمان :**

لم يسفر العدوان الثلاثي على مصر أي رد فعل فيها حيث كان السلطان العماني شخصياً يبدي هو وأسرته وأفراد الشعب الموالين له ، وبخاصة عرب الساحل والعاصمة انتقادات لناصر ، ويرجع هذذا الموقف أساساً الى محاولات المصريين التدخل في السياسات العمانية من خلال تشجيع المناوئين لحكومته وهم جماعة الامامة الذين كانوا في حرب دائمة مع سلطان عمان بغية الحصول على استقلال تام لعمان الداخل(٢٣) .

تلك هي أهم ردود الفعل الشعبية التي حدثت في اقطار الخليج من جراء العدوان الثلاثي والتي جاءت متفاوته من امارة لأخرى من حيث طابعها ودرجة حدتها .

ومن الأهمية بمكان ان نجيب على السؤالين التاليين قبل ان نسدل الستار على الموضوع :

أولهما : هل كانت الأوساط البريطانية المسؤولة في المنطقة تتوقع مثل تلك ردود الفعل الشعبية في حالة قيام بريطانيا بإي اعتداء على مصر ؟

وثانيهما : لماذا جاءت ردود الفعل الشعبية عنيفة الطابع في كل من البحرين والكويت بينما كانت أقل عنفاً في قطر وباقي الامارات الأخرى ؟

بالنسبة للسؤال الأول فإن الاجابة عليه تكمن في ما تكشفه لنا احدى الوثائق البريطانية الخاصة بأحداث السويس حيث أوضحت تلك الوثيقة بأنه سرت مجموعة من المخاوف في أوساط المسؤولين البريطانيين من ذوي الاطلاع على الشؤون المحلية في المنطقة بعد تأميم جمال عبد الناصر قناة السويس ووجود بوادر استخدام القوة من قبل بريطانيا ضد مصر مفادها بأن استخدام القوة من قبل الحكومة البريطانية ضد مصر سوف يزيد من متاعبهم في المنطقة بسبب :

أولا : ان عبد الناصر يعتبر بطلا في انظار جميع العرب ، وستعتبر هزيمته اذلالاً لجميع العرب الأمر الذي سيؤدي الى ازدرائهم وكراهيتهم وليس احترامهم .

ثانيا : ان موقفهم في امارات الخليج يتوقف جزئياً على معرفة امكانية تدخلهم بالقوة ومدى قبول ذلك التدخل من السكان المحليين وحتى أولئك المستفيدين من وجودهم في المنطقة مثل الحكام وأسرهم حيث سيجدون من الصعب كبح شعورهم اذ انه من المستحيل ان يشعروا بما يشعر به بقية العرب ويكونوا على علاقة وثيقة بهم ـ البريطانيين ـ في نفس الوقت .

---

23) IBID,P. 246.

ثالثا : اذا استمرت الاضطرابات فإنهم سيضطرون الى اجلاء رعاياهم ، وهذا من شأنه ان يؤدي الى الارتياب والى فقدان مواقعهم في الحكومات المحلية وفي قطاع التجارة ، وقد يكون من الصعب استرداد هذه المواقع مرة أخرى .

رابعا : ان أي عمل ناجح من جانبهم ضد القوات المصرية قد يبدو للعرب انه مفيد لاسرائيل ، ففلسطين هي المسألة الوحيدة التي تجلب الكراهية لسياستهم في مختلف انحاء العالم ، وسيتم أحياء ككل الشكوك السابقة التي أساسها بأن الصهيونية هي المؤثرة في سياستهم .

خامسا : في ضوء تلك التفاعلات المحتملة فإن كل امارات الخليج العربية ستفعل ما في وسعها لانهاء العلاقة الخاصة بينها وبين بريطانيا وسيشمل ذلك تعطيل الامتيازات النفطية وعليه سيضطرون الى المحافظة على مواقعهم في المنطقة بالقوة في مواجهة شعوب عدوانية ولزمن غير محدود .

سادسا : أما في حالة قبولهم للحل السلمي بالرغم من انه لا يخدم متطلباتهم سينظر إليه مؤقتاً على انهم قد فقدوا مكانتهم ولكن سيكون هناك احترام كبير لصبرهم وقدرتهم الدبلوماسية الأمر الذي سيعوضهم عن فقدانهم المكانة ، وستستمر العلاقات الطيبة مع السلطات المحلية والشعوب ، ولأسباب تتعلق بالمصالح الذاتية فلن تكون هناك محاولات جادة لانهاء مشاركتهم في موارد النفط المحلية(٢٤) .

أما بالنسبة لاجابة السؤال الثاني ، فإن تميز ردود الفعل في كل من البحرين والكويت من حيث حدة طابعها عن باقي الامارات كان راجعاً بحسب أعتقدنا الى :

أولا : ان كلتا الامارتين كانتا أسبق امارات الخليج في ذلك الوقت من ناحية الانفتاح الداخلي سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي أولا بسبب زحف التيار القومي اليها . وثانيا : الى الطفرة التي حدثت فيهما في المجال الاقتصادي والثقافي ، وذلك بعد تزايد تدفق النفط وعودة بعض الطلاب المبعوثين وتدفق كثير من الوافدين على منطقة الخليج هذا اذا ما استثنينا دور الصحافة فيهما وما كانت تلعبه من دور في نقل التيارات الموجودة في الساحة الوطنية والعربية .

---

24) F.O. 371/120571, Tel. No. 723, From P.R., Bahrain To F.O., London, August 13, 1056, "repercussions Of The Suez canal Dispute".

ثانيا : وجود هيئات وطنية ذات طابع اصلاحي مثل هيئة الاتحاد الوطني البحريني ولجنة الاندية في الكويت والتي كان لها بلا شك دور كبير في تعميق الحس الوطني لدى الجماهير وتعبئتها عن طريق منظريها بالاضافة الى لعبها دور الجماعات الضاغطة في مجتمع كل منهما ، مما جعل حكوميتهما تضع مطالبها في الاعتبار الى حد ما .

ثالثا : وجود طبقة عمالية أكثر تسييساً من الامارات الأخرى حيث كانت توجد في تلك الفترة وبالأخص في البحرين نواة لاتحاد عمالي نظراً لوجود طبقة عمالية كبيرة من المواطنين لعبت دوراً كبيراً في الأحداث الوطنية الداخلية بالاضافة الى مساهمتها في الوقوف إلى جانب القضايا العربية التحررية .

تلك هي جملة الأسباب التي لعبت دوراً في أخذ ردود الفعل في البحرين والكويت طابع العنف فيما يبدو لنا بخلاف أمارات الأخرى التي لم تتوفر فيها نفس الظروف ونفس الهيئات المذكورة حيث كانت على سبيل المثال في قطر تتسم ردود الفعل فيها بالعشوائية والتي كان من أبرزها كما مر بنا قطع احد أنابيب النفط ، إلى جانب المظاهرات التي كان يتبناها أشخاص لهم ثقل اجتماعي كالأخوين حمد وخليفه العطيه ، ولكن مع هذا فإن ذلك لا ينفي بأن تأثير المد الناصري الثوري كان قليل التغلغل والتجذر في أوساط شعوب تلك الامارات ويكفينا ان نتوقف عند المثال القطري على سبيل المثال لا الحصر لنقيس من خلاله مدى تغلغل ذلك المد فيها سواء قبل العدوان الثلاثي أو خلاله والذي يمكن تجسيده من خلال الآتي :

أولا : كانت قطر في مقدمة امارات الخليج بأكملها في جمع التبرعات لتسليح الجيش المصري(★) اذ بلغت تلك التبرعات في حدود ٤٣٥ ٩٣٠ روبية حتى يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٥٥(٢٥) وهذا التهافت الشعبي على جمع تلك التبرعات الضخمة قياساً بأيام الخمسينات كان مردها تولد قناعة لدى الشعب القطري على إعتبار الجيش المصري جيشا عربيا قبل ان يكون جيشا مصريا ودليلاً على مدى تغلغل الناصرية فيه .

ثانيا : كثرة الاضرابات التي شهدتها قطر في أوساط عمال النفط لدرجة ان ذلك دفع المدير العام لشركة نفط قطر المحدودة الى ابداء عدم ارتياحه لكثرة الاضرابات التي وقعت في مناطق

---

★ صفقة الأسلحة التشكيلية .

(٢٥) جريدة الوطن البحرينية ، العدد ١٦ ، ٣٠ ديسمبر ١٩٥٥ .

عمال الشركة في عام ١٩٥٥ حيث أعرب للحاكم عن ذلك الاستياء بقوله ان استمرار هذه الاضرابات وعدم التعرض للمضربين سوف يعرض مصالحه ـ الحاكم ـ ومصالح شركته للخسارة معاً(٢٦).

ثالثا : انسجاما مع شعارات عبد الناصر الثورية وايمانا بها قام الشباب القطري باطلاق اسماء ثورية على الأندية الرياضية التي قاموا بإنشائها في تلك الفترة كنادي الوحدة والنصر والعروبة والكفاح والتحرير والاحرار .

وانسجاما مع ما سبق يمكن التأكيد على ان تأثير الدعوة الناصرية كان متغلغلاً في نفوس جميع أبناء الخليج وان اختلفت أساليبهم وامكاناتهم في التعبير عن مدى تعلقهم بها .

خلاصة القول انه من خلال دراستنا هذه عايشنا واقعا عربيا تمثل في ردود الفعل التي شهدتها امارات الخليج نتيجة العدوان الثلاثي على مصر التي كانت قد خرجت عن طاعة الدول الاستعمارية والتي حاولت بدورها عن طريق استراتيجية الاجهاض ارجاعها الى فلكها مرة أخرى ولكن تصميم القيادة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر وشخصيته الكرزمية جعل الشعب المصري يتكاتف عن بكرة أبيه للدفاع عن ثورته ومنجزاتها والى جانبه الشعب العربي من المحيط الى الخليج الذي توسم في الزعيم الذي كان يقود رد العدوان صورة البطل التاريخي الذي طال انتظار ظهوره على الساحة العربية منذ أمد بعيد .

---

(٢٦) ابراهيم شهداد . تطور العلاقة بين شركات النفط ودول الخليج العربية منذ عقود الامتياز الأولى حتى عام ١٩٧٣ ، الدوحة، مطابع قطر الوطنية ، ١٩٨٥ ، ص ١٩٦ .

# المصادر والمراجع

**أولا : المصادر والمراجع العربية :**


١ ـ ابراهيم شهداد . تطور العلاقة بين شركات النفط ودول الخليج العربية منذ عقود الامتياز الأولى حتى عام ١٩٧٣ ، الدوحة ، مطابع قطر الوطنية ، ١٩٨٥ .

٢ ـ محمد الـرميحي . البحرين ، مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي ، بيروت ، دار ابن خلدون ، ١٩٧٦ .

٣ ـ مصطفى عبد القادر النجار . التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج ، البصرة ، مركز دراسات الخليج بالبصرة ، ١٩٧٥ .

٤ ـ هلال الشـايجي . الصحـافـة في الكـويت والبحـرين منذ نشأتها حتى عهد الاستقلال ، البحرين ، مطبوعات بانوراما الخليج ، ١٩٨٩ .


**ثانيا : الدوريات العربية :**


١ ـ جريدة الوطن البحرينية ، العدد ١٦ ، ٣٠ ديسمبر ١٩٥٥ .

## ثالثا : المصادر والمرجع الأجنبية :

### أولا : الوثائق :

- F.O. 371/120567, Tel. No. 971, From P.R. in Bahrain To F.O. in London October, 31, 1956.
- F.O. 371/126871, Monthly Diary November 1956, Britsh Residency, BAHRAIN, January 10, 1957.
- F.O. 371/12549, manthly Diary, December 1956, Britsh Residencym Bahrain, January 25, 1957.
- F.O. 371/120551, Confidential Annex To Kuait Diary No.-8 convering The Period July 31-August-26, 1956.
- F.O. 371/120555, Eyewitness Report of The strike and Meeting Held in Kuwait on October-28-1956 in Protest A gainst The French Action in Arresting Five Algerian Leaders.
- F.O. 371/120549, Confidential Annex To Kuwait Diary No. 11 Covering The Period October 28 To November 28. 1956.
- F.O. 371/120557, Tel No. 304 From P.A. Kuwait To F.O., London, November 4, 1956.
- F.O. 371/120567, Tel. No, 310 From P.A., Kuwait To. F.O., London, November 7, 1956.
- F.P. 317/120567, Tel. No. 965 From. P.R., Bahrain To. A London, November 2, 1956.
- F.O. 371/120571, Tet. No. 723, From P.R., Bahrain To F.O., London, August 13, 1956, "Respercussions Of The Suez canal Dispute"
- Political Diaries Of Persian Gulf, Vol. 20, 1955-1958, Archive Editions, 1990.
- Recored Of Qatar, Primary Documents 1820-1960 Vol. No. 7, 1949-1960 Archive Editions, 1991.

### ثانيا : الكتب والدراسات :

- Rosemarie Siad Zahlan, The Gulf States And Palestine Problem 1036-1948, Arab Studies Quaterly, Vol. 3 No. 1 Winter, 1981.

# حركة الشيخ عثمان بن فودى الاصلاحية
# في غرب أفريقيا واثارها الدينية

د . عبد الله عبد الرازق ابراهيم
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
بجامعتي القاهرة وقطر

**تمهيد :**

انتشر الدين الإسلامي في مناطق كثيرة من غرب أفريقيا ، وقامت دول إسلامية على أنقاض الإمارات الوثنية مثل دولة مالي التي ساهمت بنصيب كبير في نشر الدعوة الاسلامية خصوصا عندما ذهب ملوكها إلى أداء فريضة الحج في مكة المكرمة ، وعادوا حاملين لواء هذه الدعوة ومنهم على وجه الخصوص نذكر السلطان منسي موسى (١٣٠٧ ـ ١٣٣٢) والذي كان موكب حجه في عام ١٣٢٤ ومروره على مصر والبلدان الإسلامية الأخرى من أهم العوامل التي جعلته من أكبر دعاة الإسلام في غرب القارة بعد أن أمتدت دولته إلى مدينة جاو في بلاد النيجر حاليا . واخترق الصحراء الكبرى وتوغل في المنطقة الاستوائية جنوبا .(١)

وبعد انهيار دولة مالي ظهرت دولة صنغي على انقاض هذه الدولة وحمل ملوكها لواء الدعوة الإسلامية ابتداء من القرن الرابع عشر وتوسعوا أيضاً ناحية الجنوب ، وظلوا يمارسون هذا الدور حتى أواخر القرن السادس عشر عندما تعرضت هذه الدولة للغزو المراكشي من بلاد المغرب بعد الحملة التي قام بها القائد جودار باشا ، ودخل عاصمة هذه الدولة (مدينة تمبكت) وقضي على ما بقي من ملوك صنغي في عام ١٥٩١ م وذلك عندما أرسل المنصور السعدي سلطان مراكش بعد انتصاره على البرتغاليين في معركة وادي المخازن في عام ١٥٧٨ هذه الحملة الى صنغي للحصول على الذهب الذي اشتهرت به هذه الدولة . واستطاع جيش المنصور السعدي المكون من أربعة آلاف جندي أن يدخل تمبكت وينهي دور هذه الدولة الاسلامية . ولتصبح قصة الغزو المغربي أحلك حلقة من حلقات التاريخ الدامي بالنسبة للممالك الاسلامية في القارة .

لقد كان أثر هذا الغزو مدمرا حيث ساءت أحوال السودان الغربي ، وعاش الناس في عزلة اقتصادية ، وتشرد العلماء ، وتم سجن رجال الدين ، وصادر المغاربة أملاكهم ، وهرب أغلب المشتغلين بالعلم الى المشرق الاسلامي ، وعاث المغاربة فسادا في هذه المناطق الاسلامية ، وصارت طبقة الرماة المغاربة هي الطبقة الارستقراطية ، وبدأت غارات البدو من الطوارق على هذه المدن الاسلامية ، وانقسمت الدولة إلى عدد من القبائل المتنافرة ، بل والمتنافرة ، ولم تعد هناك دولة تجمع شعوب المنطقة تحت زعامة واحدة ، وعاد السكان إلى الديانات المحلية الوثنية ، وصار الدين الإسلامي غريبا بين سكان هذه المناطق ، وبالتالي اختلطت البدع والعادات الوثنية بالقيم الدينية . ولم يعرف السودان الغربي سوى السلب والسطو والنهب والحرب المستمرة ، والصراعات الدائرة على السلطة طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر . وباختصار جاءت حملة المنصور السعدي إلى غرب أفريقيا تحمل معها الخراب والدمار بدلا من العلم والمعرفة ، وقطعت أواصر النسب والارتباط بين شعوب المنطقة .

ولم ينقـذ هذه المنطقة من حالة الفساد والفوضى إلا بعد ظهور جماعات الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودى الذي أعلن ثورة الجهاد الاسلامي ضد الوثنيين ، وضد الحكام المسلمين الذين عرفوا من الإسلام مظاهره ، ونسوا تطبيق الشريعة في أمور حياتهم ، وكان ظهور هذا الشيخ بداية الصحوة الإسلامية الكبرى في غرب أفريقيا ، كما كان إعلانه الجهاد الإسلامي في أوائل القرن التاسع عشر بداية مرحلة جديدة في تاريخ غرب أفريقيا ، وفي منطقة شمال نيجيريا التي كون فيها إمبراطورية الفولاني التي حملت عبء هذه الدعوة الإسلامية(٢) .

وقبل الحديث عن دعوة الشيخ عثمان وجهاده للقضاء على البدع والخرافات ، يجدر بنا أن نلقي نظرة عن شعب الفولاني الذي قاد الجهاد ، وأحوال المنطقة سياسيا واجتماعيا ، وعلاقة هذه الحركة بالدعوة السلفية الكبرى في شبه الجزيرة العربية ، وذلك حتى تكتمل صورة هذا الجهاد في غرب القارة .

## من هو شعب الفولاني الذي قاد الجهاد الاسلامي ؟

لقد اختلف المؤرخون حول أصل هذا الشعب ، وانقسموا شيعا وأحزابا ، ويرى المؤرخ الفـرنسي ديبـوا (Dubois) بأنهم من الـبربـر ، وأنهم انحدروا من منطقة أدورار شمال بلاد السنغال ، وأنهم اندفعوا الى غرب أفريقيا بعد طرد المسلمين من الأندلس ، واشتغلوا بالزراعة والرعي(٣) .

ويرى عالم الأجناس البريطاني سلجمان (Seligman) أن الفولاني قد انتشروا تدريجيا في السودان الغربي وأعالي السنغال خلال امبراطورية غانا ، وأنهم شقوا طريقهم الى بلاد الهوسا في نهاية القرن الثالث عشر ، وأصبحوا قوة مسيطرة في هذه المنطقة بعد إعلان الجهاد الإسلامي في القرن التاسع عشر(٤) .

ويرى المؤرخ المصري ابراهيم طرخان أن الفولاني من مصر العليا ، وأنهم هاجروا غربا عبر ساحل شمال أفريقيا إلى المحيط الاطلنطي ، حيث استقر البعض منهم ، وواصل البعض الآخر رحلته جنوبا واختلطوا ببلاد الهوسا ، واعتنقوا الدين الإسلامي ، ولكنهم ظلوا من الرعايا المناوئين لحكام الهوسا أو غيرهم(٥) .

أما المؤرخ البريطاني فيج (Fage) فيرى أنهم نزحوا من حوض النيل وأنهم من أصل حامي وأنهم دخلوا بلاد السودان عن طريق مصر(٧) .

ويـطالعنـا مؤرخ آخـر يدعى جونستون (Johnston) بأنهم جاءوا أساسا من الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا ، وأنهم شعب شق طريقه تدريجيا حول القارة الافريقية حتى منطقة سانجامبيا في مصب نهر السنغال ، ومع مرور الزمن تحركت هذه الجماعات نحو الشرق على طول بلاد السودان الغربي(٦) .

وتتشعب الآراء ، وتختلف التفسيرات حول أصل هذا الشعب ، بل ويرى بعض المؤرخين أنهم ينتمون الى ذرية سيدنا ابراهيم واسحق عليهما السلام في الوقت الذي يعتقد الفولاني أنهم من سلالة عقبة بن نافع (٧) .

لكن مهما اختلفت الآراء ، فإن الفولاني انتشروا في كل السودان الغربي كرعاة بدو مستقلين ، وأنهم كانوا يدفعون الضرائب الى الحكام المحليين ، وأنهم اعتنقوا الدين الإسلامي منذ القرن الحادي عشر على أيدي المرابطين ، وأنهم تحمسوا للدعوة الإسلامية ونشروها في دولة غانا ، وعاشوا في ظل دولة مالي يمارسون حياتهم الخاصة ، وكانت جماعة منهم قد انتقلت الى بلاد الهوسا منذ القرن الثامن عشر ، واستقرت جماعة منهم في إمارة جوبير ، وهي الامارة التي شهدت ميلاد أكبر حركة إصلاحية في غرب أفريقيا في القرن التاسع عشر بزعامة الشيخ عثمان بن فودى .

وإذا كنا قد تحدثنا عن الشعب الفولاني الذي قاد مسيرة الجهاد في القرن التاسع عشر ، فإن الأمر يتطلب استعراضا للمنطقة التي ستكون مسرح هذا الجهاد ونواة الدولة الاسلامية الكبرى ، وبداية انطلاق حركات الإصلاح في جميع مناطق غرب القارة .

إن منطقة جهاد الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودى هي بلاد الهوسا التي تقع حالياً ضمن الجزء الشمالي من دولة نيجيريا . والهوسا ليسوا مجموعة قبلية ، بل انهم ينتمون إلى أصول جنسية مختلفة ، يتحدثون لغة مشتركة هي لغة الهوسا ، وقد ظهرت هذه الجماعة نتيجة الهجرات من شمال أفريقيا إلى السدوان الغربي ربما في القرن العاشر الميلادي ، ثم اختلط المهاجرون مع السكان المحليين ، ونتج عن ذلك ظهور مجتمع جديد اتخذ من النظام العشائري أسلوباً له في الحياة ، ولم يخضع لأي سلطة مركزية ، وقام المهاجرون ببناء المدن المسورة ، ونشأت المدينة الدولة التي سيطرت على الريف المجاور .

وفي القرن السادس عشر سيطرت أمبراطورية البرنو على هذه الدويلات التي صارت تعرف باسم دويلات الهوسا السبع وهي دورا وكانو ورانو وكاتسينا وزازو وجوبير وجارون جاباس .

ودخل الدين الإسلامي الى هذه الامارات في أوائل القرن الرابع عشر ، وقامت نظم ثابتة للحكم استمدت نصوصها وتعاليمها من الشريعة الإسلامية ، وتكونت المدينة الدولة ، وقامت صناعات على خام الحديد ، وراجت التجارة عبء الصحراء الكبرى إلى شمال أفريقيا .

ورغم انتشار الإسلام في هذه الامارات ، إلا أن الوثنية ظلت سائدة بل واختلطت البدع والخرافات مع المفاهيم والتعاليم الإسلامية ، وتبادل الحكام الوثنيون السلطة ومراكز القوة في هذه

الامارات ، وظهرت المنافسة التجارية بين إمارات الهوسا ، وكانت السلطة السياسية هي التي تحدد مصير كل إمارة لأن الصراع كان يتركز حول كيفية الوصول الى حدود آمنة وثابتة ، وبرزت قوة كل من إمارات كانو وكاتسينا وكيبي وجوبير . وفي القرن السابع عشر انهارت إمارة كيبي وبـرزت زمغـرا كأقوى الامارات في أوائل القرن الثامن عشر وبسطت نفوذها على غيرها من الامارات ، ورغم هذا فقد فشلت في تكوين دولة موحدة في تلك الفترة لأن الضعف كان قد انتاب الإمارات ، وصار الصراع طابع الحياة السياساسية ، كما كان ظهور إمارة جوبير من أهم العوامل التي ساعدت على القضاء على إمارة زمغرا[٨] .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، استطاعت امارة جوبير انتزاع السيادة من إمارة زمغرا ، وتصارعت مع كل من كاتسينا وكيبي وكانو . وقد أدى هذا الصراع المستمر الى خلق جو من الانقســام والتفكك وعدم الاستقرار . وأدى ذلك الى استنزاف موارد الامارات ، وتضييع الطاقات البشرية في هذه الصراعات ، ورغم نجاح جوبير في ضم إمارة زمغرا عام ١٧٦٤ إلا انها لم تتمكن من توحيد بقية الامارات أو تكوين دولة واحدة تشمل كل بلاد الهوسا .

في هذا الجـو الـذي تحكمـه الصراعات المحلية والمفاسد الدنيوية ، نسي الناس أصول الدين ، وتفشت البدع والعادات الوثنية ، وصار الحكام المحليون لا يعرفون كثيراً عن دينهم ، بل وتقلد السلطة بعض الوثنيين . وكانت الجماعة الوحيدة التي ظلت متمسكة بالقيم الاسلامية هي جماعـة الفـولاني التي مارس رجـالهـا أعبـاء نشر الدعوة ، وصار منهم القضاة والمدرسون والأئمة . وبذلت هذه الجماعة جهدا كبيرا لنشر الدعوة الاسلامية بين حكام يدينون بالاسلام شكلا ومظهرا ، وتصدى رجال الدين لهذه القيادات الوثنية ، وأصبح الطريق ممهدا لنشر مباديء الدين الحنيف على أسس سليمة هو طابع الحياة في هذه المرحلة ، وكان التحدي من جانب الحكام المحليين في امارات الهوسا وخاصة في امارة جوبير الدافع الأساسي لقيام أكبر حركة جهاد شهدتها المنطقة في مطلع القرن التاسع عشر .

وعنـدمـا أحس أحـد أبناء الفولاني المسلمين بما ألم بالدين على أيدي هؤلاء الحكام شبه الـوثنيين ، أعلن الجهاد في سبيل الله لاعادة الدين الاسلامي أصوله وقواعده ، وصارت أمارة جوبير هي الساحة التي انطلقت منها هذه الثورة الاسلامية ، التي غيرت مجرى حياة السكان ، وأعادت للدين الاسلامي هناك مكانة لم يحققها في القرون السابقة ، وصار الجهاد الفولاني لاخماد البدعة وأحياء السنة هو العمل الكبير الذي قام به الداعية والمجاهد عثمان بن فودى .

ويجدر بنا ان نتوقف قليلا لنستعرض سيرة هذا الزعيم الذي كان له ولحركته الاصلاحية

فضل كبير في نشر الدين الاسلامي على نطاق واسع في غرب أفريقيا ، ولازالت نيجيريا تدين حتى يومنا هذا لحركة ذلك المجاهد الذي جعلها أكبر دولة اسلامية في غرب أفريقيا .

لم يتوقف جهاد هذا الرجل عند حدود اعلان حرب على الوثنيين ، بل تعداه الى إقامة دولة اسلامية حملت لقب الخلافة الاسلامية في سوكوتو ، وظل أبناؤه يحكمون في هذه الدولة الواسعة طوال قرن من الزمان ، وكان لأحفاده شرف النضال والكفاح ضد الأوروبيين الذين جاءوا غازين لديار الاسلام والمسلمين ، فكانوا حماة الدين وشهداء العقيدة الاسلامية في غرب أفريقيا أوائل القرن العشرين .

## أولا : ظهور الشيخ عثمان واعلان الدعوة الاسلامية :

لقد كان ظهور الشيخ عثمان بن فودى في امارة جوبير ، ايذانا بقيام دولة اسلامية في غرب أفريقيا . ولد هذا الشيخ في مكان يدعى مارتا في أرض جالى بامارة جوبير في ١٥ ديسمبر عام ١٧٥٤ ، واشتهر والده باسم فودير أو فودي (Fodi) التي تعني بلغة الفولاني «المتعلم» ، وانتقلت أسرته الى ديجل (Degel) حيث حفظ القرآن الكريم ، وعاش في بيئة متدينة ، وعندما بلغ مرحلة الشباب تفتح عقله وازدادت مداركه ، واندهش لحال المسلمين في تلك الجهات حيث ظهر الدين أمامه وقد شابته البدع ، واختلطت به الخرافات وعبثت به أيدي المضللين(٩) .

ولما بغ العشرين من عمره بدأ حلقات التعليم ، وسلك طريق القادريين حيث كانت الطريقة القادرية أكثر انتشاراً في غرب أفريقيا ، ويصفه أبنه بأنه نشأ عفيفا متدينا ، ذا خلال مرضية ، وهو عالم العلماء ورافع لواء الدين ، أحيا السنة ، وأمات البدعة ، ونشر العلوم ، وكشف الغموم ، وبهر علمه العقول ، فسر القرآن سنين عديدة ، وبث العلوم فملأ القطر المغربي معارفا وتلاميذا وكان فصيحا ، فاضلا ، حسن الخلق جميل العشرة(١٠)

ونظراً لأن الحديث عن الشيخ طويل ، وحياته حافلة بالنضال والكفاح ، لانه وهب نفسه لخدمة الدين الاسلامي ، وأعلن حربا لا هوادة فيها على المشركين ، فسنحاول التركيز على دوره الجهادي والأحداث التي جعلت منه قطبا لكل أفريقيا الغربية . فبعد ان حفظ كتاب الله واهتدى بسنته ، واحتك بعلماء عصره سواء بطريق مباشر أو غير مباشر توافدت عليه جموع المسلمين ، وازداد اتباعه يوما بعد يوم . الأمر الذي أقلق مضجع أمير جوبير ، فحاول اعتراض طريقه ، بل ووافق على قيام مجتمع اسلامي في مدينة ديجل وبدون ان يتعرض للشيخ واتباعه ، لأنه أحس أن الشيخ عثمان لم يكن طامعا في ملك أو سلطان ، بل كان عاكفا على العلم والتعليم(١١) .

مات حاكم امارة جوبير وجاء من بعده حاكم آخر يدعى نافاتا (Nafata) أدرك قوة اتباع الشيخ عثمان ، وأحس بالخطر على ملكه فما كان منه إلا أن أصدر مرسوما يتضمن من الأمور ثلاثة :

أولها : عدم السماح لأي شخص باعتناق الدين الاسلامي إلا من ورثه عن أجداده .

ثانيها : لا يسمح لأحد بلبس العمامة بعد تاريخ المرسوم ، وألا تضرب امرأة بخمارها على وجهها .

ثالثها : عدم السماح لأحد بالوعظ إلا الشيخ عثمان .

واذا حللنا بنود هذا المرسوم النافاتي نجد انه حركة للحد من نشاط الشيخ وعدم السماح لدخول أناس جدد في الدعوة المحمدية ، وعودة النساء الى السفور والخروج عن تقاليد الشريعة الاسلامية ، وقصر الوعظ والارشاد على الشيخ نفسه وكل هذه الأمور تعرقل مسيرة الكفاح والجهاد ، ونشر الدعوة .

كان من الطبيعي أن يعارض فريق من اتباع الشيخ هذه الأوامر ، وخصوصاً عبد الله بن فودى الأخ الاصغر للشيخ وساعده الايمن في حركته الاصلاحية ، فقرر الوقوف بعنف ضد هذه الاجراءات مهما كلفهم ذلك من مشاق ، لكن الشيخ عثمان عارض استخدام القوة لأنه في بداية طريق طويل ، ولا يريد الدخول في صراع مع الطبقة الحاكمة حتى لا تتشتت جهوده ، وتتبدد محاولاته ، وينصرف عن هدفه الاسمي نحو إعلاء كلمة الدين ، ورفع راية الاسلام والمسلمين خفاقة بين السكان الوثنيين . وفي نفس الوقت أدرك الشيخ أن الصدام مع الحكام مؤجل الى حين ، وأن الوقت لم يحن للقضاء على اعداء الدين ، فقبل المرسوم وهو يعلم علم اليقين ان الدائرة سوف تحل على هؤلاء المشركين ، لأنه يؤمن بانتشار الدعوة الاسلامية بالطرق السليمية حتى يحين الوقت لاعلان الجهاد المسلح ضد كل من يقف في سبيل الله والدين .

كان هذا المرسوم بداية مرحلة جديدة من جهاد المسلمين في غرب أفريقيا ، حتى أن بعض المؤرخين يعتبره الطلقة الأولى التي أشعلت نار الجهاد . لكن شاءت الاقدار أن يموت هذا الحاكم في عام ١٨٠٣ بعد قليل من إصدار مرسومه وخلفه ابنه يونفا (Yunfa) أحد تلاميذ الشيخ عثمان ، ووعد الحاكم الجديد بانهاء ما جاء في المرسوم وطاعة أوامر أستاذه والسماح له بحرية الوعظ والارشاد ، لكن شعر هذا الحاكم بخطر الشيخ فانقلب رأساً على عقب ، ووصلت به الحال الى التفكير في قتل سيده وأستاذه ، والتآمر على أتباعه وأعوانه ، وتعقدت الأمور وازدادت العلاقات سوءاً بعد رفض الشيخ أن يسلم أحد رجاله ويدعى عبد السلام لهذا الحاكم الجوبيري الذي هاجم بلدة عبد السلام وقتل الناس وهم نيام في شهر الصيام .

وتمادى هذا الحاكم في إذلال المسلمين وعلى رأسهم الشيخ عثمان ، حيث طلب منه ترك الجماعة ، والعيش في المنفى وحيداً ، لكن الشيخ رفض ترك جماعته ، وقرر التحرك بهم الى مكان بعيد يدعى جودو (Gudo) ، وهنا أصدر الحاكم أمراً بالقبض على الشيخ ، وطلب من حكام الامارات قتل المسلمين ومصادرة أموالهم ، وغزو القرى الاسلامية ، ونهب ما فيها ، فكان هذا العمل بداية الجهاد وإعلان قيام الدولة الاسلامية(١٢) .

بعد هذا أصبح الشيخ قائداً وإماما لجماعة المسلمين من الفولاني الذين وجدوا فيه ارتفاعا لشأنهم ، وتمجيداً لآمال طالما كانوا يحلمون بها فصاروا عدته وصلاحه ضد قوى البغي والضلال(١٣) .

## ثانيا : قيام الجهاد وتأسيس الدولة الاسلامية :

كانت الهجرة الى مدينة جودو بداية تأسيس امبراطورية الفولاني التي اتخذت من مدينة سوكوتو عاصمة لها ، وأخذ الشيخ معه الأنصار والاتباع الى أطراف الصحراء ، وهناك اقروا له بالطاعة والولاء ، وحلفوا اليمين على طاعته على الكتاب والسنة ، وحمل الشيخ لقب أمير المؤمنين ، ذلك اللقب الذي استمر مع الخلافة حتى نهايتها في عام ١٩٠٣ ، كما حمل لقب خليفه في بعض الأحيان ، وهو اللقب الذي حمله أبناؤه وذريته من بعده .

كانت هذه البيعة بداية الجهاد ، وايذانا بتأسيس الخلافة الاسلامية ذلك لأن البيعة كانت تعني نقل الجهاد من الدور السلبي الى الدور الايجابي الجديد ، وانتشرت أخبار الجهاد ضد حكام الهوسا ، وأصدر الشيخ وثيقة «أهل السودان» التي صارت اعلانا رسميا للجهاد حيث حدد الشيخ الأسس التي بني عليها الجهاد ، مثل الهجرة من بلاد الكفار . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واتباع الكتاب والسنة باعتبارهما أهم مصادر التشريع . وقد أقرت الوثيقة هذه المباديء بشكل مفصل ، وأعلنها الشيخ حرباً على الكفار والوثنيين حيث أصر على قتال البغاة . والملك المرتد الذي خرج عن دين الاسلام إلى دين الكفر .(١٤) .

كان الرد العملي على هذه الوثيقة أن أرسل الحاكم الى أخوانه الأمراء في كاتسنا وكانو ودورا يطلب منهم المساعدة لأنه أهمل اطفاء شرارة من النار في امارته حتى اتسعت رقعتها وزادت حدتها ، وصارت فوق احتماله القضاء على خطورتها .

وتعتبر وثيقة أهل السودان من الوثائق التاريخية الهامة التي قام السير بالمر بجمعها والتعليق عليها ، وهي من المخطوطات النادرة التي وقع ناسخها اسمه تحتها ، ويدعى محمد ساعي ابن أمير دورا واسمه اسحق .

وسميت وثيقة أهل السودان لأنها عبارة عن رسالة موجهة ليس فقط إلى أهالي جوبير بل الى كل سكان السودان الغربي ، حيث أعلن الشيخ من خلالها الحرب على كل الوثنيين . وقد تضمنت الوثيقة سبعة وعشرين بندا هي خلاصة المباديء والتعاليم التي نادى بها الشيخ في الفترة الأواى من جهاده . وانتهت الوثيقة كغيرها من وثائق غرب أفريقيا بدون تاريخ مكتوب في آخرها ، كما أنها لا تشير الى شخص معين . ولا موقف محدد ، ولا مكان ما . ومن أهم هذه التعاليم أن الأمر بالمعروف واجب إجماعا ، وأن النهي عن المنكر واجب إجماعا ، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة أجماعا ، وأن تأمير الأمراء في البلدان واجب إجماعا ، وأن الجهاد وأجب إجماعا .

وقد صدرت هذه الوثيقة بعدأن اشتد النزاع ، وتفاقم الخلاف بين الشيخ وحاكم جوبير ، وأصبح التفاهم صعبا بين الطرفين . وهي باختصار خطاب مفتوح يحدد النقاط الرئيسية لتعاليم الشيخ عثمان وشكواه من معارضيه ، كما انها المبررات لاعلان الجهاد الإسلامي ضد الحكام الوثنيين .

تزعم سلطات جوبير جبهة المعارضة ضد الشيخ عثمان ، وصارت الحرب وشيكة بين المؤمنين والوثنيين ، ولم يجد الشيخ بدا من اعلان الجهاد في سبيل الله ، فلبي تلاميذأ النداء ، لأن ارتباطهم به لم يكن مجرد حلقات درس بل كان الارتباط عميقاً بالحب والتقدير ، فكانوا له مؤيدين تكبدوا المعاناة وتحملوا عيء الكفاح عندما هاجم الشيخ أمارة جوبير وقرر حاكمها تأديب الشيخ عثمان ، فحدث الالتحام وبدأت الحرب وانتقلت الدعوة من مرحلة السلم الى مرحلة الهجوم المسلح ، بعد ان أغار حاكم جوبير على قرى وممتلكات الموحدين(١٥) .

وفي الرابع من يونية عام ١٨٠٤ تقدمت قوات الجهاد بزعامة عبدالله بن فودى ، الذي أخلى مواقعه في جودو توقعاً لهجوم من سلطان جوبير واتجه إلى بحيرة تابكين كوتو ، وعلى ضفاف هذه البحيرة أطبق المسلمون على قوات خصومهم ، ودارت عليهم الدائرة ، فهرب من وجد سبيلا لذلك ، وسقط في ساحة المعركة الكثير ، وتفرق شمل الاعداء في أول مواجهة حاسمة في الجهاد ، لكن النصر لم يكن نهائياً ، لأن قوات المشركين عادت بعد أن جمعت قواتها في ١٨٠٥ وبدأت الهجوم من جديد على الشيخ وجماعته ، ودارت معركة تسونسو التى هزم فيها المسلمون ، وراح منهم أكثر من ألف شهيد ، لكن المسلمين صدوا الهجوم . استمرت الحرب سجالا بين الطرفين دون تفوق طرف على الآخر ، وتمكنت قوات الجهاد من السيطرة على امارة كيبي (Kebbi) واتخذتها عاصمة للجهاد ، وتوالى سقوط امارات الهوسا في أيدي المسلمين حيث سقطت زاريا عام ١٨٠٥ ، واستمر النصر حليفا للشيخ واتباعه حتى تحقق النصر ودخل عاصمة

وتسمى الكالاوا في عام ١٨٠٨ ، وتم قتل السلطان يونغا مع عدد من اتباعه ، وانتهت مقاومة الوثنيين ، وصارت كلمة الذين آمنوا هي العليا ، وتوافدت القبائل ذرافات ووحدانا إلى معسكر الشيخ تعلن الولاء والدخول في الاسلام ، والانضمام الى حلف المسلمين ، وتوسعت امبراطورية الفولاني ، وتكونت أمارات جديدة ، وأعطى الشيخ اشارات وأعلام الى اعوانه الذين واصلوا الجهاد في مختلف المناطق من بلاد الهوسا ، وتوسعت الدولة ، ودخل الناس تحت رايات الجهاد ، وانتقل الشيخ إلى مدينة سيغاوا في عام ١٨٠٩ ، بينما استقر ابنه محمد بلو في مدينة سوكوتو .

والملاحظ ـ في معظم دول غرب أفريقيا ـ استخدام اصطلاح امبراطورية مثل امبراطورية البرتو وامبراطورية التوكولور وامبراطورية الفولاني ، واستخدام هذا اللفظ يعني فقط بناء دولة تخضع في سيادتها الى زعيم واحد ، يسيطر على كل مناطقها وعلى كل الحكام الداخلين تحت لوائه ، وقد اختلفت مساحة الامبراطورية من مكان لآخر حسب قدرة زعيم الجهاد على ضم مناطق إلى نفوذه .

## ثالثا : الغرض من الجهاد :

تعتبر حركة جهاد الشيخ عثمان من الحركات الاصلاحية الرائدة في غرب أفريقيا ، وكان لنجاحها بهذا الشكل الحاسم ، وانتشارها على نطاق واسع ، وتقبل الناس للمباديء التي نادى بها الشيخ أثر في اختلاف وجهة نظر المؤرخين حول الأهداف الأساسية لهذا الجهاد ، ولكن قبل أن نخوض في هذه الأهداف نلقي نظرة شاملة على أهم العوامل التي ساعدت على نجاح الشيخ عثمان بن فودى في شمال نيجيريا وهي :

١ ـ ساعد على نجاح هذه الحركة الضعف الذي استشرى في امارة جوبير بعد حروب مستمرة ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر مع امارتي زمفرا وكاتسينا ، كما واجهت هذه الامارة مشكلات داخلية نتيجة ازدياد نشاط حركة الاصلاح التي قام بها الشيخ عثمان من مقره في مدينة ديجل ، ومحاولاته نشر دعوته في الامارات المجاورة مثل مغرا ، هذا بالاضافة الى المشاكل الداخلية والخارجية بسبب قيام كل من كيبي وزمفرا بغاراتها على جوبير في السنوات الأولى من حكم يونغا في عام ١٨٠٢ .

٢ ـ وجود جماعات اسلامية في مناطق متفرقة من الامارة ، حيث كان الشيخ نشطا لمدة ثلاثين عاما قبل اعلان جهاده في عام ١٨٠٤ ، وانضم إليه عدد كبير من الاتباع المخلصين في ديجل وفي مختلف أنحاء امارة جوبير ، وعندما أعلن الشيخ الجهاد صارت هذه الجماعات محور الارتكاز

لنشاطه وساعده الايمن في جهاده ، ومصدر الطاقة البشرية التي استند عليها ، وصار قواد هذه الجماعات وكلاء عنه في حرب الجهاد ضد الوثنيين[1] .

٣ ـ لقد كان لأحياء الثقافة العربية في أواخر القرن الثامن عشر أثره في قيام حركة الجهاد حيث ساهم زعماء الحركة بقسط وافر في التمهيد لهذه الحركة ، مما جعل الناس يتقبلون هذا الجهاد ، وكانت الكتب والقصائد الشعرية قد بصرت المسلمين بأحوالهم ، وأخذت ترثي حالهم في السودان الغربي ، وتدعوهم الى قبول حركة الاصلاح ، والعودة الى المثل والقيم التي تضمنتها الشريعة الاسلامية ، وهكذا هيأت المؤلفات الأدبية والدينية ـ لزعماء الجهاد ـ النفوس للجهاد الاسلامي .

٤ ـ من العوامل الهامة التي ساعدت على نجاح الجهاد ذلك الدور القبلي في بلاد الهوسا ، ورغم ان الجهاد لم يكن حربا بين قبائل الهوسا والفولاني ، إلا أن الاختلافات القبلية قد زادت من حدة الصراع ، وكان علماء الفولاني هم الركيزة الأساسية في الجهاد حيث يمثلون طبقة الصفوة ، نظراً لما كان لديهم من مهارات وقدرات في النواحي الادارية والعسكرية ، بالاضافة الى ذلك القدر من الثقافة والعلم ، مما مكنهم من تقلد المناصب الرئيسية في الوعظ والارشاد والتعليم . وبسبب روابط الاخوة والجنس فقد مالوا الى اخوانهم من الفولاني الرعاة الذين تعاطفوا مع بني جنسهم عند اعلان الجهاد .

أما عن الأسباب الحقيقية لجهاد الشيخ عثمان فيمكن أن نحددها في النقاط التالية :

(أ) يرى فريق من المؤرخين المعاصرين للشيخ عثمان بن فودى وعلى رأسهم الشيخ محمد الأمين الكانيمي في بورنو ان الجهاد يخفي وراءه أطماعا سياسية غلفها الشيخ بثوب الاصلاح الديني ، لكن محمد بلو بن فودى قام بالرد على هذه الافتراءات على الشيخ وحركته في سلسلة من الرسائل فند فيها تلك الحجج موضحاً ان الجهاد حركة دينية هدفها الأساسي تحويل إمارات الهوسا الى الدين السلامي الحنيف .

(ب) يرى فريق آخر أن حركة الجهاد هي ببساطة ثورة لرفع شأن الفولاني ضد سياسة الهوسا ، أي أنها ثورة خططت ووضعت من أجل مساعدة الفولاني للسيطرة على أمور البلاد ، والسعي نحو تحقيق امتيازات كانوا قد حرصوا منها في عصور سابقة[1]

(جـ) حاول بعض المؤرخين تفسير الجهاد على أنه حركة اجتماعية ، وأنه حرب ضد الفساد والارهاب والظلم الذي كان سائداً في تلك الفترة ، ويضيف أصحاب هذا الرأي أن الجهاد

يعتبر تمرداً من الفلاحين ضد أسيادهم من حكام الهوسا ، وأن الشيخ عثمان كان يهدف الى الاصلاح الاجتماعي ، ومحاربة كل الأمور التي تخالف الشريعة الاسلامية .

(د) حاول أحد المؤرخين التوفيق بين كافة الآراء المختلفة ، فحدد أهداف الجهاد في أنه يمثل مرحلة استطاعت الأفكار الاسلامية ان تشق طريقها الى المجتمع ، وان تؤسس مجتمعا اسلاميا في أفريقيا جنوب الصحراء ، مثل المجتمعات التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية (الوهابية) ، أو في شمال أفريقيا (السنوسية) ، أو حركة الحاج عمر الفوتي (السنغال) ، وأن هذه الحركة لم تكن قاصرة على الفقهاء من الفولاني ، بل هي حركة شمولية لقيت استجابة من الهوسا والفولاني على حد سواء . فهي محاولة جادة للاصلاح مجردة من شبهة الجنس أو الرغبة في الملك ، وان الشيخ اضطر الى الاستعانة ببني جنسه حين حق عليه الجهاد ، فاتخذت طابعاً قومياً دينيا اصلاحياً(١٨) .

لقد لخص الشيخ عثمان بين فودى الهدف من هذا الجهاد حيث أوضح في (وثيقة أهل السودان) أن الغرض الأساسي من الجهاد هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والهجرة من بلاد الكفار ، وتنفيذ أحكام الشرع .

وعلى كل حال ، ومهما اختلفت الآراء حول الجهاد والاصلاح الديني الذي أعلنه الشيخ عثمان بن فودى في غرب أفريقيا ، فإن هذه الحركة قد غيرت أسلوب الحياة السائد في بلاد الهوسا ، وظهر مجتمع جديد تحكمه طبقة جديدة من رجال الدين والعلماء الذين لم يكونوا من أصول ملكية . بل رفعهم الدين الإسلامي إلى مصاف الأمراء . وبالتالي اختلف طابع الحياة السياسية . وبدلاً من سيطرة الحكام المحليين على أمور هذه البلاد ظهرت طبقة جديدة تسير وفق انماط جديدة في الحياة تختلف عما كانت سائدة في هذه الأرجاء من نظم وتقاليد ، وقد ساعد هذا على نشر الدين الاسلامي وتطبيق شريعته في كل منحى من مناحي الحياة ، ويرجع هذا الى جهود الشيخ عثمان الذي أخلص في عقيدته ، وكرس جهده من أجل نجاح حركته ، فكانت حركة مباركة ، انتهت بتأسيس دولة اسلامية كبرى ، تضم أقاليم شاسعة في غرب أفريقيا في كل بلاد الهوسا والمناطق المجاورة في برنو والكانم ، والمناطق الجنوبية في كيبي واللورين ، أي مناطق تمتد من بحيرة تشاد شرقا حتى منحنى النيجر غربا ، ومن الغابات الاستوائية جنوبا حتى الصحراء الكبرى شمالا(١٩) .

أما عن الأوضاع الاجتماعية في الدولة التي أقامها الشيخ عثمان بن فودى فقد ترتب على جهاده في النصف الأول من القرن التاسع عشر أن صار الدين الاسلامي أساس النظام السياسي

والاجتماعي في الدولة حيث تقلد رجال الدين والعلماء مناصب التدريس والقضاء ، وكان طبيعيا أن يتمتع الحكام في الإمارات المختلفة بثقافة إسلامية تمكنهم من ممارسة أعباء وظائفهم ، وتيسر لهم سبل مباشرة تطبيق الشريعة الاسلامية .

ولم تكن طبقة رجال الدين قاصرة على فئة معينة من السكان ، بل كانت مفتوحة لكل من تعمق في الدين ، وثبت أقدامه على طريق النصح والإرشاد والحجة القوية . وقد ظهر الدين الاسلامي في هذه الدولة . وصار أساس تشكيل طبقات المجتمع التي حملت مشعل الحضارة الى القبائل الوثنية ، وساهم التجار المسلمون في عملية التبادل التجاري بين هذه الشعوب والعالم الخارجي وصار الدين الاسلامي أيضاً أداة لتطوير النظام الاقتصادي في الدولة ، وصارت المعاملات الإسلامية أساس التعامل في الأسواق ، وحرم الإسلام شرب الخمر ، وأكل لحوم البشر ، والأخذ بالثأر وغير ذلك من العادات السيئة التي كانت سائدة في المجتمع ، كما أعطى الدين الإسلامي للمواطن الزنجي الحق في أن يصبح مواطناً حراً كريمًا بعد أن حرره من ربقة الرق ، وقضي على التجارة في الجنس البشري[٢٠] .

وظهر أثر الإسلام في جعل القرابة الدموية من ناحية الأب بدلاً من سيطرة السلطة الأمومية في تلك المجتمعات . كما ساعد الدين الاسلامي على تفتيت النظام القبلي تدريجيا ، وانخراط الناس في الدولة الإسلامية ، واتحدت كل القبائل سوياً تحت لواء دولة واحدة .

وبعد أن أقام الشيخ عثمان المجتمع الإسلامي بدأ الناس يحتفلون بالمناسبات الإسلامية الكبرى مثل عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، والمولد النبوي الشريف . وحاول الشيخ عثمان القضاء على كثير من العادات السيئة الخاصة بتعدد الزوجات ، وعادات التشريط والندب على الأموات وأحل محلها عادات قراءة القرآن في حجرة المتوفي ، والصلاة عليه ودفنه في مدافن عامة حيث لا توجد شواهد على القبور ، كما حرم الشيخ إشراك النساء في تشييع الجنازة ، وصارت ملابس الحداد الثوب الأبيض للرجال ، أما النساء فليس لهم زي خاص ، ولكن ينبغي أن تظل المرأة في بيتها لا تقابل فيها الرجال ، ولا تتزين طوال فترة الحداد[٢١] .

ومن العادات الإسلامية التي سادت في مجتمع سوكوتو تسمية المولود في اليوم السابع وسط حفل كبير يذبح فيه والد الطفل خروفا أو ثورا ، وجرت العادة على تسمية الطفل باسم أحد الأنبياء أو الصحابة .

وبإختصار فإن المجتمع الذي أقامه الشيخ عثمان بن فودى التزم بتطبيق الشريعة الإسلامية

خصوصا في مسائل الزواج والطلاق ، وتعدد الزوجات ، والاحتفالات الإسلامية الكبرى ، وعليه يمكن القول إن دعوة الشيخ عثمان كانت دعوة خالصة لتنقية الدين الإسلامي من العادات الوثنية التي أقرها حكام الهوسا السابقين لحركة الشيخ الإصلاحية .

## رابعا : مؤلفات الشيخ بن فودى :

لقد كان الشيخ عثمان بن فودى أحد الزعماء المسلمين القلائل الذين أثروا في شعوبهم ، وأدوا الأمانة على وجه طيب ، وقادوا شعوبهم بشكل سليم وسط الأمواج المتلاطمة والظلمات الدامسة ، حتى وصلوا الى بر الأمان ، وأنشأوا دولة اسلامية كبرى شملت بلاد الهوسا وغيرها من أقاليم نيجيريا الحالية ، وكانت دعوته شاملة ومتنوعة ، وكان طبيعيا أن يصاحب هذا التحول الثوري في مجمعات غرب أفريقيا الوثنية ومع بداية تأسيس الدولة الاسلامية أن يوضح قائد الجهاد ورائد مسيرة النضال في تلك المجتمعات الزنجية بايضاح وجهة نظره حول أهم المشكلات التي تواجه الناس في حياتهم ، بل وكل القضايا التي تعترض قيام الدولة وتوسعاتها ، فجاءت مؤلفات الشيخ عثمان لتكون نبعا للفكر وينبوعاً للثقافة ، ومرشداً للناس في عالم صار الجهل أبرز سماته ، ولتكون مصدراً للفتوى والتشريع ، وكانت هذه الكتب تشرح الدعوة وتفسر مختلف النظريات ، وتعالج كافة القضايا الفقهية ، وترد على افتراءات الناس حول الدعوة الاصلاحية .

إن من يطلع على مؤلفات الشيخ المتعددة ، يدرك عمق ثقافة هذا العالم الذي كان بليغا ، خطيباً ، شاعراً ، فصيحاً ، فاضلا ، جميل العشرة كريم الصحبة ، شديد المعارضة ، مقطوعاً بولايته وقدراته القيادية .

وتؤكد هذه المؤلفات أن الشيخ عثمان كان واسع الاطلاع على الأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الخلفاء الراشدين واتباعهم ، وآراء الائمة الأربعة ، وآراء العلماء المشهورين في غرب أفريقيا مثل الامام السيوطي والامام المفيلي ، والشيخ محمد مختار الكنتي وأستاذه الحاج جبريل بن عمر وغيرهم من العلماء .

وكان الشيخ يهدف من هذه المؤلفات الى اصلاح أحوال العلم والعلماء وتطبيق أحكام الله ، وتصحيح الايمان بشكل يؤدي الى إقامة الشريعة فيما أمر الرسول ونهى عنه والتبصر في الدين ، وأخيراً العلم بأصول الطريق الذي يريد سلوكه[٢٢] .

ولهذا لم يكن غريبا أن تتنوع مؤلفات الشيخ ، وأن تعالج موضوعات شتى تتناسب مع حجم الجهاد ، وطبيعة المناطق التي انتشر فيه الدين الاسلامي ، وكانت الموضوعات الدينية تحظى

باهتمام الشيخ عثمان ، لأن دعوته كانت إحياء السنة واخماد البدعة الشيطانية . فألف عدداً كبيراً من الكتب حول هذا الموضوع ، ولعل أشملها وأهمها كتاب «احياء السنة واخماد البدعة» الذي تضمن ثلاثا وثلاثين بابا دارت كلها حول أمور العقيدة ، وأصول الدين ، والى جانب هذا الكتاب ألف الشيخ عدداً آخراً من المؤلفات الدينية مثل «حصن الافهام من جيوش الأوهام» ، «نجم الاخوان يهتدون به باذن الله في أمور الزمان» وكتاب «سراج الاخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان» ، وأيضاً كتاب «إقتحام المنكرين في الزجر عن البدع والاهواء» . وكتاب «نصيحة أهل الزمان» ، وكتاب «أصول الدين» ، وغيرها من الكتب التي عالجت أمور العقيدة المحمدية .

ولم تقتصر مؤلفات الشيخ على الأمور الدينية ، بل راح يناقش مسائل تتصل بالنظم الاجتماعية والسياسية ، وكانت «وثيقة أهل السودان» حربا على الكفرة والوثنيين ، كما وضح الشيخ أسس المجتمع الاسلامي في كتابه «ضياء السياسات وفتاوي النوازل في فروع الدين من المسائل» كما تناول الحديث عن بلاد الهوسا وأسباب الصراع بين زعمائها في كتابة «تنبيه الاخوان على أحوال أرض السودان» ، وعالج أيضاً بعض الموضوعات الاجتماعية في مقالة تحت عنوان «مسائل المعاملة» ، ومقالة بعنوان «نور الالباب» ، وأخرى بعنوان «ارشاد الاخوان الى أحكام خروج النسوان» ، وغيرها من المؤلفات التي دارت حول الكثير من المشكلات الاجتماعية والقضايا السياسية[٢٣] . وباختصار عالج الشيخ عثمان كل الأمور الاجتماعية التي تضمن بناء مجتمع متكامل يعرف فيه كل الأمور الاجتماعية التي تضمن بناء مجتمع متكامل يعرف فيه كل فرد ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، في اطار من التكافل الاجتماعي والسير على السنة النبوية الشريفة .

ونظراً لأن الشيخ عثمان كان صوفيا يتبع الطريقة القادرية ، فقد نالت هذه الطريقة قسطا كبيرا من مؤلفاته ، وعالجها في الكثير من المناسبات ، حتى يزيل اللبس حول كافة القضايا الصوفية ، فأعلن مع بداية جهاده انه شاهد رؤيا وهو في سن الأربعين وأنه جالس في اجتماع يضم سيد البشر ، ومعه الصحابة والشيخ عبد القادر الجيلاني ، الذي قلده سيف الحق ، وطلب الصحابة منه إعلان الجهاد ضد أعداء الله[٢٤] .

وقد شرح الشيخ عثمان الطريقة القادرية في كتاب «السلاسل القادرية للأمة المحمدية» ، وأيضاً في مقالة بعنوان «تطييب قلوب الأمة المحمدية بذكر بعض القصائد القادرية» ، وأيضاً في مقالة «السلاسل الذهبية للسادات الصوفية» وبالطبع ساعدت هذه المؤلفات على جعل الطريقة القادرية أكثر الطرق شيوعا في غرب أفريقيا .

وعالج الشيخ عثمان بن فودى قضية أخرى شاعت في زمانه بشكل واضح ، الا وهي قضية المهدي المنتظر في غرب أفريقيا ، خصوصاً بعد أن كثرت مؤلفاته حول هذه القضية ، وأعتقد الناس أنه المهدي المنتظر ، فكان الواجب يحتم عليه الحديث عن المهدي وخصائصه ، ولكي ينفي عن نفسه فكرة أنه المهدي المنتظر ، حدد الشيخ صفات المهدي ، وأنه من ذرية فاطمة الزهراء ، وان وقت ظهوره متأخر حتى قدوم الدجال ونزول عيسىء بن مريم . وقد تناول الشيخ هذه الأفكار عن المهدي والمهدية في كتاباته «النبأ الهادي الى أحوال الامام المهدي» ، و«تحذير الاخوان من إدعاء المهدية الموعود به آخر الزمان» ، «والقول المختصر في المهدي المنتظر» .

ولقد ساعدت مؤلفات الشيخ عثمان بن فودى على تقبل أفكار المهدية عندما ظهر محمد أحمد المهدي في سودان وادي النيل ، بعد أن تأثر بكتابات الشيخ عثمان وتأييد أحد أحفاد الشيخ عثمان - ويدعى حيات بن سعيد - لمحمد أحمد المهدي كما ظهرت آثار الأفكار المهدية في حركة الشيخ أحمد لوبو في منطقة ماسينا ، حيث ادعى بأنه المهدي المنتظر ، وأنه قد جاء لانقاذ المجتمع الاسلامي في أفريقيا ومجاهدة الوثنية بكل ما يملك من قوة .

ولم يتوقف الشيخ في مؤلفاته عند هذا الحد ، بل كان يقرض الشعر وله بعض القصائد المشهورة مثل «مرآة الفرائض» وقصيدة «في مدح الرسول» والتي استهلها بقوله :

هل لي مسيرة نحو طيبة مسرعا     لأزور قبر الهاشمي محمد
لما فشا رباه في أكنانها     فتكمش الحجاج نحو محمد

كما ألف قصيدة يعبر فيها عن حبه لأستاذه محمد المختار الكنتي العالم الصوفي الورع والتي جاء فيها :

بلغ تحياتي الى المختار     سراجنا في هذه الامصار
وقل له ليدع بالخيرات     في هذه الدنيا وفي الممات
وفي حلول القبر والقيام     بلغه يا شريف بالسلام
يارب زد لشيخنا المختار     كرامة التوفيق في الاخبار

وألف أيضاً قصيدة يمدح فيها أستاذه جبريل بن عمر ويقول في مطلعها :

ان قيل مني بحسن الظن ما قيلا     فموجة أنا من أمواج جبريلا

وهكذا غلبت على مؤلفات الشيخ عثمان بن فودى التكامل والشمول والتنوع ، حيث عالج

شتى جوانب الحياة الانسانية ، وقضايا المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما اتسمت هذه المؤلفات بكثرة التكرار حتى في الموضوع الواحد وفي أكثر من مؤلف ، كما غلب عليها كثرة النقل من كتب العلماء والائمة وهذا ما يوحي بأن الشيخ عثمان كان واسع الاطلاع محيطا بأصول الدين ، وحفظ الحديث الشريف والقرآن الكريم ، والى جانب كل هذا أتسم أسلوبه بالبساطة في كل مؤلفاته ، وكذلك المرونة في التعبير باللغة العربية ، مما ساعد على نشرها في معظم أرجاء غرب أفريقيا .

## خامسا : آثار الجهاد ودعوة الشيخ في غرب أفريقيا :

مما لا شك فيه ان حركة الشيخ عثمان بن فودى قد تركت آثارها في كل منحى من مناحي الحياة ليس فقط في دولة سوكوتو وشمال نيجيريا ، بل تخطتها الى كل السودان الغربي ، وصارت الدعوة الأم لكل الحركات الاصلاحية التي أجتاحت المنطقة طوال القرن التاسع عشر ، وسوف نذكر أهم آثار جهاد عثمان بن فودى في النقاط التالية :

أولا : ساعدت حركة جهاد عثمان بن فودى على جعل اللغة العربية لغة التعليم والدراسة ، وصارت مناهج التعليم في دولة سوكوتو تعتني أساسا بتحفيظ القرآن الكريم ، وتفسيره باللغة العربية ، وصار معهد الشيخ عثمان من أكبر المعاهد الدينية في نيجيريا ، بالاضافة الى عدد آخر من المدارس القرآنية ، التي ساهمت في نشر الثقافة العربية وتطوير اللغة العربية ، مما أحدث ثورة ثقافية في مجتمعات غرب أفريقيا ، وأقبل الناس على تعلم هذه اللغة ، وقام العلماء بشرح وتحليل هذه المؤلفات والتعليق عليها ، بل وترجمة عدد منها الى اللغات الأجنبية ، وبفضل مؤلفات الشيخ عثمان باللغة العربية صارت اللغة تتفوق من حيث سعة الانتشار باعتبارها لغة القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

ثانيا : ساعدت حركة جهاد عثمان بن فودى على نشر الطريقة الصوفية القادرية التي صارت تنافس الطرق الصوفية الأخرى ، وخاصة الطريقة التيجانية حيث كان لكتاباته أثرها في انتشار الأفكار الصوفية ، والتي لعبت دوراً في نشر التعليم والثقافة الاسلامية ، والتصدي الى البدع والخرافات التي سادت مجتمعات غرب أفريقا ، جنبا الى جنب مع الدراسة والتعليم ، وتحملت الطريقة القادرية عبء التعليم في المنطقة .

ثالثا : ساعدت دعوة الجهاد التي قام بها عثمان بن فودى على أحياء مجد الدولة الاسلامية في ذلك الجزء من القارة الافريقية ، حيث انشأ الشيخ في دولته مناصب عربية مثل الوزير والقاضي

والمحتسب والوالي والحاجب وشيخ الاسلام ، وغيرها من الالقاب التي شاعت في صدر الدولة الاسلامية أيام الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين فأحدث ذلك أحياء للخلافة الاسلامية في غرب أفريقيا بعد ان حمل الشيخ لقب أمير المؤمنين ، وحتى بعد وفاة الشيخ عثمان في عام ١٨١٧ استطاع أمير المؤمنين ، وحتى بعد وفاة الشيخ عثمان في عام ١٨١٧ استطاع أبناؤه مواصلة مسيرة الجهاد ، وتطبيق الشريعة الاسلامية التي حمل لواءها أبناء الشيخ وأحفاده حتى سقوط الدولة في ايدي القوات البريطانية في عام ١٩٠٣ ، ولا تزال مدينة سوموتو تمثل العاصمة البريطانية في عام ١٩٠٣ ، ولا تزال مدينة سوكوتو تمثل العاصمة الروحية للدين الاسلامي في دولة نيجيريا .

رابعا : كانت حركة جهاد الشيخ عثمان بن فودى أول تجرَبة اسلامية تجمع تلك المنطقة الشاسعة تحت لواء دولة واحدة ، بل كانت أول دولة اسلامية تجمع تحت راياتها عدة ممالك وأوطان من بلاد الهوسا وتفرض السكينة والأمان في ربوع منطقة كانت الفوضى والحروب والصراعات الدموية أبرز سماتها في القرون السابقة لحركة الجهاد والدعوة الاسلامية ، كما استطاعت هذه الحركة الاصلاحية ان تكسب هذه المنطقة طابعا اسلاميا لازال أثره باقيا حتى يومنا هذا ، حيث لا تزال نيجيريا أكبر دولة اسلامية في القارة الافريقية على الاطلاق ، ببفضل تلك الجهود المباركة لدعوة الشيخ عثمان بن فودى ، تلك الدعوة التي بددت الظلام ، وجعلت نور الاسلام يشرق من جديد على غابات وصحاري غرب أفريقيا .

خامسا : صارت دعوة الجهاد الفولاني التي قادها عثمان بن فودى وحمل لواءها أخوه عبد الله بن فودى وابنه محمد بلو النموذج والمثل الأعلى لغيرها من حركات الجهاد والدعوة الاسلامية في غرب أفريقيا ، بل وأصبحت أم الحركات الاصلاحية ، ورائدة التحرر والجهاد الاسلامي لنشر الدين الحنيف في كثير من مجتمعات غرب أفريقيا ، حيث صارت المنهل العذب والمورد الكافي الذي استقى منه أحمدو لوبو حركته الاصلاحية في منطقة ماسينا ، وأيضاً الحاج عمر الفوني التكروري في السنغال ، وحركة زعماء بورنو والشيخ الكانيمي ، وأيضاً حركات الجهاد الأخرى مثل حركة مابا دياهو في جامبيا ، وحركة ساموري نموذجاً لحركات الاصلاح والتجديد ، ونشر الدين الاسلامي في غرب القارة الأفريقية .

سادسا : كان لحركة جهاد الشيخ وما أعقبها من حركةفكرية ونهضة علمية شاملة أثرها في تغير المفاهيم والأفكار بين الناس ، كما كانت السبب في انتشار فكرة المهدية وذيوع صيتها ، وتقبل الناس لها والالتفاف حول من ادعوا المهدية فيما بعد ، فلقد اضطر الشيخ عثمان الى نفي فكرة انه المهدي المنتظر ، لكن هذا النفي ساعد على انتشار الفكرة في المناطق المجاورة ، بل وكانت مؤلفات الشيخ من ممهدات قيام محمد أحمد المهدي بحركته في سودان وادي النيل وتقبل الناس للفكرة حيث تعاطف معها مكان دولة سوكوتو ، وسكان حوض بحيرة تشاد ، كما ساعدت أفكار الشيخ على ظهور حركات مهدوية أخرى في ماسينا وغرب القارة .

وباختصار ساعدت دعوة الجهاد الشيخ عثمان على تغير جذري وشامل في كل مجتمعات غربي أفريقيا طوال القرن التاسع عشر ، حيث ترسخت العقيدة الاسلامية . وانتشرت اللغة العربية ، وصارت مؤلفات زعماء الجهاد أساس النهضة الفكرية والثقافية في غرب القارة ، وحتى بعد سقوط الدولة الاسلامية في مطلع القرن العشرين في أيدي القوات البريطانية ، لم يتمكن المستعمر من طمس هذه الحضارة الراسخة ، وحاول الابتعاد عن نظم ثابتة تسير وفق الشريعة الاسلامية ، واعتادها الناس فترة من الزمان ، ولم يجد البريطانيون إلا الابقاء على هذه النظم السياسية المتكاملة ، وراحوا يبدعون بأنهم طبقوا نظام الحكم غير المباشر في هذه المناطق الاسلامية ، حفاظا على تراثها الاسلامي العريق ، وظلت نظم الاسلام وتعاليم الشيخ عثمان يتوارثها المسلمون جيلا بعد جيل ، حتى تحقيق الاستقلال لهذه الأراضي الاسلامية ، وعادت سوكوتو ومراكز الحضارة الكبري في شمال نيجيريا تواصل المسيرة على نهج الشيخ عثمان بن فودى زعيم حركة الاصلاح والدعوة الاسلامية في غرب أفريقيا .

والســـؤال :

كيف كان نظام الحكم في هذه الدولة الإسلامية التي أسسها الشيخ عثمان بن فودى ؟ وما هو مفهوم الخلافة ولقب أمير المؤمنين لدى الشيخ عثمان ؟

بعد أن نجح الجهاد وتكونت الدولة الاسلامية ، وضم الشيخ مختلف إمارات بلاد الهوسا داخل إطار واحد ، قام الشيخ بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وقسم الدولة الى عشرين ولاية ، وحمل لقب أمير المؤمنين خاصة بعد اعلانه وثيقة أهل السودان ، وقبل وفاة الشيخ وضع نظام الخلافة الاسلامية تشبها بالخلفاء الراشدين ، ووجد الشيخ عثمان أن نظام الخلافة العباسي هو أفضل النظم لحكم هذه الدولة المترامية الاطراف ، ولذا نجد التشابه بين نظام الحكم في دولة

الفولاني والنظام العباسي ، فالعباسيون اتجهوا الى الأخذ بالنظام الاتحادي وقنعوا بمجرد الإشراف والتوجيه وهو ما طبقه الشيخ . كما أن الخلافة العباسية استجابت للمتغيرات في الدولة ، وجمع الخليفة بين الخلافة والأمامة ، وتحول الامام الداعية الى خليفة يحكم ، وهو نظام سارت عليه دولة الفولاني . وكانت الخلافة في العصر العباسي الأول قاصرة على البيت العباسي دون غيره يتولاها أفضلهم بشرط بيعة الناس له ، وفي خلافة الفولاني اقتصر اختيار الخليفة على سلالة عثمان ، كما كانت الخلافة العباسية للأقدر وليست وراثية مستقرة في الأنباء ، وهو ما ساد عند خلفاء عثمان .

والخليفة في العصر العباسي عام الولاية ، عام الاختصاص ، يسري حكمه على كل أنحاء الدولة ، وهو يمارس حكمه في كل مجال من الأمور الدينية والسياسية والمدنية والحربية ، وله الحق في تفويض من يشاء بما يشاء من الاختصاصات . وقد طبق هذا النظام في خلافة الشيخ عثمان . وإذا كان العباسيون قد ساروا على مبدأ اختيار الخليفة لوزير يتولى تنفيذ أوامره كاملة ، فإن عثمان انتهج نفس الطريقة مع إعطاء الوزير سلطات أكثر .

ومع كل هذا ، فإن بعض الاختلافات قد حدثت عند التنفيذ ، ومنها أن الهيئة المختصة باختيار الخليفة وهم أهل الحل والعقد وأهل الشورى كانوا من أفراد البيت العباسي ، ولكن في خلافة الفولاني كان مجلس الاختيار يتكون من أفراد من خارج أسرة عثمان ، وكان الوزير صاحب الكلمة النهائية في الاختيار . وأيضاً نجد أن الخلافة العباسية سارت على نظام ولاية العهد كما كان في عصر بني أمية حيث كان الخليفة يختار ولي عهده من البيت العباسي على أساس القدرة وليس على أساس الرشد لكن في خلافة عثمان لم نجد نظام ولاية العهد ، وكان اختيار الخليفة الجديد يتم بعد وفاة الخليفة الحاكم عن طريق مجلس الاختيار الذي يعين الخليفة حسب قواعد عامة(٣٥) .

وبعد اختيار الخليفة في دولة الفولاني ، فإنه يحمل لقب أمير المؤمنين ذلك اللقب الذي حمله الشيخ في بداية الجهاد ، وقد استعان الخليفة بمجلسين أحدهما استشاري وهو يضم أبرز أعوانه ومساعديه ، والآخر تنفيذي يقوم بتنفيذ تعليمات الخليفة الذي يعين أعضاء هذا المجلس ويضم الوزير والقاضي والمحتسب وتحددت اختصاصات الخليفة في حماية حقوق الرعية داخل المجتمع الاسلامي ، وحماية الدولة عن طريق بناء المدن المسورة المحصنة حتى يتفادى هجمات الأعداء ، وأيضا العمل على نشر الدعوة الاسلامية بين القبائل الوثنية واعداد الجيوش للتصدي للغزاة ، وهو الذي يعين الشخصيات في الوظائف الهامة ويختار الأمراء وحكام المديريات . وقد حدد عثمان نظام الحكم في الدولة وضمنها في خمسة أسس هي :

أولا : ألا يعطي الولاية طالبها .
ثانيا : الالتزام بمبدأ الشورى .
ثالثا : التخلي عن القسوة والعنف .
رابعا : إقامة العدل بين الناس .
خامسا : الاحسان والأعمال الصالحة[٢٦] .

لذا يمكن القول إن الخلافة في رأي الشيخ عثمان هي المجال الذي يرى فيه الناس ترجمة مباديء الاسلام وتعاليمه في أسلوب عملي لواقع الحياة ، وفي رأيه أن الخلافة يقيمها المسلمون في أي مجتمع اسلامي[٢٧] .

وكان الشيخ يعرض الألقاب والمناصب على أساس انها أمور دنيوية عارضة ، وباستثناء منصب الوزير لقتصرت المناصب في ستة فقط هي القائد العام ، وقاض القضاة ، ورئيس الشرطة ، وحامل اللواء ، وصاحب الخراج ، والإمام[٢٨] .

وهكذا وضع الشيخ نظاما فريدا للحكم في هذه الدولة التي قامت في غرب أفريقيا في القرن التاسع ، وظلت تطبق هذا النظام الخلافي حتى سقوط الدولة في أيدي القوات البريطانية في عام ١٩٠٣ ودخلت الدولة ضمن نيجيريا الحالية ، ولكن لازال المسلمون يلعبون دوراً هاما في نشر الثقافة الإسلامية ، ولازالت المعاهد والمدارس التي أسسها عثمان ومن خلفه ينبوع الفكر والثقافة في غرب أفريقيا .

## سادسا : عوامل انهيار الامبراطورية الفولانية :

يرجع انهيار امبراطورية الفولاني الى عدة عوامل تجمعت لتسهم في سقوط هذه الدولة في أوائل القرن العشرين وهي :

(أ) اعتماد الخلافة طوال القرن التاسع عشر على مجرد توجيهات الخليفة في أمور الارشاد والدفاع ، وكانت كل امارة تعتمد على نفسها في أمورها الدفاعية ، ولم يقدم الخليفة دعمها عسكريا لأي إمارة بل لم يكلف الامارات المجاورة بمساعدة أية إمارة تتعرض للاخطار ، وبالتالي انشغلت كل إمارة في شئونها الخاصة

(ب) عدم وجود جيش مركزي يتولى أمور الدفاع عن الدولة ، وظلت الإمارات طوال القرن التاسع عشر تعيش على مواردها وعلى المساعدات من الامارات المجاورة .

(جـ) اعتمدت جيوش الدولة على الأسلحة التقليدية والقديمة ، وكانت الحروب التي مارستها الجيوش تقوم على أساس المدن المسورة التي يقف المدافعون خلفها للدفاع عنها ضد أي اعتداء . لكن هذه الجيوش المسلحة واجهت لأول مرة جيوشا أوربية بالاضافة الى المدافع والبنادق المتطورة ، مما غير سير المعارك لصالح القوى الأوربية .

(د) لم يسبق لجيش دولة الخلافة أن حارب ضد جيش أوربي ، ومن ثم كان يجهل خططه وأسلحته ، هذا في الوقت الذي كانت الجيوش الانجليزية على دراية كاملة بكل الخطط في الامارات ، وقد سهل هذا على البريطانيين مهمة الاستيلاء على الامارات الواحدة تلو الأخرى ، طبقاً للسياسة التي رسمها القواد البريطانيون .

(هـ) أن دولة الخلافة لم تستطع ان تنسق عمليات المقاومة مع الامارات التابعة لها ، مما جعل هذه الامارات فريسة سهلة أمام هذا الغزو الأوربي ، ولم يشعر الخليفة بهذا القصور في خططه إلا بعد فوات الأوان ، وبعد أن أطبق الأوروبيون على الدولة من كل جانب ، فسقطت الامبراطورية في أيدي البريطانيين ، رغم البسالة والمقاومة الوطنية الباسلة التي قادها الخليفة وأعوانه المخلصين .

لكن رغم سقوط الخلافة ، وضم المنطقة الى النفوذ البريطاني ، فقد ظلت الأسس التي وضعها الشيخ عثمان وخلفاؤه هي دعائم الحضارة الاسلامية في نيجيريا ، ولازال المسلمون يمارسون دورهم في الحفاظ على الدين الاسلامي ، وفي تطبيق الشريعة الغراء في أكبر منطقة إسلامية ، من حيث عدد السكان في القارة الأفريقية .

وخلاصة القول إن الخلافة الاسلامية في سوكوتو قد اتخذت من الدولة العباسية نموذجا لها في الحكم ، كما أنها أقامت نظاماً فريداً من نوعه في غرب القارة ، استقى من كل النظم الإسلامية ، وصار نموذجا لكل الحركات الجهادية في غرب القارة ، وتمسك المسلمون بمباديء الشريعة الاسلامية ، وطبق الخلفاء على مدى قرن من الزمان هذا النظام الاسلامي ، وتعود الناس عليه وألفوه حتى بعد الغزو البريطاني ، وصارت الأسس التي وضعها الشيخ عثمان دستورا للحياة ، كما أصبحت مؤلفات الشيخ وأتباعه مصدر الفكر والإلهام الثقافي .

إن خلافة الشيخ عثمان بن فودى تعتبر رائدة حركات الإصلاح والجهاد في سبيل الله في غرب أفريقيا ، وحامية الدين الإسلامي ضد كل من سولت له نفسه العبث بأحكامه ، وحتى عندما جاء المستعمر البريطاني وأخضع الدولة لسلطاته ، لم يتمكن من إحداث أية تغييرات في هذه الأسس الراسخة ، التي لازالت تشع بنورها حتى اليوم .

## الهوامش :

(١) ابراهيم طرخان : دولة مالي الإسلامية ، ص ٥٢ - ٥٩ ، وشكل رقم (٤) .

(٥) لمزيد من الدراسة عن انتشار الإسلام في أفريقيا : انظر حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٦٣

(٣) Dubois, F : Tomboctu, La Mysterieuse, Paris 1899, P, 153 -

(٤) Seligman, c. : Races of Africa, London 1970, P. 96 -

(٥) ابراهيم علي طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ١٣٠

(٦) Johnston, H. A. S. : The Fulani Empire of Sokoto, London 1967, P. 18 -

(٧) محمد بلو : انفاق اليسور في تاريخ بلاد التكرور ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٥٨ .

(٨) تحدث الشيخ عبد الله بن فودى عن الجهاد ومراحل تكوين الدولة الاسلامية في كتاب تزيين الورقات ، نيجيريا عام ١٣٨٣ ها (بالخط المغربي) . كما تحدث أيضاً عن الجهاد الشيخ محمد بلو : إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، القاهرة ١٩٦٤ .

(٩) Martin, B. G. : Muslim Brotherhoods in 19th century Africa, London 1976, PP - 1 - 13 -

(١٠) محمد بلو : انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٧ - ٢٥

(١١) عثمان سيد أحمد اسماعيل : حركتا الشيخ عثمان بن محمد بن فودى ومحمد أحمد بن عبد الله المهدي وأثارهما : مجلة دراسات أفريقية بالخرطوم ، العدد الثاني ، ابريل ١٩٨٦ ، ص ٣٥ - ٥٣ .

(١٢) Ki Zerbo, Joseph : Histoire de 1' Afrique Noir, P - 175 -

(١٣) Panikkar, k - Madhu : Journal of African History, P - 175 -

(١٤) عثمان بن فودى ( وثيقة أهل السودان ) تحقيق

Bivar, A. D. H. : Journal of African History' Vol II, 1961, P - 235 -

(١٥) عبد الرحمن زكي : الاسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ص ٩٢ .

(١٦) Smaldone, J - P - : Warfare in the Sokoto Calliphate, P - 23 -

(١٧) Meek, C. K. The Northern Trides of Nigeria. Vol. I., P, 100 -

(١٨) Hodgkin, T. ? Nigerian Perspectives, PP - 3840 -

وأيضا حسن أحمد محمود ، مرجع سابق ، ص ٢٨٩ .

(١٩) توماس أرنولد : الدعوة الى االاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢٦٠ .

(٢٠) Meek, C. R. : Tridal Studies in Northern Nigeria, vol. II, P. 5 -

(٢١) محمود سلام زناتي : الاسلام والتقاليد القبلة في أفريقيا ، ص ٩٤ .

(٢٢) عثمان بن فودى : حصن الافهام من جيوش الاوهام (مخطوط٠ ، ص ٣ ، ٣ .

(٢٤) عثمان بن فودى : ولما «بلغت في الذكر والورد» ؛ وهو كتاب نشرته لجنة النشر بوزارة المعارف بنيجيريا الشمالية ضمن سلسلة ضمت كتاب «أصول الولاية» و«هداية الطلاب» .

(٢٥) أنظر نظام الحكم في : عبد الله عبد الرازق : الاسلام والحضارة الاسلامية في نيجيريا ، ص ١١١ وما بعدها .
ولمزيد من الدراسة عن الخلافة العباسية انظر : حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، الطبعة السابعة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٣٠ وما بعدها .

(٢٦) عثمان بن فودى : الفرق بين ولاية أهل الاسلام وأهل الكفر ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٢٧) السر سيد أحمد العراقي : نظام الحكم في الخلافة المكتبية : مطبوعات جامعة الخرطوم ، السودان ١٩٨٧ ، ص ١١ .

(٢٨) Last, M. : Op. Cit. P. 107 -

# الجغرافيا الكبرى والجغرافيا الصغرى للخليج

أ . د . محمد رياض
جامعة قطر

## مقـــدمة :

درجنا نحن سكان هذا الكوكب ـ عربا كنا أو غير ذلك ـ ان نسمع ونقرأ ونتكلم عن الخليج وليس في ذهن كل منا مضمونا واضحا لما نعنيه بالخليج . ومع ذلك فكلنا نشير إلى منطقة ذات ملامح عامة بالقدر الكافي الذي يجعلنا نفهم اننا نتكلم جميعا عن منطقة بذاتها . هذه الملامح العمومية لدى الغربيون تدور حول منطقة البترول العالمية الكبرى في جمع من الدول الشرقية الاسلامية بغض النظر عن كونها دولا عربية أو ايران . لكن الازمة الامريكية الايرانية في أول الثمانينات والحرب العراقية الايرانية خلال عقد الثمانينات قد اضافت لدى الغرب تمييزا لازما للتفريق داخل الخليج بين العرب وغيرهم .

أمـا نحن العـرب فمفهـومنا الأساسي من مصطلح الخليج انه يشير الى المنطقة البترولية العربية التي تكاد ان تلتقي فيها بكل أبناء العالم : فإلى جانب أصحابها هناك وافدون كثر من البـلاد العـربيـة ومن ايران ومن اقليم الهند ومن أوربا وأمريكا ومن الفلبين وكوريا وتايلاند واليابان . الخليج بالنسبة لنا عوالم متعددة متحوصلة على نفسها داخل الدول التي تعيش فيها . وهي دول صغيرة المساحة قليلة السكان كثيرة الثراء لديها فرص عمل لمن يحلم سواء كان عربيا أو أمريكيا .

ولعلنا نحن العرب ـ في سبيل تحديد أكثر لمفهوم الخليج ـ نميز بين السعودية والخليج . فانت بالنسبة لمعارفك في بلدك تعمل في الخليج باطلاق أو في السعودية بتحديد . وربما كان هذا التمييز راجعا إلى كبر مساحة السعودية وقدمها النسبي في فرص العمل .

وفي عالم السياسة والجيوبولتيكا لا يميز الغرب والشرق بين خليج عربي أو فارسي . بل ان بعضهم ، كالفرنسيين يريحون بالهم بتسمية مزدوجة ، فهو الخليج العربي الفارسي . وآخرون يكتفون بالخليج دون اضافة ملكية للعرب أو الفرس . وعند ذكر الخليج تتداعى لديهم مجموعة قيم أولها حول الاوبك والسوق الحر والمخزون العالمي للنفط . لكن من ثوابت الأمور ان الخليج هو المياه الدافئة التي تقود للمحيط الهندي بالنسبة لجيواستراتيجيات الشرق منذ قياصرة روسيا . وفي مواجهة ذلك التهديد يتداعى الدور الايراني لدى جيواستراتيجيات الغرب كدرع يحمي هذه المياه وبترولها منذ امبراطورية الانجليز . والامتداد الجيوبولتيكي لهذين الاتجاهين المتصادمين مازال يمـر حتى الآن بمنطقة الخليج والشرق الأوسط . ومن ثم فإن الشرق الأوسط والخليج يحملان في الأفكار الجيوبولتيكية العالمية اسماء عدة ليست كلها حسنة : هي منطقة الصدام وهي منطقة الاهتزاز ، وهي منطقة التشتت والارتجاج . ولكن حيث ان الجيوبولتيكا تتغير كل فترة ، فلعل لدينا أمل ان نصنع لمنطقتنا ثبات يخرجها من دائرة التشتت والاهتزاز .

## تحديد منطقة الخليج :

إذا بدأنا منطقيا باتخاذ التراكيب الجغرافية مقياسا في محاولة تحديد اقليم الخليج ، فإننا نرى ان المنطقة هي كل الأراضي التي تطل على خليجي عمان والعربي ، (أو الخليجين الأعلى والأسفل أو الخارجي والداخلي) . وليس الأمر مجرد الاطلالة على هذا المسطح المائي ، وانما يمتد إلى أكثر من ذلـك . فهناك تفاعل حياتي وحضاري تاريخي ومعاصر لهذه الأراضي على الجانبين الشرقي والغربي للخليج (خريطة ١) .

وبهذا التحديد فاننا ندخل نطاق رأس الخليج وشرق الخليج - أي أجزاء من ايران والعراق فضلا عن كل دول مجلس التعاون العربي الصغيرة (الكويت - البحرين - قطر - الامارات) والجزء الشمالي من عمان والجزء الشرقي من العربية السعودية . وربما اعتبرنا منسوب ٢٠٠ متر نطاق تخوم غربية لاقليم الخليج داخل شبه الجزيرة . ويسهل التعامل مع هذه التخوم في الربع الخالي بينما يصعب التعامل مع هذه التخوم في الشمال حيث يتغلغل منسوب ٢٠٠ متر في غرب الكويت لكنه يعود حدا معقولا يفصل البادية عن رأس الخليج .

وإذا كانت نطاقات الخليج في جنوب العراق وخوزستان والساحل الايراني بسهوله الضيقة وتداخلاته البحرية وجزره من الخرج حتى هرمز هي أقسام حقيقية من تفعيلات اقليم الخليج الجغرافي ، الا انه يجب علينا ان نقيم حسابا يعتد به لتكامل هذه الاقسام العراقية والايرانية مع دولتيهما في نسيج يثقل موازناته لصالح الدولة في ايران أو العراق اللتان تمتدان في سعة خارج اقليم الخليج وما يحمله ذلك من ثقافة وسياسة خاصة وجيواستراتيجية شرق أوسطية نتيجة لامتدادات ايران إلى القوقاز وبحر قزوين ووسط آسيا ، وامتداد العراق في الشمال إلى بادية الشام والنطاق التاريخي الموصل - حلب عند اقدام طوروس وكردستان .

وإذا أردنا تميزا تاريخيا حضاريا لتخوم الخليج الشرقية فربما كان الفارق اللغوي هو رائدنا في ذلك . فإذا أخذنا اللغة العربية كميزة أساسية للخليج فإن الحد الشرقي للغة العربية كان في أحيان كثيرة ملتزم باجزاء كثيرة من ساحل فارس بين لنجه وشط العرب .

هنا في هذه البيئة الفقيرة الجافة البحرية الصخرية الحارة سكن عرب كثيرون عماد حياتهم البحر ، مولين ظهورهم لداخلية البلاد - تماما كما فعل أقربائهم على الساحل العربي ، ميممين البحر . لكن علينا ان نحسب ان عرب الساحل الايراني قد وقعوا تحت تأثير فارسي لغوي وربما سلالي أيضا . فهم - وان طال بهم الزمان خلال قرون طويلة من الاستقلال النسبي - قد أصبحوا جزءاً من الدولة الفارسية أو الايرانية منذ ق ١٩ . وقد تأكد ذلك بعد أن أصبح اقليم البترول الايراني هو على مشارف المنطقة عربية الأصل سابقا ، وبخاصة خوزستان (عربستان) .

واضح من هذه المعالجة أننا نهتم بتحديد التخوم الشرقية لمنطقة الخليج ، أي تلك الواقعة في الجانب الايراني . ذلك ان غرب الخليج هو جزء لا يتجزأ من النطاق الحضاري العربي في قلب الجزيرة العربية . وان أي مقياس حضاري نتخذه لتمييز الخليج عن الجزيرة هو مقياس غير ناجح

التطبيق . فهناك لحمه سلالية حضارية لغوية دينية مذهبية متدرجة من وسط الجزيرة بدون حدود عبر مياه الخليج الى شاطئه الشرقي .

وربما كان التحديد السياسي لمفهوم الخليج أنسب وأكثر وضوحاً من التدرج المتداخل في الجوانب الجغرافية والحضارية . فالحدود السياسية ـ برغم انها اصطناع بشري ـ الا انها فوق أي ظواهر أخرى هي الحدود الفاعلة . وفاعليتها واضحة : فهناك خطوطا تفصل بدقة بين بلد وآخر (اذا كانت الحدود مرسومة باتفاق الدولتين) . وبرغم ان الحدود السياسية في غالب الأحيان تتجاهل القيمة الجغرافية لمفهوم الاقليم ، الا ان لها مزية الحصول على المعلومة والرقم ، وهي مزية هامة في الدراسة الجغرافية . وفضلا عن ذلك ذإن مجرد وجود شخص ما داخل حدود سياسية معينة يعني انه يمارس كل ما تتيحه الدولة من مزايا ، ويخضع لكل ما تضعه الدولة من قوانين وتشريعات وحوافز وضرائب وحماية جمركية وحماية عسكرية .

فإذا أخذنا مجلس التعاون الخليجي معياراً لتحديد منطقة الخليج ، فانه يقصر عن ادخال أجزاء جغرافية في الخليج ، ويدخل أجزاء أخرى غير خليجية هي ظفار ونجد والحجاز وعسير . وبرغم ذلك فلعله من المستحسن الاتفاق على ان الخليج هو في الأغلب المفهوم السياسي لدول مجلس التعاون الخليجي . فهو أكثر تشابها من أراضي الخليج العراقية والايرانية . فهناك جمع من الظروف الجغرافية الشاملة في الميدان الطبيعي والسكاني والاقتصاد والسياسي تصبغها بتشابهات عامة هي ما يمكن ان نطلق عليه الجغرافيا الكبرى للخليج **Macro - Geography** . صحيح ان هناك تفرد في ظاهرات تفصيلية في أجزاء من دول مجلس التعاون تشكل الجغرافيا الصغرى في الخليج **Micro - Geography** ، الا ان هذه التفردات هي أجزاء من كل متكامل . وستقتصر هذه الورقة على مفهوم دول مجلس التعاون الخليجي ، مع الحفاظ على البنية الجغرافية بترك اقاليم وسط وغرب السعودية لبعدها وظروفها المكانية المغايرة .

## الجغرافيا الكبرى للخليج :

سبق ان ناقشنا ان الخليج هو منطقة تخوم ثقافية لغوية ، وأن وجود المسطح المائي لم يقم حداً فاصلا انما أعطى تدرجا واضحا لنفوذ اللغتين العربية والايرانية وتداخلهما على الساحل الايراني . ولكنه معروف ان الالتقاء اللغوي يداخل مفردات لغوية على الجانبين . ومن ثم فإن في منطقة الخليج العربية مصطلحات ومفردات أخذت شكلا عربيا أو بقيت على حالها ومردها لغات ايرانية إما هي فارسية أو بلوشية أو اردية أو مما يلي بمباي من لغات قديمة كالملايلم في كيرالا وملبار وهما من أكثر شعوب الهند هجرة والتصاقا بالخليج . وكذلك هناك مؤثرات لغوية أخرى

مصدرها شرق أفريقيا نتيجة علاقات تاريخية واستيطانية طويلة . والخلاصة ان التداخل اللفظي من مصادر لغوية محيطة هي سمة لهجات الخليج وأن المؤثرات الفارسية اشيع في الشمال والأفريقية والبلوشية أشيع في جنوب الخليج ، بينما تغطى الالفاظ الهندية كل الخليج بقدر متقارب (شكل ٢) .

هذه العلاقة المكانية للخليج لم تؤثر فقط في تعريب الفاظ غربية ، وانما أثرت على مجموعة من الصفات الخليجية . من هذه الصفات وعلى رأسها ظاهرة «أنا وغيري» . أي ظاهرة التقاء الشعوب والنظرة المتسامحة أزاء عادات وممارسات غريبة عن «أنا ومجتمعي فقط» وتقبل سحن وأشكال وألوان الشعوب المحيطة ، بل والتزاوج معها أيضاً . وذلك عكس عزلة المجتمع البدوي أو الجبلي الذي يعيش في بواديه أو وديانه متفاعلا مع ذاته ومجتمع اقرانه بدرجة يستغرب فيها غير ما يألفه ، بل قد يصده وربما يعاديه . صحيح ان العزلة البدوية والجبلية قطعتها الآن الطرق الحديثة والسيارات ، وأصبحت الأبل في متاهة وجودية ، هل تبقى أم تتقلص الى هجن السباق ؟ والأخيرة مهمة تجارية طارئة ، بينما الابل والبدو سابقا كانا صنوان حياة كاملة . ونحن الآن نفتش بصعوبة عن بدو في بادية الزمان الكلاسيكي . فالبدو استقروا جوار المدرسة والمستشفى ومعسكر القوات المسلحة والحرس الوطني . والتليفزيون قطع صلاتهم الوثيقة بالرمل والطعن ومهارة البحث عن الماء والمرعي ، ورسم لهم أفق أحلام المدينة والوظيفة نموذجا جديداً للحياة .

ويوضح الشكل (٣) نموذجا تجريديا لتراتب الحياة قديما وحديثا في الخليج . ففي الماضي - الذي هو تقريبا حتى منتصف هذا القرن - أي منذ جيل واحد فقط - كان التراتب عادة يبدأ من شريط ساحلي متقطع من السكن الدائم في مدن وبلدات ومستوطنات باحجام متعددة . يليه نطاق واسع من البداوة يمتد حسب ترحاله من الشواطيء قرب المدن إلى النطاق الايكولوجي الثالث الذي يتكون من الواحات الداخلية الكبيرة كبر الحسا أو البريمى والعين ونزوى أو الصغيرة كمحاضر ليوا وحرض .

ثم حدث التغيير بدخول البترول موردا جديدا للثروة وما يتبعه من متغيرات أدت إلى نظام اقتصادي جديد (ونظام سياسي جديد يقوم على أساس الدولة ) . ويوضح النموذج ٣ ب كيف فقد الخليج أنشطة البحر التقليدية الاقليمية (عدا السماكه التي لم تعد الغذاء الأساسي ، بل جزء من قائمة أغذية مستوردة ) . وبدلا من التجارة البحرية التقليدية ، أو وساطة النقل البحري أصبحت الصادرات والواردات عالمية التوجه . وهو ما كان له انطباعات نمطية على أفق الرحلة لأهل الخليج ، فقد حلت أمريكا وبريطانيا محل الهند وشرق أفريقيا خلال حياة جيل واحد .

كذلك فقد الخليج استخدام داخلية أراضيه بفقدان البداوة بالمعنى الشامل ؛ نظام حياة ونظام استخدام لايكولوجية البر في شرق الجزيرة . وسيكون صعبا استعادة هذا النمط الحياتي والاقتصادي الذي اكتسبه الانسان خلال عدة آلاف من السنين ، فلم يعد الفرد يكبر وينمو من خلال تجربة الاجداد وممارسة الآباء . وستظل البادية خالية من معنى العطاء الاقتصادي السابق بعد ان خطتها الطرق الحديثة ، وتجارب الاستزراع ، والسكن الترفيهي لعطلات نهاية الأسبوع أو أجازات الربيع .

وفي نطاق الواحات الداخلية حدث تغيير آخر بمقضاه لم يعد النخيل وحده هو المحصول الأساسي ، فقد أصبحت الخضروات هي المحصول التجاري اليومي جنبا إلى الاعلاف . وهي ظاهرة متكررة في كل الخليج حولت الواحة الكلاسيكية إلى ممارسة تجارية حديثة . وهو شيء محمود لولا كثرة الدعم الذي تقدمه دول الخليج للمنتجين في هذا الاتجاه مما يفسد مساعي الناس للتغلب على مصاعب البيئة والانتاج والتسويق بالممارسة والتجربة والفشل والنجاح .

ولكن أكبر ما حدث من تغيير هو ما حل بالشريط الساحلي الذي كان يمثل دعامة السكن الدائم في المنطقة . فقد كان الناس منتشرون في عدالة مقبولة بين مدن وبلدات ومستوطنات عديدة على طول الساحل ، يواجهون البحر حيث مصادر حياتهم . وكان لكل مستوطنة ذات شأن أسطولها الصغير من أنواع القوارب والسفن الشراعية لأغراض السماكة أو الغوص على اللؤلؤ وكان الأسطول يضم سفنا أكبر للملاحة البحرية الطويلة في بعض المدن الكبيرة كما يوضحه الجدول التالي :

## قطـر : نموذج لأساطيـل المـدن الخليجيـة الكلاسيكيـة

| المدينة | قوارب السماكة | مراكب اللؤلؤ | سفن أعالي البحار |
|---|---|---|---|
| الدوحة | ٩٠ | ٣٥٠ | ٦٠ |
| الوكرة | ٣٠ | ١٥٠ | ٢٠ |
| الخـور | ٣٠ | ٨٠ | ٢٠ |
| الظعاين | ١٠ | ٧٠ | ١٠ |
| سميسمة | ١٠ | ٥٠ | ١٠ |
| فويرط | ١٢ | ٣٥ | ٩ |
| الخوير | ٥ | ٢٠ | — |
| أبو الظلوف | ١٠ | ٢٠ | ٥ |
| الرويس | ١٠ | ١٨ | ٢ |
| الذخيرة | ٥ | ١٥ | ٢ |
| الوسيل | ٣ | ٩ | ٢ |

المصدر: لوريمر ـ دليل الخليج ص ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ طبعة الديوان الأميري ـ الدوحة .

والملاحظ من هذا الجدول عدة أمور أهمها :

١ ـ ان هذه الاعداد من القوارب والمراكب كانت فعلا مركزا لنشاط الناس جيئة وذهابا من القرية إلى السيف (الشاطيء) أو الفرضه حسب أهمية المدينة . وعلى السيف ورش القلافين (نجاري السفن) وغيرهم من العاملين في اصلاح (أو بناء) السفن . فضلا عن اشغال السكان المتخصصين في عمل الشباك والمصايد العائمة (القراقير) وعمل واصلاح اقمشة الشراع . هذا فضلا عن الحركة المكثفة وقت الخروج في مواسم اللؤلؤ ووفود مرتزقين من هذه الحرفة من بدو الداخل وسكان ساحل فارس . ومثل هذه الكثافة في الحركة عند قفال المراكب للشاطيء . لهذا لم تكن خطة المدن والقرى الساحلية من النوع الشريطي بدون سبب . فالبيوت في أغلبها تمتد في مواجه البحر وسمك المستوطنات كان دائما يتسم بنحافة واضحة .

٢ ـ من بين أسماء المدن الأحدى عشرة الواردة في الجدول أعلاه لم يبق ذو أهمية في الوقت الحاضر سوى ثلاث هي الدوحة والوكرة والخور . وهجرت تماما الظعامين والفويرط والخوير والوسيل . وعاد الاهتمام مؤخراً بالبقية كسكن رخيص للعاملين في الدوحة من أهل البلدة الأصليين . فسكان سميسمه أو أبو الظلوف أقل من ٤٠٠ شخص بينما الرويس فيه ٧٠٠ والذخيرة ٨٠٠ شخص (فضلا عن ان بعضاً من هؤلاء السكان هم من الوافدين العاملين في خدمة البيوت) . وظاهرة المدن والقرى المهجورة هي ظاهرة متكررة في غالبية دول الخليج . والسبب في ذلك هو هيراركية الاقتصاد الجديد التي تسحب السكان الموزعين بعدالة نسبية على الاقليم وتركزهم في نقاط مركزية هي العواصم الجديدة التي تستحوذ على أكثر من ثلاثة أرباع سكان الدول .

ومن ثم فإن ظاهرة المدينة المهيمنة هي احدى أهم مواضيع الدراسة الخليجية باعتبارها ظاهرة من ظاهرات الجغرافيا الكبرى في الوقت الحاضر . فالعواصم الخليجية اليوم أشبه بتركيب دولة المدينة التي كانت شائعة في المدن الاغريقية أو الفينيقية أو السومرية . فالعواصم الآن هي قلب الدولة الاقتصادي والسكاني والصحي والتعليمي والخدمي والترفيهي . هي الميناء والمطار ومركز اشعاع الطريق ، هي تجارة الجملة ومخازنها ومركز توزيع التجارة في انحاء الدولة . هي مركز الحكم ومركزية الادارة والمال والاستثمار الداخلي والخارجي .

ولاعتبارات النظام الاقتصادي الجديد ، والتحول من اقتصاديات الأسرة الممتدة الى استقلال الفرد وتكوين بيوت منفصلة فقد حدث انفجار مساحي للمدن الخليجية . لكن الأهم من ذلك ان انسحاب الناس من الانشطة التقليدية في البحر والبادية والواحة قاد البعض إلى ميدان تأسيس أعمال حديثة تجارية ومقاولات وصناعة خفيفة ، بينما قاد الغالبية إلى مصيدة الوظيفة الحكومية بصفة خاصة . وبقيت أعمال كثيرة مكتبية وفنية وادارية تحتاج إلى تدريب كوادر خاصة . وإلى ان تم ذلك جزئيا فقد كانت احدى مجالات الدراسة الجغرافية الكبرى في الخليج هي الطفرة الكبرى في السكان نتيجة الحشود الكبيرة من العمالة الوافدة العربية والاسيوية والاوربية وهي التي جاءت تشغل فراغ النقله إلى النظام الاقتصادي الجديد .

وان اختلفت اقدار الدول الخليجية من الوافدين عددا وجنسية ، فإن ذلك مرده حجم الدولة وحجم السكان الأصليين وحجم المشروعات الجديدة وسرعة أو تأني الدولة في تخطيط وتنفيذ المشروعات المختلفة الادارية والتعليمية والصحية والاسكانية والعمرانية ومشروعات تعدد مصادر الدخل القومي بالتوجه إلى مؤسسات صناعية كثيفة المال المستخدم .

ولهذه الاغراض جاء الفنيون والمكتبيون والاداريون من الوافدين ، ومعهم اتت اعداد وافدة كبيرة من العمالة نصف الماهرة . ومن ناحية أخرى فإن تضخم المدينة ببيوت الأسر النووية الجديدة ، واحتياجات الحياة المنزلية والتسويقية والتعليمية لأعضاء الأسرة ، فقد ظهرت حاجة ملحة إلى عمالة منزلية وافدة كبيرة العدد .

وعلى هذا فإن دراسة البنية السكانية المتفجرة نموا بدرجة ونوعية لا مثيل لها (نمو بلغ في المتوسط ٧ - ١٠٪ سنويا) جذبت الجغرافيين والاجتماعيين منذ البداية . والموضوع لا يقتصر على الجوانب الديموجرافية فقط ، بل يمتد أيضاً إلى دراسة العلاقة والمنافسة للجنسيات والسلالات المختلفة في سوق العمل الخليجي . فالهنود يحتكرون أعمالا خدمية لا يمكن زحزحتهم عنها لا بالمنافسة ولا باللوائح . والعرب الوافدون يحتكرون أعمالا كتابية وادارية وتعليمية . والاوربيون يحتكرون الاستشارات والادارات العليا في الشركات . وغير ذلك كثير من أوجه الدراسة في مجال المنافسة بين الجنسيات العربية بعضها البعض ، وكذلك المنافسة بين العرب والأوربيون ، وبين الهنود وجنسيات شرق آسيا .

وتبنى بعض الدراسين موضوع تأثير العمالة الآسيوية المنزلية على تربية النشء . ولكن المبالغة في مخاطر ذلك كانت سببا في سقوط هذا الموضوع إلى درجة اهتمام ثانوية . فالنشء لا يعيش في عزلة انما يتعرض لمؤثرات الرفقة والاقران في المدرسة والشارع مما يعطيه طابع النشأة المحلية والقومية .

ومن بين الدراسات السكانية تقع دراسة القوة العاملة الآن في بؤرة اهتمام دوائر المخططين في جوانب التعليم والتدريب والتوظيف والخدمة المدنية . فبعد الدراسات المرحلية للوافدين واعدادهم ، وبعد ربع قرن من التعليم الحديث وانشاء التعليم الفني والمتوسط والتأهيل العالي في شتى الميادين . . وبعد ربع قرن من التعليم الحديث وإنشاء التعليم الفنى والمتوسط والتأهيل العـالي في شتى الميادين كل هذا أتى الآن الوقت الذي يمكن فيه مقارنة هذا التأهيل والتعليم بنتائجه في ميادين العمل . أين النقص ؟ ولماذا ؟ هل لأسباب تتمثل في تراث مجتمعي مثل عدم الرغبة في أي عمل يدوي أو فني كامتداد لتراث يقلل من شأن العمل اليدوي ويرفع من قدر العمل المكتبي أو التجاري حتى لو كان أقل عائداً ؟ أو مثل العزوف عن مهنة التدريس لما لا يصاحبها من ابهة المكتب وما يداخلها من مواجهة المسئولية أمام ادارة المدرسة والتلاميذ يوميا ؟ أم ان ذلك راجع إلى استراتيجية تعيين المحليين في القيادات الادارية التي سادت عقدا من الزمان (الثمانينات) ؟ هناك لا شك مدخلات كثيرة في موضوع القوة العاملة ولكن مما لا شك فيه ان حقولا في قائمة الأعمال سيتولاها الخليجيون المؤهلون بمزيد من الخبرة والتدريب ، الا حقول الخدمة الخاصة التي يصعب ملئها محليا اليوم أو في المستقبل القريب .

ومن الموضوعات الكبرى في جغرافية الخليج أشياء كثيرة على رأسها النفط الذي حرك المنطقة كلها باتجاهاتها الحالية في المجالات العالمية والمتغيرات الداخلية . والنفط موضوع درس واشبع بحثا . كم واين وعمر النفط . . اسئلة هامة اجاباتها تعطي الدول الخليجية استراتيجياتها الخاصة للمستقبل . فعلى سبيل المثال أدت قلة النفط الناتج والمخزون منه في دولة البحرين إلى مزيد من مشروعات الدول الخليجية المشتركة في تلك الدولة وإلى مزيد من تكثيف الخدمة المركزية المالية والبنكية والاتصالات والنقل الجوي . وعلى سبيل المثال أيضاً تتوازن ثروة الغاز القطرية مع احتياطي نفط غير متنام في دولة قطر . لكن الشيء الهام في نفط الخليج من الآن ومستقبلا هو الأهمية الجيوبوليتيكية للمنطقة باعتبار أنها تحتوي على أكبر احتياطي نفطي عالمي وأطوله عمرا . وإذا كانت استراتيجيات عالمية قد ميزت الخليج على خرائطها كمنطقة ذات اهتمام ، فانها الآن تضع الخليج في دائرة اهتمام أكثر مركزية . ويشكل ذلك أحد مهام الجغرافيا الكبرى لمنطقة الخليج . ما هو دور أصحاب المنطقة تجاه استراتيجية النفط العالمية ؟ وما هو الاستخدام الأمثل لفوائض النفط والغاز بالنسبة لاستراتيجيات التنمية الخليجية والعربية ؟ واسئلة أخرى كثيرة عن الاوبك والاوابيك والسوق العالمي وبدائل النفط وفتح أسواق جديدة في العالم النامى وما هو دور تناقص النفط السوفيتي على توجهات السوق الخليجية ؟

وقد أدت الظروف المناخية الى تشابه الانعكاسات البشرية تجاه المناخ . فكون الخليج جزء من المناخات الجافة الحارة ، مع سيادة للرياح الشمالية وفلول أعاصير طارئة شتوية كان لذلك آثار في ملبس الناس وتوجيه المسكن وطريقة الحصول على الماء الجوفي بحفر الآبار التقليدية أو بالزراعة البعلية (غير المؤكدة المحصول) . وكذلك استمدت الأشكال السابقة لاستغلال الأرض جذورها من الظروف المناخية . فتراتبت البداوة في ظل عبقرية الاستخدام الأمثل لبيئة الصحاري الهشة ، وكثف الانسان الناتج النباتي الضعيف بانتقال الرعيان والرعية بين المراعي كل في «ديرة» واسعة تشتمل على أراضي الكلاء وعلى مجال حيوي من الأرض للتوسع عند الازمات . لكن الهجرة الكاملة كانت هي الملجأ النهائي لجفاف سنين متعاقبة ، كما حدث في أواسط القرن ١٨ حينما تحركت قبائل عدة من نجد إلى قطر والبحرين والكويت وغيرت الأوضاع السكانية والسياسية التي كانت قائمة من قبل .

واستقرار السكان الدائم في شريط القرى والمدن الساحلية الخليجية ارتبط بامكانية الحصول على مياه عذبة من آبار قريبة من اقليم الساحل . فهنا نهاية المطاف لعدسة المياه الجوفية السطحية قبل ان تخالطها المياه المالحة بدرجة غير مقبولة . وعلى الساحل تعلم الناس فنون الملاحة بالارتباط بالرياح السائدة الشمالية (أو الكوس الشرقية في مواسم معينة) وتعلموا فنون الابحار مع

الرياح الموسمية صعودا وهبوطا في المحيط الهندي . أما كيف عرف الناس اللؤلؤ ، وكيف أصبح مطلبا عزيزا لدى بلاط الملوك والزعماء ، وكيف سوقه الخليجيون ولماذا في بمباي ، فانها أسئلة محيرة . لكن الذي مارسه الناس هو ما نعرفه من تكنولوجية معينة للحصول على اللؤلؤ ، وتركيب هيراركي في طاقم مراكب اللؤلؤ وتنظيم مالي «للطواشة» يستثمر في السفن والاعداد لمواسم الغوص السابقة واللاحقة (البشيرية والقفال) والموسم الرئيسي (الغوص الكبير)، إلى آخره من تراتب تجار اللؤلؤ وضرائب الحكام وشيوخ الاقاليم والقبائل ، والتركيب الاجتماعي الشامل للسكان والعلاقات المالية بين الناس وأشكال القروض وما قيل عن سخرة معينة في هذا المجال خاصة وقت الأزمات المالية في الخليج .

وصحيح ان تفجر الينابيع التي تنبنى عليها مقومات الواحات هي حدث جيولوجي أو مورفولوجي على الأقل ، الا ان تكنولوجية الزراعة هي التي تحول هذه الأحداث في هذه الأماكن الى واحات . وحيث ان المتعارف عليه ان القبائل العربية ـ بادية ومستقرة ـ تعاف ممارسة الزراعة باعتبارها عملا يدويا ليس في منزلة التجارة والرعي شرفا ـ فإن الأمر يحتاج من الدارسين الى تقصي حقيقة من هم الذين كانوا يزرعون الواحات الضاربة في الغنى والرخاء الى عصور قديمة . فاذا كانت هناك أجابة سريعة عن العمالة الزنجية المسترقة والمحررة في القرون القليلة الماضية ، فهل كان الأمر كذلك في الألف الأولى قبل الميلاد ؟ ومن هم ارقاء الماضي ؟ من كل لون أن لون محدد ؟ وهل كان بينهم احرار فقدوا حريتهم لديون عليهم لم يوفوها ، كما كان الحال في اليونان وروما وحضارات شرقية أخرى ؟ وهذا ، وغيره من ظواهر حضارية ، كأنواع من مذاهب الموسيقى الراقصة والاغاني وآلات موسيقية ، تحتاج إلى مزيد من الدراسة كوضوعات كبرى في الجغرافية التاريخية للخليج أقصاه وادناه . وما هو تأثير الهنود والافارقة والفرس في فنون الملاحة والزراعة وأنظمة الري . ما هو تركيب السلالة في واحات ذائعة الصيت كالاحساء (اليمامة سابقا على الأغلب) أو القطيف أو البريمي ؟ وتحتاج مثل هذه المباحث الى تفاصيل أخرى دقيقة كأن نعرف هل كان النخيل اختصاص عمل زراعي للعرب بينما اعداد الحقول وتنظيم المساقي والمحاصيل الزراعية الأخرى من نصيب الأفارقة ؟ أم ان الأفارقة احتكروا كل العمل الزراعي بحيث أصبح لا غنى عنهم في هذا المجال الغذائي الهام ؟

ومثل هذا ينطبق على أبحاث أخرى عن موضوعات شارك فيها الخليجيون باقدار متفاوتة في الاستخدام والصناعة . مثال ذلك أنواع المراكب التي نقلت تجارة العرب من جنوب آسيا إلى شرق أفريقيا (الشكل رقم ٢) وكذا نقلت اعدادا من المستوطنين الخليجيين الى شرق أفريقيا وبدرجة أقل إلى الهند وأبعد من ذلك إلى جزر جنوب شرق آسيا .

وفي العصر الحديث أصبحت هناك موضوعات متكررة في الخليج ، دراسة نموذج منها يعطي الكثير من المؤشرات الحسنة عن مثيلها . وهكذا فإن دراسة نمو الطاقة الكهربائية والمياه المحلاة في غالبية الخليج متكررة من حيث النوع وليس الكم . وكذا عدد مشتركي التلفون والتلكس والفاكس وربما بعد قليل المشتركين في ارسال التلفزيون بالاقمار الخاصة . وتعطي دراسة مثل هذه الظواهر الحياتية ووسائل الاتصال نسبا للفرد الخليجي مماثلة (أو أعلى) من نصيب الفرد في كثير من دول متقدمة ، برغم ان ممارسات اجتماعية كثيرة مازالت تضرب جذورها في التقاليد والعادات السابقة على عصر الاتصالات . مثال ذلك ان مشاركة المرأة في ميادين من العمل مازالت قاصرة على نحو ٥٪ أو أقل من مجموع القوة العاملة . وبهذه المناسبة فإن التقاليد والعادات التي تقال لتبرير ذلك هي في الواقع ليست في تفصيلاتها دقيقة . فعمالة المرأة في عصر الغوص وفاعليتها المجتمعية كانت كبيرة داخل البيت وداخل الفريق (الحي) ، وربما كان لبعضهن أنشطة على الشاطيء أيضاً .

ومن الموضوعات المتشابهة في جغرافية الخليج نمو وشكل ومورفولوجية المدينة الحديثة . فحيث ان أوجه الشبه الوظيفي والعمراني والخدمي مفقودة بين المدينة القديمة والحديثة ، فإن المدينة الحديثة هي نبت عصر جديد صلتها العضوية بالأرض قريبة من الصفر . فبديل «الفريق» المترابط أسريا ، بل قرابيا على الأغلب ، تحتفظ أحياء المدينة الحديثة باسماء «الفرقان» القديمة بدون الدلالة القرابية . وكانت المدينة القديمة تتكون من بيوت صغيرة المساحة متلاصقة فيما بنيها بدون خطة طريق واضحة ، بل سككا ضيقة تلتوى وتنثني مع أسوار وابنية البيوت التي تزيد أو تقل كلما أضاف صاحب البيت اضافة ، أو كلما تقادم العهد بجزء من البيت فتساقطت احجاره لقلة الرعاية بسبب ضائقة ، أو موت الرجال أو هجرة الناس .

أما مدينة اليوم فقد صادفها أمران سهلا قيامها بشكلها الفاخر الحالي . أولهما أن المدينة تجاوزت الأحياء القديمة بهجرة أصحابها إلى أحياء جديدة بيوتها ذات مساحات واسعة وذلك نتيجة الدخول الجيدة من العمل التجاري أو الوظيفة ذات الايراد الشهري الثابت . وفي غالب الحالات تمت مثل هذه النقلة مرتين خلال حياة جيل واحد . ارتبط ذلك بتزايد المدخولات وخاصة بعد تأميم البترول ونشأة دولة الرفاه بحق ، مما ساعد على ترك البيوت التي بنيت منذ عشر إلى خمسة عشر سنة مرة أخرى إلى بيوت أوسع وأغلى معمارا وبناءًا وأثاثا ، بينما تحولت البيوت القديمة (نسبيا) إلى مخازن أو مساكن للعمال تؤجر بالغرفة لعدد كبير . وساعد ذلك على كثافة سكانية عالية جداً في وسط المدينة الخليجية المعاصرة ، بينما تناثرت المدينة في اتجاهات متباعدة

مكونة من مساكن كبيرة وفيلات ذات حدائق وكثافة سكانية منخفضة . وأدى هذا التباعد إلى طلب شديد على الخدمات الأساسية ـ كهرباء ، مياه ، تلفونات وأخيراً صرف صحي ، مما أرهق الدولة فعلا في هذه المجالات .

أما الأمر الثاني فراجع إلى استملاك الدولة لمعظم الأراضي . وذلك لأن القليل كان هو الملك الخاص في المدينة القديمة ذات المساحة الصغيرة . وقد ساعد ذلك على انه كان بامكان الدولة ان تخطط لمدنها في كل الخليج دون مشاكل تعويض تذكر . بل ان أراضي «الفرقان» القديمة عوضتها الدولة بفرقان أكبر وارحب مرات متعددة ، وهي فوق هذا مقام عليها البنية الأساسية من طرق وكهرباء وما إلى ذلك . صحيح ان بعض الخطط لتنمية المدينة قد تعرضت لتعويضات مالية كبيرة بحيث كانت هناك مضاربات على قيمة الأراضي بصفة عامة ، الا ان ذلك كان لفترة محدودة ، وفي مناطق محدودة حينما تشق طرق خدمة أسرع . وموضوع ملكية الدولة للأراضي هو في حد ذاته عامل حاسم في تخطيط وتنفيذ بناء المدن بتكلفة أقل بكثير مما لو كانت غالبية الأرض مستملكة للأفراد . ومن ثم ظهرت مدن الخليج الحديثة في نحو عشر سنوات مدنا متشابهة من حيث الاتساع وشبكة الطرق العريضة الحديثة المشجرة على الأغلب (برغم تكلفة الشجرة العالية) . وفي أحيان خصت الدولة بعض الأحياء بنماذج معمارية معينة . ونذكر على سبيل المثال منطقة العاصمة في عمان ، فمسقط محتفظة بمبان شبه تاريخية وألوان بيض ومطرح بسوقها وكورنيشها شبيه بالمعمار القديم ، وروى وقابوس والقرم لكل منها معمار خاص ومساحات خاصة ونمط حياة خاص . فالقرم نمط القصور عكس مدينة قابوس نمط الحياة شبه الأوربية وروى بعمائرها أصبحت مركز الأعمال والتجارة الحديثة . ومثل هذا ، وبصور أقل تشددا ، نجد المدن الخليجية الأخرى .

ويمكن ان نستمر في تعداد جوانب كبرى متشابهة في جغرافية الخليج . ويكفي هنا ان نذكر ان الجوانب الاقتصادية الحديثة متشابهة تشابها أشد وأقوى . فهناك في المدينة أرض وناس ونوازع وقيم جمالية تترك حرية لتفرد بعض الظاهرات العمرانية في دولة عن أخرى . فالقوس الرائع لكورنيش الدوحة بجزيرته الوسطى (المنظر العام كله ، وخاصة في الليل يذكر بانحناءة جنيف على قوس بحيرة ليمان مع نافورة المياه بديل جزيرة النخيل) ، يختلف عن النظام الشبكي لمدينة أبو ظبي بأشجار شوارعها المستقيمة شديدة الاتساع (بعضها شبيه الشانزليزيه) . وهذا وذاك غير التفاعل البيئى بين المدينة والجبل والوادي والبحر في مسقط . أما في الجوانب الاقتصادية فالنمطية واضحة بلا مزيد : سيطرة صادرات النفط على مكونات الناتج المحلي العام وعلى

الصادرات ، واستراتيجية الصناعة الحديثة قليلة العمالة كثيفة رأس المال والتي تقوم على أساس الطاقة الرخيصة ، والمكان ورأس المال الاستثماري . وكذلك هناك دائمًا محاولات في اتجاه الأمن الغذائي وشركات للزراعة المحمية والانتاج الحيواني .

وأخيراً فإن دول الخليج تتشابه في موضوع الجغرافيا السياسية من حيث المكونات والمقومات وانماط الحكم والمواقف السياسية المتماثلة أزاء العالم المحيط ، فضلا عن الارتباط الوثيق بالجامعة العربية واطار التعاون من خلال مجلس التعاون الخليجي .

## الجغرافيا الصغرى في الخليج :

تتناول الجغرافيا الصغرى موضوعات الدراسات التفصيلية وفي أماكن محدودة . وذلك لاستجلاء أثر العلاقات المحلية في تراكيب معينة سكانية أو سياسية أو ممارسات اقتصادية أو خلفيات تاريخية .

وربما كان أول وأكبر موضوعات الجغرافيا الصغرى في الخليج هو التمييز الواضح بين اقليمين كبيرين هما الاقليم الجبلي العماني من رأس مسندم والامارات الشمالية الى بحر العرب عند الحافة الشمالية لرملة وهيبة ، وبقية اقليم الخليج الذي يطل فعلا على الخليج العربي (شكل رقم ١) . وليس سبب هذا التمييز الارتفاع العام لتضاريس المنطقة العمانية أو تاريخها الجيولوجي المختلف عن بقية النطاق الخليجي فقط . بل هناك مبررات عديدة ترتبت على هذا النوع من التكوين . فعناصر المناخ المحلية من حرارة ورطوبة وتساقط مختلفة ومؤثرة في أشكال الحياة النباتية والحيوانية على سطوح الجبال ووديانها العليا والسفلى ومنحدراتها وترباتها . ولكن من النقاط الهامة ان خزان المياه الجوفي في المنطقة العمانية هو جزئياً فوق مناسيب الأودية والهضاب المحيطة بالمنحدرات الجبلية . وهذا ما جعل في الامكان ، بواسطة تكنولوجية الافلاج ، جر المياه تحت السطح عدة كيلومترات دون أن تتأثر بالبخر ، تنحدر بقوة الجاذبية إلى الحقول والمستوطنات في صورة «الغيل» (المساقي أو القناة المفتوحة على سطح الأرض) . وبالمناسبة هناك تفسيرات عدة في أجزاء عمان الشرقية والغربية حول المقصود بالفلج والغيل . وبعضها هو كما ذكرنا : الفلج للمسار التحتي والغيل للمسار السطحي ) .

عمر تكنولوجية الافلاج ضارب في القدم ربما للالف الأولى قبل الميلاد . وهي شبيه بنظام «القناة في ايران» ، و«الكهريز» في مناطق أخرى جافة . وهذا يشير إلى تناقل معرفة قديمة في هذه المنطقة الجافة . وليست كل الافلاج في عمان قديمة . بل ان لبعضها تاريخ معروف منذ ق ١٦ أو ١٨ نتيجة جهود أئمة أو استثمار قباطنة البحر لأموالهم في استعمار أرض وزراعتها في داخلية البلاد .

وتتكرر كلمة « مسفاه » في مناطق معينة على سفوح الجبال عند ارتفاعات مختلفة . فهناك مسفاه العبرين التي تقع على ارتفاع ربما جاوز ١٥٠٠ متر على السطح الجنوبي لكتلة الجبل الأخضر (قرب الحمرا) ، وربما كانت المسفاه عند مستوطنة «سيتال» على السفح الشمال للجبل الأخضر في أعالي وادي بني خروص على نفس الارتفاع . والمسفاه هي المكان الذي تسفى فيه المياه . وهي بذلك مناطق تخرج منها المياه طبيعيا في المنحدرات العليا وتعطي مصدراً مستمراً للمياه في تلك الأعالي . والأغلب ان سبب ذلك هو اختلاف مسامية الصخور في بنية الطبقات الحاملة للمياه داخل الجبال . والأمر يحتاج إلى دراسة مستفيضة ومقارنة بين جمع من مسافي عمان والمستوطنات البشرية التي نشأت بسببها ومصير هذه المستوطنات حينما يذهب الجيل الذي مارس زراعة المدرجات ، ويأتي جيل غير متمرس في هذا النوع الشاق من الزراعة ويفضل عليها أعمالا أخرى في المدينة القريبة أو البعيدة .

على العموم فإن الافلاج قد ساعدت على زراعة مساحات كبيرة من أراضي الوديان المتسعة عند أقدام الجبال فنشأت سلسلة الواحات الكبرى العمانية في شمال وجنوب الجبال ، من الكامل وجعلان في الشرق الى البريمي والعين في الغرب ، مروراً بابرا والمنترب إلى المضيبي وآدم ونزوة وبهلا وعبرى وضنك . بينما أكبر واحات السفوح الشمالية تتركز في منطقة بيدمونت جبل نخل والجبل الأخضر حول الرستاق وعوابي ونخل . ويمكننا اعتبار شريط الباطنة الزراعي ومدنه وقراه الساحلية من السيب في عمان حتى كلبا والفجيرة في الامارات ، بمثابة سلسلة متصلة من الواحات شمال الجبل الأخضر والحجر الغربي في مقابل مجموعة واحات السفوح الجنوبية المذكورة سابقا .

هذه الصورة من التداخل الزراعي الكثيف نتيجة الوديان والافلاج تختلف تماما عن صورة اقليم الخليج العربي . فالزراعة هنا هي الواحة الكلاسيكية كالاحساء ، أو زراعات قليلة ومحدودة مساحيا حول البئر لصعوبة رفع المياه من الآبار التقليدية . وحينما أضيفت المضخات الحديثة (على ما عليها من آثار عدم التوازن البيئي والاخلال بالمخزون الجوفي من الماء ) فقد كان ذلك في مزارع غالبا للأثرياء ينشئونها أساسا للترفيه ، والبعض يستغل جزئياً لانتاج محاصيل تجارية ـ غالبا خضروات وطماطم .

ويلخص شكل رقم (٤) والقطاع التتابعي للانشطة الاقتصادية الاختلاف الفعلي في صورته العامة بين الاقليمين الفرعيين في الخليج . فهناك في منطقة الخليج العربي يتتابع شريط الساحل الدائم السكن ، مع نطاق الرمال والبداوة الواسع الذي يتخلله واحات مختلفة الاقدار .

بينـما في المنـطقـة العمانية نجد النطاق الساحلي يتميز بالسكن الدائم المتوجه إلى أنشطة البحر والزراعة معاً . ثم نطاق غير عريض من الرمال والبداوة فيما بين السيب والامارات ، ونطاق صخري وعر مع أودية ضيقة حول الجيوب السهلية التي بنيت فيها مدن عمانية لها تاريخ طويل هي صور وقلهات وقريات ومسقط ـ مطرح . وفي هذه الأودية الجبلية انتشر الرعاة من الشواوى (نسبة للشياه ـ أي مربي الاغنام والقليل من الابقار) كما انتشروا في وديان الجبل الأخضر والحجر الغـربي خلف سهـل البـاطنيـة وبـاديتـه الصغيرة . وفي الوديان حيث الافلاج الكبرى تتناثر المستوطنات العمانية داخل واحاتها الكبرى مثل سمايل وازكى وفنجه أو الواسط وهايل في وادي الجزى .

وفي النمـوذج الخاص بالتحولات في سهل البطانة (الشكل ٥) شبه بنموذج التغير العام (شكل ٣) في الاطار العام ، الا ان هناك متغيرات خاصة تجعل دراسة التحولات في البطانة مختلفة كما ونـوعـا . ففي الحالتين كان هناك مستوطنات تواجه البحر وتشتغل بأعمال البحر وبخاصة السماكة والسفر عبر البحار ـ الا ان اللؤلؤ كان نشاطا بحريا مقتصراً على سكان الخليج العربي . ومقـابل ذلك كان سكان البطانة يمارسون أعمال الزراعة في هذا السهل الغني وفير الماء ـ آبارا وأفلاجا . ولكن علاقة سكان البطانة بالظهير الذي تكونه مستوطنات بيدمونت الجبل ووديانه الشمالية وثيقة لقرب المسافة وتبادل المصالح والغذاء . (الحبوب والتمور والليمون في البطانة ، والتمور وفواكه المنطقة الجبلية من عنب ومشمش وتين فضلا عن الثوم ولحوم الاغنام في البيدمونت المتمركزة حول الرستاق وغيرها ) . وفوق ذلك فقد كانت البطانة تقع غالبا تحت ظل ادارة عمانية مركزية مرة في صحار وتارة في الرستاق مما خلق مدنا حاكمة في الاقليم ، ومازالت لها هذه الوظيفة للآن . فالـوشـائـج سميكة بين الساحل والظهير بينما قد لا نجد هذه القوة في علاقة الساحل والداخل في منطقة الخليج العربي ، وبخاصة في الجوانب السياسية ، فقد كانت القبائل البادية في الظهير قوية وكثيرة الترحل مما خلق عوالم مخلخلة شبه منفصلة . لكن الأمر لم يخل أبدا من علاقة اقتصـاديـة ونقـل تقـوم بها البـادية من الساحل للداخل مع تبادل الغذاء بين منتجات البادية ومستوردات الغذاء في مدن الساحل .

وحينـما حدث التغيير بقدوم عصر البترول ، ومدت الطرق الرئيسية على طول المناطق الساحلية أو بموازاتها كان هناك نمطان متميزان في الجغرافيا الصغرى . نذكر نموذجين منهما من البطانة ومن قطر . وليس معنى هذا ان النموذجين قد تكررا في المنطقتين العمانية وتلك المطلة على الخليج العربي . فكل مكان محلي له مدخلاته ، ومجالاته الخاصة .

## أولا : نموذج التغير في منطقة البطانة الشرقية وبيدمونت الرستاق :

المقصود هي المنطقة الممتدة من بركاء إلى المصنعة في مواجهة البحر ، ويختطها إلى الداخل طريقين احدهما من بركاء إلى نخل والعوابي وينتهي عند الرستاق ليبدأ الطريق الثاني من الرستاق إلى الحزم إلى المصنعة . ويتكون الحد الفعلي من جبل نخل الموازي للطريق من نخل إلى العوابي ، والجبل الأخضر من العوابي إلى الرستاق . في هذه المنطقة ثلاث مناطق ايكولوجية أولها الساحل وسهل الباطنة الذي يمتد في شريط يتراوح عرضه بين ٥ و١٥ كيلومترا . وتحتل الزراعة فيه نطاق أقرب إلى البحر في حدود عرض ٢ ـ ٤ كم فقط . وتقع قرى الصيادين والمستوطنات الأصلية للبطاقة على التكوين الرملي للساحل تاركين الحقول خلفهم . وبين الحين والآخر توجد مدينة أو مستوطنة كبيرة إلى الداخل قليلا تتمركز حول سوق وحصن . وفي ١٩٧٤ مدت الدولة طريق السيب صحار إلى الجنوب من النطاق الزراعي كي لا تخل بالحقول قدر الامكان .

ولكن ما ان تم انشاء الطريق حتى بدأ الناس في استخدام واجهته أولا كمحلات صغيرة جوار محطات البنزين ، ثم تحولت المدن والمستوطنات الساحلية تدريجيا إلى واجهة الطريق مقتطعة أجزاء غالية من الحقول . لكن الابنية والعقار على الطريق وقريب منه أعلا غلة من الأرض الزراعية . وفي أول الثمانينات كان المار على هذا الطريق يرى الحقول والنخيل باستمرار بشمال الطريق . واليوم تحجب المباني أكثر من نصف الحقول عن الطريق وبخاصة في البطانة الشرقية حيث نقترب من العاصمة ، وترتفع قيمة الأرض .

ولم يكن ارتفاع قيمة الأرض لهذا السبب وحده . ففي منطقة السيب تحولت الحقول إلى فيلات وقصور صغيرة لقضاء عطلات نهاية الأسبوع واجازات الربيع والصيف . صحيح ان المنظر الأخضر مازال قائماً ، لكنه أفقد هذه المنطقة القريبة من العاصمة وظيفة انتاج الالبان والخضروات . كما أدى العمران الترفيهي والسكن على طول الطريق إلى كثافة حركة أكثر من قدرة الطريق السريع حين انشيء . ومن ثم أضيف للطريق في جزء منه طريقا آخر ليصبح أوتوسترادا قادراً على تحمل عبء الحركة .

أما المنطقة الثانية فهي الهضبة التي تتدرج ببطء غير محسوس إلى اقدام الحوائط الجبلية والوديان التي تشقها . وتنقسم هذه الهضبة إلى قسمين : الأقرب إلى السهل يسيطر عليها جزئياً التكوين الكارستي بحيث لا تظهر الوديان على السطح . وهذه الهضبة وجزء من السهل كانت مجال تنقل البادية بابلهم شمالا وجنوبا ، وبموازاة محور البحر شرقا وشمالا بغرب . لهذا لا نجد عمرانا قديما أو حديثا في هذه الهضبة . وفي أجزاء أخرى من شمال البطانة استقر هؤلاء البدو في بيوت من الطوب قريبا من الدروب التي تخترق البطانة إلى المدن الساحلية .

وإلى الجنوب مباشرة نجد البيدمونت الحقيقية حيث الوديان تخرج زاخرة بالمياه أو تظهر بها برك من الماء حسب موسم وقدر الامطار . وعلى جانبيها زراعة ارصفة يجتهد الفلاح في المحافظة عليها من الفيضانات العالية . وقد سهل الطريق الاسفلتي نجاح الزراعة والاستقرار في هذا الجزء كامتداد لسكن واستغلال تاريخي قديم . وقد زاد الاستقرار بتمركز وامتداد الخدمات الأساسية لمراكز الولايات وبخاصة الرستاق ، فهنا الادارة والمدارس والوحدة الصحية والرعاية الاجتماعية ، ومصنع التمور ، ومنحل العسل . ولقرب الرستاق من مخارج أودية كبيرة فإن الراجح ان جزءاً من تبادل ثروة الشواوي (رعاة الاغنام والابقار) يتم في سوقها .

والخلاصة ان التغيرات الحديثة في هذه المنطقة قد أدت إلى تحول مكان المدن الى الطريق ، وفقدان جزء من حقول الانتاج الزراعي نتيجة لذلك ونتيجة للاستخدام الترفيهي ، وان الهضبة الكارستية أصبحت خالية من النشاط الانتاجي بعد استقرار البدو ، وان البيدمونت قد تأكدت أهميتها بامتداد الطريق الاسفلتي اليها ووصول الخدمات الأساسية واسيطان القائمين بهذه الخدمات في المنطقة .

## ثانيا : منطقة الخور في دولة قطر :

كانت منطقة الخور من المناطق التاريخية الهامة في قطر . وتقع مدينة الخور على نهاية الخور الذي هو في الواقع تتمة غارقة لوادي يمتد غرب هذا الخور بحوائط شبه عمودية الى ارتفاع محدود (٥ ـ ٧ متر) . وعلى جزء من الحائط الجنوبي اكتشفت آثار وهياكل تعود إلى نحو الألف الرابعة ق.م. مما يدل على سكن قديم حينما كان منسوب البحر أعلا بنحو ٢ ـ ٣ متر عن منسوبه الراهن . ومن جملة ما وجد من لقي أثرية في هذا المكان أنواع من فخار يعود إلى حضارة «العبيد» المنتشرة في سومر وشرق السعودية وأماكن أخرى خليجية .

وفي عصر اللؤلؤ كان لمواني اقليم الخور ( الذخيرة وسميسمة والظعاين والخور) اسهام يصل ٢٦٪ من أسطول اللؤلؤ القطري ، ونحو ٣٠٪ من سفن النقل البحري القطرية (راجع جدول سابق اعلاه) . ومازالت الخور للآن من أهم مراكز صيد السمك في قطر .

في الماضي كان حول الخور مزارع محدودة في عدة روضات (الروضة تطلق على المنخفضات ذات تربات جيدة للزراعة) أهمها العقدة وأم قين وتنبكك . وكانت هناك مراكز استيطان ساحلية مجاورة هي الذخيرة شمال الخور وسميسمه والظعاين جنوبها . وفي الداخل كثير من مضارب البدو من النعيم والكعبان وبعض المهاندة والحسن من المهاندة. هذه المضارب كانت تختار عند آبار في روضات متفاوتة الاحجام مثل البويرده ، أم القهاب ، أم بركة ، والخريص والوعب إلى الشمال أكثر . وبعض هذه المضارب تحولت تدريجيا إلى مساكن بدوية شبه دائمة (شكل ٦) .

ثم جاء عصر البترول . وشق طريق الشمال القديم من الدوحة إلى الرويس . وعند أم سويجة كان مفرق الطريق المتجه لمدينة الخور وعند هذا المفرق نشأت قرية أم سويجه عند آبار عذبه تغذي الخور . وكان هذا الطريق يمر عند أم بركة وسمسمة . وبتحول الكثير من الناس إلى وظائف في الدوحة وبتقديم خدمات التعليم والصحة الى مدينة الخور جاءت فترة الستينات وأوائل السبعينات لتشهد تهجير سكان أم سويجه وأم بركة وأم القهاب والعقدة الخ إلى الخور والذخيرة حيث تركزت المدارس والوحدة الصحية والبلدية وخدمات الهاتف ، والبنك والسوق والجمعية التعاونية لبيع المواد الغذائية . ثم أنشيء الرصيف الجديد للميناء في الخور وتركز أسطول المستثمرين من أهل المنطقة على هذا الرصيف الذي يشتمل على أكثر من ١٥٠ مركبا من أنواع السنبوك القديمة المجهزة بالمحركات ، بالاضافة الى «طرادات» قوارب أصغر وأسرع بعضها من االمواد المصنعة (فيبرجلاس).

وقد أدى إلى عودة سكان كثيرين من أهل الخور والذخيرة وسميسمه الى السكن فيها بانشاء المساكن الحديثة . بل ان تزايد المداخيل الفردية لدى البعض قد أدى إلى اعادة تعمير مناطقهم القديمة في روضات أم القهاب وأم بركة والرحيه وأم الغاف . فأصبحت هناك مساكن ترفيهية داخل البر لعطلات نهاية الأسبوع والربيع . وتتداخل في هذه المناطق مزارع ومساكن ترفيه لملاك من خارج الاقليم (غالبا من الدوحة).

وإلى جانب هذا فإن شواطيء كثيرة في رأس النوف وعريدة ورأس لفان قد بنيت عليها فيلات لملاك كبار لعطلات نهاية الأسبوع مما يهدد الشواطيء الطويلة لمنطقة الخور بالاستملاكات الفردية .

هذه الطفرة ـ بعد تفريغ السكان ـ ربما يزيدها كثافة ان حقل غاز الشمال البحري يقع شمال اقليم الخور مباشرة . وحيث ان الشواطيء القريبة في لفان والحويلة ملكيات خاصة ،وحيث ان أنابيب الغاز الممتدة إلى بقية قطر تخترق اقليم الخور عند أم القهاب ، وحيث

ان الخور هي المركز الحضري الكبير في المنطقة ككل (٥٣٠٠ شخص ١٩٨٦) فربما كانت الخور مرشحة لأن تصبح مكان لبناء حي سكني للعمالة التي ستعمل في موضوع الغاز ومصنع تسييل الغاز وربما أيضاً انشاءات أخرى كمحطة تحلية وطاقة جديدة . هذا فضلا عن المنطقة الصناعية الحالية بين الخور والذخيرة وهي مازالت في أول عهدها .

والخلاصة ان اقليم الخور بعد ان فقد نشاط اللؤلؤ وفقد البداوة بعد دخول عصر البترول وحدث له تفريغ سكاني (الا مدينة الخور) قد عادت له أهميته السكنية بعد انشاء طريق الاوتواستراد الجديد، مع القرب المكاني في الدوحة (نحو ٥٠ كم فقط) ثم مع الطفرة في المدخول خلال السبعينات وأوائل الثمانينات بدأ الاستثمار في سفن الصيد أولا ، ثم المزارع ثانيا ، بحيث أصبحت منطقة انتاج غذائي منوع سمكي ودواجن بكمية جيدة ، وخضر بكميات محدودة . ثم جاء السكن الترفيهي الخاص على الشواطيء أو في الروضات الداخلية . والمنطقة بعد مؤهلة لأن تكون مقرا سكنيا للعمالة في النشاط الصناعي الذي سوف يقوم على استخراج الغاز وتسييله (شكل ٧) .

## ختام :

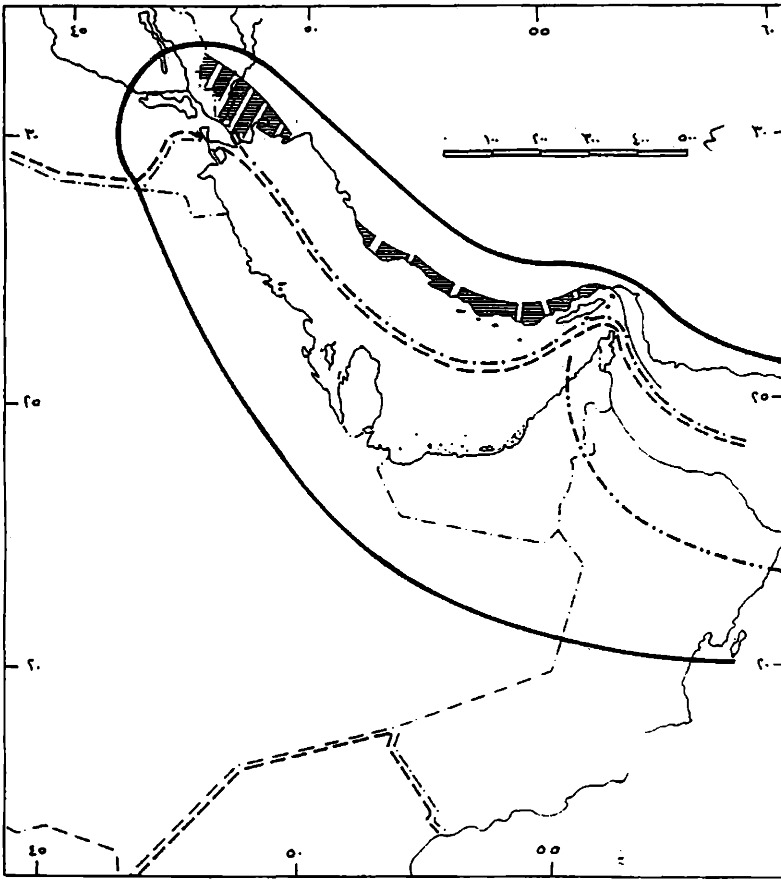
ليست كل عناصر الجغرافيا الصغرى مرتبطة باقاليم أو مناطق ذات تمايز في مقوماتها تؤدي بها إلى توجهات وتحولات معينة فقط . بل ان هناك عناصر أخرى للدراسة الصغرى وبخاصة في الجوانب الحضارية في الخليج . ولا تتسع الورقة الا لذكر بعض هذه العناصر مثال ذلك دراسة علاقة المكان في اختلاط السلالة المهاجرة والمستوطنة داخل الخليج . فتوجهات وعلاقات عمان المكانية قد أدت الى تداخلات من بلوش مكران وعرب وبانتو الساحل الشرقي لأفريقيا ، وذلك فضلا عن الوشائج القوية بسكان جنوب الجزيرة العربية القدماء كالمهرة والجبالية . ومثل دراسة غطاء الرأس الخليجي . فهو في معظم الخليج العربي العقال والغطرة البيضاء غالبا ، بينما هو في عمان ـ بل جنوب الجزيرة ـ العمامة ذات الربطة المعينة والألوان المتعددة . وهناك بعض دراسات تشير إلى ان الغطرة والعقال قد غزت المنطقة آتية من الشمال ـ ربما من بادية الشام والدهناء .

وثمة عنصر آخر . فسكن الواحة الغالب على عمان ، ومن أجل الحماية وتوفير الأرض للزراعة ، أدى إلى مورفولوجية القرى العمانية المسورة ذات المساكن المتلاصقة . ويؤدي هذا إلى تفاعل ابناء المجتمع من الجنسين في الكثير من الانشطة اليومية ، من ملء جرار الماء إلى أنشطة متعددة في ساحة القرية . وذلك عكس البيوت المستقلة ذات الاسوار في قرى النطاق الساحلي حول الخليج العربي مما يؤدي الى فصل واضح في الانشطة بين الجنسين . هناك أيضاً نظام «البادجير» للتهوية في بيوت الخليج العربي ، بينما يستخدم سطح البيت في ساحل عمان للحصول على أجواء مفتوحة .

والخلاصة ان منطقة الخليج مليئة بامكانات الدراسة التي يمكن ان تبرز الشخصية الخليجية تاريخيا وحديثا من خلال موضوعات كبرى ، مع التمييز المحلي لأماكن أو اقاليم فرعية نتيجة علاقات مكان ومدخلات بيئية وحضارية متعددة . وقد آن الأوان لنطرق موضوعات صغري في دراساتنا أو دراسات تلامذتنا في أبحاث الماجستير والدكتوراة بدلا من اطروحات متكررة لموضوعات عامة منفصلة عن الكيان الشمولي للدراسة الجغرافية ، قليلة الأهمية في اعطاء المؤشرات الحقيقية لتوجهات التنمية وتخطيط التكامل الاقليمي على أسس صحيحة من المدركات الجغرافية والحضارية .

شكل (١)

## مفاهيم متعدده للخليج




الإقليم الجغرافي الخليجي

الحد الشرقي للغة العربية ( مع تداخل لغات إيرانية )

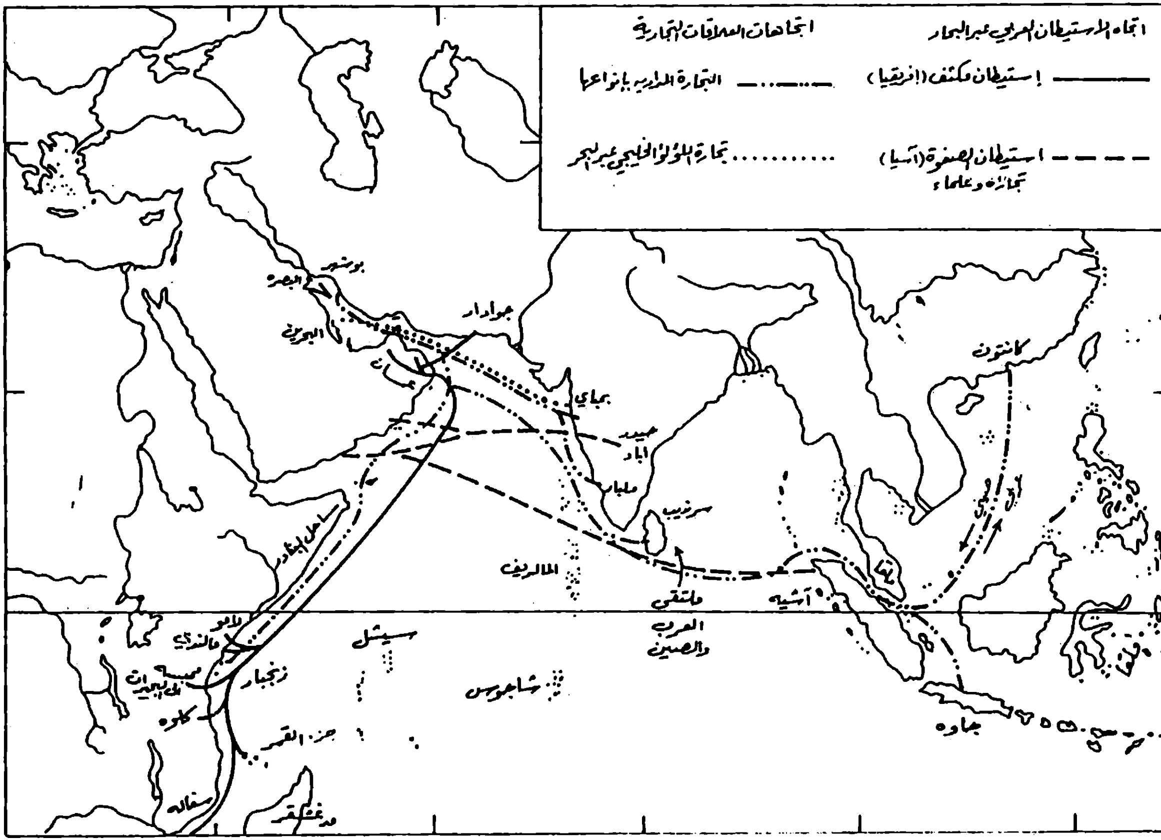
الحد السياسي الشرقي للمنطقة العربية

حدود دول مجلس التعاون الخليجي

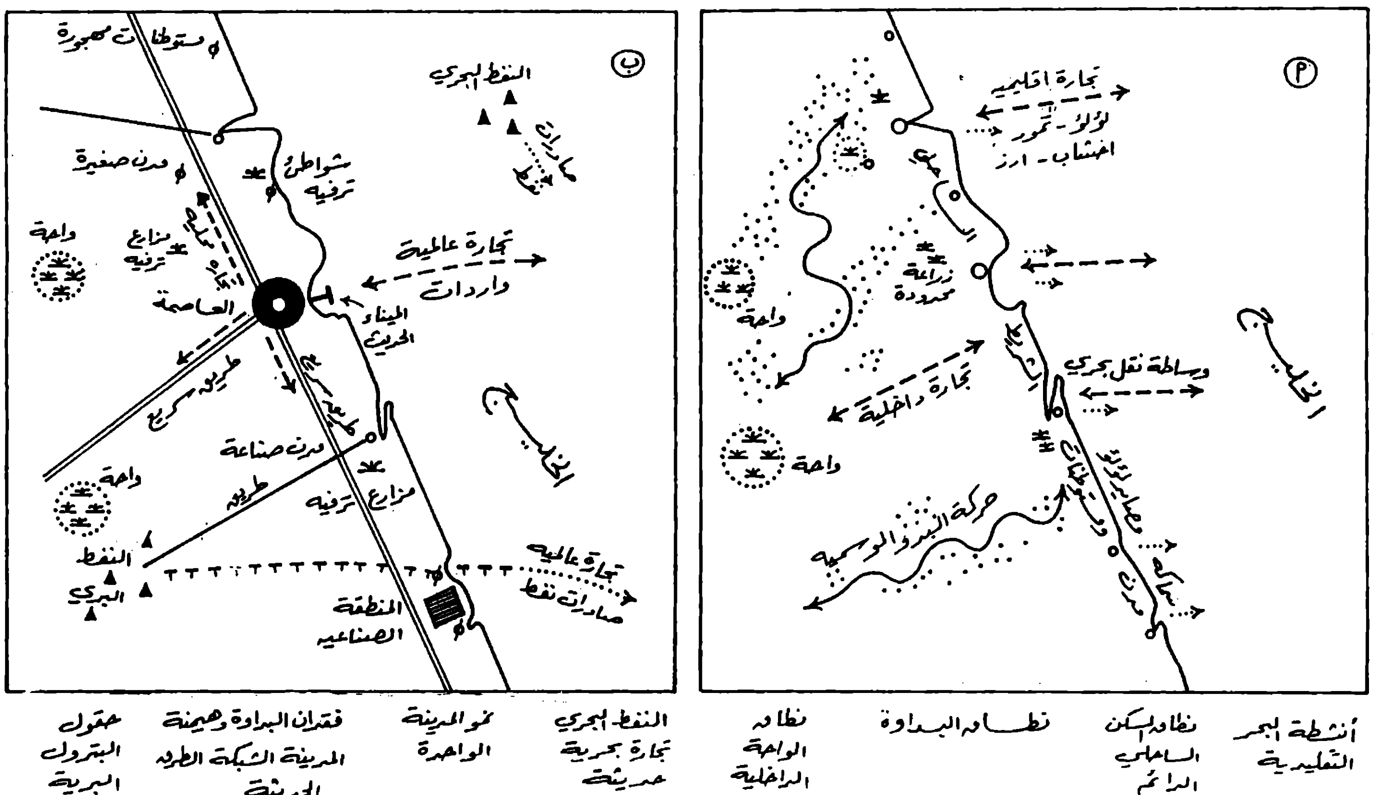
تخوم تقريبية للإقليم الفرعي العماني داخل الإقليم الخليجي

الجغرافيا الكبرى لعرب الخليج : الخليج عبر البحار

شكل (٢)



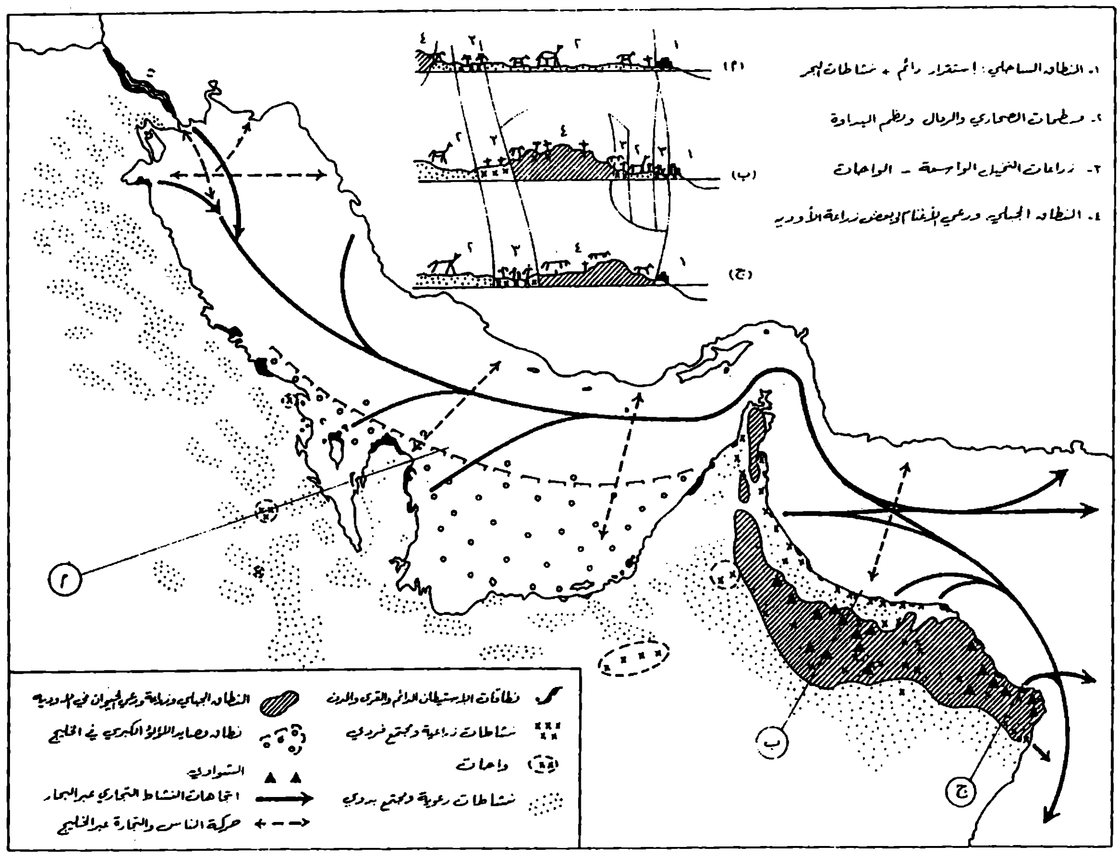
شكل (٣) تجريد لنموذج التغيير في الخليج



# إيكولوجيا الانسان في الخليج

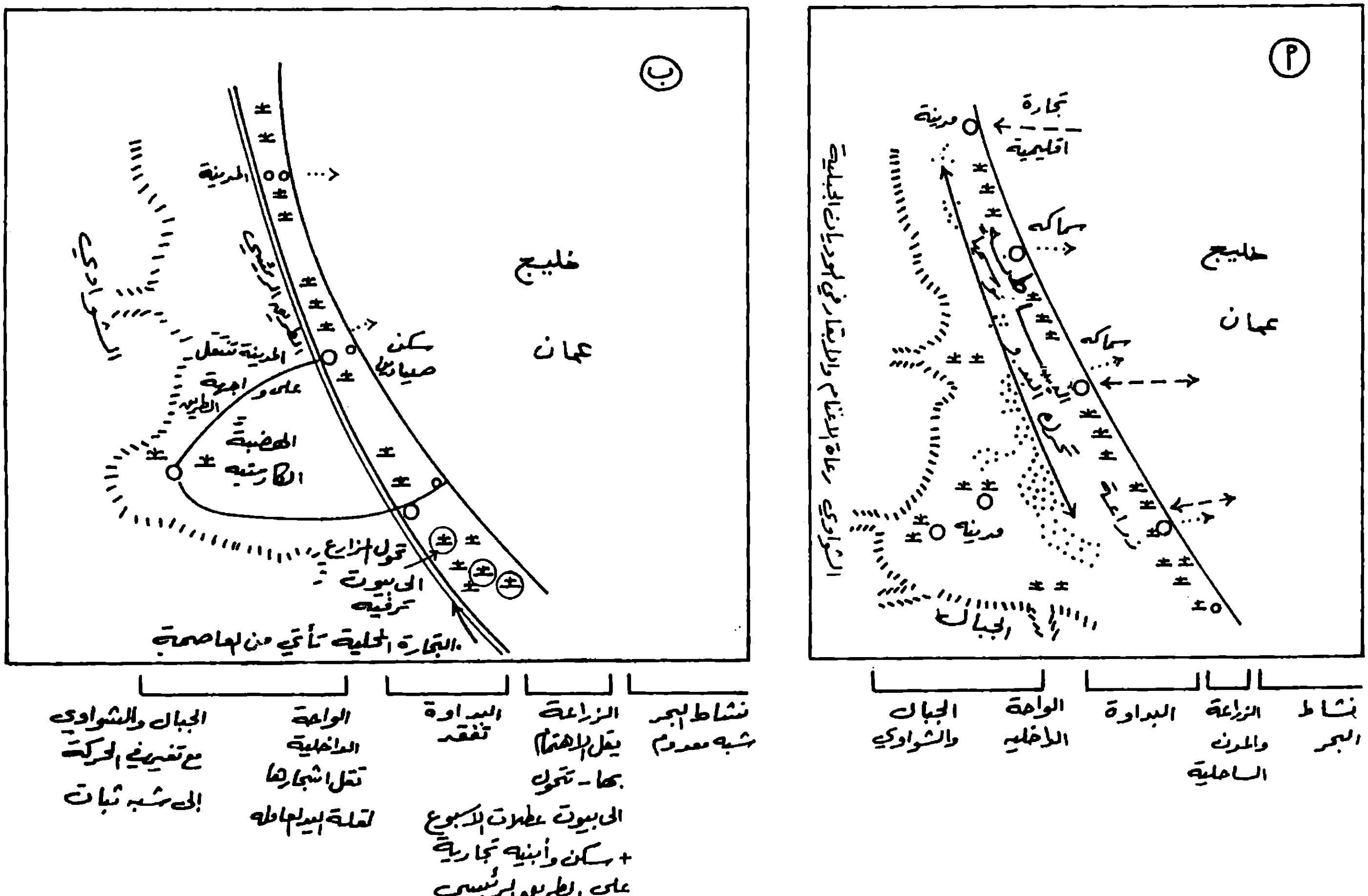
( قبل البترول )

شكل (٤)

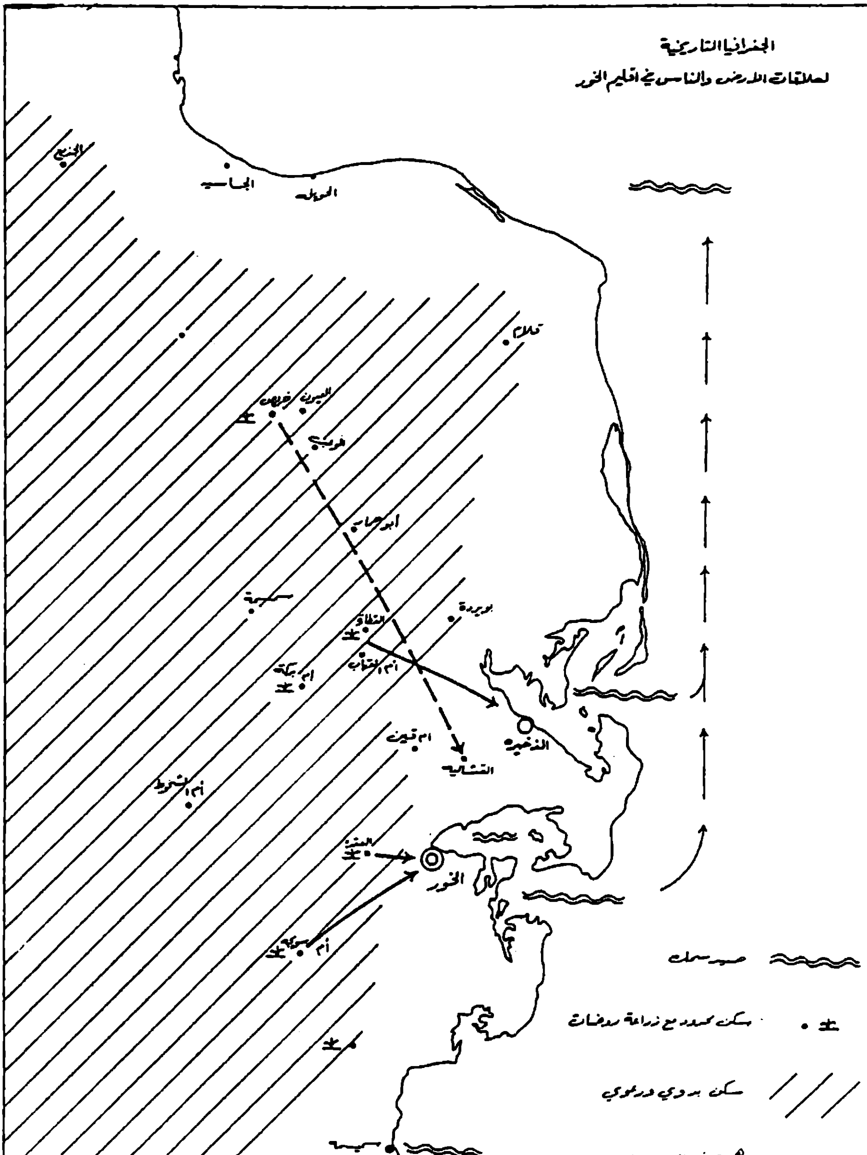


شكل (٥)

تجريد لنموذج التغيير في الخليج : ساحل الباطنة واقدام الجبال العمانية

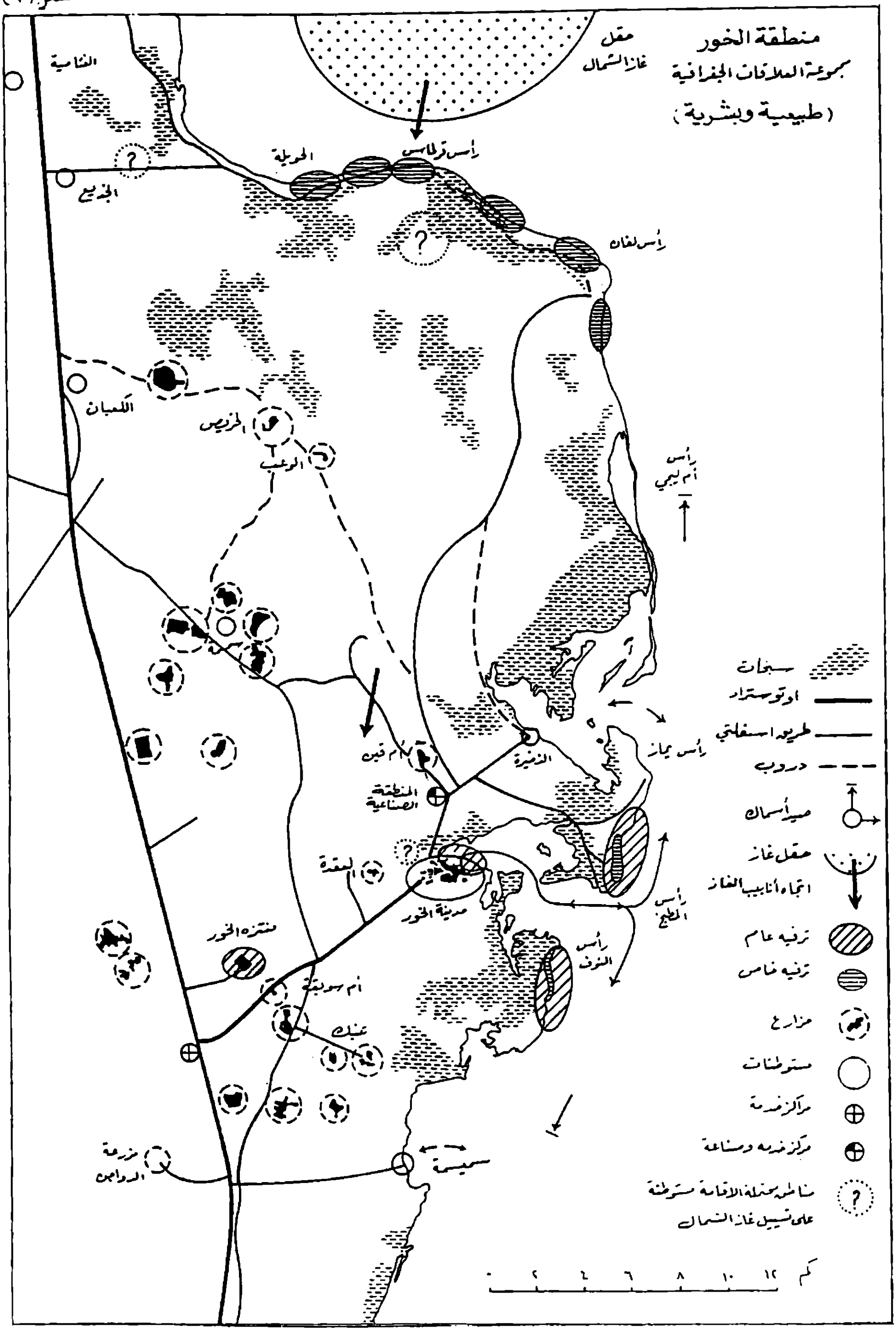


شكل (٦)



الجغرافيا التاريخية
لعلاقات الأرض والناس في اقليم الخور
الجاسية
الحويلة
ام القهاب
ام قرن
الذخيرة
الخور
صيد سمك
سكن محدود مع زراعة روضات
سكن بدوي ورعوي
هجرة في السبعينات
هجرة في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات
كم ١٢ ١٠ ٨ ٦ ٤ ٢ ٠

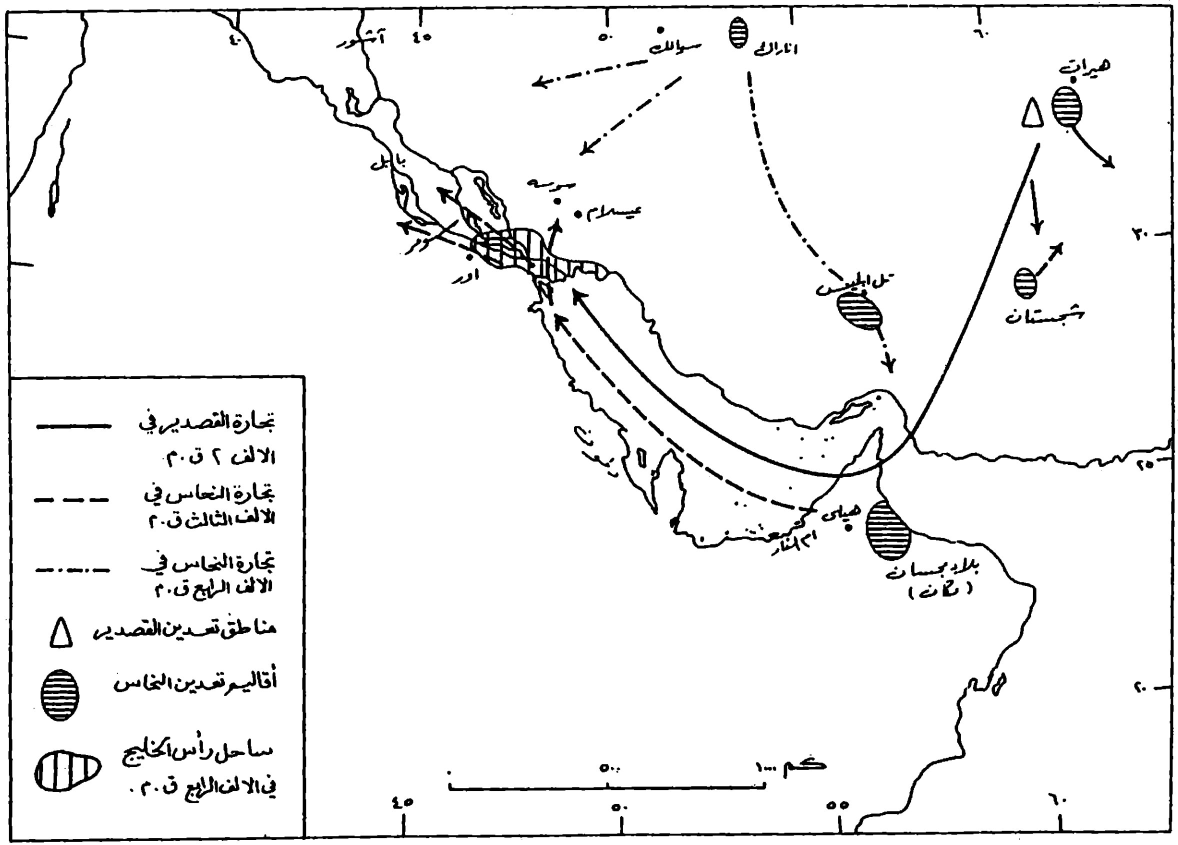
شكل (٧)



منطقة الخور
مجموعة العلاقات الجغرافية
(طبيعية وبشرية)
حقل غاز الشمال
رأس لفان
الحويلة
مدينة الخور
منتزه الخور
المنطقة الصناعية
الذخيرة
سميسمة
رأس النوف
أم قرن
سبخات
اوتوستراد
طريق اسفلتي
دروب
ميناء أسماك
حقل غاز
اتجاه أنابيب الغاز
ترفيه عام
ترفيه خاص
مزارع
مستوطنات
مراكز خدمة
مركز خدمة وصناعة
كم ١٢ ١٠ ٨ ٦ ٤ ٢ ٠

## علاقات الإنتاج والتجارة الخليجية فيما قبل الميلاد

شكل (٨)



# مورفولوجية مدينة الدوحة وعلاقتها بارتفاع منسوب المياه الجوفية

د. أحمد عبدالله أحمد بابكر
ود. علي ابراهيم الشيب

مقدمة :

تعاني مدن كثيرة في العالم من ظاهرة ارتفاع منسوب المياه الجوفية وبالأخص تلك المدن التي تقع على السواحل والشواطىء أو التي تحيط بها مياه البحار من أكثر من جانب أو التي تكون منخفضة نسبياً عن مستوى البحر فضلاً عن المناطق التي تهطل فيها الأمطار بمعدلات عالية ، ولا تجد تلك المياه طريقها الى الطبقات الدنيا من الأرض لأسباب تتعلق بخواص التربة وبتدني نسبة التبخر (أنظر Wilkinson, 1985; Poal, 1984 ) . ففي بعض مناطق وسط مدينة القاهرة ، على سبيل المثال ، ظهرت المياه الجوفية فوق السطح خاصة في المناطق ذات الطبوغرافية المنخفضة (كمال حفني ، ١٩٩٠) . وقد أصبحت هذه الظاهرة ملموسة ومتزايدة في الآونة الأخيرة في مدن مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، وخاصة الكبيرة منها ، ومدن السواحل باستثناء مدن سلطنة عمان حيث لاتسمح طبيعة تضاريس السلطنة التي تتكون من تلال ومرتفعات صخرية تمتد على طول ساحل خليج عمان من ارتفاع مناسيب المياه الجوفية (بلدية مسقط ، ١٩٩٠) . أما في المدن الكبرى في بقية دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية فقد أصبحت ظاهرة ارتفاع منسوب المياه الجوفية ظاهرة خطيرة ترتبت عليها مشكلات ومخاطر جمة ـ مشكلات عمرانية وصحية وبيئية ومشكلات قانونية ومشكلات اقتصادية . ففي مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية وجد أن المعدل اليومي لارتفاع المياه الجوفية يتراوح مابين ٠,٧ ـ ١,٥ ملم (المملكة العربية السعودية ـ وزارة الشؤون البلدية والقروية ، ١٩٩٠) ، وفي أجزاء من مدينة الكويت تصدعت المباني والمنشآت (Al-Sanad and Shaqour, 1990 ) . وقد لوحظ في البحرين أن المناطق المنخفضة بدأت تكون مستنقعات دائمة حيث بدأت المشكلة تتفاقم بعد دفن مساحات كبيرة في الجهة الشمالية الشرقية من جزر البحرين الأمر الذي أدى الى انسداد المجاري ومن ثم الى بطء تصريف مياه التربة (يوسف الصائغ ، ١٩٩٠) . وفي مدينة أبوظبي حيث مسامية التربة منخفضة جداً ما بين الماء محدودة ارتفع منسوب المياه الجوفية الى مابين متر واحد تحت سطح الأرض نفسه (ابراهيم باقر وصالح محمود عمر ، ١٩٩٠) . وفي مدينة دبي أدى وجود طبقة غير منفذة قريبة من سطح الأرض الى ارتفاع منسوب المياه الجوفية بصورة خطيرة الأمر الذي أثر على

الهياكل الخرسانية وأساسات المباني واتلف المساحات الخضراء . وزاد تثبيت الدعامات الحديدية على طول جانبي خور دبي الأمر سوءاً حيث أدى الى إغلاق مناسيب الصرف الطبيعي الصحية (حسين لوتاه ـ ١٩٩٠) .

## ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مدينة الدوحة :

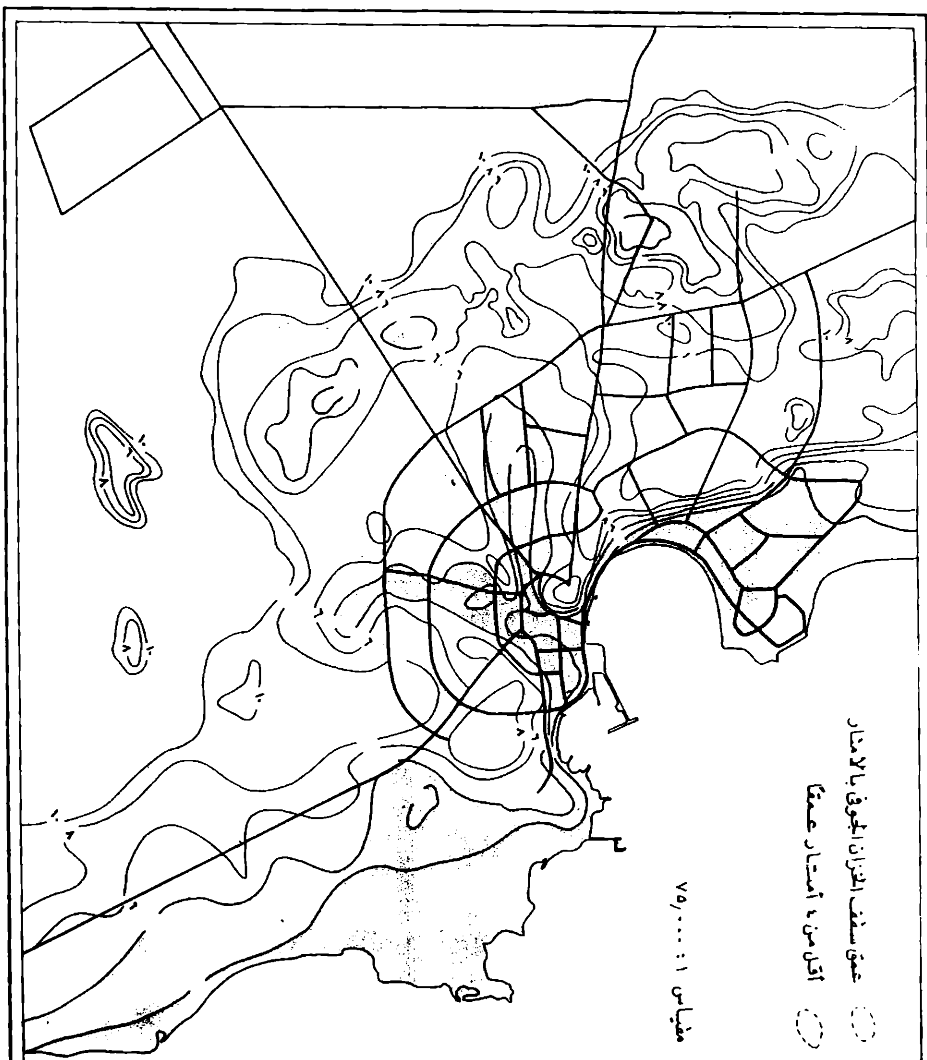
يرتبط تباين منسوب المياه الجوفية أو مستوى سقف الخزان الجوفي ارتباطا وثيقا بالوضع الطبوغرافي للمنطقة . فلاشك أن الارتفاع عن سطح البحر ودرجة الانحدار ووجود المنخفضات والمسيلات المائية عوامل تؤثر بطرائق مباشرة وغير مباشرة على كميات المياه المتسربة وعلى حركة انسياب المياه السطحية والجوفية على سطح الأرض .

وعلى الرغم من عدم وجود تباين شديد في التضاريس وتواضع التضرس بصفة عامة في مدينة الدوحة حيث أن الفارق لايتعدى بضعة أمتار قليلة ، إلاّ أن ذلك الفارق الطفيف يلعب دوراً لايستهان به في تحديد اتجاهات الانسياب السطحي وتجمع مياه الأمطار في المنخفضات والأودية السيلية ، ومن ثم في منسوب المياه الجوفية .

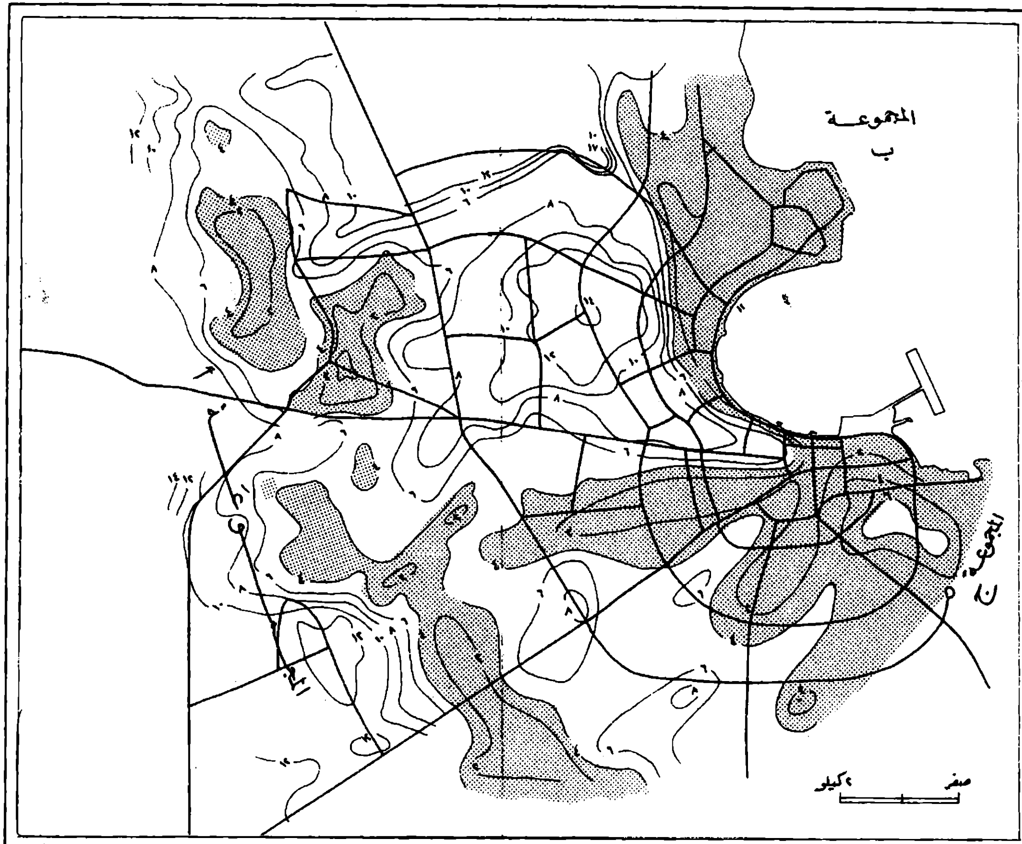
### خلفية تاريخية :

تعتبر ظاهرة ارتفاع منسوب المياه الجوفية تحت مدينة الدوحة نتاجاً طبيعياً لحركة العمران والتشييد التي تشهدها الدوحة منذ بداية السبعينيات . فبعد أن كان منسوب المياه في فترة ما قبل النفط (ما قبل ١٩٥٠) ينحدر من ارتفاع متر واحد فوق سطح البحر تحت المدينة الى مستوى البحر على الساحل ـ ومن ثم كانت المياه تسيل بسهولة الى نقاط منافذها على سطح البحر ـ ارتفع ارتفاعا هائلا وبلغ ارتفاعه في بعض الأحيان أكثر من ٨ أمتار في عقد واحد (مدينة خليفه واسكان الهتمي) وأصبح عمق المياه أقل من المتر الواحد تحت السطح في بعض المواقع . فبعد أن كان الارتفاع محصورا في نطاق الطريق الدائري الثاني حيث كانت توجد كثافة العمران ارتفع في السبعينيات الى ٨ أمتار وبلغ ٩ أمتار في الثمانينيات في بعض أجزاء المدينة كمدينة خليفة وفريق الهتمي ووصل الى السطح في المناطق المنخفضة ووادي مشيرب والريان (أنظر الشكلين ١ و ٢) . ويعتقد والتون (Walton, 1983) أن منسوب الماء الجوفي كان بين ٨ ـ ١٠ أمتار تحت مستوى سطح الأرض قبل سنة ١٩٥٠ ولكنه ارتفع في بداية الثمانينيات الى ما بين ٢ ـ ٤ أمتار تحت مستوى سطح الأرض وفي بعض المناطق المنخفضة كوادي مشيرب ومنطقة المنتزه ما بين متر واحد الى مترين (أنظر الشكلين ١و ٢) . وتفيد تقارير وزارة الشؤون البلدية أن منسوب الخزان الجوفي يرتفع بمعدل ٠,٨٢ من المتر في السنة (أنظر دولة قطر ـ وزارة الشؤون البلدية ، بلدية الدوحة ،

١٩٨٧) . وبمقارنة الشكلين ١ و ٢ يتضح أن المناطق التي يقل فيها عمق منسوب الماء الجوفي عن ٤ أمتار في زيادة كبيرة . وقد جاء في وثائق لجنة حصر ومراجعة التقارير والدراسات الخاصة بتطوير المياه الجوفية في دولة قطر (١٩٨٧) أن التخزين المتنامي للتكوينات الحاملة للماء الجوفي سوف يرتفع من ٣,٧٥ مليون متر مكعب في السنة الى ١٠ مليون متر مكعب في السنة بحلول عام ٢٠٠٠ .




شكل رقم ١٠ . عمق منسوب الماء الجوفي بالأمتار تحت سطح الأرض
( خارطة الأشغال : أسكو ١٩٨٣ )




شكل رقم -٢٠- عمق منسوب الماء الجوفي ١٩٨٧م بالأمتار تحت سطح الأرض ( بلدية الدوحة ١٩٨٧م )

ويؤدي ارتفاع منسوب المياه الجوفية الى مخاطر شديدة على الانشاءات التحتية للمباني وامدادات الخدمات (ككوابل الكهرباء والهاتف وخطوط الصرف حيث يقدر أنها تمثل ٤٠٪ من المياه الموجودة فيها) ، ويقصر من الفترة الحياتية للطرق الاسفلتية ، فضلاً عن تدمير الحياة النباتية والروائح الكريهة واحتمالات التلوث ومايترتب عليها من أخطار وتهديدات للصحة العامة . وقد قسّم تقرير جايكا (JICA, 1987 ) الأضرار المترتبة على ارتفاع منسوب الماء الجوفي الى ثلاثة أنواع هي : أولاً الأضرار بسبب المياه الراكدة كتلوث المياه وتوالد الحشرات . وثانياً «الأضرار في المناطق المتأثرة بنشاط الخاصية الشعرية كتجمع الأملاح والتأثير على المنشآت . وثالثاً الأضرار في المناطق التي ارتفع المنسوب فيها وأصبح قريبا من السطح كالآثار الضارة على الطرقات والمباني .

## وسائل البحث :

قامت الدراسات السابقة (آسكو ١٩٨٣، و١٩٨٦) وبرنامج التعاون التقني والفني التابع للأمم المتحدة (١٩٨٦) والوكالة اليابانية للتعاون الدولي (جايكا ١٩٨٧) بدراسة وتحليل جيولوجية وهيدرولوجية المياه الجوفية وميزانية المياه من حيث تجديد العائد والفاقد ، كما اهتمت بتحديد خصائص التكوينات الحاملة للماء من حيث درجة نفاذيتها ومساميتها وعلاقة ذلك بحركة المياه الجوفية وتغيير مناسيبها . واهتمت تلك الدراسات أيضا بتحليل الخواص الكيميائية والهيدرولوجية فضلا عن وضع التوصيات والخطط المستقبلية للحد من خطورة الوضع .

وتهدف الدراسة الحالية الى إبراز العلاقة بين مورفولوجية مدينة الدوحة وارتفاع منسوب المياه الجوفية فيها . وتحاول الدراسة أن تتوصل لذلك عن طريق تحليل الخرائط الكنتورية من أجل التعرف على أشكال سطح الأرض ومن ثم ربطها بوضع منسوب المياه الجوفية . وتعتبر دراسة الخريطة الكنتورية وتحليلها من أهم المبادىء الأساسية التي تقوم عليها الدراسات الجغرافية التفصيلية حيث يستطيع الجغرافي من خلال دراسة خطوط الكنتور على الخريطة الوقوف على خصائصها الشكلية من أجل التعرف على مدلولاتها الجيومورفلوجية . وأن البيانات التي يمكن الحصول عليها من خلال تحليل الخريطة الكنتورية تمثل الأساس الذي تقوم عليه الدراسات

الجغرافية المتخصصة والتفصيلية لمختلف الأغراض ، طبيعية كانت أم بشرية (أنظر Miller, 1949) .

واعتمدت هذه الدراسة بالدرجة الأولى على خريطة قطر الكنتورية مقياس ١ : ٥٠,٠٠٠ لوحة رقم ٢٠٠ / ٣٧٥ . واستخدمت أيضا «خرائط آسكو (١٩٨٣ ، ١٩٨٦) وجايكا (١٩٨٧) وادارة الكهرباء والماء بوزارة الكهرباء والماء (١٩٨٧) وأدخلت عليها بعض الاضافات والتعديلات . وكذلك تم استخدام الصور الجوية لمدينة الدوحة للسنوات ١٩٧٣ و١٩٧٨ و١٩٨٠ و١٩٨٨ والتركيب الفسيفسائي (موازييك) الملون للصور الفضائية مقياس رسم ١ : ١٣,٠٠٠ وذلك لتحديد المنخفضات والأدوية السيلية . ولأجل المقارنة فقد استخدمت المنطقة التي حددتها دراسة جايكا للدوحة الكبرى (١٩٨٧) كمنطقة للدراسة .

## جيولوجية الدوحة الكبرى وهيدرولوجيتها :

تقع مدينة الدوحة على طرف الجناح الشرقي لقبة قطر الرئيسة وهي طية محدبة تمتد على طول شبه جزيرة قطر بمحور شمالي ـ جنوبي وبميل خفيف نحو الشرق والغرب . وعلى الرغم من أن هذا التحدب يتميز بانحداره الخفيف عبر قمته ، إلّا أن ميوله يشتد نسبياً عند الأطراف حيث تقع مدينة الدوحة . وقد أثبتت الدراسات الجيولوجية (Cavelier and Salat, 1970; FAO, 1981) أن تكوينات السطح في منطقة الدوحة تنتمي الى الزمن الثلاثي والرباعي والحديث ، متمثلة في رواسب الزمن الثلاثي من الصخور الجيرية من تكوينات الرس التابعة لأسفل الأيوسين وصخور الحجر الجيري الطباشيري والدولوميت التابعة لتكوين الدمام الأعلى والتي تنتمي الى عصر الأيوسين الأوسط ، كما تشتمل على الرواسب الحديثة من الزمن الرباعي والحديث والمتمثلة في الرمال الجيرية الشاطئية والسبخات مع رواسب فيضية في المنخفضات والوديان الصغيرة . ومعظم هذه الرواسب مستمدة من مواد متعرية من طبقة الدمام وهي مواد طباشيرية وحجر جيري دولوميتي وطين صفحي .

وتمثل طبقة الدمام العليا التكوين الحامل للماء تحت مدينة الدوحة وتتحكم في حركة المياه مجموعة الشروخ والانكسارات الناتجة عن وفرة الدولوميت فيها . وقد ساعدت كثرة هذه الشقوق والمفاصل على زيادة معدلات التسرب (أنظر حرحش وعبد الرحمن يوسف ، ١٩٨٥) . وتمثل طبقة الطين الصفحي الطبقة الكتمية أسفل التكوين الحامل للماء . ويبلغ متوسط سمك طبقة الدمام العليا ما بين ٢٠ ـ ٣٠ متراً ونسبة لأن انحدارها بسيط جداً فإن حركة الماء نحو البحر بطيئة جداً . وبما أن نفاذيتها ليست جيدة تماماً فإن سعتها لتخزين المياه ليست سعة كبيرة ، أي أن

معامل التخزين صغير جداً ، ومن ثم فإن أي اضافة بسيطة من الماء تملأ مساحة كبيرة (أنظر دولة قطر ، وزارة الشؤون البلدية ، بلدية الدوحة (١٩٨٧) .

## مورفلوجيـة الدوحـة الكبـرى :

من خلال دراسة خرائط الدوحة الكنتورية نلاحظ أن الفارق الرأسي بين خطوط الكنتور يتفاوت بين مترين الى ٢٠ متراً . وبشكل عام تخلو خريطة الدوحة الكنتورية من التعقيد حيث لم يظهر فيها تقارب في خطوط الكنتور سوى في الحد الفاصل بين الأراضي المرتفعة نسبياً والسهل الساحلي حيث تبدو خطوط الكنتور متقاربة اذا ما قورنت ببقية منطقة الدوحة الكبرى . وعموماً تبدو خطوط الكنتور متباعدة ومنتظمة باستثناء مناطق المنخفضات الداخلية التي يصل التضرس فيها الى ١٥ متراً .

وتعكس الخارطة الكنتورية بصفة عامة بساطة السطح وتموجه البسيط . فالطبوغرافيا بسيطة ومنتظمة الى حدٍ كبير حيث يحدث تغير الارتفاع من نقطة الى أخرى على مسافات متباعدة (يفصل بين أي خط وآخر حوالي ٥٠٠ متر) مما يوحي بأن التضرس بسيط نحو الساحل وأن الانحدار يتراوح ما بين نصف درجة ودرجة واحدة (أنظر الشكل رقم ٣) .

وقد قسمت الدراسات السابقة الدوحة الكبرى الى عدة أقاليم طبوغرافية . فجاء تقسيم آسكو (ASCO, 1983 ) إلى ثلاثة أقاليم هي المناطق المرتفعة والأحواض والأودية ثم السهل الساحلي ، في حين أن دراسة جايكا (JICA, 1987 ) قسّمتها الى اقليمين فقط هما اقليم المناطق المرتفعة التي تتخللها الأحواض واقليم السهل الساحلي . أما في الدراسة الحالية فقد قسمت الدوحة الكبرى طبوغرافيا إلى أربعة أقاليم هي :

١ ـ الأراضي المرتفعة .
٢ ـ الحافة الصخرية .
٣ ـ المنخفضات والأودية .
٤ ـ السهل الساحلي .

## ١ ـ الأراضي المرتفعة :

وتمثل الأراضي المرتفعة (أكثر من مترين فوق سطح البحر) أكبر الأقاليم الطبوغرافية حيث تبلغ مساحتها حوالي ١٦٣ كيلو متر مربع أي بنسبة ٦٠٪ من مساحة منطقة الدراسة (أنظر الشكل رقم ٣) . والمقصود هنا بالأراضي المرتفعة تلك التي تعلو ما يجاورها من منخفضات أو وديان أي

أن ارتفاعها نسبي . وتمتد الأراضي المرتفعة بصفة عامة امتداداً شمالياً جنوبياً وتنحدر تدريجياً نحو البحر . ويمكن تقسيمها الى نطاقين رئيسيين الأول يتبع خط الساحل في شكل قوس من جهة الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ويتراوح ارتفاعه بين ٢ - ٢٠ متراً ، ويتراوح عرضه بين ١٨




شكل رقم ٣٠ - طبوغرافية مدينة الدوحة وضواحيها (معدلة من خارطة جيكا ١٩٨٩م)

كيلومتر في الشمال الى حوالي كيلومتر في جنوب الدوحة الكبرى . ويتميز هذا النطاق بالتدرج في الانحدار نحو خط الساحل وتتخلله المنخفضات وفي الأطراف الشرقية تقطعه المسيلات المائية القصيرة التي تنحدر نحو السهل الساحلي . وفي أماكن متفرقة يرتفع السطح قليلاً عن ٢٠ متراً عن سطح البحر كما في منطقة المرخية (راجع الشكل رقم ٣) . هذا السطح الذي يتكون من الصخور الجيرية ، ذو الانحدار البسيط ، هو الذي يعطي مدينة الدوحة شخصيتها التضاريسية .

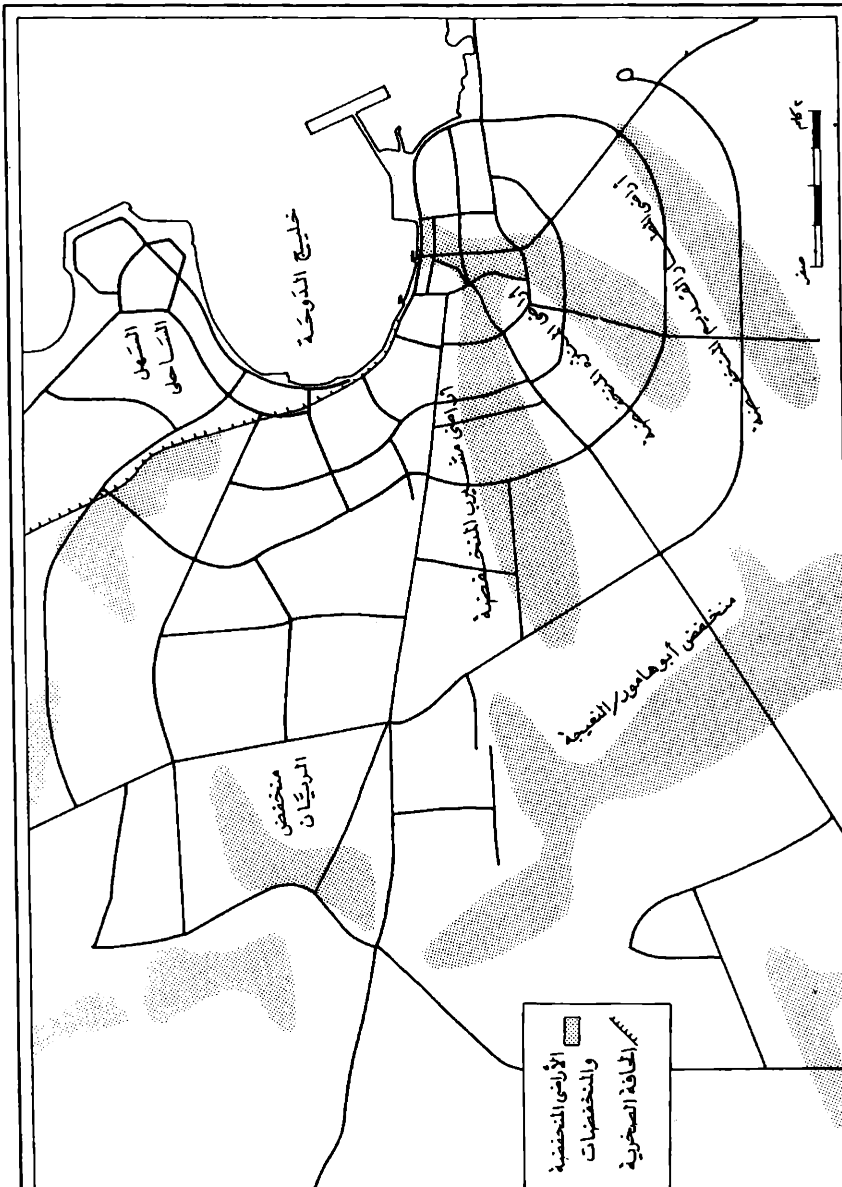
أما المحور الثاني فهو المحور الداخلي الذي يقع على الهامش الغربي من الدوحة الكبرى . ويمتد هذا المحور في اتجاه شمالي جنوبي وتبلغ مساحته والي ٥٠ كيلو متر مربع اي بنسبة ١٨,٩٪ من المساحة الكلية لمنطقة الدراسة . ويرتفع هذا المحور أكثر من ٢٠ متراً عن سطح البحر ويتميز بالانحدار البسيط وتوضع التضاريس .

## ٢ ـ الحافة الصخرية :

وتفصل بين المنطقة المرتفعة والسهل الساحلي حافة صخرية تقع على بعد كيلو متر واحد عن الساحل القديم وحوالي ثلاثة كيلومترات عن ساحل المنطقة المستصلحة بواسطة الردم (الدفنة) . وبالنظر الى الخارطة الكنتورية نلاحظ أن خطوط الكنتور تبدأ في التقارب بصورة ملحوظة وتكاد تلتصق بعضها مع بعض . ويصل اقصى ارتفاع لهذه الحافة ١٠ أمتار عن سطح البحر ثم يحدث هبوط مفاجىء الى حوالي مترين عن سطح البحر (أنظر الشكلين رقم ٣ و٤) . وتمتد هذه الحافة في نفس اتجاه المحور الشرقي للمنطقة المرتفعة اي من جهة الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي . ويعتقد أن هذه الحافة حافة بحرية متعرية أو قد تكون ذات طبيعة جيولوجية ، أي أنها حافة صدعية أو مصطبة انثنائية (أنظر أسكو ASCO, 1983 وجايكا JICA, 1986 ) . ونسبة لأن اتجاه الحافة الصخرية يتماشى مع اتجاه الظاهرات التركيبية والبنيوية الأخرى كالمنخفضات الداخلية ومجموعة الانكسارات الصغيرة فإن من المرجح أن تكون ذات أصل انكساري . ويتماشى هذا الاستنتاج مع التحليل الذي أجري على الصور الجيولوجية التي أرسلتها سفينة الفضاء لاندسات سنة ١٩٧٦ لشبه جزيرة قطر والتي أظهرت أن هناك تكسرات تظهر على شكل خطوط مستقيمة تنتظم في محورين احدهما شمالي شرقي جنوبي غربي والآخر شمالي غربي ـ

جنوبي شرقي (أنظر Pike, 1977 وكذلك أنظر القصاص وعاشور (Kassas and Ashour, 1984) .

وبمراجعة الشكلين رقم ١ و ٢ نلاحظ أن الحافة الصخرية تمثل حدوداً واضحة بين المنطقة التي يقل فيها عمق الخزان الجوفي عن ٤ أمتار والمنطقة التي يبعد فيها المنسوب ما بين ٦ و١٠ أمتار عن سطح الأرض . ومن ناحية أخرى أيضاً تساعد هذه الحافة في انسياب الجريان السطحي باتجاه السهل الساحلي المنخفض خاصة عند حدوث العواصف الرعدية العنيفة .



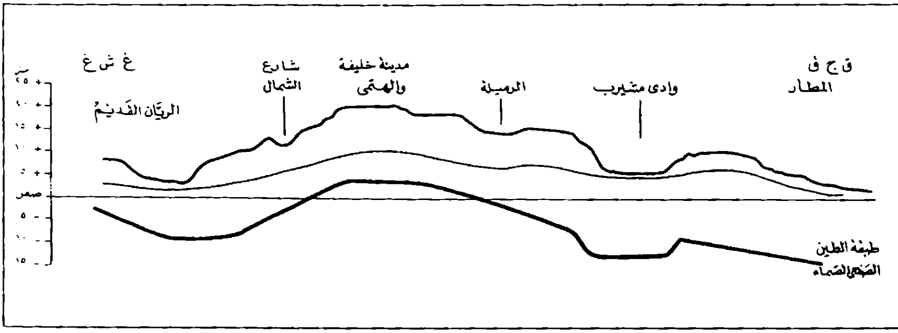

شكل رقم -٤- الأراضي المنخفضة والمنخفضات (المصدر جيكا ١٩٨٧م)

### ٣ ـ المنخفضات والأودية :

أ ـ المنخفضات : أما أكثر الظواهر الطبوغرافية ارتباطاً بموضوع ارتفاع منسوب الماء الجوفي فهي المنخفضات التي تتوزع على شكل خطى على طول المحور الشرقي من النطاق المرتفع من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، أي بشكل مواز لخط الساحل والحافة الصخرية . ويعتقد أن هذا الشكل الخطي مرتبط بتواجد الشروخ والمفاصل . فقد أوضحت الصور الجوية التي التقطتها سفن الفضاء لشبه جزيرة قطر وكذلك الخرائط الطبوغرافية امتداد المنخفضات بشكل خطي الأمر الذي يؤكد احتمال توافق هذه الظواهر في مواقع لبعض الشروخ والمفاصل التي تكونت خلال حركة الرفع التي تعرضت لها قطر في نهاية الزمن الثلاثي (أنظر الشلالدة ، ١٩٨٦) (راجع الشكل رقم ٣) . ويعتقد بعض الباحثين (JICA, 1983 ) أن الحركات التكتونية قد لعبت دوراً بجانب التركيبة الجيولوجية حيث أن المنخفضات الحوضية تتوافق في اتجاهاتها مع الصدوع والانكسارات في الاتجاه الشمالي الغربي / الجنوبي الشرقي .

وتمثل المنخفضات نسبة ١٢,٦٪ من مساحة منطقة الدراسة ، وتتباين بشكل واضح من حيث الاتساع والعمق والشكل فهي تتراوح مساحاتها ما بين بضعة أمتار مربعة إلى أكثر من ٨ كيلومترات مربعة ويتراوح الارتفاع عن سطح البحر داخل هذه المنخفضات بين ٥ و١٠ أمتار أي ان قيعانها تقع دون ما يحيط بها من أرض على أعماق قد تصل إلى حوالي عشرين مترا (راجع الشكلين رقم ٣ ورقم ٥) . وبصفة عامة معظم المنخفضات داخل حدود الدوحة الكبرى هي من المنخفضات الضحلة التي تتميز بضآلة الفارق الرأسي بين قاعها والأرض المحيطة بها . وتتميز أيضا معظم هذه المنخفضات بالتصريف المركزي (الداخلي) حيث لا تصل مياهها إلى البحر .

وفي واقع الأمر أن ظاهرة المنخفضات هي احدى الظواهر المميزة لسطح شبه جزيرة قطر ككل وقد قدرت بعض الدراسات ان عددها يفوق ١٨٠٠ منخفض (انظر الأمم المتحدة ١٩٨٦ - U.N,1986 والشلالده ١٩٨٦) . وترجع معظم الدراسات أصل المنخفضات إلى هبوط في الطبقات الصخرية بسبب التجوية الكيميائية في الصخور الجيرية . وقد أطلق كافيليه (Cavelier, 1970 ) عليها «البنيات الانهيارية» "Collapse Structures" . وقد جاء المصطلح الذي استخدمه مشابها للمصطلح الذي استخدمه عالم الجيومورفولوجيا المشهور ثورنبرى (Thornbury, 1959) وهو حفر الانهيار "Collapse Sinks" . ويعتقد أنها تكونت نتيجة عمليات الاذابة الداخلية لفرشات الجبس والانهداريات ضمن تكوينات الرس حيث تسربت المياه الجوفية عبر شقوق وفواصل في الصخور السطحية التي تغلب عليها التكوينات الجيرية . وقد عملت هذه المياه المتسربة عبر الشقوق والمفاصل على اتساع الشقوق بسبب عمليات




شكل رقم -٥- قطاع غربي شرقي يبين طبوغرافية السطح وتوافقها مع طبقة الطين الصفحى الصماء
( المصدر اسكو ١٩٨٣م )

الاذابة ، كما عملت المياه التي وصلت الى فرشات الجبس ضمن تكوين الرس على إذابة فرشات الجبس ونتج عن ذلك تكوين الكهوف المخفية والتي استمرت فيها عمليات الاذابة الكارستية حتى اتسعت واستغرقت سقوفها وانهارت ونتجت عنها حفر كبيرة اطلق عليها صلاح بحيري (١٩٧٩) «فجوات الاذابة» وتعرف في قطر بالدخول والتي منها تتطور البنيات الانهيارية. وبالنظر الى الشكل رقم (٥) نلاحظ التوافق الكبير بين هبوط سطح الأرض والهبوط الذي يتواجد أسفله في طبقة الطين الصفحى الأمر الذي يدعم الرأي القائل بأن إذابة الجبس المتوافر في تكوينات الرس تحت طبقة الدمام السفلى هي السبب المباشر للهبوط الذي يحدث فوق سطح الأرض . ويعتقد خبراء جايكا **(JICA, 1987)** والشلالده (١٩٨٦) أن أصل بعض المنخفضات يرجع الى غسيل الواجهات الكربونية أو السلفاتية التي هي عبارة عن سطوح اتصال تفصل بين تكوينات الدمام وتكوينات الرس . ونتيجة لذلك الغسيل تبدأ النبيات الانهيارية في التشكل .

وبذلك فإن بنية التكوينات الصخرية في شبه جزيرة قطر هي التي أوجدت ظروف مناسبة في مواضع عدة لتكوين تلك المنخفضات وخاصة في ظل ظروف سابقة سادت فيها العصور المطيرة . وتعتبر تكوينات الرس (الايوسين الاسفل) سواء كانت مكشوفة على السطح أو مخفية تحت تكوينات الدمام الأحدث ـ كما هي الحال تحت الدوحة ـ هي أفضل التكوينات الصخرية فوق شبه جزيرة قطر لحدوث البنيات الانهيارية .

والمنخفضات داخل حدود منطقة الدراسة (الدوحة الكبرى) نوعان : منخفضات حوضية وهي عبارة عن حوض مغلق بخطوط كنتور مغلقة امتلأت بالرواسب الطينية ، ومنخفضات الفيضانات الغطائية التي تتكون على أرض منبسطة وعلى خطوط كنتور مختلفة وعلى مساحات مفتوحة . ومنخفضات الاحواض هي في الأصل حفر اذابة كارستية نشأت نتيجة عمليات الاذابة والانهيارات في الصخور الجيرية وتتمثل في منخفضات الغرافة / الريان ومنخفضات نعيجة وابوهامور ، في حين أن النوع الثاني يتمثل في منخفضات المنتزه ووادي مشيرب وقد ميزت

الدراسات السابقة أيضاً بين النوعين حيث سمى الشلالده (١٩٨٦) النوع الأول منخفضات والثـاني روضات . وفرق خبراء جايكا (JICA, 1987) بين الاثنين وسموا الأولى منخفضات حوضية والثانية أراضي منخفضة .

وتتواجد المنخفضات الغطائية (نسبة الى الفيضانات الغطائية التي تغطيها عقب الامطار) عادة على أطراف قبة قطر الرئيسية وتقع في مجاري المسيلات المائية ذات التصريف الخارجي الذي عادة ماينتهي في السبخات الداخلية . وتمتد هذه المنخفضات في شكل أذرع تتفق واتجاه المسيلات المـائية كما في وادي مشيرب والمطار القديم (راجع الشكل زقم ٤) . وترتبط هذه المنخفضات والمطار القديم (راجع الشكل رقم ٤) . وترتبط هذه المنخفضات بالأدوية والمسيلات المائية كما هي الحال في وادي مشيرب .

ب ـ الادويـة : إن أثر الجريان السطحي خارج نطاق المنخفضات الغطائية أثر محدود جداً ، وذلك لأن شبه جزيرة قطر تقع مناخياً ضمن الاقليم الجاف حيث ترتفع نسبة الفاقد من مياه الامـطار بالبخـر النتحى . ويتمثل الجريان السطحي في مسيلات مائية محدودة الجريان ينتهي غالبها في أحواض التصريف الداخلي ، وقليل منها ينحدر نحو السهل الساحلي كالمسيلات الى الشرق من رأس أبو عبود والى الشمال منن الخليج الغربي (الفنة) . وعموماً لاتتجاوز فترة جريان المياه في هذه المجاري فترة سقوط الامطار حيث تجف ويتوقف جريانها بمجرد توقف الأمطار . أما بالنسبة للجريان السطحي للأودية المتسببة في المنخفضات الغطائية كوادي مشيرب فإنه في حالة الامطار الغزيرة يفيض الوادي وينقل كميات كبيرة من المياه الا أن ذلك الجريان تأثر كثيراً بإقامة السد في منطقة السد وبالتوسع العمراني الهائل .

٤ ـ السهـل الساحلـي :

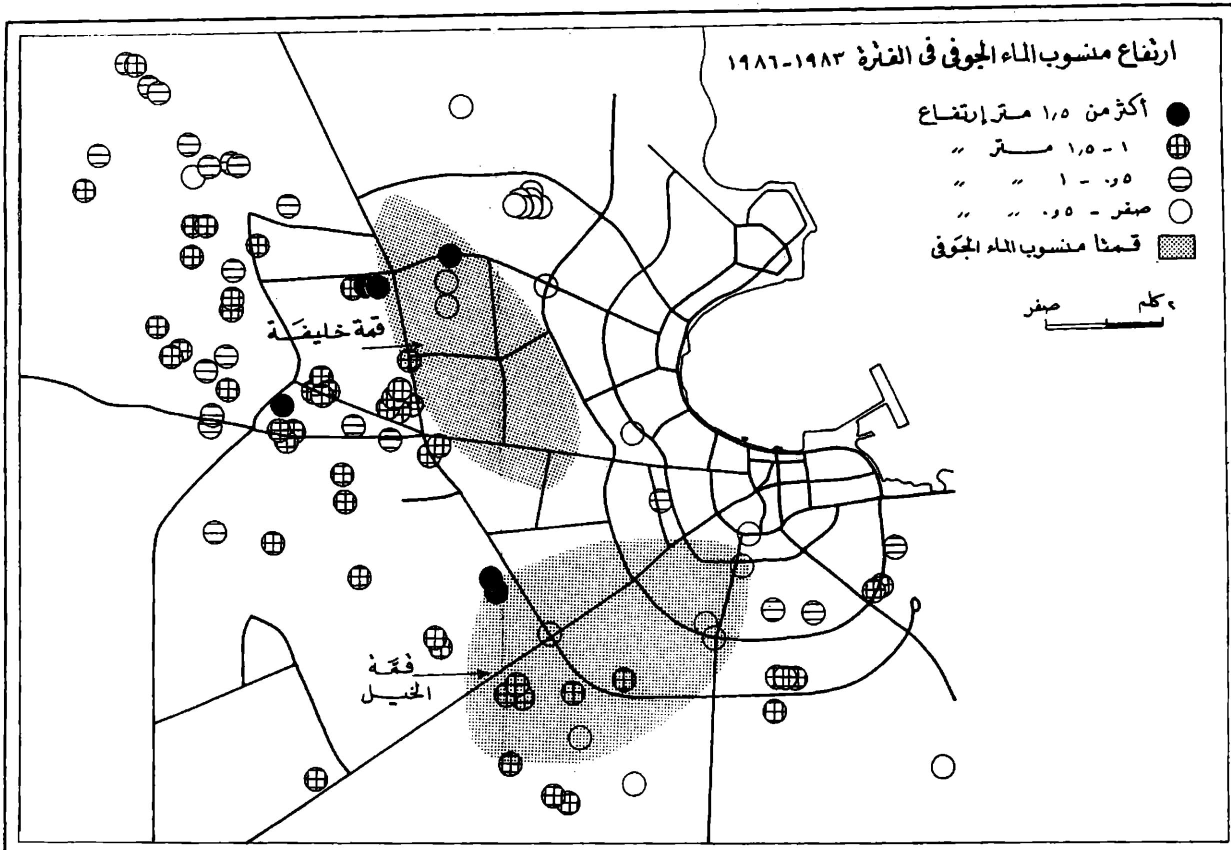
كان السهل الساحلي في الأصل شريطا ضيقا يمتد في الاتجاه الشمالي الغربي الى الجنوبي الشرقي تبعا لخط الساحل ، ولايتعدى عرضه بضعة أمتار . الا أن الانسان لعب دورا كبيرا في توسيع السهل الساحلي وذلك بردم مساحات من البحر ، ومن ثم اصبح السهل الساحلي ممتداً الى حوالي ٤ أو ٥ كيلومترات الى الشرق من الحافة الصخرية في شمال مدينة الدوحة . ولايتعدى ارتفاع الهل الساحلي في كل أجزائه المترين عن سطح البحر . ويتميز السهل الساحلي بالاستواء وانعدام التضرس ، ونسبة لارتفاع الطاقة التسربية في المنطقة المستصلحة فإن الجريان السطحي محدود جداً .

المورفولوجية وارتفاع منسوب المياه الجوفية :

يقتصر أثر مورفولوجية مدينة الدوحة على ارتفاع منسوب الماء الجوفي في عدة نقاط . أولاً : بما أن تضاريس منطقة الدوحة تضاريس بسيطة ومنتظمة بصفة عامة ، وان تغيير الارتفاع من منطقة إلى أخرى يحدث على مسافات بعيدة مما يعني أن الانحدار تدريجي فإن ذلك كله أدى الى بطء شديد في حركة انسياب المياه الجوفية الأمر الذي أدّى الى حدوث ظاهرة التلينّ المائيين تحت مدينة الدوحة ونموهما وزيادة المساحة التي يغطيانها . ففي الفترة ما بين سنة ١٩٨٣ ونهاية ١٩٨٧ م زادت المسافة التي يغطيها تل مدينة خليفة بنسبة ٦٥ ٪ وتل الخيل بنسبة ١٦٩ ٪ (أنظر الشكلين رقم ٦ و٧) . ويعتبر عامل بطء الانسياب الناتج عن الانحدار البسيط عاملاً مساعداً بجانب زيادة استهلاك الماء ومن ثم التسرب وصغر السعة التخزينية للتكوينات الحاملة للماء .

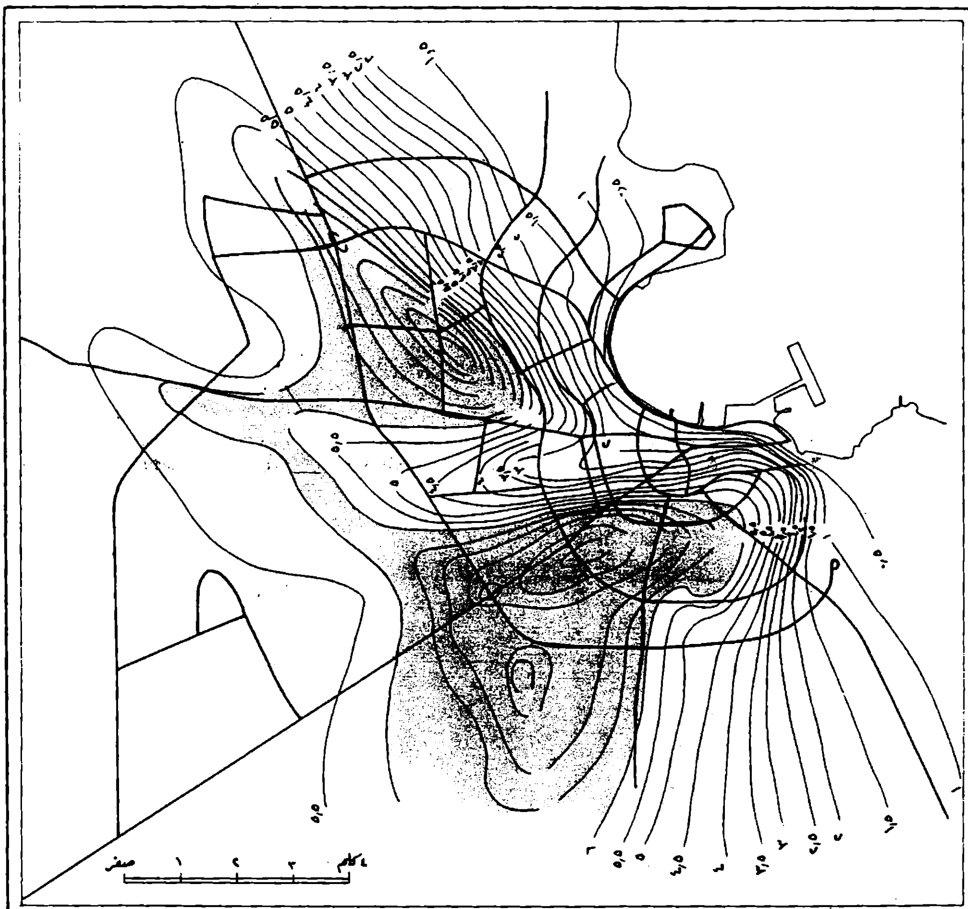
أما بالنسبة للسهل الساحلي فبما أن منسوب الماء لايزال يبعد مترين عن سطح الأرض وأن قابلية التخزين والنفاذية لمواد الردم أعلى من مثيلتيهما في التكوينات الحاملة للماء ، فإن من المرجح أن يكون هناك رشح نحو البحر . لكن مع زيادة كميات المياه المتسربة وبخاصة في المنطقة المستصلحة فإن الرشح نحو البحر سيتوقف .

وتتجلى العلاقة بين طبوغرافية السطح ومنسوب الماء الجوفي عند النظر الى المنخفضات . فالمناطق المنخفضة تسهم اسهاماً فعالاً في تسرب المياه السطحية الى باطن الارض وفي الوقت ذاته هي أول المناطق المتضررة بارتفاع منسوب الماء الجوفي . فكما سبق ذكره فإن معظم المنخفضات التي تقل أعماقها عن ٥ أمتار عن سطح البحر تغمرها المياه وتغطيها المستنقعات .




شكل رقم -٦- إرتفاع منسوب الماء الجوفي في الفترة ١٩٨٣ - ١٩٨٦
وقمتا منسوب المياه الجوفية (قمة مدينة خليفة وقمة الخيل)

(مصدر خارطة الأساس جيكا ١٩٨٧)



شكل رقم -٧- خطوط كنتور المياه الجوفية - نهاية عام ١٩٨٧م ( بالأمتار فوق مستوى الأساس القطري) (مصدر خارطة الأساس : أكلستون ١٩٨٧م )

ونسبة لانحدار السطح فوق الأماكن المرتفعة ووجود الصخور والحصى المتهاسك فإن الماء ينساب بسرعة ولاينفذ للطبقات الحاملة للماء بينما يبقى لفترة أطول في المنخفضات . وتسهم منخفضات الفيضانات الغطائية ذات الرواسب الغرينية اسهاماً كبيراً في رفع منسوب الماء الجوفي . وكذلك يزداد تسرب المياه السطحية في الأطراف الهامشية للمنخفضات الحوضية حيث تزداد النفاذية بسبب وجود التكوينات ذات القوام الخشن . ويعتقد أن معظم تغذية التكوينات الحاملة للماء تحدث هنا . وقد أثبتت ذلك بعض التجارب التي أجريت في المنخفضات الحوضية لزيادة معدلات التغذية الجوفية عن طريق حفر آبار للتغذية .

كذلك تلعب هذه المنخفضات دور المصارف الطبيعية للجريان السطحي والمياه الجوفية في وقت واحد . فعلى سبيل المثال يلعب وادي مشيرب دور المصرف الطبيعي لكل المنطقة التي تقع بين تل المياه الجوفية الشمالي (مدينة خليفة) والتل الجنوبي (تل الخيل) .

## خاتمـــــة :

لقد شهدت دولة قطر خلال العقود الثلاثة المنصرمة نمواً عظيًما أسفر عن تغيرات كبيرة ـ هي في معظمها ايجابية ـ الا أنها لاتخلو من بعض السلبيات . ويأتي موضوع هدر المياه على رأس قائمة السلبيات حيث تقدر كميات الماء الضائع بأكثر من ٣٠ مليون متر مكعب في السنة تكلف خزينة الدولة أكثر من ٥٠ مليون ريال قطري في السنة (أنظر ASCO, 1986 ) . ومرتبط بذلك الهدر موضوع ارتفاع منسوب الماء الجوفي الذي تترتب عليه آثار خطيرة بالنسبة للأبنية والمنشآت والطرقات والنباتات والصحة العامة وغيرها .

ويلعب العاملان الجيولوجي والمورفولوجي (الطبوغرافي) بجانب زيادة الاستهلاك والهدر الدور الأساسي في تعقيد وضع ارتفاع منسوب المياه الجوفية . فوجود طبقات الطين الصفحى الصماء على أعماق قريبة من سطح الأرض أسفل التكوين الحامل للماء (أعلى تكوينات الدمام السفلى) وفرشات الجبس والمارل ذات النفاذية المنخفضة في تكوينات الرس أدى الى سرعة تشبع رواسب الطفل والدولوميت ذات النفاذية العالية في تكوينات الدمام الأعلى . وكما أن العامل الجيولوجي أدى الى سرعة التشبع ، فإن العامل الطبوغرافي يعقد الوضع أكثر عن طريق بطء انسياب الماء الناتج عن قلة الانحدار فضلا عن تجمع مياه الأمطار وبقائها لفترات طويلة في المنخفضات . وفوق ذلك فإن قيعان المنخفضات أول المناطق التي تظهر فيها المياه الجوفية نتيجة لصغر سمك التكوينات الحاملة للماء أسفل المنخفضات ومن ثم قرب سقف الخزان الجوفي من السطح .

وعموماً فإن العلاقة بين الجيولوجيا والوضع الطبوغرافي في مدينة الدوحة علاقة معقدة ومتشابكة ويصعب أحياناً فصل أثر بعضهما عن بعض . بل أنه وفي أحيان كثيرة أيضاً يكون العامل الطبوغرافي امتداداً للعامل الجيولوجي كما في حالة المنخفضات الحوضية التي هي سبب المشكلة وأول المتأثرين بالنتيجة .

## المراجـــــع

### أولا : باللغـة العربيــة :


١ ـ ابراهيم باقر وصالح محمود عمر (١٩٩٠) ورقة بلدية أبوظبي لندوة مشاكل ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مدن مجلس التعاون ـ الدوحة ـ قطر ـ ٥ ـ ٧ مارس .

٢ ـ إبراهيم حرحش وعبد الرحمن يوسف (١٩٨٥) المياه الجوفية في قطـر ، ادارة البحوث الزراعية والمائية ، وزارة الزراعة والصناعة ، الدوحة .

٣ ـ المملكـة العـربية السعودية ـ وزارة الشؤون البلدية ـ وكالة الوزارة للشؤون الفنية (١٩٩٠) ، المشـاكل الناجمة عن ارتفاع مناسيب المياه الجوفية في مدينة جـدة والطرق العلمية لحلها ـ ورقة عمل قدمت في ندوة مشاكل ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مدن مجلس التعاون ـ لدول الخليج العربية ـ الدوحة ـ قطر ـ ٥ ـ ٧ مارس .

٤ ـ بلدية مسقط (١٩٩٠) بحث حول ارتفاع منسوب المياه الساحلية ـ قدم في ندوة مشاكل ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مدن مجلس التعاون لدول الخليج العربية ـ الدوحة ـ قطـر ـ ٥ ـ ٧ مارس .

٥ ـ حسين لوتـاه (١٩٩٠) ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مدينة دبي بحث قدم في ندوة مشاكل ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مـدن مجلس التعاون لدول الخليج العربية ـ الدوحة ـ قطـر ـ ٥ ـ ٧ مارس .

٦ ـ دولة قطر ، وزارة الشؤون البلدية ، بلدية الدوحة (١٩٨٦) مشكلة ارتفاع منسوب المياه الجوفية بالدوحة ـ الدوحة ، قطـر .

٧ ـ دولة قطر ، وزارة الشؤون البلدية ، بلدية الدوحة (١٩٨٧) وضع المياه الجوفية في دولة قطر ـ تقرير قدم الى اللجنة الخاصة بدراسة تطوير مصادر المياه الجوفية والحفاظ عليها في دولة قطـر ـ الدوحة ، قطـر .

٨ ـ دولـة قطـر ، وزارة الصناعة والزراعة ، إدارة البحوث الزراعية والمائية قسم المياه الجوفية (١٩٨٨) تقرير عن مصادر المياه الجوفية بدولة قطر ـ الدوحة ، قطـر .

٩ ـ دولة قطر ، وزارة الكهرباء والماء ـ إدارة الكهرباء والماء (١٩٨٧) تقرير احصائي عن الكهرباء والماء لعام ١٩٨٧ ، الدوحة ، قطـر .

١٠ ـ دولـة قطر ، وزارة الكهرباء والماء ، إدارة الكهرباء والماء (١٩٨٧) ، وثائق لجنة حصر ومراجعة التقارير والدراسات الخاصة بتطوير المياه الجوفية في دولة قطر ـ الدوحة ، قطـر .

٢٢ ـ صلاح بحيري (١٩٧٩) نحو تصنيف موروفولوجي لمنخفضات الصحراء . مجلة الجمعية الجغرافية الكويتية ـ قسم الجغرافيا ـ جامعة الكويت ـ العدد ١٠ .

١٢ ـ كمال حفني (١٩٩٠) ظاهرة ارتفاع منسوب المياه الجوفية وأثرها على المباني بمدينة القاهرة . بحث قدم في ندوة مشاكل ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مدن مجلس التعاون لدول الخليج العربية ـ الدوحـة ـ قطـر ـ ٥ ـ ٧ مارس .

١٤ ـ محمد كمال محمود الشلالده (١٩٨٦ الروضات في شبه جزيرة قطر ـ دراسة جغرافية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ، كلية البنات للعلوم والآداب والتربية ، القاهرة .

١٤ ـ محمود محمد عاشور (١٩٨٩) سطح قطر بين الماضي والحاضر ـ دراسة في تغيير ملامح السطح . مجلة الجمعية الجغرافية الكويتية ـ قسم الجغرافيا ـ جامعة الكويت ـ العدد ١٢٦ .

١٥ ـ هالكرو بلفور المحدودة (١٩٨١) المخطط الشامل لموارد المياه والتنمية الزراعية ـ وزارة الصناعة والزراعة ـ دولة قطـر .

١٦ ـ يوسـف الصائغ (١٩٩٠) مشكلة ارتفاع منسوب المياه السطحية في البحرين ـ بحث قدم في ندوة مشاكل ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مـدن مجلس التعاون الخليجي ـ الدوحة ـ قطـر ـ ٥ ـ ٧ مارس .

## ثانياً : باللغـة الأجنبيــة :

17 - Al-Sanad, H.A. and Shagour, F.M. (1990). geotechnical implication of subsurface water rise in Kuwait A -paper Presented in the Rising Water Table Seminar in G.C.C Cities - Doha - March.

18 - ASCO (1983) Rising water table under Doha. Final report. Vol II water Department, Ministry of Electricity and Water, Doha, Qatar.

19 - ASCO (1986) Doha Water Loss Control report, Electricity and Water Department - Ministry of Electicity and Water, Doha. Qatar.

20 - Cavelier, C. and Salat, Y.H (1970) Geological description of Qatar Peninsula department of Petroleum Affairs, Doha.

21 - Eccleston, B.L. (1982) The Hydro-geology of Qatar, Department of Agriculture and Water Research - Ministry of Industry and Agriculture, Doha, Qatar.

22 - F.A.O. (1981) Qater resources and agricultural development project Qatar, Project Findings and Recommendations, Rome.

23 - JICA - Japan International Co-operation Agency :1987) The study on drainage improvement plan, Doha City - Supporting Report - Vol, II, Qatar.

24 - Kassas, I.A. and Ashour, M.M. (1984) Lineaments analysis of Qatar Peninsula, based on landsat imagery, Presented at the International Conference on Remote sensing for Resource Management and Environmental Planning, Bayreuth, West Germany.

25 - Miller, A.A. (1949) The dissection and analysis of maps-Institute of British Geographers. London.

26 - Pike, J.G. (1977) The water resources of Qatar and their development - Rec. Rep. No. 1, U.N.D.P. and F.A.O., Rome.

27 - Poal, T. (1984) Change in ground water level - change of design Parameters, Proceedings of 6th Budapest Congerence on Soil Mechanics and Foundation Engineering, Budapest.

28 - Thornbury, W.D. (1959) Principles of geomorphology - John Wilex and Sons - London.

29 - United Nations - Department of technical Co-Operation for Development (1986) Assistance in ground-water development and conservation - Project Findings and Recommendations. DP/UN/QAT-82 001/1, Qatar.

30 - Wilkinson, W.B. (1985) Rising Groundwater levels in London and possible effects on engineering structures. International Association of Hydrologists, 18th Congress Proceedings, Cambridge, U.K.

# CHARACTERS AND CHARACTERISATION IN DURRELL'S THE ALEXANDRIA QUARTET

**Dr. Anna Pratt**

When **The Alexandria Quartet** appeared in the late fifties (**Justine** 1957; **Balthazar** 1958; **Mountolive** 1958; **Clea** 1960) it was given a very mixed reception. Some critics were enthusiastic, making sometimes exaggerated claims for Durrell's originality and greatness; others were more sceptical. George Steiner for instance praised the richness of Durrell's style, saying : "No one else writing in English today has a comparable command of the light and music of language ... Who is to say ... that **The Alexandria Quartet**will not lead to a renascence of prose" ? [1] , while Angus Wilson disagreed, claiming that "Durrell's aims are magnificent, but his execution is often slipshod and pretentious, and the language floridly vulgar" . [2] It is interesting to note that Durrell's most severe critics tended to be British, and his popularity was much greater in America and on the Continent than in his own country. Durrell's biographer, G.S. Fraser, says that the prevailing view in England was that the **Alexandria Quartet** "is a most impressive but in some ways flawed or imperfect work, extraordinarily vivid, but too rich, too gaudy" . [3]

A similar difference of opinion can be noticed in critical comments on Durrell's methods of characterisation and his ability to create convincing characters . Here again, most British critics were not impressed by characters in **The Quartet** . The following quotations illustrate the dominant attitude :

> *"For the most part the characters in these novels remain flat surfaces ... they never become three–dimensional figures ..."* [4]
>
> *"His leading people are not people at all ... They are vehicles of events, they are poet's notes; they are fables, subjects of one another's conversations ..."* [5]
>
> *"(Durrell's characters) are inhabitants of a fairyland that seems , the more one examines it , the less related to life as commonly experienced anywhere in the world ... "* [6]

The terms used by the British critics ('flat' ; 'three–dimentional' ; 'non–realistic') reveal their traditional assumptions about characters in fiction . As Bergonzi remarks in **The Situation of the Novel,**

> *On the Continent it seems to be assumed that the realistic novel of character has had its day... But in Britain it is widely held that such novels can and should go on being written, with few overt concessions to the changed Weltanschaung of the twentieth century. Here character is seen, not as an obsolescent feature of the novel whose existence can no longer be justified... but as something self–**evidently essential.*** (7)

On the other hand, Durrell rejected the tenents of the conventional realistic novel and placed himself in the tradition of modern experimental fiction . According to Erich Auerbach, "One of the major trends in twentieth–century characterization is away from the attempt to penetrate the individual psyche and toward a focus on the apprehension of 'impressions' which claim no absolute validity as facts" . This approach "dissolves reality into multiple and multivalent reflections of consciousness" . (8) Durrell himself commented on several occasions on his characters and the concept of human personality which underlines the **Quartet** . In one of his interviews he says :

> *Human character ? A sort of rainbow, I should say, which includes the whole range of the spectrum. I imagine that what you call personality may be an illusion, and thinking of it as a stable thing we are trying to put the lid on a box with no sides.* (9)

And in another interview , he counters his critics' objections to his characters , saying :

> *If in the Quartet my people tend, as some people complain, to be dummies, it's because I'm trying to light them from several different angles, I'm trying to give you stereoscopic narrative with stereophonic personality ...* (10)

**The Alexandria Quartet** consists of four volumes , each of which could be read as an independent novel , but can be fully understood only as a part of a larger pattern . The key to the tetralogy is the concept of individual consciousnesses as so many separate mirrors , each producing different images of the phenomena they reflect . In the very first pages of **The Quartet ,** Durrell uses the symbolism of mirrors to alert the reader to his method of character portrayal . As she looks at her reflection in the multiple mirrors in a lobby of an Alexandria hotel , Justine , the main character in the novel , becomes the writer's mouthpiece :

> *Look ! five different pictures of the same subject . Now if I wrote I would try for a multi–dimensional effect in character , a sort of prism–sightedness . Why should not people show more than one profile at a time? (J ., p . 28)* (11)

The narrator in **Justine ,** Darley , is a young teacher and writer , who from the vantage point of his voluntary exile on a small Greek island looks back at his experiences in Alexandria a few years earlier . He hopes that from a distance in time and space he can impose some meaningful pattern on this strange and confusing period of his life , and that reality can be "reordered, reworked and made to show its significant side "(J ., p . 20) In recording his reminiscences Darley shows no concern for chronology or for cause–effect sequence ; his narration ranges in an apparently random way all over the period of his stay in Alexandria and seems to follow the strange logic of dream or reverie rather tham that of consious recollection .

Even though **Justine** is basically a record of Darley's personal experiences , his is not the only voice heard in the novel . Other characters' points of view are incorporated into the main stream of narration in the form of excerpts from letters and diaries that Darley apparently had access to , passages from an autobiographical novel by Arnauti , Justine's first husband and another writer–character in the novel , as well as conversations Darley claims to remember almost verbatim . However , the interpretation of people and events rests ultimately with Darley , who selects and rearranges facts to fit into his version of reality .

While reading **Justine ,** a perceptive reader should become aware that Darley is an unreliable narrator, and detect certain gaps and inconsistencies in his story . It is only in **Balthazar ,** however , that the full extent of Darley's bias is made obvious . Durrell uses the following quotation from de Sade as a motto to this second volume in the tetralogy : "The mirror sees the man as beautiful , the mirror loves the man ; another mirror sees the man as frightful and hates him and it is alwas the same being who produces the impression" . At the beginning of the novel Balthazar , an Alexandria doctor and a friend of most of the characters introduced in **Justine ,** reads Darley's account of events and 'corrects' it by supplying his own version of what really happened . Balthazar's "Interlinear" shows the main actors of the drama in a com-

pletely different light revealing their secret motives and providing unexpected answers to questions asked in **Justine** . Looking at an old photograph which shows most of his Alexandrian friends , Darley realises that the familiar scene has assumed an entirely different meaning for him . On the surface , all the characters are stil there , in the same postures as before , but now Darley - and the reader - can project upon the familiar figures the new knowledge of their hidden motives and complex relationships .

In trying to re–tell his story , Darley follows Balthazar's advice : "I suppose ... that if you wished somehow to incorporate all I am telling you into your own **Justine** manuscript now , you would find yourself with a curious sort of book ... the story would be told , so to speak , in layers ... like some medieval palimpsest where different sorts of truth are thrown down one upon another , the one obliterating or perhaps supplementing another ..." (B . 388) . Apart from Balthazar's comments , the voices of other characters are again heard through extracts from their writings and recalled conversations giving us different interpretations of the same events and people , sometimes overlapping and complementing each other , sometimes contradictory .

**Mountolive ,** the third novel of the Quartet , differs considerably from the first two volumes . According to Durrell , it is "as tame and naturalistic in **form** as a Hardy ; yet it is the fulcrum of the quartet and the rationale of the thing" ; [(12)] First–person limited point of view has been replaced by what some critics call 'multiple selective omniscience' ; that is , third person narration in which the story comes directly through the minds of the characters with the author remaining in the shadow and rarely , if ever , intruding with his own comments . The chief figure in the novel is Mountolive , the British Ambassador to Egypt , and most of the other characters are seen through his eyes . However , Mountolive is not the only third person "reflector" , to use Henry James's term , as parts of the novel are related from the standpoint of other characters , in particular Nessim , an Oxford–educated Copt and Justine's husband , and Pursewarden , yet another character who is a writer .

The change of narrative perspective in **Mountolive** results in an entirely different picture of the events and people known to us from the preceding novels. There is a shift of emphasis from their love affairs to their involvement in politics and power struggles in Egypt just before World War II. Moreover, some previously minor figures move to the foreground while others are relegated to the background - most strikingly Daley, the main narrator of the first two volumes, who in **Mountolive** appears briefly as a minor and insignificant character. In spite of its more objective tone and use of traditional techniques of story telling, **Mountolive** does not purport to give us the final and the only true interpretation of **Quartet's** characters and their behaviour. Like **Justine** and **Mountolive,** it helps to light the characters from yet another angle, revealing more clearly their place in the complex pattern of human interrelations, where private and public lives are different sides of the same coin, and where everything is relative and there is no such thing as an absolute truth.

**Clea,** the last volume of **the Quartet**, is the only one which moves forward in time. Darley, now again the central character and the first person narrator of the novel, goes back to Alexandria and meets his former friends and lovers. Thepast is never absent from his narration as Darley's mind moves constantly between the present and his past experiences; there are also scenes which are an almost exact repetition of situations from the preceding novels, giving us an uncanny sens of 'déja vue'. Most of the characters first introduced in **Justine** reappear in **Clea;** some seem unchanged others are clearly marked by the passage of time. Talking about his past misjudgements, Darley hopes to "strip the opaque membrane which stands between me and the reality of their (his friends )actions - and which I suppose is composed of my own limitations of vision and temperament. My envy of Pursewarden, my passion for Justine, my pity for Melissa. distorting mirrors, all of them...". Yet, having reached this point in the tetralogy the reader knows that Darley is hoping for the impossible. The 'opaque' membrane which stands between him and reality can never be removed; his vision of reality will always be subjective, and so his account of other people's actions can be only one of many possible interpretations.

As can be seen, Durrell's narrative technique results in giving the reader multiple 'images' of his characters as seen from a number of viewpoints. On some occasions it is not just the interpretation of the characters' actions and motives but the factual evidence itself that seems to differ from one narrator to another, so that we can't tell what really happened and what the narrator ony imagines might have happened. A good example of this is the fate of Justine's daughter; we find several conflicting accounts of her mysterious disappearance and at some point it is even implied that the child may have never existed.

The multiplicity of viewpoints within the tetralogy raises the question of the reader's response to Durrell's characters. Is no final judgement possible because each interpretation is subjective, and sometimes we cannot even be sure of the facts themselves? Or are we entitled to form our own conclusions, and judge the characters on the basis of their actions and the kind of moral choices they make? In traditional novels, to quote John Bayley, "the most fundamental thing about characters in fiction is that by a complex process of rapport between the author and ourselves we know what to think of them..."(13) In many modern novels, including the **Quartet,** this kind of 'collusion' of reader and author is no longer possible.

While reading the tetralogy, the reader is frequently warned off any attempt at forming moral judgements, however unconventional and questionable the conduct of some of the characters. In fact, the world created by Durrell is in many ways strikingly amoral; there is a marked absence of any moral judgements in the narrative, and the characters seem to live outside any system of accepted norms and values. Most of them are uprooted people, living away from their original communities, in a city which is a meeting-place of different cultures and

religious traditions, a city harbouring "communities cut down like the branches of trees, lacking a parent body, dreaming of Eden" (J., P. 57).

This suspension of moral judgement is also connected with what could be described as the lack of autonomy of Durrell's characters. If a character is to be judged on the basis of his behaviour, we must assume that he has at least some freedom of action and can be held personally responsible for what he does. By contrast, Durrell's characters appear to be strangely will-less; things seem to just happen to them as if they had no control over their lives. Lionel Trilling has remarked that "all the novels, and the **Quartet,** as a whole, stand in a peculiar negative relation to the will".(14) And another American critic comments:

> In the **Quartet,**... character becomes, in effect, anti-character: it does not so much impose itself upon its surroundings as it is imposed upon, and all the qualities normally associated with the traditional literary hero are either lacking or are attributed to something other than individual characters - largely to the city of Alexandria.(15).

Alexandria is presented in the **Quartet** as an all-pervasive force, dominating and shaping the lives of its inhabitants who seem to be "trapped in the projection of a will too powerful and too deliberate to be human - the gravitational field which Alexandria threw down about those it had chosen as its exemplars..." **(Justine, P. 22).** The dominant role of the city of Alexandria is the result of Durrell's belief in the close relation between people and their natural environment, reflected in the writer's travel writing as well as in his poetry and fiction. In his essay "Landscape and Character" Durrell says: "... I will willingly admit to seeing 'Characters' as functions of a landscape"(16); similar ideas are expressed in the tetralogy through the mouths of Durrell's characters. In **Justine,** for instance Darley comments: "... We are the children of our landscape; it dictates behaviour and even thought..." (J., P. 40); "... man is only an extension of the spirit of place" (J., P. 143).

The inhabitants of Alexandria are presented as vicitims of this city "impregnated with the sense of deracination and failure" (J., P. 147), where the air is "dry, palpitant, harsh with static electricity", (J., P. 18) with a dry desert wind blowing through its "dust-tormented streets", a city which is said to drain away life energy and undermine the will.

The notion that people are products, and often helpless victims, of their environment leads to the denial of any moral responbsibility for their actions: "I return ... to the city which used us as its flora, precipitating in us conflicts which were hers and which we mistook for our own: beloved Alexandria ... I see at last that none of us is properly to be judged for what happened

in the past. It is the city which should be judged, though we, its children, must pay the price" (J., P. 17)

At this point the following question could be asked: moral judgments apart, are Durrell's characters as chameleon-like and elusive as the writer himself suggests, or are there some constant elements in their make-up, some dominant personality traits that remain stable? As was mentioned before, Durrell seems to reject the traditional concept of human personality as a stable and definable entity. In one of his interviews he says: "They (the novels) should raise one terrific problem, namely, personality. In this stereophonic context, I think it does raise a question in your mind as to whether the human personality is not a selective fiction or a polite figment ..."(17) In his comments on the subject, Durrell often echoes ideas current in modern psychology, as when he talks about the concept of the ego as "a series of masks, which Freud started, a depersonalisation which was immediately carried over he border by Jung and Groddeck and company ..."(18).

The questioning of the traditional concept of the self as something solid and substantial is reflected in a number of modern experimental novels in which character often 'dissoves' or becomes symbolic. Durrell saw himself as an experimental novelist, following in the footsteps of the great modernist writers. I would argue, however, that in his approach to characterisation Durrell is more traditional than his comments would lead us to believe. Although the writer rejected the notion of the "old stable ego of the character", his protagonists remain throughout the **Quartet** recognisable individuals with certain constant attributes of personality as well as appearance. This is mainly due to the use of the method of characterisation which consists in the presentation of an initial portrait, later supplemented by other descriptions and confirmed by events.

Durrell is a writer endowed with a strong visual imagination, as can be seen both in his descriptions of landscapes and in his portraits of people. Durrell's "portraits" are among the best passages of his writing. In a few phrases he can create a suggestive image and capture the essence, the specific "aura", of a given character. Some of Durrell's character sketches are but brief impressions, more like poet's notes than complete prose portraits; others are more extended. The characters' dominant traits are often suggested by means of startling comparisons and metaphors. These first images or 'vignettes' have a haunting power and are instrumental.in shaping the reader's response to a given character. This is especially the case with Durrell's portrayal of Alexandria's women, in particular Justine, Melissa and Clea.

The figure of Justine dominates the **Quartet,** especially in the first three volumes of the tetralogy. Justine is the character that surprises us most as each successive novel brings new

revelations about her past and her relations with several of the protagonists. However, even though she plays different roles and wears different masks, to use Durrell's phrase, she is a well-defined character with certain constant characteristics and patterns of behaviour.

In our first glimpse of Justine as she passes below Darley's window, she is smiling to herself "as if at some private satisfaction" (**Justine,** p. 22) with a mischievous smile which reminds Darley of the way she laughs, "showing these magnificent white teeth" (Ibid). This apparently irrelevant remark of the narrator takes on a somewhat sinister and ominous meaning as we turn to the next page and learn that Justine seemed to belong to "that race of terrific queens which left behind them the ammoniac smell of their incestuous loves to hover like a cloud over the Alexandria subconscious ... The giant man-eating cats like Arsinoe were her true siblings" ( **Justine,** p. 23).

Thus from the very beginning of the **Quartet** we are made to feel that Justine is potentially a dangerous woman, a **femme fatale,** a "man-eater". Our initial feelings about her are confirmed later as Justine proves to be a destructive force in the lives of many of the **Quartet** characters. The first description of Justine also gives us a hint of her narcissism and her total absorption in the private world of her feelings and obsessions, while the mention of her mischievous smile foreshadows later revelations about her unlimited capacity for mischief, treachery and intrigue. Destructiveness, mischief, narcissism - these are the dominant traits of Justine's character. They are still manifest in the last glimpse that we have of her at the end of **Clea.** Here Justine is seen in the full exercise of her power to charm and subdue men. After a long period of imprisonment and illness she triumphs again, leading the once formidable Memlik Pascha "like a poodle on a leash". We are told that she looked radiant and her eyes sparkled with impish mockery and clever malevolence. "It was as if, like some powerful engine of destruction, she had suddely switched on again" ( **Clea,** P. 876).

The predatory character of Justine is underlined in **The Quartet** by means of figurative language. Justine is several times compared to birds and animals of prey, such as the eagle, panther or leopard. We are told that she "looked and seemed an eagle" (J., p. 46) and "gazed about her like a half-trained panther" (J., p. 30). When Justine decides to make use of Darley, she sets out to destroy his love for Melissa and starts by obliterating all traces of the girl's presence in Darley's flat: "She walked over to the dressing-table with its row of photos and powder-boxes and with a single blow like that of a leopard's paw swept it clean" (J., p. 75). The bird imagery is used again in the description of Justine in **Clea.** At that time Justine is under house arrest, ill and broken down by the failure of the political intrigue engineered by her husband. Darley, now emotionally detached and even faintly disgusted, watches his former love "lying there, soiled and tattered, like a dead bird in gutter, her hands crumpled into claws"

(**Clea,** p. 699). The image is reminiscent of the earlier description of Melissa as a "half-drowned bird" (J., p. 26), but it does not call forth the same sympathy on the part of the narrator and of the reader. Our pity for Justine is tempered by the reminder that even in defeat and misfortune she has retained some traces of her predatory character - suggested in the quoted passage by the use of the word "claws".

Apart from establishing certain dominant character traits, Durrell's descriptions create in the reader's mind an image of Justine as a beautiful woman using her beauty to manipulate men. We are told that she had "magnificent troubled eyes" (J., p. 28), "glossy black hair" (J., p. 59), a "lovely head" (J., p. 30), and beautifully shaped hands with long fingers (p. 114). She is referred to as a "dark-browed, queenly beauty" (M., p. 506), a "magical dark mistress" (C., p. 691), and in the so-called "Character-Squeezes" at the end of **Justine** as an "arrow in darkness". Although in **Clea** Justine is presented as looking less attractive as a result of her long illness, she remains in the reader's memory as a beautiful "femme fatale" surrounded by admiring men.

The portrait of Melissa, another important female figure in the **Quarter,** is drawn by similar methods. Melissa is introduced to the reader at the beginning of **Justine,** and the initial sketch of the character comes again from Darley as he recalls his first impressions of the girl: "I used to see her, I remember, pale, rather on the slender side, dressed in a shabby sealskin coat, leading her small dog about the winter streets. Her blue-veined phthisic hands, etc. Her eyebrows artificially pointed upwards to enhance those fine dauntlessly candid eyes..." (J., p. 21). In the same paragraph we are told that Melissa won Darley's affection "not by any qualities one might enumerate in a lover - charm, exceptional beauty, intelligence - no, but by the force of what I can only call her charity, in the Greek sense of the word" (Ibid.).

Thus already in this introductory description of Melissa all her essential qualities are suggested - her poverty, humility, courage, honesty and charity. The desired effect is achieved by a careful choice of adjectives and the selection of significant details. Adjectives like pale, slender, shabby, phthisic are used to create the impression of Melissa's fragility and poverty, while the phrase "fine dauntlessly candid eyes" suggests someone courageous and free from guile. These features of Melissa remain unchanged thoughout the **Quartet.**

The initial sketch of her character is confirmed by further descriptive passages and the comments of different narrators. The delicacy of her classical type of features is conveyed in a number of lyrical descriptions - as when Darley recalls her "long bereft Greek face, with its sane pointed nose and candid eyes", her "pale reflective fingers". (J., p. 50). Her child-like qualities are also frequently hinted at: she has "the satiny skin that is given only to the thymus

- dominated", a "slender stalk of the neck" (J., p. 50): and she is once described as a "pale waif of the Alexandrian littoral" (B., p. 30). We also learn that she had a light, effortless and candid laugh (J., p. 55).

Melissa's character is more fully revealed by her behaviour, and especially in her relation with Darley. She is always eager to help and she never tries to assert her rights or fight for Darley's love when he neglects her. As Darley puts it "In her there was a pliancy and resilience which was Oriental - a passion to serve" (J., 48). Another characteristic feature of Melissa is her sadness, her "profound and consuming world-weariness" (M., p. 529), which occasionally drives her to hashish-smoking and leads to periods of complete lethargy (J., p. 49). In the "Character Squeezes", she is named a "patron of sorrow", and it is her melancholy and passive acceptance of her fate that makes her such a poignant figure.

Our overall impression of Melissa is also greatly influenced by the use of flower and animal imagery in connection with her. Thus, for instace, Darley gives the following poetic description of his mistress: "Melissa was a sad painting from a winter landscape contained by a dark sky; a window box with a few flowering geraniums lying forgotten on the window-sill of a cement-factory" (J., p. 46). The image conveys Melissa's humbleness and sadness, the **cafard** which is part of her attitude to life. Later in the tetralogy, Pursewarden defines her beauty as "the soft bloom of phthisis" (M., p. 526) and describes her "slender body with its slanting ribs (structure of ferns) ..." (M., p. 529).

In addition to flower imagery, bird imagery is repeatedly used to characterise Melissa. Recalling his first meeting with the girl, Darley reflects: "I found Melissa, washed up like a half-drowned bird, on the dreary littorals of Alexandria, with her sex broken..." (J., p. 26). The image expresses the pathos and hopelessness of Melissa's situation; it also emphasizes her fragility and vulnerability. Melissa is also compared to a gull – "... that shabby room where Melissa lay, breathing as lightly as a gull" (J., p. 27) and a sparrow (M., p. 526). Finally, her timidity and delicate charm, quite out of place in the sordid night club where she has to work, are evoked by the description of her dancing with "the air of a gazelle harnessed to a water wheel" (J., p. 27).

Clea is not only the main female character in the last volume of the tetralogy but has an important role to play from the very beginning of the **Quartet.** The other characters turn to her with their problems, knowing that she is always ready to help and give advice. She is, in effect, a kind of "good spirit" of the city, warm-hearted and generous. Her essential qualities are suggested in the first description of her.

> Everything about her person is honey-gold and warm in tone; the fair, crisply-trimmed hair which she wears rather long at the back, knotting it simply at the downy nape of her neck. This focuses the candid face of a minor muse with its smiling grey-green eyes. The calmly disposed hands have a deftness and shapeliness which one only notices when one sees them at work, holding a paint-brush perhaps or setting the broken leg of a sparrow in splints made from match-ends.
>
> I should say something like this: that she had been poured, while still warm, into the body of a young grace: that is to say into a body born without instincts or desires (J., p. 107).

This passage summarises all the dominant features of Clea - her warm nature, good humour, inner calm, candour, innocence, and kindness towards all living creatures. In fact Clea has all the qualities required of the ideal nurse, and she is frequently portrayed in situations where she brings comfort to those physically or mentally ill. This association of Clea with healing processes is enforced by the fact that she is the clinic painter, employed by Balthazar to record in paint certain medical anomalies. Darely describes seeing her in the clinic garden, dressed in a white medical smock and painting with her "capable and innocent fingers" one of her "large coloured drawings of terrifying lucidity and tenderness" (J., p. 109). Clea's "generous innocence" (J., p. 239) is referred to repeatedly; it is also evident in her behaviour towards others. The predominant traits of her character are also expressed in her artistic work - we are told that her "bold yet elegant canvasses radiate clemency and humour" (J., p. 108).

Apart from the portraits of female characters, we find in the **Quartet** several extended character sketches of the male protagonists - for instance Balthazar (J., pp. 78-79), Nessim (J., pp. 29-30) or Narouz (B p. 252). In most of these portraits a similar technique is used: a brief description of the character's external appearance in which the most striking features are indicated (e.g., Balthazar's hypnotic eyes, or Narouz's hare-lip), followed by the narrator's explicit statement pointing to the character's dominant personality traits. There is no essential difference between the character sketches in the three novels narrated by Darley and those in **Mountolive,** although Darley's character sketches tend to be more impressionistic than the ones in **Mountolive.**

In this third volume of the tetralogy, there are a number of brief character sketches of minor figures representing the different ethnic communities of Alexandria, as well as expatriates and diplomats connected with various foreign missions. Several of the latter are comic characters verging on caricatures, as Durrell exaggerates national characteristics and eccentricities. Metaphoric language and animal imagery one again used to suggest the characters' dominant features, or often a single dominant trait. Most of these secondary characters do indeed fit Forster's category of 'flat' characters or types.

To conclude, it could be suggested that there is a certain discrepancy between Durrell's theoretical pronouncements and his actual practice as a novelist. Durrell repeatedly stated that he did not believe in the conventions of the realistic novel of character still upheld by the majority of British novelists in the fifties. In **the Alexandria Quartet** he introduced innovative narrative techniques to create, as he put it, "prismatic" or "stereophonic" characters, reflecting his view that personality as something with fixed attributes is an illusion. Nevertheless, most of Durrell's fictitious people remain in the reader's memory as well-defined individuals with certain distinct and persistent characteristics. In this respect, Durrell is much more traditional than some American and European novelists who were his contemporaries, such as the "nouveau roman" writers. Although Durrell's later novels marked a more radical departure from the conventions of realistic fiction, **The Quartet** can be seen as occupying a middle position between the traditional and the experimental works of the period. In its blending of these two approaches, **The Alexandria Quartet** remains an interesting attempt to cope with the problems facing novelists in the second half of our century.

## NOTES

1. George Steiner, "Lawrence Durrell: The Baroque Novel" in **The World of Lawrence Durrell,** ed. H.T. Moore, New York, 1964, pp, 15-16.
2. Angus Wilson, "There's a Tyrant in the Critic's Corner" in **Opinions and Perspectives,** ed. Francis Brown, Cambridge, Mass., 1964, p. 227.
3. G.S. Fraser, **Lawrence Durrell,** London, 1970, pp. 11-12.
4. Gilbert Phelps, "The Novel Today" in **The Pelican Guide to English Literature,** v.VII ed. Boris Ford, London, 1964, p. 492.
5. V.S. Pritchett, "Alexandria Hothouse" in **The Working Novelist,** London, 1965, p. 33.
6. Walter Allen, **Tradition and Dream,** London, 1965, p. 307.
7. Bernard Bergonzi, **The Situation of the Novel,** London, 1970, pp. 42-43.
8. See Scholes and Kellog, **The Nature of Narrative,** New York, 1971, p. 203.
9. Lawrence Durrell, "The Kneller Tape" in **The World of Lawrence Durrell,** p. 163.
10. Lawrence Durrell, Interview in J. Mitchell and G. Andrewski, **Writers at Work: The Paris Review Interviews,** New York, 1963, p. 278.
11. This and all subsequent references to **The Alexandria Ouartet** are to the one-volume edition (London, Faber 1970). Page references are preceded by J for **Justine,** B for **Balthazar,** M for **Mountolive** and C for **Clea.**
12. Lawrence Durrell in **Lawrence Durrell and Henry Miller; A Private Correspondence,** ed. G. Wickes, New York, 1964, p. 326.
13. John Bayley, "Character and Consciousness" In **New Literary History: A Journal of Theory and Interpretation,** v. 2, (Winter 1974).
14. Lionel Trilling, **"The Quartet:** Two Reviews" in **The World of Lawrence Durrell",** p. 57.
15. Alan Friedman, **Lawrence Durrell and The Alexandria Quartet: Art for Love's Sake,** University of Oklahoma Press, 1970, p. 76.
16. Lawrence Durrell, "Landscape and Character" in **Spirit of Place,** ed. A.G. Thomas, New York, 1971, p. 156.
17. Lawrence Durrell, Interview with Kenneth Young in **Encounter** XIII:6, (December 1959), p. 64.
18. Lawrence Durrell, Interview in **Writers at Work,** p.279.

# AN ACOUSTIC STUDY OF FRICATIVE-TO-VOWEL COARTICULATION IN ARABIC

By

Dr. ABDULLA AHMED AL-BANNAI
Assistant Professor

Department of Foreign Languages
United Arab Emierates University

# AN ACOUSTIC STUDY OF FRICATIVE-TO-VOWEL COARTICULATION IN ARABIC

**Abstract:**

This study examines th carryover coarticulatory effecrs of consonantal context upon the acoustic characteristics of voqwla in Arabic. Five speaders read a list of 65 ev:c syllables containing various initial fricatives, five long vowels, and either final voiceless or voiced alveolar stop consonants. Formant frequency analysis have shown that fricative consonants induced significant coarticuatory effects on the F2 steady state frequency of the variation varies significantly as a function of fricative place of articulation. The degree of fricative-to-vowel coarticulation appears to be related to the amount of articulatory constraint on the tongue activity during the production of fricativeee consonant. Thus the large amount of F2 transition may reflect the antagnoistic demand on the articulatory movements during the production of fricative-to-vowel sequence as in emphatic or pharyneal fricatives andfront high vowels combinations, whereas therelatively small amount of F2 transition may reflect the complementary devand on the articulatory movements as in the sequence of alveolar or palatal fricatives and front high vowels. The insignificant F2 transition variation in the sequence of labio-dental or glottal fricative and vowel may be interpreted to mean neutral demand on the articulatory movements.

## Introuction

Studies on the acoustic characteristics of vowels across languages have revealed that the abstract vowel phonemes have arange of phonetic variants across segmental and prosodic contexts. Vowel formant variation has been of particular interest. Vowel quality is usually described by its acoustic information of the first two formant frequencies.

House and Fairbanks {1953} studied te influence of consonant environment upon the secondary acoustical characteristics of vowels in American English. They found that the fundamental frequency of vowels varied significantly in respose to changing consonant environment.

Stevens and House {1963 investigated the formant frequency of 8 vowels and 14 consonants that can appear both initially and finally in American English cvc syllables. They found that consonantal context causes systematic shifts in the vowel formant frequencies depending upon the place of articulation of the consonant, its manner of articulation, and its voicing characteristics. The shifts in F1 value of vowels toward a neutral configuration correspond to an increase in F1 for close vowels and decrease for open vowels. Frot vowels in the environment of labial and postdental consonants show downward shift in the values of F2, no shift for velar consonant environment. Back vowels show upward sift in the value of F2 in the postdental consonant environments.

Lindblom {1963} examined the extent to which formant frequencies in the Swedish vowels reach their target values as a function of vowelseqgent duration. He found that vowels did not reach the target values but they wee modified and reduce in consonantal context.

Öhman {1966} reported that the formant frequencies of the initial vowel in vcv Swedish and English utterances are influenced not only by te medial consonant but also by the nonadjacent vowel.

Broad and Fertig {1970} measured the frequencies of the first three vowel formants in cvc syllable nuclei in American English. They found that the influence of both initial and final consonants are highly significant throughout the vowel.

In their study of vowel reduction Ohde and Sharf {1975} established vowel targets for American English vowels on the basis of spectrographic measurements of F2 from the isolated vowels and compared them with the vowels in context. They found vowel reduction for combined hvcv and cvhv utterances was somewhat greater than for symmetrical cvcv utterances.

Recasens {1987} studied the coarticulatory effects in F2 frequency for Catalan and Spanich vcv sequences, and found that the anticipatoy coarticulation effects appear to be primarily associated with the degree of tongue dorsum constraint upon initial vowel, the extent of carryover coarticulatory effects is dependent on the requirements on the tongue dorsum activty for the entire cv gesture.

One of the purposes of the present investigation is to find out whether the spectral characteristics of the steady state portions of vowels in the Gulf Arabic Dialect spo-

ken in the United Arab Emirates {henceforth GAD} in monosyllabic words vary systematically as a function of the neighbouring fricative consonants. There are phonological and phonetic differences between Arabic and Indo-European languages in particular, and between languages in general. However, that might lead one to postulate cross-language differences with respect to the effects of consonsnt context on the target formant frequency of vowels. Schouten and Pols {1979} reported that the steady state portion of Dutch vowels was found not to vary systematically with consonantal context, but the cv and, to a lesser extent, the vc transitions turned out to combine into pattern that was quite consistent over speaders and conditions.

A second purpose of the present investigation is to measure and describe, in acoustical terms, any regularities in the transitions from fricatives to vowels in the tested utterances. Transitions are usually seen as rapid shifts in the frequency position of the vowel formants where vowel and consonant join and are typically most marked for the F2 {Cooper et al, 1952}.

Studies of natural and synthesized speech have shown that the transitions between the consonant and the steady state portion of the vowel provided important cues for the perception of vowels and consonants. Heinz and Stevens {1961} exposed thier listeners to isolated friction {constant duration of 200 ms}, isolated friction plus the steady state portion of {a}, and friction plus transition plus vowel. On the basis of fricative cues alone, listeners reliably sorted their response into three groups: {s} for low frequency poles, {s} for mid frequency poles, and {f-o±} for high-frequency poles. Adding the synthetic vowel to these friction portions still resulted in {f-o} confusion. They indicated that F2 transition seemed to be a necessary cue for distinushing between these two consonants.

Sharf and Hemeyer {1972} used cv - and vc- stimuli from which the consonant portion had been deleted. They found that vowel formant transitions provided sufficient perceptual cues for fricative consonant identification.

Kuehn and Moll {1972} progressively deleted portions of the consonants and transitions in syllables consisting of fricatives or nasals followed by a vowel on either side of the cv transitions. They found that listenes were able to identify most consonants and all vowels above chance level even though the steady state portions had been deleted.

Ostreicher and Sharf {1976} presented portions of cv, vc, cvc and vcv utterances

to American subjects to identify the deleted preceding or following sounds. Subjects were able to determine the tongue height and tongue advancement features of vowels from consonants.

Jenkins et al {1983} and Strange et al {1983} reported that the steady state portion of the vowel is not necessary for good vowel identification. They excised the relatively steady state portion from natural vowels spoken in cvc syllables, and obtained high degrees of accuracy when only the initial and final transitions and relative timing of these portions were left intact. Identification accuracy for these "vowelless" syllables was equal to or greater than that for the steady state portions extracted from the syllables.

## MATERIAL AND PROCEDURE

The linguistic material consisted of 65 cv:c syllables. Arabic possesses a phonotactic constraint which limits the monosyllabic words to cv:c or cvcc structures {Swadesh', 1973; Flege', 1981}. In order to separate the influence on the syllable nucleus that are attributable to the initial consonant from those attributable to the final consonant only various initial consonants are examined in the context of the similar final consonants. In fact, MacNeilage and DeClerk {1969} reported that the cv unit is a more cohesive than the vc unit on the basis of greater coarticulation effects of the initial consonant on the medial vowel, than of the final consonant on the medial vowel. Their results support Kozhevnikov and Chistovich {1965} who suggested that the cv syllable is the basic unit of articulation. Similarly Recasens {1985} has shown that the magnitude of carryover coarticulatory effects is greater than anticipatory effects in Catalan.

In each cv:c syllable the initial consonant represents one of the following GAD fricative consonants: {f, e, o, o, s, s, z, s, x, h, , h}, the vowel one of the following long vowels: {i:, e:, a:, o:, u:}, and the final consonant represents either voiceless or voiced alveolar stop consonants. Our selection was based on the wish to make the test material as representative as possible of all GAD fricative-to-vowel sequences. However, by using real words it was not possible to have a uniform set of fricatives with each long vowel cluster, especially with the vowels {e:, o:}, therefore 29 cv:c nonsense syllables were used to fill the gap, but all these nonsenes syllables conform to the phonology of Arabic.

Five native speakers of GAD took part in this experiment. Each speaker was asked to read the word from individual cards presented by the experimenter. Cards were arranged in random order, all tokens were printed on the cards using normal Arabic orthography. Subjects were told to produce each token five times at a speaking rate they considered to be representative of their normal conversational speech. The speech material was recorded in a sound-treated room on a professional-quality portable cassette tape recorder {Sony model TCD5M} using an electrect condensor microphone positioned about six inches from the talker's mouth. The recordings were processed at the University of Texas Speech Laboratory, they were digitized at a sampling rate of 10 KHz, after preemphasis and low-pass filtering. The frequencies of vowel formants were estimated using linear predictive coding {LPC} analysis on a VAX computer.

The segmentation criteria for the vowels and fricative consonants boundaries are similar to those employed by Peterson and Lehiste {1960}, and Al-Ani {1970}. The vowel portion of each cv:c syllable was divided into two segments: {1} the transition from the initial fricative consonant to the steady state part of the vowel, {2} the steady state part of the vowel.

## RESULTS AND DISCUSSION

Tables {1},{2} and {3) show the carryover coarticulatory effects of initial fricative consonants on the steady state and formant transitions of the following long vowels in GAD. It is assumed that the average means of the vowel formant frequencies in various fricative contexts will capture at best the one-to-one mapping relationship between the underlying phonemic representations and their corresponding articulatory gestures. Therefore, it is hoped that, the comparison of average means with the mean of individual fricative will provide us better insight to the magnitude of consonantal effects on the target fromant frequencies of vowels. The average means of the vowels steady state F1 and F2 frequencies as a function of various fricatives context is as follows: for the vowel {i:} the average mean of F1 is 330Hz {SD 35}, F2 2562Hz {SD 112}; for the vowel {e:} the averae mean of F1 is 472Hz {SD 35} F2 is 2322Hz {SD 154}; for the vowel {a:} the avergae mean of F1 is 729Hz {SD 31}, F2 1512Hz {SD 150}; for the vowel {o:} the average mean of F1 is 453Hz {SD 36}, 2F 898Hz {SD 84}; and for the vowel {u:} the average F1 is 368Hz {SD 24}, F2 755Hz {SD 50}.

**Table (1). Means and standard deviations (in Hz) of the low vowel [a:] F1and F2 frequencies in various initial fricatives context.**

| Token | F1 frequency | | | | F2 frequency | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | onglide | | steady state | | onglide | | steady state | |
| | m | SD | m | SD | m | SD | m | SD |
| fa:t | 712 | 16 | 773 | 12 | 1364 | 20 | 1470 | 37 |
| θa:t* | 742 | 12 | 781 | 14 | 1545 | 18 | 1576 | 46 |
| ða:t | 710 | 21 | 758 | 17 | 1636 | 42 | 1682 | 23 |
| ð̣a:t | 646 | 9 | 682 | 15 | 985 | 39 | 1183 | 52 |
| sa:d | 636 | 25 | 712 | 10 | 1727 | 21 | 1667 | 24 |
| ṣa:d | 667 | 18 | 685 | 19 | 939 | 37 | 1258 | 20 |
| za:d | 683 | 11 | 716 | 13 | 1736 | 47 | 1636 | 54 |
| ša:t | 685 | 20 | 715 | 24 | 1652 | 42 | 1480 | 46 |
| xa:t* | 768 | 7 | 727 | 11 | 1324 | 56 | 1515 | 36 |
| ɣa:t | 786 | 15 | 740 | 14 | 1318 | 29 | 1500 | 19 |
| ḥa:d | 758 | 26 | 712 | 17 | 1384 | 38 | 1545 | 45 |
| ʕa:d | 788 | 31 | 758 | 21 | 1403 | 44 | 1655 | 54 |
| ha:t | 697 | 14 | 716 | 18 | 1318 | 37 | 1485 | 48 |

* nonsense cv:c syllables.

**Table (2). Means and standard deviations (in Hz) of the front vowels [i:, e:] F1 and F2 frequencies in various initial fricatives context.**

| Token | F1 frequency | | | | F2 frequency | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | onglide | | steady state | | onglide | | steady state | |
| | m | SD | m | SD | m | SD | m | SD |
| fi:d | 318 | 31 | 321 | 26 | 2571 | 46 | 2621 | 48 |
| θi:t* | 320 | 14 | 313 | 21 | 2182 | 28 | 2592 | 37 |
| ði:t* | 305 | 18 | 301 | 16 | 2045 | 44 | 2576 | 21 |
| ð̣i:t | 394 | 12 | 318 | 17 | 909 | 36 | 2273 | 41 |
| si:t | 360 | 6 | 348 | 11 | 2212 | 27 | 2576 | 45 |
| ṣi:t | 424 | 12 | 318 | 18 | 915 | 43 | 2379 | 32 |
| zi:d | 319 | 24 | 316 | 11 | 2242 | 24 | 2591 | 39 |
| ši:d | 310 | 9 | 303 | 11 | 2424 | 44 | 2652 | 47 |
| xi:t* | 373 | 17 | 305 | 15 | 1924 | 41 | 2576 | 30 |
| ɣi:t* | 411 | 21 | 312 | 20 | 2167 | 31 | 2591 | 30 |
| ḥi:d | 492 | 13 | 386 | 10 | 1970 | 38 | 2561 | 20 |
| ʕi:d | 505 | 20 | 418 | 28 | 1955 | 43 | 2681 | 40 |
| hi:t | 341 | 17 | 326 | 24 | 2606 | 57 | 2636 | 48 |
| fe:t* | 424 | 8 | 426 | 5 | 2315 | 23 | 2424 | 37 |
| θe:t* | 450 | 12 | 424 | 10 | 1818 | 46 | 2409 | 56 |
| ðe:t* | 379 | 9 | 425 | 15 | 1924 | 43 | 2410 | 43 |
| ð̣e:t* | 576 | 13 | 485 | 10 | 955 | 21 | 2179 | 18 |
| se:d | 475 | 18 | 434 | 21 | 2061 | 13 | 2319 | 27 |
| ṣe:d | 561 | 5 | 485 | 12 | 818 | 10 | 1894 | 28 |
| ze:t | 515 | 21 | 500 | 18 | 2159 | 21 | 2394 | 23 |
| še:t* | 519 | 23 | 515 | 22 | 2091 | 48 | 2470 | 51 |
| xe:t* | 621 | 16 | 485 | 13 | 1864 | 31 | 2318 | 35 |
| ɣe:t* | 515 | 18 | 481 | 12 | 1833 | 46 | 2258 | 50 |
| ḥe:t* | 636 | 14 | 485 | 19 | 1803 | 41 | 2273 | 21 |
| ʕe:t* | 652 | 26 | 530 | 17 | 1870 | 27 | 2378 | 20 |
| he:t | 485 | 18 | 495 | 11 | 2212 | 20 | 2455 | 44 |

One the one hand, comparing the average mean of F1 steady state of the vowel {i:} with the individual fricative context mean it appears that no systematic variation has been induced on F1 {the range does not exceed 50 Hz} as a function of fricative place of articulation. The pharyngeal fricatives show consistent increase in F1 frequency within the range of 100 Hz. Similarly, the F1 steady state of the vowel {e:} shows no significant varition as a function of fricative place of articulation. Only the

**Table (3). Means and standard deviation (in Hz) of the back vowl [o:,u:] F1 and F2 frequencies in various initial fricatives context.**

| Token | F1 frequency | | | | F2 frequency | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | onglide | | steady state | | onglide | | steady state | |
| | m | SD | m | SD | m | SD | m | SD |
| fo:t* | 439 | 14 | 424 | 8 | 888 | 24 | 863 | 27 |
| θo:t* | 394 | 9 | 413 | 13 | 1121 | 48 | 898 | 25 |
| ð̌o:t* | 452 | 12 | 460 | 16 | 1197 | 32 | 879 | 29 |
| ð̣o:t* | 495 | 6 | 410 | 5 | 561 | 18 | 742 | 34 |
| so:d | 394 | 17 | 439 | 10 | 1470 | 40 | 924 | 37 |
| ṣo:t | 486 | 14 | 441 | 21 | 673 | 37 | 773 | 29 |
| żo:d | 401 | 15 | 428 | 26 | 1470 | 13 | 993 | 26 |
| šo:t | 394 | 7 | 430 | 18 | 1380 | 40 | 894 | 43 |
| xo:t* | 500 | 24 | 485 | 20 | 902 | 15 | 839 | 30 |
| ɣo:t* | 512 | 11 | 469 | 26 | 909 | 28 | 879 | 18 |
| ḥo:t* | 636 | 31 | 515 | 16 | 1091 | 27 | 876 | 46 |
| ʕo:d | 652 | 18 | 518 | 10 | 1242 | 18 | 1030 | 26 |
| ho:t* | 455 | 21 | 456 | 28 | 1061 | 26 | 982 | 35 |
| fu:t | 352 | 16 | 348 | 24 | 735 | 26 | 716 | 32 |
| θu:t* | 364 | 10 | 333 | 8 | 1424 | 42 | 788 | 26 |
| ð̌u:t* | 361 | 12 | 336 | 12 | 1470 | 18 | 803 | 31 |
| ð̣u:t* | 374 | 24 | 404 | 18 | 667 | 40 | 705 | 36 |
| su:d | 350 | 32 | 348 | 17 | 1425 | 36 | 742 | 18 |
| ṣu:t* | 364 | 19 | 368 | 14 | 682 | 31 | 692 | 45 |
| żu:d | 379 | 16 | 385 | 24 | 1712 | 18 | 864 | 27 |
| šu:t | 365 | 21 | 365 | 29 | 1409 | 31 | 727 | 40 |
| xu:t* | 376 | 31 | 380 | 37 | 768 | 48 | 712 | 28 |
| ɣu:t* | 382 | 18 | 379 | 11 | 778 | 29 | 727 | 17 |
| ḥu:d | 348 | 27 | 346 | 20 | 1121 | 20 | 796 | 42 |
| ʕu:d | 424 | 19 | 396 | 16 | 1167 | 37 | 803 | 20 |
| hu:d | 394 | 14 | 395 | 17 | 788 | 18 | 742 | 36 |

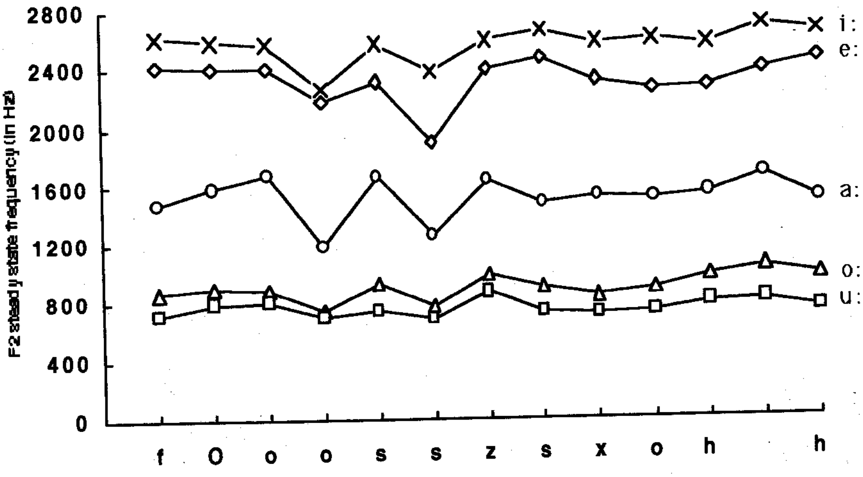
voiced pharyngeal fricative {?} shows consistent increase in F1 within the range of 75Hz. The vowels {a:, o:, u:} also show no significant variation in their F1 steady state frequency in the vicinity of fricative consonants, but once again the pharyngeal fricatives induced systematic increase in the vowel {o:} F1 frequency within the range of 70Hz.

On the other hand, fricative consonants induced systematic large coarticulatory

effects on the F2 steady state frequencies of the following vowels. Figure {1} shows the mean values of F2 steady state frequency as a function of preceding fricative place of articulation. A glance at the figure tells us that vowels are shown to differ in their amount of F2 steady state variation. The difference between the highest and the lowest mean values of F2 steady state for each vowel is as follows: {i:} 408 Hz, {e:} 576Hz, {a:} 499Hz, {o:} 288Hz, and {u:} 172Hz. However, the carryover coarticulatory effects did not produce a progressive increase or decrease in F2 steady state frequency of the vowel as the place of fricative articulation moves from anterior to posterior position in the oral cavity, nevertheless the following tendncies emerge:

{1}-F2 steady state frequencies of the vowels are lowered considerably in the vicinity of the emphatic fricatives compared to the values in nonemphatic counterpart fricatives. The amount of F2 steady state lowering induced by the emphatic dental fricative {o} increases in the progression {u:} « {o:} « {e:} « {i:} « {a:}, and by the emphatic alveolar fricative {s} increases in the progression {u:} « {o:} « {i:} « {a:} « {e:}. The present result is inagreement with the findings reported by Fant {1960} that F2 frequency is inversely related to the degree of tongue backing. The production of emphatic fricatives {o} and {s} involves a primary articulation involoving a narrow constriction between the tip of the tongue and the upper front teeth for the

**FIG. (1). Mean values of steady state frequency (in Hz) of the long vowels as a function of preceding fricative place of articulation.**



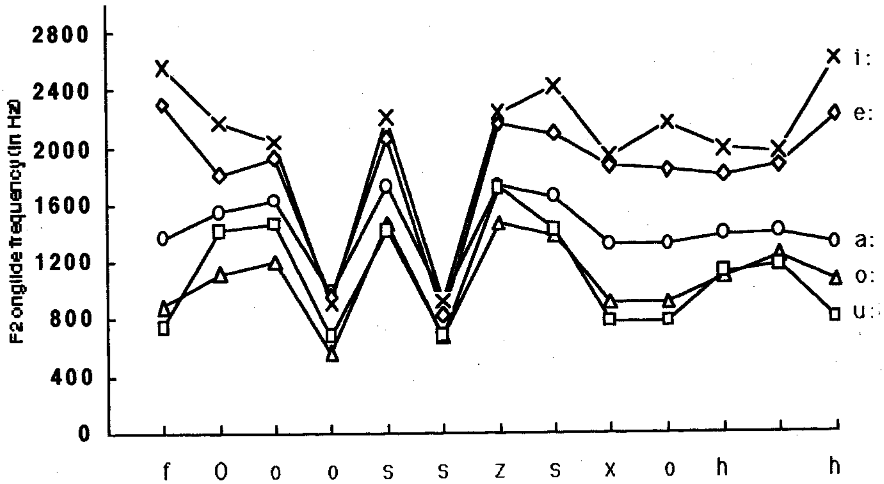
former, and the blade of the tongue and the alveolar ridge for the latter. A secondary articulation involves tongue retraction towards the pharyngeal cavity {Ali and Daniloff, 1972; Al-Gazali, 1979}. The insignificant amount of F2 steady state lowering of the vowel {u:} reflects that this vowel is interinsically back and probably resists further backing of the tongue.

{2} - The degree of lowering in the pharyngeal fricatives construction is also systematically influenced the F2 steady state frequencies of the following vowels. Pharyngeal fricatives in Arabic language are produced by retracting and lowaring the root of the tongue and making a low narrow constiriction with the back wall of the pharynx in the laryngopharyngeal cavity {Delattre, 1971; Ali and Daniloff, 1972; Al-Ghazali, 1979}. The constriction for the voixeless pharyngeal {h} is lower and narrower than for the voiced pharyngeal {?}. In the present data the lowering of {h} constriction caused the F2 steady state frequencies of the vowels to decrease as follows: {i:} 120Hz, {a:} 110Hz, {e:} 105Hz, {o:} 54Hz, and {u:} 7Hz; compared to their mean values preceding the voiced counterpart. The F2 lowering is associated with the size of the oral cavity: the wider the oral cavity, the lower the F2 frequency {Fant, 1966}. Once again the relatively small amount of the F2 steady state lowering of the vowel {u:} shows that back vowels are less sensitive to backing coarticulation effects.

As mentioned earlier a number of studies have shown that the formant transitions between the consonants and the steady state part of the vowel provide important acoustic cues for the perception of vowels and consonants. In the present study fromant transition will be examined to find out any regularities in the upward or downward shift in the values of formant transition as a function of preceding fricative pace of articulation.

The reaults showed no significant carryover coarticulatory effects on the F1 onglide transition for the vowels {i:, e:, o:} in the vicinity of fricative with anterior place of articulation {i.e. dentals, alveolars and palatals}. The amount of F1 transition variation did not exceed 50Hz, and more importantly the variation was inconsistent among tokens repetitions. Consistent with the data reported here, Delattre et al {955} found that the locus of the F1 is identical for {b, d, g}, and suggested that the F1 locus has nothing to do with consonant place of articulation. However, fricatives articulated in the posterior place of articulation {i.e. uvulars, pharyngeals} and

**FIG. (2). Mean values of F2 onglide transition frequency (in Hz) of the long vowels as a function of preceding fricative place of articulation.**




emphatic fricatives show systematic upward shift in the F1 transition of these vowels. Althought the amount of the F1 transition for the low vowel {a:} did not exceed 50Hz range but it showed consistent upward shift after fricatives with posterior place of articulation and dwnward shift after fricatives with interior place of articulation. The vowel {u:} showed hardly any movements in the F1 transition as a function of ficative place of articulation. El-Halees {1985} reported that the F1 transition plays a major role in the distinction between the uvular and pharyngeal place of articulation in Jordanian Arabic.

Figure {2} shows the mean values of the F2 onglide transition of the vowels as a function of preceding fricative place of articulation. A glance at the figure shows large amount of variations in the F2 onglide transition but the degree of varition varies amoung fricatives with different places of articulation. To get better understanding of such coarticulatory constraint let us examine in more details the behavior of the F2 onglide transition before individual fricative:

1. The labio-dental voiceless fricative {f} showed downward shift in the F2 transition of the front and low vowels. The F2 transition mean values decreased as follows {u:} 19Hz, {a:} 25Hz.

2. The dental voiceless fricative {e} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {a:} 31Hz, and {e:} 591Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition? {o:} 223Hz and {u:} 36bHz.
3. The dental voiceless fricative {o} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {a:} 46Hz, and {e:} 486Hz and {i:} 531Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition: {o:} 318Hz and {u:} 667Hz.
4. The dental voiced emphatic fricative {o} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {u:} 38Hz, and {o:} 181Hz, {a:} 198 Hz, {:e} 1224Hz and {i:} 1364Hz.
5. The alveolar voiceless fricative {s} showed downward shift in the F2 transition of the front vowels: e:} 258Hz, and {i:} 364Hz. The low and back vowels showed upward shift in the F2 transition: {a:} 60Hz, {o:} 546Hz and {u:} 683Hz.

6. The alveolar voiced freicative {s} showed downward shift in the F2 transition of all vowels: {u:} 10Hz, {o:} 100Hz, {a:} 319Hz, {e:} 1076Hz and {i:} 1464Hz.
7. The alveolar voiced fricative {z} showed downward shift in the F2 transition of the front vowels: {e:} 235Hz, and {i:} 349Hz. The low and back vowels showed upward shift in the F2 transition: {a:} 100Hz, {o:} 477Hz and {u:} 848Hz.
8. The palato-alveolar voiceless freicative {s} showed downward shift in the F2 frequency of the front vowels: {i:} 228Hz, and {e:} 379Hz. The low and back vowels showed upward shift in the F2 transition: {a:} 172Hz, {o:} 486Hz, and {u:} 682Hz.
9. The uvular voiceless fricative {x} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {a:} 191Hz {e:} 454Hz and {e:} 652Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition: {u:} 56Hz and {o:} 63Hz.
10. The uvular voiceless fricative {b} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {a:} 182Hz, {i:} 424Hz and {e:} 425Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition: {o:} 30Hz and {u:} 51Hz.
11. The pharyngeal voiceless fricative {h} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {a:} 161Hz, {e:} 470Hz and {i:} 591Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition: {o:} 115Hz and {u:} 325Hz.
12. The pharyngeal voiceless fricative {?} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {a:} 252Hz, {e:} 508Hz and {i:} 726Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition: {o:} 212Hz and {u:} 364Hz.

13. The glottal voiceless fricative {h} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {i:} 30Hz, {a:} 167Hz and {e:} 243Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition: {u:} 46Hz and {o:} 79Hz.

A few tendencies emerge from the carryover coarticulatory effects of the fricative consonants on the F2 onglide transition:

1- All fricatives influenced the front vowels by lowering their F2 onglide frequencies compared to their steady state values in similar context. The F2 lowering for the vowel {i:} decreased in the progression <h <f <s <z <s <e <y <o <h <x <? o s, and for the vowel {e:} the F2 lowering decreased in t he progression <f <z <h <s <s <y <x <h <d <? <e <s <o. The back vowels showed raising F2 onglide transition before all fricatives except emphatic fricative which showed F2 lowering effects. The F2 onglide raising of the vowel {o:} increased in the progression <f <y <x <h <h <? <e <o <z <s <s, and for the vowel {u:} the F2 raising increased in the progression <f <h <y <x <h <? <e <o <s <s < z. The low vowel {a:} showed lowering F2 onglide transition berore all fricatives except alveolar and palato-alveolar fricatives which showed F2 raising effects. The lowering of F2 onglide decreased in the progression e< o< f< h< h< y< x< o< ?< s, and the rasing of F2 onglide increased in the progression s« z« s.
2- The decrease in the F2 onglide frequencies of the high and mid front vowels reflects some tongue lowering induced by the preceding fricatives. According to Fant {1960} F2 frequency correlates with front cavity size and therefore with the degree of tongue raising towards the palate. Wood {1982} found that an increase in the distance between the tongue and the palate at the place of primary constriction for front vowels causes significant decrease in the F2 frequency. The large amount of F2 onglide lowering for the high front vowels in the emphatic context is then understandable since the front cavity size is inhanced by the tongue lowering and retracting for the articulation of the emphatic fricatives. The relatively small amount of the F2 onglide lowering before dental, alveolar and palatal fricatives reflects less demand on the tongue movement during the articulation of these fricatives and the front vowels.
3- The increase in the F2 onglide frequncies of the back vowels reflects some tongue raising induced by the preceding fricatives. The friction constriction for dental, alveolar and palatal fricatives involves tongue fronting and raising towards

the palatal region of the oral cavity which causes some reduction in the front cavity size, thus yeilding acoustically to an increase in the F2 onglide frequency. Wood {1982} reported that advancing the dorsal constriction for {u} from the back or mid soft palate to the front soft palate or to even more anterior region causes a large F2 increase, similar results obtained by Maeda {1990} for the vowel {o}. The emphatic fricatives influenced the back vowels by lowering their F2 onglide transition which reflects that the tongue is somewhat further retracted during the production of the sequence emphatic fricatives plus back vowels. However, the vowel {u:} showed insignificant amount of F2 onglide lowering {less than 50Hz} which indicates that this vowel resists further backing. The carryover coarticulatory effects of the pharyngeal fricatives on the back vowels probably reflects some reduction in the back cavity size, and the small amount of F2 onglide raising before uvular fricatives may reflect that the tongue movement is minimum during the articulation of the sequence uvular fricatives plus back vowels.

4- The increas in the F2 onglide frequencies of the low vowel {a:} in the vicinty of the alveolar and palatal fricatives reflects some tongue raising towards the palatal region of the oral cavity during the formation of these fricative constrictions. Carney and Moll {1971} found that the x-ray data showing more tongue dorsum raising for {a} when it is adjacent to {s} in the sequence {hisa} than when it is adjacent to {v} in the sequence {hiva}. The decrease in the F2 onglide frequency reflects some tongue backing and lowering induced by the preceding emphatic uvular and pharyngeal fricatives.

5- All vowels showed small amount of carryover coarticulatory effects in the vicinity of the glottal fricative and the labio-dental fricative which reflects the nuetral demand on the tongue movement duringthe articulation of these consonants and the following vowels. The production of {h} involves tongue readiness for the articulation of the following vowel, and the production of {f} require no tongue movements.

**CONCLUSIONS**

The results of the present investigation reveal that the fricative consonants induced carryover coarticulatory effects on the following vowels in the cv:c syllables

in GAD. The second formant frequency of the vowels showed significant variation as a function of the preceding fricative place of articulation. In general it appears that the amount of c-to-v coarticulation is inversely related to the degree of fricative articulators involvement in the production of the follwing vowel. Thus, on the one hand, the large decrease in the F2 frequency of the front high vowel in the vicinity of emphatic and pharyngeal fricatives reflects the antagonistic demand on the articulatory movements during the production of such sequences; wheres. the emphatic and pharyngeal fricatives involve lowering and retracting the tongue, the front high vowel requires tongue fronting and raising towards the palatal region of the oral cvity. On other hand, the relatively small decrease in the F2 frequency of the front high vowel in the vicinity of alveolar and palatal fricatives reflects the complementary demand on the tongue movement during the proudtion of such sequences, whereas the articulation of both the consonant and the following vowel involves tongue fronting and raising towards the palatal region.

However, it should be noted that the fricative carryover coarticulatory effects on the vowels can be explained more accurately by means of electropalatography study which provides detailed information on the articulators movement and position during the production of fricative-to-vowel sequence. Apoint which can be considered for future investigation of Arabic fricative consonants. Another point which needs further study is whether native speaker of Arabic language can detect formant transitions in the vowel space as belonging to specific fricative consonants, without those fricative consonants being actually present in speech signal.

## REFERENCES


Al-Ani, S. { S. 1970}. **Arabic Phonology.** The Hague: Mouton.

Al-Gazali, S. {1977} **Back Consonants and Backing Articulation in Arabic.** Ph.D. Thesis, The University of Tesas, Austin.

Ali, L. and Daniloff, R. {1972} "A Cinefluorographic-phonological invetigation of emphatic sound assimilation in Arabic "**Proceedings of the International Congress of Phonetics Sciences. 7th.** pp. 639-648.

Broad, D. J. and Fertig, R.H. {1970} "Formant-frequency trajectories in selected cvc-syllable nuclei **Journal of the Acoustical Society of American:** 47, pp. 1572-1582.

Carney, P. J. and Moll, K.L. {1971} "A cinefluorographic investigation of fricative consonant-vowel coarticulation" **Phonetica** 23, pp. 193-202.

Cooper, F. S., Delattre, P. C., Liberman, A. M., Borst, J.M. and Gerstman, L. J. {1952}. "Some experiments on the perception of synthetic speech sounds". **Journal of the Acoustical Society of American:** 24, pp. 597-606.

Delattre, P., Liberman, A. and Cooper, F. {1955}. "Acoustic loci and Transitional Cues for Consonants". **Journal of the Acoustical Society of American:** 27, pp. 769-773.

El-Halees, Y. {1985}. "The role of F1 in the place-of-articulation distinction in Arabic". **Jurnal of Phonetics:** 14, pp.287-298.

Fant, G. {1960}. **Acoustic Theory of Speech Production.** The Hague: Mouton.

Heinz, J.M. and Stevens, K.N. {1961}. "On the properties of voiceless fricative consonants" **Journal of the Acoustical Society of American:** 33, pp. 589-596.

House, A. S. and Fairbanks, G. {1953}. "The influence of consonant environment upon the secondary acoustical characteristics of vowels" **Journal of the Acoustical Society of American:** 25, pp.105-113.

Jenkins, J. I., Strange, W. and Edman, T. R. {1983} "Identification of vowels in vowel-less syllable". **Perception and Psychophsics:** 34, pp. 441-450

Kuehn, D. P. and Moll, K. L. {1972} "Perceptual effects of forward coarticulation" **Journal of the Acoustical Society of American:** 15, pp. 654.

Lindblom, B. E. F. {1963}. "Spectrographi study of vowel reductrion" **Journal of the Acoustical Society of American:** 35, pp. 1773-1781

MacNeilage, P. and DeClerk, J.L {1969}. "On the motor control of coarticulation in cvc monosyllables" **Journal of the Acoustical Society of American:** 45, pp. 1217-1233.

Maeda, S. {1990}, "Compensatory articulation during speech: Evidence from the analysis and synthesis of vocal-tract shapoes using an articulatory mode." **In speech production and speech modeling** {W. J. Hardcastle and A. Marchal, editors}. pp. 131-150. Pordrech: Kluwer Academic Publishers.

Ohde, R. N. and Sharf, D.J. {1975} "Coarticulatory effects of voiced stops on the reduction of acoustic vowel tragets". **Journal of the Acoustical Society of American:** 58, pp. 923-927.

Ostreicher, H. J. and Sharf, D. J. {1976}. "Effects of coarticulation on the identification of deleted consonant and vowel sounds". **Journal of Phonetics:** 4, pp. 285-301.

Peterson, G. E. and Lehiste, I. {1960}. "Duration of syllable nuclei in English" **Journal of the Acoustical Society of American:** 32, pp. 693-703.

Recasens, D. {1985}. "Coarticulatory patterns and degrees of coarticulatory resistance in Catalan cv sequences "**Language and Speech:** 28, pp. 97-114.

-------- {1987}, "An acoustic analysis of v-to-c and v-to-v coarticulatory effects in Catalan and Spanish vcv sequences" **Journal of Phonetics:** 15, pp. 299-312.

Sharf, D. J. and Hemeyer, T. {1972}. "Identification of place of consonant articulation from vowel formant transitions". **Journal of the Acoustical Society of American:** 51, pp. 652-658.

Stevens, K. N. and House, A. S. {1963}. "Perturbations of vowel articulations by consonantal context: An acoustical study" **Journal of Speech and Hearing Research:** 6, pp. 111-128.

Steens, K. N. and Klatt, D. {1969}. "Pharyngeal Consonants". **Research Laboratory of Electronics. M.I.T. Quarterly Progress Report:** No 93, pp.208-216.

Strange, W., Jenkins, J.I. and Johnson, T. L. {1983} "Dynamic specification of coarticulated vowels" **Journal of the Acoustical Society of American:** 74, pp. 695-705.

Wood, S. {1982}. "Radiographic and model studies of the palatal vowels". **In x-ray model studies of vowel articulation.** Vol. 23, pp. 119-115. Working Papers, University of Lund.

ASPECTS OF COMMITMENT IN GRAHAM GREENE'S
**THE QUIET AMERICAN**

BY
ANTHONY H. NEWBURY

Following the Second World War and its attendant unparalleled barbarity, it has become a virtual impossibility for the writer to remain uncommitted. Even a Catholic writer as reputedly aloof from the events and preoccupations of the world as Greene's namesake and fellow convert from Protestantism, Julien Green, could state in the sixties that such a stance was no longer possible, that the attractive ivory tower of former times must have disappeared during an air raid. [1]

Graham Greene's own personal commitment had already made itself apparent in a number of novels written before the Second World War. If the most notable example of his commitment to the Roman Church in this period is to be found in **The Power and the Glory** [2], published in 1940, and in his documentary account of his 1938 Mexican journey, **The Lawless Roads** (1939), in which a faith however downtrodden and oppressed is seen to offer a degree of solace and hope to a beleaguered population, his social and political involvement-never narrowly tied to the doctrines of any one party - is clearly revealed in **It's A Battlefield** (1934). The latter work was widely regarded as revolutionary by reviewers at the time [3]. Although Samuel Hynes is right to assert that a revolutionary interpretation is not evident or clear [4], as Roger Sharrock states, quoting the character Caroline Bury's left-wing sentiments: "Greene was certainly some sort of socialist when he wrote this" [5]. For Sharrock, however, Greene's first concern here is with alienation, "with the alienation of individuals and not directly with attempts to change society" [6].

Referring to this period in his writing in conversation with Marie-Françoise Allain, Graham Greene corroborates what he views as coherence and consistency in his Left wing position opted for as a young man, emerging in the works of the 30s and being kept up in the works of the 80s:

> I have always inclined to the Left, ever since my first books, and my sympathies have consolidated with age. There's a certain continuity between **It's A Battlefield, Brighton Rock** and **The Honorary Consul:** it's my concern with the possibility of social change. [7]

This "concern with the possibility of social change" does not necessarily imply aiming at actually changing society, as Greene specifies in the same series of conversations with Marie-Françoise Allain. The author claims that he expresses "a sense of injustice", his aim being "not to change things but to give them expression" [8]. At the same time, he allows that "writing is certainly a kind of action" [9].

In the post-war years, this "action" reaches out particularly in spiritual and political directions. The fifties themselves encompass works that searchingly probe both political and spiritual conflicts and dilemmas. If the novel which appeared at the beginning of the decade **(The End of the Affair,** 1951) is explicitly religious - and more specifically Roman Catholic - in much of its content, the novel from the middle of this period **(The Quiet American** 1955), which we are going to discuss in some detail, although overtly concerned with political and ideological issues, does in fact transcend the merely secular. [10]

The years of publication of **The End of the Affair** and of **The Quiet American** were also years in which Greene produced essays of interest dealing with similar themes. In 1951 the spiritual preoccupation comes to the fore in "Simone Weil" and more especially in "The Paradox of A Pope", [11] where the author's intense admiration for Eugenio Pacelli is manifest. To the superficial reader of Graham Greene, such admiration from a progressive novelist for an apparently arch-conservative Pontiff may initially startle, seeming much more apt coming from the pen of an Evelyn Waugh or a Julien Green. Yet it is surely the mark of a writer who is truly free and impartial, unfettered by doctrinaire allegiance to party or faction. The man who perceives Pius XII as "the servant of the servants of God, and not impossibly one feels, a saint" [12] is equally able to write in the year of publication of **The Quiet American,** a glowing tribute to Ho Chi Minh and his achievements. Thanks to Ho Chi Minh and his comrades, "the anonymous peasant has never been treated so like an individual before. Unless a priest, no one before the Commissar has approached him, has troubled to ask him questions, or spent time in teaching him. There is something in

Communism besides the politics" [13]. The sentiments expressed in the first two sentences of this quotation are to be found in **The Quiet American,** in Fowler's words to Pyle as they pursue their ideological debate in the Vietnamese watch tower, [14] while the final sentence is re-echoed in **The Comedians,** in a line from Dr. Magiot's letter to the narrator Brown: "But Communism, my friend, is more than Marxism..." [15].

The continuity and the consistency of thought are clear, a number of Greene's progressive ideas and sentiments aired in passages of the **Collected Essays** being expressed and espoused by protagonists in his fiction, as here by Fowler and Magiot. The actual probing of political **and** spiritual conflict will reach a climax in the seventies, in **The Honorary Consul,** a favourite novel of Greene's because it combines his religious interest with his political interest [16].

As it stands, Graham Greene's "committed" novel of the fifties, **The Quiet American,** would appear on the surface to be essentially secular. Ideological and political questions are of course to the fore in this work; it is a story set in, and about, a war with all its attendant horrors, in particular pain and death, death which dominates the novel, as J.P. Kulshrestha has underlined, aptly reminding readers that Conor Cruise O'Brien has called death "the fourth character in the story" [17]. This concern with suffering and death is a means of lifting the novel out of the realm of the merely secular and placing it in a broader framework with at least implications of the transcendental. Fowler's remorse over Pyle's death at the end of the novel, his wish that "there existed someone to whom I could say that I was sorry" [18] could quite conceivably be interpreted as a yearning for God, or as Roger Sharrock puts it, "the narrator **might** be interpreted as approaching the threshold of belief merely through need" [19].

Before dealing with such metaphysical considerations, however, there is the specific concern with the here and now, with the reality of the day-to-day horror of war. Greene's first person narrator, Thomas Fowler [20], believes himself to be an impersonal reporter of atrocity, able to stand indefinitely on the sidelines as an impartial observer. "I'm not involved" is his watchword:

> It had been an article of my creed. The human condition being what it was, let them fight, let them love, let them murder, I would not be involved. (Q.A.,27).

We are able to observe Fowler "in the field" comparatively early in the novel as he goes about the grisly business of amassing material concerning the state of the war in the north. Joining a French patrol on reconnaissance, he is rapidly able to perceive some of the concrete effects of hostilities in this battle zone. A canal they come upon is "full of bodies: I am reminded now of an Irish stew containing too much meat. The bodies overlapped: one head, seal-grey, and anonymous as a convict with a shaven scalp, stuck up out of the water like a buoy. There was no blood..." (Q.A., 50-51). The horror of war is directly conveyed to the reader by the use of vivid, graphic, highly unpleasant images that elicit revulsion. In this spectacle of mass carnage, the bodies are bloodless, just objects to be negotiated as Fowler and some of the soldiers make their way across the canal in a punt: "... but we ran on a shoal of bodies and stuck. He (a soldier) pushed away with his pole, sinking it into this human clay, and one body was released and floated up all its length beside the boat like a bather lying in the sun". (Q.A., 51). The 'clay' may be termed 'human', but it is treated in the most callous, inhuman way, the narrator here adding to the horror of the situation by the use of a simile which is particularly striking and macabre in its audacity.

What rapidly becomes apparent in lines such as the above is the dehumanizing effect of war, of carnage taken for granted. [21]. For combatants the sight of violent death is merely part of the routine. Close to the canal with its overlapping bodies, the soldiers go about what is for them ordinary business:

> There was an odd comradeliness about all their movements, as though they were equals engaged on a task they had performed together times out of mind. (Q.A., 51).

It should be noted that Fowler, for his part, is momentarily part of this unit: albeit an observer, unlike most of his fellow journalists he is knowingly in the firing line and exposed to the same risks as the army regulars about him.

In this sense Fowler is involved, and despite his own disparaging comments on the fear he experiences (e.g. pp. 51, 90, 106) he displays considerable courage in difficult and dangerous situations. Indeed, Fowler regards it as a war correspondent's duty to be involved in the fighting at first hand, for "if one writes about war, self-respect demands that occasionally one share the risks" (p. 146). It is this

authentic involvement with the war situation that differentiates him from Bill Granger, the brash American journalist, who flies north to the battle zone with his cronies at approved times when it is safe to do so (e.g. pp. 32, 34), though to be fair to Granger he has no illusions about the authenticity of his reporting or his commitment to truth.

If Granger's reporting is shown to be counterfeit, so too is his relationship with the Vietnamese, largely confined to "knocking the girls" in the local brothels (p. 35). The contrast with Fowler is again revealing, the Englishman being committed to his Vietnamese mistress, Phuong, in spite of his cynicism in general and concerning love in particular. For Fowler, Phuong is certainly important as a sexual being, but she is far more than this: "she was the hiss of steam, the clink of a cup, she was a certain hour of the night and the promise of rest (p. 10). She is the great comforter, the bringer of solace to Fowler, and the woman he will seek to marry, as soon as he is able to secure a divorce from his first High Anglican wife.

Fowler's ideological adversary and his rival for Phuong's affections, the young American, Alden Pyle, is presented at the outset of the novel as possessing a naive and unbreakable commitment to his country and its American values:

> Pyle was very earnest and I had suffered from his lectures on the Far East, which he had known for as many months as I had years. Democracy was another subject of his, and he had pronounced and aggravating views on what the United States was doing for the world (p. 10)

In Greene's anti-American first-person narrator, for whom Pyle sums up most of the United States's defects, many readers have assumed they have a mirror image of the author himself. Graham Greene has not been particularly helpful in this respect with his somewhat cryptic "I'm not entirely Fowler" in conversation with Marie-Françoise Allain [22], though Philip Stratford is surely correct when he writes that "it is fair to expect the total novel to carry Greene's viewpoint, but fatal to equate Fowler and Greene, the narrator and the author" [23]. And to this caveat the critic rightly adds that "Fowler's inert non-commitment is no more compatible to him (Greene) than Pyle's high-principled meddling" [24].

However, whereas Pyle's "high-principled meddling" is an unchanging feature of

his activity right up to his violent death, the "inert non-commitment" of Fowler is far from being a static characteristic. Indeed, the narrator's outlook on involvement will undergo quite considerable modification in the course of the novel. The watch-tower scene - to which we alluded a little earlier - and its aftermath is significant in this respect, in that it first presents the reader with a seemingly totally uncommitted Fowler during the discussion with Pyle rapidly revealing himself to be a man of compassion personally involved in, and concerned about, what is happening. The cynical, hard-headed journalist for whom politics are supposedly without interest- "... I'm a reporter. I'm not **engagé**" (p. 95) - gives himself up following the Vietminh destruction of the watch-tower to feelings of guilt and responsibility for the Vietnamese victims, the two watch-tower guards, one of whom has not been killed outright by the enemy fire (p. 112). And the injured Fowler's wish is vainly to join the young Vietnamese soldier, "to share his pain". Suffering brings about a solidarity amongst men, brotherhood is created in pain. In the feelings of responsibility he experiences for the soldier, Fowler admits to a degree of involvement and concern that his subsequent attempt to play down is unable to diminish. "I know the depth of my selfishness. I cannot be at ease... if someone else is in pain" writes the narrator. "Sometimes this is mistaken by the innocent for unselfishness, when all I am doing is sacrificing a small good-in this case postponement in attending to my hurt - for the sake of a far greater good, a peace of mind when I need think only of myself." (p. 113). In such a passage, Fowler's endeavour to undervalue his eminently humane response to suffering serves only to emphasize this very response and its positive nature. If Fowler is right in his disparaging analysis of his feelings and reactions in such a case, then in a wider sense the logical inference could well be that many humanitarian actions in the face of pain are in fact prompted by selfishness on account of an inability to be at ease knowing that somebody else is suffering. If an element of egoïsm does enter into Fowler's, and other men's reactions, in such circumstances, at the same time surely more altruistic motivations are involved. Do Fowler's priest and commissar act out of selfishness in trying to reduce the tribulations of Vietnamese peasants so that they (priest and commissar) can attain a peace of mind in which only thoughts of self need engage their attention? The doubting Fowler would be the last to accept this, his admiration for both Catholic priest (p. 94) and Communist commissar (pp. 95-96) being conveyed as genuine and unequivocal. Fowler's censure is reserved for himself and for the American characters in the

novel, the French colonialists themselves often receiving quite fulsome praise. [25]

It is in this watch-tower sequence, then, that Fowler's own ivory tower of detachment is seen to crumble. Whether intentional or not there is considerable irony in Greene's use of the tower image: here the tower, far from providing "ways of escape" or protection from a harsh and unrelenting reality, is a symbol of the precarious nature, of the constant vulnerability, of the post World War II nuclear age poised on the brink of destruction. Fowler attempts to blot out the hideous reality - in this specific case the Vietnamese war machine in the midst of which the journalist finds himself enmeshed and sandwiched - by thinking back to a world of hope and blue skies before Hitler and the holocaust (p. 99).

This bout of nostalgia is, however, short-lived; the real world of suffering of Fowler's maturity is omnipresent, oppressive. The pain of war naturally, but also the pain of personal and private conflict which clearly emerges in the long conversation with Alden Pyle. (see, for example, p. 103). If Fowler has broken his commitment to his High Anglican wife, he has replaced it - as we have seen above-in his relationship with Phuong, and all his attempts to denigrate or deny any elevated sentiments on his part in this relationship - "I only want her body" (p. 58) - cannot disguise this involvement which goes far beyond what he will admit to Pyle. Were the Annamite just "a body", it is hardly conceivable that Fowler's jealousy over Pyle's involvement with Phuong should reach such a pitch, that he should break down into tears in the American Legation after her departure from his room in the rue Catinat (p. 146).

Thomas Fowler's commitment to the Vietnamese and to Vietnam is certainly deeper than he imagines. He is shown by Greene to be far closer to the Vietnamese reality than the great majority of other foreigners in the country. He knows the discomfort and hardship at first-hand, not just on account of his various sallies into the battle zones, but also through his own life-style and union with Phuong lived out in the bareness of his 'flat', just a room with no refrigerator (p. 165) and the 'urinoir' outside on the landing (p. 114).

The stages in Fowler's coming to a position of active personal involvement in the Vietnamese struggle have been traced by Philip Stratford. Apart from the crucial watch-tower scene which we have just commented upon, Stratford refers to other incidents of pain and suffering in this war which have awakened Fowler's compassion and sympathy, such as the sight of the dead Vietnamese woman and her small

boy (p. 52) and the French bomber's strafing of the sampan (p. 148) [26].

Examination of the sampan episode sheds a certain amount of light on the heart of our subject. Fowler has gone north following Phuong's desertion, and thanks to his connections in the Squadron Gascogne he is invited to join a French pilot on a vertical bombing raid over territory that has recently passed into Vietminh hands (p. 146). Initially, Fowler's taking part in a potentially hazardous mission can be viewed as a wish to blot out the misfortune that has befallen his private life, a will to remove thoughts of his rival, Pyle, from his mind. Indeed, as the plane descends to release its bombs, physical sensation has taken over Fowler's organism and being, to the extent that "for forty seconds Pyle had not existed: even loneliness hadn't existed" (p. 148). To the physical discomfort of the raid, there is added the realization of danger, that a single machine-gun on the ground could readily bring about the plane's destruction. Despite this, however, and the seemingly interminable length of the mission, "it had been free from the discomfort of personal thought" (p. 148).

At this point, Fowler expresses no criticism of the raid itself, as an act of war; he has referred to the possible danger to which Trouin, the pilot, and he himself were exposed, and would doubtless go along with the Frenchman's reasoning on that part of the operation: "Over the village they could have shot us down. Our risk was as great as theirs" (p. 149). It is the incident which follows this bombing raid that dismays Greene's protagonist, that is the strafing of the sampan. When Trouin opens fire on the small defenceless river boat, the thoughts of the supposedly impassive and hardened war correspondent are filled with indignation and revulsion:

> I thought again as I had thought when I saw the dead child at Phat Diem, 'I hate war.' There had been something so shocking in our sudden fortuitous choice of a prey. (p. 148).

This is an example of the gratuitous act of war that amounts to crime, to which Fowler can only respond with the humanitarian's sense of outrage and revolt.

During their session at the local opium-house following the mission, the seemingly innocuous and casual question Fowler puts to Captain Trouin - "That sampan - this evening- was it doing any harm?" (p. 149) - obviously betrays an uneasy conscience. And here the outlooks and attitudes of the two men are clearly differentiated:

for the professional man of war the conscience is untroubled, the strafing was justified: "In those reaches of the river we have orders to shoot up anything in sight". (p. 149) Yet, at the same time, Trouin does protest at certain aspects of the war he is waging, confessing to his hatred at having to drop napalm bombs, releasing innumerable flames of death and destruction from the safety of 3000 feet: "You see the forest catching fire... The poor devils are burnt alive; the flames go over them like water. They are wet through with fire" (p. 149). The simple, graphic terms of Trouin's description underscore the horror of the situation, as the pilot proceeds to outline the nature of his own commitment, which is not, he considers, to the pursuit of a colonial war but to the defence of European civilization (pp. 149,150). Yet as Molly Mahood puts it, "the simple, traditional French patriotism of the bomber pilot Trouin is betrayed when he is dispatched on napalm raids" [27]. This betrayal marks an irreversible change in the nature of colonialism in Vietnam, the napalm bombing being symptomatic of the pervasive corruption that has crept into the whole undertaking. Trouin has explicitly stated that he is not fighting a colonial war, making clear to Fowler what he feels about the **colons:** "Do you think I'd do these things for the planters of Terre Rouge? I'd rather be court-martialled". (p. 149) A distinction is made between the egotism and grasping nature of many of the settlers and the disinterestedness and integrity of men like Trouin who continue to fight for their noble if out-of-date ideal. The latter are men for whom Graham Greene has a manifest sympathy, men whose ideal is to be treated with respect. Drawing a parallel with Joseph Conrad, Molly Mahood interestingly refers to "suggestions" in **The Quiet American** that "colonial conquest and rule had once had a cultural dynamism akin to Marlow's 'real idea' " [28]. This particular "cultural dynamism" has now irrevocably vanished, and the mantle has been taken on by the Communists.

For the French, time is strictly limited, and Trouin has no illusions about this inescapable fact. Any idea of a French victory is out of the question (p. 151). If the armed forces' mission is a futile one, however, it remains a mission that demands the highest notions of duty and self-sacrifice, and we are close here to De Gaulle's concept of the army as the purest part of the nation [29].

Albeit weakened when he is compelled to drop napalm, Trouin's sense of purpose and involvement is basically intact, and he is unimpressed by Fowler's own protestations of non-involvement. For the Frenchman, Fowler will inevitably be forced into

a position of commitment. "One day something will happen. You will take a side... We all get involved in a moment of emotion and then we cannot get out' ". (p.150) Indeed, Fowler's own "moment of emotion" which will jolt him willy-nilly into taking decisive action against Pyle and what he stands for is close at hand, though ironically it follows a scene of reconciliation between the two men in which Fowler appears to come to terms with his loss of Phuong.

Lucidly, the Englishman analyzes his reactions to Pyle, for once able to perceive the positive aspects of his personality: "All the time that his innocence had angered me, some judge within myself had summed up in his favour, had compared his idealism, his half-baked ideas founded on the works of York Harding, with my cynicism". (p. 155) This indulgence is far removed from the earlier attitude of the jealous rival; there is present too an element of the protective, as Fowler puts Pyle on his guard concerning his involvement with the Third Force inspired by his reading of the aforementioned theoretician, York Harding (p. 156) [30].

The warning is, however, quite ineffectual; the American has already thrown in his hand with the war-lord Thé, and limited as his experience is he is nonetheless convinced of the validity of his actions and of his government's policies. Earlier, Fowler's Indian assistant, Dominguez, ever a fund of accurate information, had informed Fowler of the briefing Pyle had given to a group of visiting Congressmen:

> 'He was talking about the old colonial powers - England and France, and how you two couldn't expect to win the confidence of the Asiatics. That was where America came in now **with clean hands** ... There was always a Third Force to be found free from Communism and **the taint of colonialism** - national democracy he called it; you only had to find a leader and keep him safe from the old colonial powers.' (p. 123 Our emphasis)

Particularly striking here is the naive trust and faith in the purity of American intentions, in the integrity of the young superpower, which is seen to stand in stark and simple contrast with the corruption of old colonial France, like Britain in other areas of the globe, too discredited to have any chance of taking positive action in favour of oppressed and vulnerable peoples.

If there is truth in Pyle's reading of the situation as far as the old colonial powers are concerned, his simplistic conviction of the United States's ability to conjure up an untainted 'Third Force' inspired by American liberal ideas and capable of regenerating Indo-China is manifestly wide of the mark. Pyle's theoretical, text book solution ignores the Vietnamese reality; in Roger Sharrock's words, "he can never come to terms with the real world which is not black and white but grey" [31]. It is this inability to perceive or take note of intermediate shades and nuances which will make Pyle an accomplice in the killing and maiming of a number of innocent Vietnamese civilians. Pyle's commitment to his image of the United States, his white and pure America with its "clean hands", is total; this coupled with his lack of any deep personal experience of the Indochinese reality causes him to be hoodwinked into an alliance with the unscrupulous Thé who callously exploits his new and strengthened position by perpetrating a civilian massacre. (pp. 159-163). Pyle's blinkered outlook has not allowed him to see beyond his view of the Communist resistance as a negative and evil organization, utterly opposed to the Western concept of the freedom of the individual - "They (the Vietnamese)'ll " [11]be forced to believe what they are told, they won't be allowed to think for themselves" (p. 93) - a freedom for which one has to fight: "You have to fight for liberty". (p. 95)

An illustration of what happens when Pyle's theories are given practical application is provided in the scene of the civilian massacre referred to above. In Saigon's Place Garnier where the bomb has exploded, Fowler comes across the American, whose complicity in and responsibility for the explosion rapidly become apparent. The scene is crucial for revealing to the narrator precisely what Pyle's enthusiasm for liberty is capable of producing and for leading directly to Fowler's decision to become directly involved in the Vietnamese political situation.

Although Fowler is appalled by what Pyle has done-he has given General Thé and his men the means of creating the explosion - he will continue to refer to Pyle's innocence: "he'll always be innocent, you can't blame the innocent, they are always guiltless. All you can do is control them or eliminate them. Innocence is a kind of insanity". (p. 162) This insistence on the American's innocence or blamelessness certainly appears paradoxical in the light of what has occurred.

It is true that Pyle is deeply shocked by the carnage around him, incredulous at the idea of his Third Force being responsible for this horror: "Thé wouldn't have done this. I'm sure he wouldn't. Somebody deceived him. The Communists..." (p. 162). It

takes him time to come to terms with the reality of what has happened, with the concrete consequences of war; previously this specific reality has eluded him. Now his shoes are bespattered with the blood of others, with the blood of the innocent: "He was seeing a real war for the first time: he had punted down into Phat Diem in a kind of schoolboy dream, and anyway in his eyes soldiers didn't count" (p.161). Soldiers were meant to be the victims of the blast, but the military parade which was Pyle's target and which should have taken place at that time had been cancelled unknown to the American (pp. 161-162). This is hardly an excuse for Pyle, however, since evidence of his uncertainty and fear about what could occur has been furnished by his warning to Phuong to keep away from her favourite milk-bar on the square. It is Pyle who calmly informs a distraught Fowler that Phuong has not incurred any risk of hurt: "I warned her not to go'... the word 'warn' reached my consciousness. I took Pyle by the arm... 'What do you mean "warn"?' 'I told her to keep away this morning" (p. 160). The American has protected his Vietnamese beloved but, as the narrator bluntly tells his "friend", dozens of her country people are tragically beyond concern (p. 162). And the picture of horror which Pyle's involvement has brought about is evoked by Greene in a couple of simple but telling sentences: "A woman sat on the ground with what was left of her baby in her lap... The legless torso at the edge of the garden still twitched, like a chicken which has lost its head" (p. 161).

The scene is an unanswerable indictment of Pyle and what he stands for, and David Pryce-Jones is surely correct in writing that "in many ways Pyle's innocence is really ignorance. Since it acts on other people - for Pyle is no longer a child - it is unforgivable". [32]. And whatever Fowler's own reservations about Pyle's personal guilt, he has come to a clear realization that the American must at all costs be neutralized. The narrator's resolve is such that he immediately proceeds to a meeting with his Communist contact, Heng, obsessed by the image of the woman covering up the remains of her baby (p. 172). Fowler will commit himself, then, as Captain Trouin had prophesied, following a moment of intense emotional agitation, in which the basic humanitarian impulse is very much to the fore, and it is this impulse which Heng exploits in his exhortations to Fowler: "Sooner or later... one has to take sides. If one is to remain human" (p. 172). And although Fowler may be seen to hesitate at the prospect of consigning Pyle to the attentions of Heng and his fellow Communists, certainly aware of what these attentions will entail as well as being conscious of the fact that his "friend" had saved his life after the attack on the watch-

tower, in his final conversation with Pyle such is the American's lack of human feeling for the individuals struck down in the Place Garnier bomb attack that Fowler has little difficulty in giving the go-ahead to Heng's men. For Pyle, the bomb victims "'were only war casualties... It was a pity, but you can't always hit your target. Anyway they died in the right cause... In a way you could say they died for Democracy,' he said" (p. 177).

The retreat behind words, behind grand but empty concepts, serves only to increase the narrator's annoyance and impatience with Pyle: "I was suddenly very tired. I wanted him to go away quickly and die. Then I could start life again - at the point before he came in" (p. 178). If outrage and a sense of legitimate moral indignation are strongly present in Fowler's decision to help neutralize Pyle and thus take sides in the Vietnamese conflict, the personal motivation to remove the rival responsible for taking away his mistress is also strong. The desire to begin life anew is clearly expressed in the above quotation, "at the point before he (Pyle) came in", that is with Phuong sharing his life. For Roger Sharrock, the personal motivation due to sexual jealousy is every bit as important as commitment to a side in the Vietnamese conflict: "Fowler is, after all, a jealous rival who wants Phuong back quite as much as he is a man who has at last chosen to support a distinct political cause" [33]. Be that as it may, the narrator is clearly ill at ease with himself after his decision.

Ostensibly waiting for Pyle at the Vieux Moulin though knowing full well that the odds on his reaching the restaurant are less than negligible- "did I - I of all people - hope for some kind of miracle: a method of discussion arranged by Mr. Heng which wasn't simply death?" (p. 181) - so disturbed and guilty does Fowler feel that he would even be prepared to accept not just a browbeating but actual blows from the fists of the brash American journalist, Granger, a man the narrator normally deems unbearable (p. 182). Then, in the face of suffering again, a degree of solidarity and sympathy is established between the two journalists, as Granger tells Fowler of the gravity of his son's illness. Once more the narrator's cynical mask slips away and the humanitarian impulse takes over, a token of what can be interpreted as Fowler's increasing commitment to individuals and concern for their suffering. It is as though the scales are falling away from Fowler's eyes enabling him to see and understand with fresh and deepened perception: "'I don't dislike you, Granger. I've been blind

to a lot of things..'" (p. 184). The commitment to a political cause has already been recognized by Fowler- "I had become as engage as Pylé" (pp. 181-182) - but at this juncture notions of political involvement are overshadowed by more metaphysical considerations.

Early on in this article we referred to the closing lines of the novel which express the narrator's regret at what has happened coupled with his wish to have "someone" to apologize to. Whether Fowler is here seen to be "approaching the threshold of belief", whether this "someone" is in fact God, cannot obviously be conclusively proved, though a degree of aspiration to the transcendent can clearly be discerned. For the creator of **The Quiet American,** the composition of which was begun such a short space of time after the publication of his intensely Catholic **The End of the Affair,** [34] the continuing presence of Christian inspiration, if not explicit Christian content, would seem in the nature of things. If John Atkins is correct in his pronouncement that 1952 and 1953 "probably constituted the peak period of Greene's religious enthusiasm" [35] - and in support of Atkins's statement 1951 had already seen the composition of the essay "The Paradox of a Pope", while in 1953 **The Living Room** appeared together with the French version of his essay devoted to the Virgin Mary, "Notre Dame et son Assomption" - then it would seem legitimate and instructive to seek out elements in **The Quiet American** which testify to this strong Catholic commitment.

For Philip Stratford, there is no doubt regarding the importance of Christianity in this novel. "Not less than in the Catholic novels," writes Stratford "though not so explicitly stated, the central attitude in **The Quiet American** is a Christian one. It is not embodied in Pyle or Fowler but does briefly appear in two minor characters in the novel, in Captain Trouin, the French pilot, and in Vigot, the French officer at the Sûreté" [36]. In Trouin's case, although as we have seen above the pilot clearly possesses an ideal and an integrity in his aspiration to defend the values of European civilization, it is less clear whether these qualities may be termed specifically Christian except in the most nominal and traditional sense of the term, to the extent that defence of Europe can be understood as defence of Western Christian civilization, of **fides historica.**

In his presentation of Vigot, Greene deliberately encourages speculation about the influence and place of religion in the police officer's life and actions by introduc-

ing him with a volume of Pascal on his desk: "His eyes were on a page of **Les Pensées** as though he were still absorbed in those sad arguments" (p. 14). Much later in the novel Vigot will quote Pascal's Wager at Fowler (p. 136). The grave Vigot's association with Pascal, with his "property", recalls the association of other Greeneian characters with their particular properties. In **The Comedians,** for example, the less serious Ambassador Pineda is always associated with his cigars. [37]

In the case of Vigot, Greene continues to emphasize certain Christian attributes in the police-officer, having his narrator refer more than once to the man's priest-like qualities. As he questions him following Pyle's murder, Fowler cannot resist commenting to the policeman who reads and quotes Pascal: "perhaps you ought to have been a priest' ... I thought after he had turned and gone that he had looked at me with compassion" (pp. 137-138). Later, when Vigot calls on Fowler in his room to continue his questioning (pp. 165-169), the police officer obviously has a shrewd idea of what has happened, he knows that Fowler has left the sidelines and become involved. He questions and elicits responses with understanding and sympathy, prompting the narrator to make a remark which does not just echo but reinforces his earlier comment: "You would have made a good priest, Vigot. What is it about you that would make it so easy to confess .... is it because like a priest it's your job not to be shocked, but to be sympathetic?" (p. 166). The narrator's homage to Vigot, his admiration for those qualities he associates with the "good priest", is taken a step further in the course of this interview when he speaks of having, in the police officer's presence, "the feeling of some force immobile and profound. For all I knew, he might have been praying" (p. 168). It is difficult not to interpret these words as Fowler's recognition of the influence of a higher presence, and as Greene's own acknowledgement of the workings of Grace in a man.

Similar qualities to those observed in Vigot are discerned in Dominguez, the narrator's Goan assistant whom he believes to be a Roman Catholic (p. 121), and Philip Stratford has noted the humility that they have in common, [38] quoting Fowler's words emphasizing his "gentleness and humility" together with his "absolute love of truth" (p. 121). There is a stoicism, an asceticism, about Dominguez which is kept up even during sickness: ".... you had less the impression of visiting a sick man than of being received by a rajah or a priest .... His landlady kept a jug of fresh lime by his

side, but I never saw him take a drink-perhaps that would have been to admit that it was his own thirst, and his own body which suffered" (p. 122). If we can talk of the Catholicism of Vigot and Dominguez in the same breath, despite their differences, there is nonetheless strongly present in the one as in the other a moral rigorism reminiscent of Jansenism coupled with a respect for life in all its manifestations that so marks the Hindu and Buddhist religions. [39]

As M. Mahood remarks, the Goan's Catholicism "has been grafted on to the good stock of Buddhist-Hindu civilization". [40] This is significant in that it is indicative of a commitment to Catholicism on Greene's part that is no longer Europe-centred, but open to the influences of the Third World. At the same time, it is a Catholicism that will become more and more coloured by progressive political considerations, culminating fictionally in **The Honorary Consul** with the highly personal liberation theology of León Rivas, where religion does in fact merge into politics. [41] For Rivas the Gospels no longer make any sense in a country like Paraguay **(H. C.,** p. 116) where the Church's official representatives socialize with the dictators, "when the Archbishop sits down to dinner with the General" **(H. C.,** p. 220).

In such contexts, the emphasis must be on cohesive political revolt, to the extent that it is the idealistic Communist, such as Dr. Magiot in **The Comedians,** who is invested by his creator with the qualities of hope and compassion we would earlier have expected to emanate from a man of the Church. And from Indochina, through the Caribbean, into Latin America, the essential enemy and threat to the development and progress of these downtrodden peoples is perceived as coming from one source.

The anti-Americanism that marks Greene's work of the period under discussion has been commented on at some length by John Atkins, who writes concerning **The Quiet American** that "the over-riding impression one gets from this novel is Greene's intense irritation with the Americans" [42]. Atkins traces the author's anti-Americanism back to the days of his film-reviewing in the mid and late thirties, [43]. when he regularly inveighed against Hollywood and its glossy and titillating offerings. [44]

In **The Quiet American** the narrator's judgment is severe regarding every American character. Despite his modesty and shyness that stand in such contrast to the

brashness and vulgarity Greene so often associates with Americans, the main American protagonist Pyle is himself utterly beyond redemption in Fowler's eyes. After his death, the narrator ironically laments, musing on his first meeting with Pyle: "He didn't even hear what I said: he was absorbed already in the dilemmas of Democracy and the responsibilities of the West: he was determined- I learnt that very soon - to do good, not to any individual person but to a country, a continent, a world" (pp. 16-17). And Pyle will be seen as tragically incapable of escaping the clutches of the watch-words and slogans to which, albeit a young man, he has too long been a prey.

As for the American journalists in Saigon, they are nothing but a loud-mouthed rabble, epitomized as we have observed in the irrepressible Granger (p. 22 and pp. 32-33). Yet the criticism extends beyond the assault on the more important official representatives of the United States to encompass the more ordinary, such as the American girls at the Pavillon coffee centre:

> Two young American girls sat at the next table, neat and clean in the heat, scooping up ice-cream. They each had a bag slung on the left shoulder and the bags were identical, with brass eagle badges. Their legs were identical too, long and slender, and their noses, just a shade tilted .... It was impossible to conceive either of them a prey to untidy passion ... Did they take deodorants to bed with them? (pp. 158-159).

We are back in the world of **The Pleasure Dome:** the extrapolation is the same; whether it be Greene's emanating from a Grace Moore, or Fowler's from two American girls, it leads to a general indictment against a nation.

Over the years Greene made little attempt to tone down or moderate his hostile feelings towards American capitalism and imperialism. So dangerous is the United States that anti-Americanism becomes a necessary component in the author's own commitment. However simplistic it may seem, Greene tells us (in conversation with Marie-Françoise Allain): "I would go to almost any length to put my feeble twig in the spokes of American foreign policy" [45] And in the same paragraph we read Greene's

admission that the true object of his hatred is indeed American liberalism. The author considers that his animosity to the United States does not stem from his negative attitude to Hollywood, but rather originates from his first visit to the country in 1937-38, adding: "I have always felt very ill at ease in the States, except in San Francisco, a much more European city than New York. The terrifying weight of this consumer society oppresses me". [46]

It is not difficult to take Greene to task for such remarks, and the reader may well consider more oppressive "the terrifying weight" of Gulag society. [47]The fact is, however, that this strain of anti-Americanism remains a constant in the author's committed writing, although there was a switch to a more muted form of his irritation in the mid sixties with the publication of **The Comedians.**

## NOTES

Page references in the text without any accompanying title are to **The Quiet American** (Penguin edition).

1. Julien Green, **OEuvres complètes,** III, Bibl. de la Pléiade, Gallimard, Paris, 1973, p. 1522.

"L'intéressante tour d'ivoire de jadis a dû disparaître au cours d'un bombardement."

2. The Holy Office's condemnation of the book on the grounds that it was "paradoxical" and "dealt with extraordinary circumstances" **(Ways of Escape,** Penguin, Harmondsworth, 1981 (1982 reprint), P. 67) in no way diminishes its authentic spirituality.
3. See Samuel Hynes, **The Auden Generation: Literature and Politics in England in the 1930s,** Faber, London, 1976 (Faber Paperbacks 1979), p. 138.
4. **Ibid.,** p. 138.
5. Roger Sharrock, **Saints, Sinners and Comedians: The Novels of Graham Greene,** Burns and Oates, Tunbridge Wells, 1984, p. 69.
6. **Ibid.,** p. 70.
7. Marie-Françoise Allain, **The Other Man: Conversations With Graham Greene,** trans. Guido Waldman, The Bodley Head, London, 1983, p. 88.
8. **Ibid.,** p. 81.
9. **Ibid.,** p. 81.
10. The decade of course includes the less serious novels, the 'entertainments', **Loser Takes All** (1955) and **Our Man in Havana** (1958), the 1950 film script **The Third Man** and the three plays: **The Living Room** (1953), **The Potting Shed** (1957) and **The Complaisant Lover** (1959). To this list should be added **The Lost Childhood and Other Essays** (1951) and **Twenty-One Stories** (1954).
11. **Collected Essays,** Penguin edn. 1970, pp. 279-282 and pp. 284-298.
12. **Collected Essays** ("The Paradox of a Pope"), p. 297.
13. **Ibid.,** ("The Man as Pure as Lucifer"), p. 303.
14. **The Quiet American,** Penguin, 1962 (1973 reprint), pp. 95-96.
15. **The Comedians,** Penguin, 1967 (1968 reprint), p. 286.

16. **Author's Choice: Four Novels by Graham Greene,** Penguin, 1985, p. 7 (Introduction).
17. J. P. Kulshrestha, **Graham Greene: The Novelist,** Macmillan, New Delhi, 1977, p. 144. The novel was written in the wake of Greene's own periods of reporting in French Indochina.
18. **The Quiet American,** p. 187.
19. **Saints, Sinners and Comedians,** p. 218. For David Pryce-Jones "The someone .... can only be God". **Graham Greene,** Oliver and Boyd, Edinburgh and London, 1963, revised edition 1973, p. 93.
20. One feels it is not by chance that Fowler's Christian name should be that of the doubting apostle, it naturally being appropriate for the man who will not become involved. It is of interest to note that Greene himself chose the name of Thomas, "after St. Thomas the doubter", on being received into the Roman Catholic Church. See **A Sort of Life,** Penguin, 1972 (1975 reprint), p. 121.
21. On war and its brutalizing effect, Raymond Williams's first - hand testimony is noteworthy. See **Politics and Letters,** Verso, London, 1981, pp. 58-59.
22. **The Other Man,** p. 83.
23. Philip Stratford, **Faith and Fiction: Creative Process in Greene and Mauriac,** University of Notre Dame Press, Notre Dame, 1964 (paperback edition 1967), p. 312. And see Gwenn R. Boardman, **Graham Greene: The Aesthetics of Exploration,** University of Florida Press, Gainesville, 1971, p. 103.
24. **Faith and Fiction,** p. 312.
25. Fowler's attitudes to the Americans and to the French will be discussed later in this article.
26. **Faith and Fiction,** pp. 310-311
27. Molly Mahood, **The Colonial Encounter: A Reading of Six Novels,** Rex Collings, London, 1977, p. 122.
28. **Ibid.,** p. 122.
29. See, for example, **La France et son armée.** It is legitimate to assume that Trouin has been influenced by de Gaulle's work.
30. Harding's books - **The Advance of Red China, The Challenge to Democracy** and **The Role of the West** - occupy a prominent place on Pyle's bookshelves. See **Q. A.,** p. 28. On Harding's function in the novel, John Atkins writes:

"Greene's target is the superior sort of journalist who sets up as an arbiter of the international scene: 'he gets hold of an idea and then alters every situation to fit the idea' ". **Graham Greene,** Calder and Boyars, London, 1957, revised edition 1966, p. 230.

31. Sharrock, **Saints, Sinners and Comedians,** p. 207.
32. Pryce - Jones, **Graham Greene,** p. 91.
33. Sharrock, **Saints, Sinners and Comedians,** p. 218
34. **The End of the Affair** was published in 1951, while work on **The Quiet American** began in March 1952.
35. Atkins, **Graham Greene,** p. 204.
36. Stratford, **Faith and Fiction,** p. 313.
37. Cf. **The Comedians,** pp. 83, 106 and p. 134 where Señor Pineda sums up his "carpe diem" outlook on life thus: " 'Come on, cheer up, let us all be comedians together. Take one of my cigars. Help yourself at the bar....".
38. Stratford, **Faith and Fiction,** pp. 314-315.
39. See the narrator's comment on Vigot's reaction to the fly crawling over his hand: "A fly crawled over the back of his hand and he did not brush it away-any more than Dominguez would have done" **(Q.A.,** p. 168).
40. Mahood, **The Colonial Encounter,** p. 121.
41. See Greene's epigraph - taken from Hardy - to the 1973 novel. 'All things merge in one another - good into evil, generosity into justice, religion into politics...'
42. Atkins, **Graham Greene,** p. 231.
43. **Ibid.,** pp. 82-87.
44. Greene's film reviews of the period are to be found in **The Pleasure Dome: The Collected Film Criticism 1935-40,** edited by John Russell Taylor, Secker and Warburg, London, 1972.
45. **The Other Man,** p. 93.
46. **Ibid.,** p. 94.
47. It is naturally tantalizing not to have Greene's comments on the most recent developments in the former Soviet Union. It should be borne in mind, though, that he never hesitated to condemn Soviet aggression and injustice, as perusal of his letters to the press reveals. See Graham Greene, **Yours Etc.,** Penguin, 1991 (e. g. his defence of Daniel and Sinyavsky, pp. 135-137, and his expression of abhorrence over the Soviet invasion of Czechoslovakia, p. 165).